التنزيل والتأويل
(٢)

القرآن .. والبيان الشافي

رواية حول لغة القرآن الكريم وخصائص نظمه وأسلوبه وكلماته

أ.د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يستوعب ويُلخص ـ من غير إخلال ـ كل ما ورد في التراث الإسلامي من البحوث المرتبطة بالبيان القرآني، مع تبسيطها وتيسيرها وإبعاد الحشو عنها والجمع بين المدارس المختلفة في ذلك، ليكون مقدمة أساسية لفهم القرآن الكريم، وتدبر معانيه، ولذلك جعلناه الجزء الثاني من هذه السلسلة، بعد الجزء الذي ذكرنا فيه البراهين الدالة على ربانية القرآن، وكونه كلاما إلهيا.

والسبب الذي جعلنا نعطي لهذا الجانب الريادة، قبل سائر البحوث والمعاني المرتبطة بالقرآن الكريم، يرجع إلى أمور منها أن المعارف المرتبطة بالبيان القرآني تعتبر مفاتيح أساسية للتعامل معه، وفهمه واستنباط الحقائق والقيم والمعارف المختلفة منه.

ومنها أن هذه المعارف لها دور كبير في تحقيق تذوق الأسلوب القرآني وجماله، وهو ما يجعل ما يطلق عليه [الإعجاز البياني] عاما لكل العصور، بل شاملا لكل الناس.

ومنها أن أكثر الإشكالات التي وقعت في التاريخ والتراث والواقع سببها سوء الفهم للغة القرآن الكريم وتعابيره؛ فكل الانحرافات التي طالت العقيدة في الله سببها عدم مراعاة ما ورد في اللغة العربية التي جاء بها القرآن الكريم من المجاز والاستعارة والكناية والمشاكلة ونحوها.. وهكذا في كل الجوانب الأخرى.

ومنها أن أكثر الإشكالات والشبهات التي يثيرها من يطلقون على أنفسهم لقب [الحداثيين] أو [التنويريين] أو [القرآنيين] مرتبطة بالتعامل الخاطئ مع اللغة القرآنية، حيث يحملونها أحيانا كثيرة ما لا تحتمل، ولذلك كان التعرف على البيان القرآني ضروريا لمواجهة هذه التحريفات.

التنزيل والتأويل

(٢)

القرآن.. والبيان الشافي

رواية حول لغة القرآن الكريم وخصائص نظمه وأسلوبه وكلماته

أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٣ . ٢٠٢١

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة الكتاب	٨
البداية	١٣
القرآن.. واللغة المناسبة	٢١
أولا ـ الخصائص والميزات:	٢٧
ثانيا ـ شهادات منصفة:	٣٦
ثالثا ـ شبهات وردود:	٤٠
رابعا ـ شهادة الواقع:	٤٦
القرآن.. والدقة والضبط	٥٨
أولا ـ دقة الكلمات:	٦٠
١. مادة الكلمة ومعناها:	٦٦
٢. هيئة الكلمة ومعناها:	٧٤
٣. الحروف والأدوات:	٨٦
٤. أسرار التعريف والتنكير:	٩٣
ثانيا ـ دقة الجمل:	٩٨
١. أسرار التقديم والتأخير:	١٠١
أ ـ التقديم بين جزئي الجملة:	١٠١
ب ـ التقديم في المتعلقات:	١٠٤
٢. أسرار الأمر والنهي:	١١٣

أ ـ أسرار الأمر: ١١٣
ب ـ أسرار النهي: ١١٩
٣. أسرار النفي والإثبات: ١٢١
٤. أسرار الاستفهام والتعجب: ١٢٨
٥. أسرار التوكيد والقسم: ١٣٩
أ ـ أسرار التوكيد: ١٣٩
ب ـ أسرار القسم: ١٤٢
ثالثا. دقة الترتيب: ١٤٨
١. شهادات: ١٤٩
فخر الدين الرازي: ١٤٩
برهان الدين البقاعي ١٦١
أبو جعفر الغرناطي: ١٧١
عبد الحميد الفراهي: ١٨٠
سيد قطب: ١٨٣
محمد تقي المدرسي: ١٩٥
آخرون: ٢٠٩
٢.شواهد: ٢١١
أدلة: ٢١١
قواعد: ٢١٧
نماذج: ٢٢٢

رابعا. الثراء والاستيعاب: ٢٤٦
١. الوجوه والنظائر: ٢٥٠
٢. الترادف والفروق: ٢٧١
٣. التشابه والاختلاف: ٢٨٨
٤ ـ الإحصاء والاستيعاب: ٣٢٣
القرآن.. والوضوح والتقريب ٣٥١
أولا ـ أسرار التشبيه والتمثيل: ٣٥٥
١. خصائص التشبيه: ٣٥٧
٢. أغراض التشبيه: ٣٧١
٣. أدوات التشبيه: ٣٧٨
٤. أمثال قرآنية: ٣٨٤
ثانيا ـ أسرار المجاز والاستعارة: ٤٠٧
١. أسرار المجاز: ٤١٠
٢. أسرار الاستعارة: ٤١٣
ثالثا ـ أسرار الكناية والإشارة: ٤٢١
١. أسرار الكناية: ٤٢٣
٢. أسرار الإشارة: ٤٣٣
رابعا ـ أسرار التصوير والتخييل: ٤٣٥
١ ـ الصورة القرآنية ومعرفة الكون: ٤٤٦
٢ ـ الصورة القرآنية ومعرفة الإنسان: ٤٥٨

٣ ـ الصورة القرآنية ومعرفة الحياة: ٤٧٢
القرآن.. والحسن والجمال ٤٨٥
أولا. معان غير مقصودة: ٤٨٨
١. المشاكلة والمقابلة: ٤٨٨
٢. التورية والستر: ٤٩٢
٣. التهكم والسخرية: ٤٩٤
٤. التسليم الجدلي: ٤٩٩
٥. المدح والذم: ٥٠٣
ثانيا. الالتفات والاعتراض: ٥٠٤
١. أغراض الالتفات: ٥٠٥
٢. صيغ الالتفات: ٥٠٨
ثالثا. الإيجاز والاختصار: ٥٢١
١ ـ إيجاز القصر: ٥٢٢
٢ ـ إيجاز الحذف: ٥٣٥
أ ـ حدف الحروف: ٥٣٦
ب ـ حذف الكلمات: ٥٤١
ج ـ حذف الجمل: ٥٦٠
رابعا. الإطناب والتفصيل: ٥٦٥
١. الاعتراض: ٥٦٩
٢. الاحتراس: ٥٧٣

٣. التذييل: ٥٧٦

٤. التتميم: ٥٧٨

٥. التعليل: ٥٧٨

خامسا ـ التكرار والتثبيت: ٥٨٥

١. تكرار الألفاظ: ٥٨٧

٢. تكرار المعاني: ٥٩٨

سادسا ـ التناسب والانسجام: ٦٠٧

١. التناسب والتلاؤم: ٦٠٨

٢. الانسجام والتناسق: ٦١٧

سابعا ـ الجناس والطباق: ٦٢٦

١. الجناس: ٦٢٦

٢. الطباق: ٦٣٢

ثامنا ـ النظم المعجز: ٦٣٩

١. الألفاظ المختارة: ٦٤٤

٢. الآيات المحكمة: ٦٦٨

٣. الفواصل الجميلة: ٦٧٧

٤. السور الشريفة: ٦٩٤

تاسعا ـ النغم والموسيقى: ٧٠٩

١. شهادات: ٧١٠

مصطفى محمود: ٧١٠

سيد قطب: ٧١٥
مصطفى صادق الرافعي: ٧٢٢
محمد بن عبد الله دراز: ٧٢٦
علماء قدامى: ٧٢٨
٢. شواهد: ٧٣١
أ ـ موسيقى الحروف القرآنية: ٧٣٢
ب ـ موسيقى الكلمات القرآنية: ٧٣٦
ج ـ موسيقى الجمل والمقاطع القرآنية: ٧٤٢
عاشرا ـ الإبداع الشامل: ٧٤٨
١. الإبداع والتذوق: ٧٥٠
٢. الإبداع والشهود: ٧٧٦
٣. الإبداع والإثارة: ٧٩١
النهاية ٨٠٠
هذا الكتاب ٨٠٤

مقدمة الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يستوعب ويُلخص ـ من غير إخلال ـ كل ما ورد في التراث الإسلامي من البحوث المرتبطة بالبيان القرآني، مع تبسيطها وتيسيرها وإبعاد الحشو عنها والجمع بين المدارس المختلفة في ذلك، ليكون مقدمة أساسية لفهم القرآن الكريم، وتدبر معانيه، ولذلك جعلناه الجزء الثاني من هذه السلسلة، بعد الجزء الذي ذكرنا فيه البراهين الدالة على ربانية القرآن، وكونه كلاما إلهيا.

والسبب الذي جعلنا نعطي لهذا الجانب الريادة، قبل سائر البحوث والمعاني المرتبطة بالقرآن الكريم، يرجع إلى أمور متعددة، منها:

أولا ـ أن المعارف المرتبطة بالبيان القرآني تعتبر مفاتيح أساسية للتعامل معه، وفهمه واستنباط الحقائق والقيم والمعارف المختلفة منه، وهو ما ييسر تحقيق الأمر الوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهَّ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]

ثانيا ـ أن هذه المعارف لها دور كبير في تحقيق تذوق الأسلوب القرآني وجماله، وهو ما يجعل ما يطلق عليه [الإعجاز البياني] عاما لكل العصور، بل شاملا لكل الناس، حتى الأعاجم منهم، ولذلك لا غرابة أن يكون أكثر من كتب في هذا النوع من الإعجاز من غير العرب.. فالتذوق قد يكتسب بالتبحر في اللغة، واكتشاف أسرار جمالها.

ثالثا ـ أن أكثر الإشكالات التي وقعت في التاريخ والتراث والواقع سببها سوء الفهم للغة القرآن الكريم وتعابيره؛ فكل الانحرافات التي طالت العقيدة في الله سببها عدم مراعاة ما ورد في اللغة العربية التي جاء بها القرآن الكريم من المجاز والاستعارة والكناية والمشاكلة

ونحوها.. وهكذا في كل الجوانب الأخرى.

رابعا ـ أن أكثر الإشكالات والشبهات التي يثيرها من يطلقون على أنفسهم لقب [الحداثيين] أو [التنويريين] أو [القرآنيين] مرتبطة بالتعامل الخاطئ مع اللغة القرآنية، حيث يحملونها أحيانا كثيرة ما لا تحتمل، ولذلك كان التعرف على البيان القرآني ضروريا لمواجهة هذه التحريفات.

وبناء على هذا قدمنا هذا الكتاب على غيره من المواضيع التي تهتم بها عادة الدراسات القرآنية، وقد حاولنا أن نراعي فيه ما شرطناه على أنفسنا في هذه السلسلة، فلذلك حاولنا أن نلتزم فيه بما يلي:

١. الاستيعاب: أي استيعاب كل ما كتب في هذه الجوانب من المعاني، من حيث الجملة، لا من حيث التفاصيل.. فعندما نتحدث عن مجاز القرآن الكريم مثلا نشرحه ونذكر الأمثلة الكثيرة عنه، من غير أن نستوعب كل ما ورد فيه من آيات المجاز، لأن ذلك مستحيل أن يجمع في كتاب واحد.

٢. التنوع: ونقصد به إيراد المعاني، ولو من الجهات المختلفة المتعارضة.. فعندما تحدثنا ـ مثلا ـ عن أنواع التحسينات الإبداعية، اعتمدنا على المصادر المختلفة في ذلك، سواء القديمة أو الحديثة منها، والتي قد يبدو في بعض الأحيان التعارض بينها.. إلا أنا لم نشر إلى ذلك التعارض، بل لم نشر إلى تلك المدارس أصلا، فاهتمامنا فقط بالفهوم المرتبطة بالقرآن الكريم، لا بأصحاب تلك الفهوم، مع التوثيق طبعا لها.

٣. التبسيط: وهو من أهم أهدافنا في هذه السلسلة، لأن الغرض منها أن توصل المعارف القرآنية لعامة الناس وخاصتهم.. ومن المتخصصين وغيرهم.. ولذلك ابتعدنا قدر الإمكان عن الكثير من التفاصيل العلمية التي لا حاجة لها، وخاصة تلك التي تربط البيان

القرآني بالأدب العربي نثره وشعره؛ فلذلك اكتفينا بالأمثلة القرآنية، وأكثرنا منها، بحيث يتيسر الفهم بها، وبكل يسر وبساطة، حتى للذين لم يدرسوا المبادئ الأساسية للغة العربية.

٤. **التدريب**: أي تدريب القارئ على استنباط المعاني واللطائف القرآنية، ولذلك جمعنا في الكتاب مئات اللطائف القرآنية، لما لها من التأثير الذوقي، بالإضافة إلى دورها في الدعوة للتدبر لاستنباط المزيد منها.

٥. **التوثيق**: ذلك أن هذا الجزء يدخل ضمن ما أطلقنا عليه [التأويل التدبري]، وهو التأويل المرتبط بالفهوم والاستنباطات الاجتهادية، ولذلك وثقنا كل فهم ـ لكن في الهوامش، لا في الأصل ـ حتى لا يبتعد القارئ عن القرآن الكريم، وينشغل بأصحاب الفهوم، ولذلك لم نتبن تلك الرؤية التي تعتمد دراسة البيان القرآني عند الزمخشري أو الرماني أو الباقلاني.. أو غيرهم من القدامى والمحدثين.. وهو ما جعلنا في عودتنا لتلك المراجع نهتم بلبابها، وهو المعاني الواردة والأمثلة الدالة عليها بعيدا عن أصحابها، مع التوثيق طبعا لمن قالوا في الهامش.

وننبه إلى أننا ـ بعد البحث الطويل في المصادر والمراجع ـ وجدنا بعض المصادر والمراجع الأساسية، ذات اللغة الجميلة البسيطة، ولذلك ركزنا عليها، وكان أكثر اقتباساتنا منها، مع التصرف طبعا في نصوصها، بحيث تتناسب مع ما راعيناه من التبسيط والبعد عن الحشو ونحوهما.

وقد آثرنا أن نتشدد في التوثيق في كل محل ليسهل على الباحثين الرجوع للمصادر والمراجع بكل سهولة ويسر، ولذلك لم نعتمد الإحالة على [المرجع السابق]، بل كررنا ذكر اسم المرجع، حتى لا يضطر القارئ أو الباحث إلى تقليب الصفحات للبحث عن ذلك المرجع.

وننبه إلى أننا لم نضع النصوص المقتبسة بين قوسين، كما جرت العادة بذلك، بل وضعناه بجانب قول القائل، وذلك حتى لا ينشغل القارئ بالنصوص عن المعنى، وخاصة مع وضوحها، بالإضافة إلى أننا مزجناها بحديثنا، وبأحداث الرواية.. ولذلك كان التوثيق دالا على مصدر المعلومة، لا نصها.

٦. التحبيب: وهو هدفنا الأكبر في هذه السلسلة، وهو تحبيب القرآن الكريم لقارئيه، ولذلك اجتهدنا قدر الإمكان في ربط هذه المعاني بكل ما يدل على سموها وكمالها وجمالها، بالإضافة إلى الأحداث والشخصيات التي تحاول أن تصور ذلك كله، مما أطلقنا عليه [التأويل العملي].. وهو ما سيراه القارئ في الكتاب من أحداث وأبطال، حيث جعلناهم من جهات مختلفة، بالإضافة إلى أنهم من أصحاب حرف وهوايات متعددة، والجميع يجمعهم القرآن الكريم.

بناء على هذا كله قسمنا الكتاب إلى أربعة فصول:

تناولنا في **الفصل الأول**، سر اختيار الله تعالى للغة العربية ليصيغ بها كلماته المقدسة المنزهة عن الأصوات والحروف، وقد بينا ميزات هذه اللغة الفريدة، كما بينا دور القرآن الكريم في تطويرها لتتناسب مع كلماته المقدسة.

وتناولنا في **الفصل الثاني**، ما يرتبط بدقة القرآن الكريم وضبطه، سواء من ناحية كلماته وألفاظه، أو من ناحية جمله وتراكيبه، أو من ناحية الترتيب والاستيعاب الوارد في كلماته أو آياته أو سوره.

وتناولنا في **الفصل الثالث**، ما يرتبط بما اعتمد القرآن الكريم من أساليب للتوضيح والتقريب والتصوير، وقد تناولنا فيه كل ما يذكر عادة في أبواب البيان، مع إضافة ما يذكر في الدراسات الحديثة، وخصوصا ما يتعلق منها بالتصوير الفني.

وتناولنا في **الفصل الرابع**، ما يرتبط بالحسن والجمال والإبداع القرآني، وهو أطول الفصول، وأكثرها أمثلة، والغرض منه ليس تذوق الجمال القرآني فقط، وإنما تيسير فهمه؛ فالمحسنات البديعية القرآنية، ليست مجرد طلاء جميل، وإنما تختزن الكثير من المعاني التي لا يمكن تدبر القرآن الكريم من دون تحليلها وفهمها.. وقد جمعنا فيه أيضا بين الدراسات القديمة والحديثة، لأنه لا تناقض بينها، كما يتوهم البعض، بل لكل محله وأهله.

البداية

بعد أن طلب مني معلمي معلم القرآن الاستعداد للسفر للرحلة الخاصة بتعلم العلوم المرتبطة بالبيان القرآني، رحت أجمع كل ما كُتب حول الموضوع من دراسات وتفاسير، قديمها وحديثها، وأحاول كل جهدي فهمها واستيعابها.

لكني مع احترامي لكل ما كُتب فيها، وإعجابي بالمؤلفين الذين بذلوا كل جهودهم في ذلك، وجدت أن أكثرها مما يصعب على أمثالي من العوام أو أنصاف المثقفين فهمه، أو إدراك عمقه، أو التأثر له، أو الانبهار بسببه لما في القرآن الكريم من معجزات البيان، التي شهد له بها الجميع.

بل وجدت في بعض المحال جدلا وصراعا يصرف عن القرآن، أكثر مما يقرب منه، أو يحببه، أو يدعو إلى التأمل فيه، أو الاستفادة منه.

ووجدت بعد ذلك كله الكثير من المصطلحات الغريبة، التي يحتاج القارئ إلى دراسة تفاصيلها الكثيرة، والتي لا يمكن أن تُنال بالجهود العصامية الفردية، وإنما تحتاج إلى المدارس والمعلمين والأساتذة.

وهذا ما جعلني أشعر بالرعب من الرحلة التي تنتظرني.. والتي قد لا يستطيع عقلي البسيط المحدود أن يستوعبها بدقة.. وهو ما أثار في مخاوف كثيرة من الفشل في مهمتي، والذي قد يتسبب في حرماني من أي رحلة أخرى.

بينما أنا في تلك الآلام النفسية الشديدة إذا بي أجد نفسي وسط كومة من النور.. لست أدري محلها من هذا الكون، أو هذه الأرض.. لأني لم أر مثلها في حياتي، لا في الواقع، ولا في الصور الفلكية التي كنت أهتم بالنظر فيها.

وفجأة، رأيت أشكالا لحروف كثيرة، تأتي من محال مختلفة، تجتمع ثم لا تلبث أن تتفرق، لتشكل تجمعات أخرى.. وكان النور يزداد أو ينقص بحسب تلك التجمعات.

بينما أنا في دهشتي، رأيت شخصا لا يختلف عن سائر المعلمين الذين تشرفت بصحبتهم؛ فسررت كثيرا، وقلت ـ من حيث لا أشعر ـ: مرحبا بمعلمي الجديد.. أظن أنك معلم البيان.. وقد أرسلك لي معلم القرآن، كما وعدني بذلك سابقا.

قال: مرحبا بك.. أجل.. فلا يتعلم القرآن من لا يتعلم البيان.

قلت: صحيح ما تقول.. ولهذا قرن الله تعالى بين القرآن وعلم البيان، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]

قال: بل إن الله تعالى قرن خلق الإنسان بعلم البيان، لأنه لا يمكن للإنسان أن يكون إنسانا بلا بيان.. فبالبيان يفهم الحقائق، وبه يعبر عنها.

قلت: أجل.. ولهذا يعرّفون الإنسان بكونه حيوانا ناطقا.. فلولا النطق ما حصل التواصل، ولا التعلم، ولا التعليم.. ولا التزكية، ولا الترقية.. ولكان الإنسان أشبه بحيوانات الغاب التي لم تتعد أطوار بهيميتها.

قال: أجل.. فالبيان ركن من أركان الإنسان.. وهو سر من أسرار خلافته وتكريمه.

قلت: أجل.. لقد أشار الله تعالى إلى ذلك عندما حكى لنا قصة آدم عليه السلام، فقد أخبر عما وهبه له من المواهب التي أهلته للتعبير عن أسماء الأشياء، فقال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]

قال: وهو سر من أسرار كل الأكوان.. فليس البيان خاصا بالإنسان.

قلت: لم أفهم.. هل تريد أن تمحو كل ما كنا نذكره؟

قال: لكل كون بيانه الخاص.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]؟

قلت: بلى.. وقد سمعت معه حوار الله مع الكون في بدء خلقه، فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]

وسمعت حوار الهدهد مع سليمان، وقوله له بلسان فصيح ـ كما قال الله تعالى ـ: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ الله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢-٢٦]

وسمعت حوار النملة مع أخواتها، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]

قال: الله تعالى أرحم وأكرم من أن يخلق خلقا، ثم لا يرزقه البيان.. فالبيان مرتبط بالأكوان، كما هو مرتبط بالإنسان.. ونعمة الله التي تجلت للإنسان، هي نفسها التي تجلت للأكوان.

قلت: فلم كان للإنسان ذلك التكريم الخاص إذن؟

قال: لقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]

قلت: هل تقصد الأسماء كلها؟

قال: أقصد القابلية للأسماء كلها.. فشرف كل شيء وكراماته بحسب الاستعدادات والقابليات المتاحة له.. أليست قيم الأشياء عندكم في حياتكم الدنيا مرتبطة بذلك؟

قلت: بلى.. فنحن نقدر الأشياء بحسب خصائصها وقدراتها وقابلياتها.. فكلما كانت الخصائص والقدرات أكبر، كلما كان شرفها وقيمتها أعظم.

قال: فقد وعيت إذن قيمة البيان.

قلت: بلى.. ويشرفني كثيرا أن أتتلمذ على يديك.. فهلم أخبرني عن مخطط رحلتنا، فقد كان معلمي ـ معلم السلام ـ يذكر لي ذلك في بداية كل حديث لي معه.. فهو يبدأ بالجملة، ثم ننتقل بعدها للتفصيل.

قال: أنا لن أحدثك عن كل البيان.. فذلك ليس من شأنك.. وإنما سأحدثك بما أذن لي فيه معلم القرآن.

قلت: أجل.. أنت ستحدثني ـ كما ذكر لي معلمي ـ عن [القرآن.. والبيان الشافي]

قال: فهل تعرف الأركان التي يتأسس عليها البيان الشافي؟

قلت: أعرف أنها أربعة.. ولكني لا أعرف ماهيتها ولا حقائقها.

قال: فكيف عرفت أنها أربع؟

قلت: من خلال مصاحبتي الطويلة مع معلمي معلم السلام عرفت أن الأركان لا تكون ـ في العادة أو الأغلب ـ إلا أربع.

قال: فرحلتك إذن ستكون لأربع محال كبرى، لم تتحقق لكتاب في الدنيا كما تحققت للقرآن الكريم؛ فلذلك كان وحده المتصف بالبيان الشافي.

قلت: فما أولها؟

قال: اللغة المناسبة.. فاللغة وعاء البيان.. وبقدر سعتها ودقتها ووضوحها وجمالها، بقدر ما يكون البيان واسعا ودقيقا وواضحا وجميلا.

قلت: وعيت هذا.. فأنت تقصد اللغة العربية التي شرفها الله بأن تكون لسانا معبرا عن كلمات الله المقدسة، كما ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

قال: ولذلك كانت معرفتها شرطا لكل من يريد أن يتذوق البيان القرآني.. فلا يمكن لترجمات القرآن أن تفي بذلك.

قلت: أجل.. فما الثاني؟

قال: الدقة والضبط.. فلا يمكن أن يؤدي البيان دوره في ذهنك وحياتك ما لم يكن دقيقا مضبوطا محكما حتى لا يُساء فهمه.

قلت: وعيت هذا.. وقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].. فما الثالث؟

قال: الوضوح والجلاء والظهور والكشف التام.

قلت: وعيت هذا.. فالغموض والخفاء واللبس مضادة للبيان، ومتناقضة معه.. وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].. فما الرابع؟

قال: الجمال والحسن والجاذبية.

قلت: لا شك أن هذه من المكملات؛ فقد يحصل البيان من دونها.

قال: أجل.. هي من المكملات في كل الدنيا إلا القرآن الكريم، فهي ركن فيه، وفي كل حروفه وكلماته..

قلت: أجل.. ولذلك بهر العقول والقلوب بجماله وكماله..

قال: وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].. فغرض التيسير الادكار والوعي والتدبر.

قلت: وعيت هذا.. فهل ستكون رحلتي لكل هذه المعاني؟

قال: ستكون رحلتك للبيان والقرآن.. لا للبيان المجرد.

قلت: أجل.. فما أعظم أن يجتمع لي في رحلتي كلا المعنيين.. فأنا عاشق للقرآن، وعاشق للبيان.

التفت إلى ما حولي من الأنوار التي تجتمع وتفترق.. فقلت: لكن أين أنا.. فلم أر في حياتي مثل هذه العوالم العجيبة؟

قال: أنت في عالم البيان..

قلت: أليس هو من عالم الأكوان؟

قال: بلى.. فكل شيء صادر من ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].. والله الذي خلق عالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان.. هو الذي خلق عالم البيان.

قلت: ولكني أرى صورته مختلفة تماما عن كل ما رأيته في حياتي من عوالم؟

قال: أنت كنت تسمع البيان، ولم تكن تراه.. وفرق كبير بين أن ترى وأن تسمع.. فلكل حاسة عالمها الخاص بها.

قلت: هل تقصد أن الله تعالى جلى لبصري ما كان جليا لسمعي؟

قال: بل جلى لبصيرتك ما كان جليا لسمعك.. فالبصر لا يطيق أن يرى ما هو خارج

عالمه.

قلت: والبصيرة؟

قال: بالبصيرة يمكنك أن تسمع وأن ترى الحقائق.. بل يمكنك أن تتذوقها.. ولكن في عالمها المثالي الجميل الخاص بها.

قلت: أجل.. وقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]

قال: البصائر هي سلم الحقائق.. ومن لا بصيرة له يشم الحقائق من بعيد، ولا يراها.. أو قد يراها، ولكنها بصورة مختلفة تماما عن حقيقتها.

قلت: وعيت هذا.. ولكن ما سر اجتماع تلك الأنوار وتفرقها.. ثم تغير كل ما حولي بسبب ذلك الاجتماع والتفرق؟

قال: تلك الأنوار هي الحروف.. وباجتماعها تتشكل الكلمات.. وبالكلمات تتنزل الأنوار أو الظلمات.

قلت: لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦]

قال: فلذلك كانت الكلمة الطيبة أشرف أعمالك.. والكلمة الخبيثة أرذلها.

قلت: وعيت هذا.. ولا أحسبني أجادلك فيه.. لكن أخبرني عن سر كلام الله لعباده.. ذلك الذي أشار إليه قوله تعالى عند ذكره لوحيه لأنبيائه عليهم السلام: ﴿وَمَا كَانَ

لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].. فهل كلام الله متشكل من الحروف والأصوات مثل كلامنا؟

قال: الله أعظم من أن يفتقر للحروف والأصوات ليتكلم.. فهو الغني المطلق.

قلت: ولكنا لا نعرف الكلام إلا حروفا وأصواتا.

قال: الحروف والأصوات من الكلام.. وليست كل الكلام.. ألست تتحدث في نفسك وفي أحلامك من غير أن تتحرك شفتاك أو تسمع أذناك؟

قلت: بلى.. فهل تقصد أن كلام الله من هذا النوع؟

قال: كما أن الله لا يمكن وصفه؛ فكذلك كلماته.. ألم يخبرك معلم الإيمان أن حظنا من معرفة الله العجز عن معرفته؟

قلت: بلى.. وقد أخبرني عن الجمال واللذة التي يحويها ذلك العجز.. فهو الذي يملأ النفس بالطمأنينة والسعادة، ذلك أنها لا تستقر عند المحدود المقيد، بل هي تطلب العظمة المطلقة المنزهة عن كل نقص، والتي لا تجدها إلا عند الله.

القرآن.. واللغة المناسبة

ما قلت هذا، حتى وجدت نفسي في مدرسة عتيقة.. وبين طلاب كثيرين يحملون المحابر والقراطيس والأقلام القديمة، ويتجمع كل فريق منهم أمام أستاذ من الأساتذة.

وقد ازداد عجبي بعد أن سمعت بعضهم يتحدث إلى زميله بالفارسية، وآخر بالأوردية، وآخر بالكردية.. مع أن الجميع كانوا يكتبون بالحروف العربية، ويتقنون الحديث بها.

اقتربت من أحدهم، وقلت: عجبا لك، ولهمتك الدنية.. كيف تترك لسانك العربي المبين لتتحدث بألسنة أخرى؟

قال: لقد شاء الله للساني أن ينشأ في بيئة لا تعرف اللغة العربية.. وقد رضيت بذلك، وحمدت الله عليه.. فالله أعلم بمصالحي مني.. وقد قال في كتابه العزيز: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]

لكني مع ذلك، وبعد أن بلغت رشدي، وعلمت أن وحي الله المقدس الأخير للبشرية قد تنزل باللغة العربية، رحت أبذل كل جهدي في تعلمها..

قلت: ولم عانيت كل هذا؟.. كان يكفيك أن تقرأ القرآن بلغة أهل بلدك؛ فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.. ولا يكلفها إلا ما آتاها.

قال: وأنا قد فعلت ذلك.. فقد آتاني الله القدرة على التعلم.. ووفر لنفسي القابلية لذلك.. وأضاف إليها العشق والهيام والمحبة.

قلت: محبة القرآن الكريم.. أم محبة اللغة العربية؟

قال: كلاهما.. فيستحيل على القلب الذي أحب كلام ربه، ألا يحب اللغة التي تنزل

بها.. فالمحب يحب كل ما يرتبط بمحبوبه.. وكاذب في دعوى المحبة من لم يكن كذلك.

قلت: إن ما تقوله يكلف الخلق شططا.. فالله لم يأمر أحدا بتعلم اللغة العربية.

قال: الأمر لا يحتاج إلى أمر.. والمحب لا يحتاج إلى أن يعرف ما يحب محبوبه.. أذكر أني في صباي الباكر، وبمجرد أن قرأت ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تتحدث عن نزوله باللغة العربية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]

بمجرد أن قرأت هذه الآيات الكريمة، تحرك الشوق في قلبي إليها.. فرحت إلى أهلي أطلب منهم أن يدلوني على من يعلمني هذه اللغة التي تقدست بذكر الله لها؛ فطلبوا مني أن أتمهل إلى أن يخضر عودي، وتصبح لدي القدرة على السفر.. ومنذ حلت في تلك القدرة، حزمت أمتعة سفري.. والحمد لله ها قد رزقني الله ما طلبته.. فصرت أتذوق اللغة العربية، وأشعر بلذة كلمات ربي المقدس.. بل أشعر بإعجازها.

قلت: صدقت.. فكلامك باللغة العربية يوحي بأنك من أهلها.. ولهذا توهمت أنك من العرب الذين زهدوا في لغتهم.

قال: عجبا لما تقول.. وهل هناك من يزهد في لغة كتابه المقدس؟

قلت: ألست تسمع بالذين يرطنون بالفرنسية والإنجليزية، يخلطون بها لغتهم العربية، لا لشيء إلا ليفخروا بذلك على أقرانهم؟

قال: ما تقصد بالفرنسية والإنجليزية؟.. لم أسمع بهما؟

قلت: عجبا لك.. ألم تشاهد على القنوات الفضائية العرب وهم يلهثون وراء

اللغات الأعجمية، لا ليستفيدوا من علومها، وإنما ليتباهوا، ويتفاخروا بها؟

قال: أظنك تتحدث عن زمانك.. وقد سمعنا في النبوءات ما يشير إليه.

قلت: في أي زمان أنت؟.. ألست في القرن الخامس عشر من الهجرة؟

قال: لا.. أنا لا أزال متأخرا جدا عن زمانكم.. أنا في القرون الأولى من الهجرة.

قلت: ومن أراهم.. هل هم جميعا من أهل زمانك؟

قال: أنا لا أهتم بسؤال غيري عن شؤونه الخاصة.. علاقتي بكل من حولي ترتبط بالقرآن، ولغة القرآن.. هكذا علمنا معلم القرآن.

قلت: ومن هؤلاء الأساتذة الذين يتجمع حولهم من أراهم من التلاميذ؟

قال: هم أساتذتي.. وقد تشرفت بالتلمذة عليهم جميعا.

قلت: هلا ذكرت لي أسماءهم.. فلعلي أعرف بعضهم.

قال: أولهم ذاك الذي تراني أجلس في حلقته.. إنه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر.. ونحن نناديه بـ [سيبويه].. وأصله من قرية البيضاء بشيراز.. وهي قريبة من البلاد التي وفدت منها.

قلت: أعرفه جيدا.. وهل هناك من لا يعرف سيبويه.. إنه إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو وفصله، وهو صاحب كتاب [الكتاب] الذي يعتبر بحق أول كتاب أُلف في النحو العربي.. ولذلك يعتبره الكثيرون مؤسسه أو مطوره.

قال: ولذلك ترى تلاميذه من كل أنحاء العالم، ومن كل العصور.. فقد بارك الله فيه وفي كتبه، بسبب ما قدمه للغة القرآن الكريم.

قلت: أجل.. فكل من خدم القرآن خدمته الدنيا بما فيها.. فأخبرني عن ذلك الأستاذ الذي يجلس في الناحية الأخرى.

قال: هو أبو الفتح، عثمان بن جِنّي الموصلي.. لقد ذكر لنا أن أباه (جني) كان عبداً روميّاً مملوكاً لبعض الموصليين.

قلت: أعرفه جيدا.. إنه صاحب كتاب الخصائص، وسر صناعة الإعراب، وغيرها.. وهو من كبار الذين قدموا للغة العربية كل ما أمكنهم من خدمات.. ولا يزال أهل عصرنا يتتلمذون على كتبه مثل سائر العصور.

أشار إلى أستاذ آخر، وقال: وذاك الذي تراه جالسا هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان، ونحن نناديه [أبا علي الفارسي]

قلت: أعرفه جيدا.. إنه من كبار علماء العربيَّة في القرن الرابع الهجري، وأنْحى مَن جاء بعد سيبويه، وقد ترك تراثا حافلا في العلوم اللغوية، منها كتابه [التذكرة] في علوم العربية، في عشرين مجلداً، ومنها [تعاليق سيبويه]، ومنها [الحجة] في عِلل القراءات، ومنها [جواهر النحو]، ومنها [العوامل] في النحو.. وغيرها.

أشار إلى أستاذ آخر، وقال: وذاك أحمد بن فارس بن زكريا.. ونحن نناديه أبا الحسين الرَّازيُّ القزويني.

قلت: أعرفه إنه صاحب كتب كثيرة في اللغة العربية، منها: المجمل، ومتخير الألفاظ، وفقه اللغة، وغريب إعراب القرآن، ومقدمة في النحو، ومقاييس اللغة.. وغيرها كثير.

أشار إلى أستاذ آخر، وقال: وذاك أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري.. ونحن نطلق عليه لقب [جار الله الزمخشري]، لأنه سافر إلى مكة، وسكن بها زماناً.

قلت: أعرفه جيدا.. إنه إمام من أئمة التفسير والنحو واللغة وعلم البيان..وهو صاحب [الكشاف] في بلاغة القرآن الكريم وتراكيبه اللغوية.. وصاحب معجم [أساس

البلاغة] الذي يُعد بحق أعظم قواميس اللغة العربية، لاحتوائه على التعابير البليغة عند العرب، والمجازات اللغوية والمزايا الأدبية، بالإضافة لتفريقه بين الحقيقة والمجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً.

أشار إلى أستاذ آخر، وقال: وذاك أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني.. لقد قدم من جرجان لهذه المدرسة منذ فترة طويلة.

قلت: أعرفه جيدا.. إنه ـ بحق ـ مؤسس علم البلاغة؛ فكتاباه [أسرار البلاغة] و[دلائل الإعجاز] من الكتب الرائدة فيها.

أشار إلى أستاذ آخر، وقال: وذاك مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي.. قدم من فيروز آباد، وهي مدينة جنوب شيراز..

قلت: أعرفه جيدا، إنه صاحب [القاموس المحيط]، بالإضافة لكتب أخرى كثيرة، خدم بها اللغة العربية أعظم خدمة.

بعد أن عرفني على الكثير من الأساتذة الذين يدرّسون في تلك المدرسة العتيقة، مما لا يسع هذا المقام لذكرهم، سألته: أرى أن معظم أساتذة هذه المدرسة، إن لم نقل كلهم من الأعاجم.. فما السر في تركهم الكتابة في علوم لغاتهم، والكتابة في علوم لغة العرب؟

قال: اللغة العربية أعظم وأكرم من أن تكون لغة العرب.. إنها لغة القرآن الكريم.. والقرآن لا يحصره المكان، ولا يحده الزمان.. ولذلك ترانا جميعا ـ تلاميذ أو أساتذة ـ وإن كنا قد نشأنا في بلاد أعجمية، وتكلمنا بألسنتها ـ إلا أنا نفخر بعربيتنا التي اكتسبناها، أكثر من فخرنا باللغات التي ورثناها.

قلت: بورك فيك.. ليت قومي يسمعون.. لقد ذكرني كلامك هذا بما ورد في الحديث أن قيس بن مطاطية جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي،

فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هذا؛ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ تلبيبه ثم أتى به النبي ﷺ، فأخبره بمقالته فقام النبي ﷺ قائما يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي أن الصلاة جامعة، وقال: (يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي)[1]

قال: بورك فيك.. ولذلك أخبر أولئك الذين يفخرون علينا بعرقهم العربي بأن العربية لمن يهتم بها، ويقدسها، ويتعلمها، لا لمن انتسب لها زورا وبهتانا.

قلت: لا حاجة لهم إلى إخباري.. فقد أخبرهم رسول الله ﷺ، بل حذرهم، فقال في أكبر تجمع عرفه ﷺ في حياته، وفي خطبة تسمى خطبة الوداع: (يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].. ثم قال بعدها: ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (فليبلغ الشاهد الغائب)[2]

وقد أخبر ﷺ عن مصير الأعراق التي يتفانى البشر في اعتبارها، فقال: (إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، أين المتقون؟)[3]

قال: وهذا ما رغبنا معشر الأعاجم، وفي كل عصور التاريخ في القرآن الكريم، وفي تعلم لغته.. فقد وجدنا القرآن الكريم كتابا يتعالى على القوميات والأعراق والأوطان.. فهو يخاطب البشر، باعتبارهم بني آدم، لا باعتبارهم أبناء أي عرق من الأعراق، ولذلك

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ٤٠٧)

(٢) أحمد في المسند (٢٤٢٠٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)، وتحف العقول: ٣٤، بحار الأنوار ٧٦: ٣٥٠، ح ١٣..

(٣) الحاكم (٢/ ٤٦٣)

كان تعلمنا للغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، لا باعتبارها لغة العرب.. فالعرب جنس من الأجناس، وهم إخوتنا في الإنسانية، لا يفضلون علينا، ولا نفضل عليهم.

أولا ـ الخصائص والميزات:

ما بلغ حديثنا هذا الموضع، حتى رأيتني قد خرجت من ذلك المحل الذي كنت فيه، لأجد نفسي بدله أمام عمارة عصرية، كُتب على بابها [الهيئة العامة لتطوير العلوم]، وقد احترت كثيرا في سبب تواجدي أمامها، لأني لم أر لها في ذلك الحين أي علاقة بالبيان، ولا بالقرآن.

لكن رجلا ربت على كتفي، وهو يقول: وكيف لا تكون لها علاقة بالقرآن والبيان، وهي لها علاقة باللغة العربية؟.. أليست اللغة العربية هي الوعاء الذي اتسع للقرآن، ولا يمكن فهم القرآن، ولا تذوقه من دونها؟

قلت: بلى.. ولكني لم أر لها أيضا أي علاقة باللغة العربية.. فما علاقة تطوير العلوم باللغة العربية؟

قال: هلم معي.. فأنا عبد المعز.. وعضو في هذه الهيئة.. وقد سماني معلمي بذلك، لأن وظيفتي وتكليفي الشرعي قاصر على الدعوة إلى إعزاز ما أعزه الله.. واللغة العربية مما أعزه الله؛ فإعزازها إعزاز لشعائر الله، وتعظيم لها، وإذلالها إذلال لشعائر الله، وتحقير لها.

قلت: إلى أين تريد أن تسير بي؟

قال: لدي اليوم مداخلة أرد فيها على أولئك الذين يتوهمون أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة التطور العلمي والحياتي الحديث..

قلت: أهناك من يجادل في ذلك؟

قال: بل ما أكثر من يجادل في ذلك.. وستراهم وتسمعهم.

قلت: أخشى ألا أصبر عليهم.. فأنا لا أطيق أن أرى من يمتهن العربية أو يحتقرها، أو يعتبرها أدنى من غيرها من اللغات.. بل لا أطيق حتى الذي يساويها بغيرها.. فأين غيرها منها؟

قال: لا تخف.. فلدي رفاق سيعينوني في هذا.. وهم سيحضرون الجلسة، وقد خططنا لمجلسنا هذا خطة دقيقة ومدروسة، وستؤتي ثمارها بتوفيق الله وفضله.

قلت: فهلا ذكرتها لي، لعلي أستفيد منها، أو يستفيد منها غيري إذا سجلتها.

قال: لقد علمنا أن المعارضين لتعليم العلوم باللغة العربية تابعون نفسيا للمستعمرين الذين استعمروا بلادنا، وفرضوا لغتهم علينا؛ فلذلك يرون أنفسهم ولغتهم أحط شأنا من أن تُعلم بها العلوم.. ولهذا كانوا ينكرون علينا عندما كنا نذكر لهم ما قال علماء المسلمين في فضل اللغة العربية وخصائصها، بل ويسخرون منا.. وقد استبدلنا ذلك اليوم بذكر ما قاله غير المسلمين، وخاصة من البلاد الأوروبية.. لأنهم يسلّمون لهم، ويخضعون لشهاداتهم.

قلت: فهل تأذن لي أن أشارككم خطتكم؛ فأنا أحفظ الكثير مما قيل في فضل اللغة العربية وكمالها وتميزها عن سائر اللغات؟

ابتسم، وقال: إن استطعت أن تتحدث؛ فلك ذلك.. لكني لا أظن أنك تستطيع؛ فمهمتك في هذا المجلس ـ كما علمت ـ أن تكتب، لا أن تتكلم.

قلت: لكن كيف يأذنون لي في الدخول، وأنا لست عضوا في هذه الهيئة؟

قال: لا تخف.. هم لن يروك.. ولن يسمعوك.. ولذلك لن يمنعوك.

بعد أن قال هذا، دخلنا قاعة اجتماعات كبيرة، وقد اجتمع فيها الكثير من الشخصيات، وكان منهم من أعرفهم وأعرف مواقفهم السلبية من اللغة العربية.

وما هي إلا برهة قصيرة، حتى قام عبد المعز، وقال: لا تخافوا.. فلن أعيد على أسماعكم ما ذكرته لكم سابقا من أن نهضتنا وتطورنا العلمي لن يكون إلا بعودتنا إلى لغتنا الأصيلة.. تلك اللغة التي تشرفت بالقرآن الكريم، وتشرفت بعده بأن تكون وعاء لحضارة امتدت لقرون طويلة.. لكني أريد أن أسألكم: هل تعجز تلك اللغة القوية الواسعة على مسايرة هذا العصر؟

قام بعض الحضور، وقال: بربك كيف تريد من لغة لا تعرف إلا البكاء على الأطلال، ووصف البعير أن تساير علوم هذا العصر الكثيرة؟

قال آخر: كيف تريد من لغة انحصرت أغراض شعرها ـ كما يشهد بذلك كبار النقاد والأدباء ـ في المديح والافتخار والرِّثاء والنَّسيب والاقتضاء والاستنجاز والهجاء والوعيد والإنذار والعتاب والاعتذار.. أن تعبر عن الفيزياء والرياضيات والفلك وكل العلوم الإنسانية والاجتماعية الكثيرة؟

قال عبد المعز: مهلا سادتي.. فمعرفتكم باللغة العربية ـ على حسب ما تذكرون ـ لا تتعدى الطور الجاهلي.. وهو أخس أطوارها وأدناها وأقلها شأنا.. فهي فيه مثل الرضيع الذي لم يكبر، أو الشجرة التي لم تثمر.. وكان يمكن أن تموت في أي لحظة.

لكن شأنها اختلف تماما بعد تنزل القرآن الكريم.. فبفضل القوة الكبيرة التي أكسبها إياها، صارت لغة كل العلوم والآداب.. ولذلك كان لها الشرف في أن تنتسب له، لأنها لولاه لم تكن شيئا مذكورا.. بل إنها لولاه لماتت مثل موت سائر اللغات، خاصة مع كثرة اللهجات التي كانت منتشرة بين القبائل العربية.

قال بعض الحضور: يبدو أنك تريد أن تخرج اللغة العربية بكلامك هذا من قيود القومية العربية.

قال عبد المعز: أجل.. فاللغة العربية أعظم من أن تنحصر في جنس دون جنس، أو عرق دون عرق.. اللغة العربية هي اللغة الرسمية لكل المسلمين المقدسين للقرآن الكريم.. وبذلك هي أعظم من أن تنحصر في عرق أو جنس أو منطقة.. نعم لقد تنزل القرآن الكريم في الوقت الذي بلغت فيه اللغة العربية درجة رفيعة من الفصاحة والبيان في الشعر والنثر، بيد أنَّها كانت في حدود قبليَّة ضيقة.. لكنها بعد اجتباء الله لها لتكون لسان القرآن الكريم، تجاوزت حدود القبيلة والقوم، وارتبطت بالإسلام، فكانت لغة عقيدته وشريعته وخطابه إلى جميع البشر.

لقد انتشرت بانتشار الإسلام في بلاد الشام والعراق وما وراء النهر.. وفي بلاد فارس والهند والسند، وأنحاء واسعة من القارة الآسيوية حتى وصلت إلى أرخبيل الملايو.. وانتشرت في مصر وشمال إفريقية وغربها ووسطها وجهات السودان، وعلى السواحل وفي الجنوب.

بل إنها أثرت حتى في اللغات الأوروبية وغيرها، وقد شهد على ذلك الكثير من المستشرقين وغيرهم، بل وضعوا إحصائيات علميَّة تدل على ذلك.. ومن الأمثلة عنها قول بعضهم: (درستُ أثر العربية في اللغات الشرقية، وأحصيتُ نسبتها، وهي: في الفارسية (٦٠,٦٧ بالمائة)، وفي التركية (٦٥,٣٠ بالمائة)، وفي الأردية (٤١,٩٥ بالمائة)، وفي التاجيكية (٤٦,٣٩ بالمائة)، وفي الأفغانية (٥٦,٩٩ بالمائة) [١].. وذكر آخر أنه أحصى (ستًا وعشرين لغة أسيويَّة تستخدم الأبجديَّة العربية بعضها ما يزال مستمسكًا بها حتى اليوم، وبعضها الآخر استبدلت بها الحروف اللَّاتينية أو المحليَّة)[٢].. وعلى هذا المنوال لاحظ الباحثون في اللغات المقارنة تأثير اللغة العربية العميق في سائر اللغات المنتشرة في

(١) محمد مصطفى بن الحاج: عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٦٥.

(٢) عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٦٠.

العالم الاسلامي، ولاحظوا كذلك دخول كثير من مفرداتها في اللغات الأوروبية أيضًا.

قام بعض الحضور، وقال: عرفنا هذا.. ولا نحسب أننا نجادلك فيه.. لكن هل ترى هذا كافيا لإقناعنا بما تدعونا إليه؟

قال آخر: لا نريد أن تحدثنا عن ارتباط اللغة العربية بشعائر الإسلام وعباداته.. فنحن نعلم أن الحياة اليومية للمسلمين تدعوهم إلى استعمال اللغة العربية أو استماعها، وفي كل الشؤون المرتبطة بعباداتهم.. لكن هناك فرق شاسع بين الشعائر التعبدية والعلوم.

قال عبد المعز: لن أحدثكم عن ذلك، ولو أنه السبب الوجيه لانتشارها.. ولكن هناك سبب أكبر، وهو أن اللغة العربية ـ بفضل القرآن الكريم ـ لم تعد لغة محلية محدودة الآفاق والتعبير.. بل صارت لغة عالمية قوية تتسع لكل المعاني.. وقد أهلها لذلك الخصائص التي توفرت فيها، والتي يعز نظيرها في سائر اللغات.

قال بعض الحضور: لم نفهم ما تريد.. هل تقصد أن الله تعالى اختار اللغة العربية لكونها تتصف بصفات ذاتية أهلتها لذلك.. أم أنها كانت كسائر اللغات، ولكنها تحورت بفضل القرآن الكريم وتطورت لتصبح لها تلك الخصائص الفريدة؟

قال عبد المعز: اللغة العربية عند تنزل القرآن الكريم كانت مثل طفل صغير يعبر عن الحقائق المحدودة التي يعرفها.. لكنها ـ بفضل القرآن الكريم ـ نمت وتطورت، ليتحول ذلك الصبي الصغير إلى عالم وفيلسوف وفقيه وأديب وشاعر.. وهو ما جعله يعبر عن المعاني بصورة أوسع وأعمق.. ولذلك كان للقرآن الكريم المنة عليها، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].. فبالقرآن ذُكر العرب، وذكرت لغتهم، ولولاه ما كانوا شيئا مذكورا، لا هم، ولا لغتهم.

قال بعض الحضور: لكن الله تعالى أخبر أنه أرسل كل رسول بلسان قومه، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].. فكيف لم يحصل للغات الأنبياء ما حصل للغة العربية؟.. ولماذا لا نرى المسيحيين يطالبون بتعليم الأرامية أو السريانية أو العبرية مع أنها اللغة التي كتبت بها كتبهم المقدسة؟

قال عبد المعز: سر ذلك بسيط.. فالأنبياء عليهم السلام كانوا مكلفين بدعوة أقوامهم خاصة.. ولذلك لم تتعد لغاتهم أقوامهم.. أما القرآن الكريم.. فهو رسالة الله إلى العالمين، ولذلك تحولت لغته إلى لغة العالم أجمع، ولهذا شارك كل الأجناس والأعراق في البحث عن علومها وأسرارها.. ولذلك استحقت، وفي كل الأجيال أن تصبح اللغة الأولى في العالم.. لا تدانيها أي لغة من اللغات الأخرى.

قال بعض الحضور: لكأنك أستاذنا تعيش في عصر دون عصرنا.. ألا تعرف أن اللغة الإنجليزية الآن هي اللغة الأقوى والأوسع انتشارا؟

قال عبد المعز: سعة الانتشار لا تعبر عن قوة اللغة.. وإنما يعبر عنها ما تحويه من الكمالات، وما تتجنبه من الثغرات.. ولو أنه أتيح للغة العربية الرجال الأفذاذ الذين ينشرونها، لتنعمت البشرية في عصرنا جميعا بها، كما تنعمت بها في العصور السابقة.

قال بعض الحضور: فحدثنا عن المزايا التي تميز اللغة العربية عن غيرها، حتى نفقه ما تريد قوله.

قال عبد المعز[١]: لا بأس.. يمكنكم اختصارها في ميزتين: الغنى والقوة.

قالوا: فحدثنا عن أولها.. حدثنا عن غناها.

---

(١) استفدنا المادة العلمية الواردة في هذا المحل من كتاب: دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه (٢/ ٨٩٠، فما بعدها)، بالتصرف الذي شرحناه في مقدمة السلسلة.

قال: من أول دلائل غنى اللغة العربية كونها تامة الحروف، كاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانه، ولم يزد فيها شيءٌ فيعيبها زيادته.. وإن كان هناك فروع أخرى من الحروف لم توجد فيها، فهي راجعة إلى الحروف الأصلية، وسائر اللغات فيها حروف مُوَلَّدة، وينقصُ عنها حروف أصلية(١).

بالإضافة إلى ذلك؛ فإنه إذا قيس اللسان العربي بمقاييس علم الألسنة، فليس في اللغات أوفى منه بشروط اللغة في ألفاظها وقواعدها.. ذلك أنها أوفى اللغات جميعًا بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه، وهو مقياس جهاز النطق في الإنسان، فإنَّ اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز الإنساني على أتمه وأحسنه، ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه، كما يحدث ذلك في أكثر الأبجديات اللغوية (٢).

لقد شهد لها بهذا الكثير من المستشرقين، فقد قال (رينان) عنها: (من أغرب المُدْهِشات أن تنبتَ تلك اللغةُ القوميّةُ وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمّةٍ من الرُحّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرةِ مفرداتها ودقّةِ معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرّج وبقيت حافظةً لكيانها من كلّ شائبة)(٣)

ولهذا، وبسبب هذا الغنى الذي لا تنافسه فيها لغة من اللغات ذكر بعضهم أنها لغة توقيفية(٤)، استنادا لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].. وطبعا هو موقف لا نملك عليه أي دليل، إلا أنه ليس بمستبعد عندنا؛ فلا حرج أن تكون هناك لغة توقيفية،

---

(١) صبح الأعشى، القلقشندي، ١/ ١٤٩.

(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: ص ١١.

(٣) خصائص العربية وطرائق تدريسها، نايف معروف: ص ٤٠.

(٤) دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، ص ١٠.

ثم تكون سائر اللغات ناتجة عن آثار الزمن وتغيراته.

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثانية.. حدثنا عن قوتها.

قال: لقد قال بعضهم يذكر ذلك: (لقد أكسبت التجربة الحضارية للغة العربية على مدى قرون ثروة هائلة من البنى، واحتبست تعابيرها في أرحامها قدرات خفيَّة على العطاء وعلى الإيحاء وعلى تنويع التعبير.. كما أكسبها انتشارها الواسع في بقاع فسيحة من الأرض وتفاعلها مع جماعات لغويَّة كثيرة ألوانًا من الغنى، تأثرًا وتأثيرًا، فهي ليست اللغة الأوليَّة البدائية التي تحاول أن تصبو إلى مقاربة الحضارة أو ملاحقتها أو الاندماج فيها، وإنَّما هي اللغة ذات التجربة السابقة، وما كان لظاهرة ما اجتماعية أو إنسانية أن تقوى على التخلي عن تجاربها السابقة، فهذه التجارب جزءٌ منها) (١)

ولذلك نرى اللغة العربية تخالط لغات كثيرة، ومع ذلك لم تفسد في ألفاظها ولا في اشتقاقاتها، ولا في تراكيبها وأساليبها، أو في بيانها الدقيق المشرق، ولم يتعد تأثيرها فيها عددًا محدودًا من الألفاظ التي تعربت استجابة لمتطلبات تطور أنماط الحياة وتنظيمها، وازدهار الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والعسكرية والعمرانية في ربوع بلاد المسلمين(٢).

وقد كان لهذا دور كبير في تحولها إلى لغة عالمية من غير حاجة لأي استعمار أو قوى تفرضها.. وذلك على خلاف كل اللغات العالمية الأخرى، والتي اشتهرت في العصور الأخيرة، والتي انتشرت بذينك السببين.

لقد شهد لها بهذا المستشرقون الذين أفنوا أعمارهم في دراستها، فقد قال بوستل عنها: (إن اللغة العربية تفيد بوصفها لغة عالميَّة في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين

---

(١) قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة، شكري فيصل، ص ٣٢.

(٢) عالمية اللغة العربيَّة، محمد مصطفى الحاج، ص ٢٥٨.

والفرس والأتراك والتتار والهنود، وتحتوي على أدب ثري، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس، وأن ينقضهم بمعتقدات التي يعتقدونها، وعن طريق معرفة لغة واحدة (العربية) يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله)[١]

وقال كارل بروكلمان: (بلغت العربيَّة بفضل القرآن من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أيُّ لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم)[٢]

وقال برنارد لويس: (وجد الطلبة الإنكليز في الهند لدى دراستهم لغات مسلمي الهند ومدنيتهم، أن أبحاثهم وتنقيباتهم تحتم عليهم دراسة العربية التي هي أساس الثقافة الإسلاميَّة في أيِّ لغة من اللغات)[٣]

وهذا ما جعل المستشرقين، ومنذ أجيال طويلة يهتمون بها اهتماما شديدا؛ فقد اهتموا بها، وبكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، فبحثوا في فقهها، وأصواتها، ولهجاتها، ونحوها، وصرفها، وأصولها، ومعاجمها، وأطوارها، وغزارتها، ومادتها، وفلسفتها، وعلاقاتها باللغات الأخرى، وخاصة اللغات الساميَّة، ومميزاتها وعناصرها، وتاريخها، ونقوشها، وكل ما أنتجته هذه اللغة[٤].

وهكذا توفر للغة العربية في العصور الأخيرة من يخدمها من الأعاجم، مثلما توفر لها من يخدمها في العصور الأولى من الإسلام.. وذلك كله ببركة القرآن الكريم، الذي كان سبب حفظها وانتشارها وغناها.

---

(١) عن الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٣٠.

(٢) عن عالمية اللغة العربية: ص ٢٧٤.

(٣) المستشرقون ونظرتهم في نشأة الدراسات اللغويَّة، إسماعيل أحمد عمايرة، ص ٢٠.

(٤) فلسفة الاستشراق، أحمد سمايلوفتش، ص ١٨٤.

ثانيا ـ شهادات منصفة:

بعد أن انتهى عبد المعز من حديثه، قام بعض الحضور، ويبدو أنه من رفاق عبد المعز المشاركين في خطته، وقال: صدقت أستاذنا الفاضل.. واسمح لي بمناسبة ذكرك لبعض شهادات المستشرقين أن أضيف إليها شهادة اللغوي الألماني يوهان فك، صاحب كتاب [العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب]، والذي درس اللغة العربية دراسة علمية، وعرفها عن قرب، فقد قال: (إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية)[1]

قال آخر: بورك فيك.. وأحب أن أضيف إلى ما ذكرته كلمة للمستشرق المجري جرمانوس الذي أسلم، وتسمى باسم عبد الكريم، وقد كان يتقن اليونانيّة، واللاتينيّة، والإنكليزيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، والمجريّة، والفارسيّة والأورديّة، والعربيّة والتركيّة، فقد قال عنها: (إنّ في الإسلام سنداً هامّاً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد.. ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً.. والعنصر الثاني

---

(١) عن الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص٣٠٢.

الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام)(١)

قال آخر: ومثله قال المستشرق الألماني نولدكه عن العربية وفضلها وقيمتها: (إن اللغة العربية لم تَصِرْ حقّاً عالميةً إلا بسبب القرآن والإسلام، وقد وضع أمامنا علماءُ اللغة العرب باجتهادهم أبنيةَ اللغة الكلاسيكية، وكذلك مفرداتها في حالة كمالٍ تامٍّ، وأنه لا بدّ أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطةٌ جداً، ولكنهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمةٍ خاصّةٍ، والعربية الكلاسيكية ليست غنيّةً فقط بالمفردات ولكنها غنيةٌ أيضاً بالصيغ النحوية، وتهتمّ العربية بربط الجمل ببعضها.. وهكذا أصبحت اللغة البدويّة لغةً للدين والمنتديات وشؤون الحياة الرفيعة، وفي شوارع المدينة، ثم أصبحت لغةَ المعاملات والعلوم، وإن كلَّ مؤمنٍ غالباً جداً ما يتلو يومياً في الصلاة بعض أجزاء من القرآن، ومعظم المسلمين يفهمون بالطبع بعض ما يتلون أو يسمعون، وهكذا كان لا بُدّ أن يكون لهذا الكتاب من التأثير على لغة المنطقة المتّسعة ما لم يكن لأيّ كتابٍ سواه في العالم، وكذلك يقابل لغة الدين ولغة العلماء والرجل العادي بكثرة، ويؤدّي إلى تغيير كثيرٍ من الكلمات والتعابير في اللغة الشعبية إلى الصحّة)(٢)

قال آخر: ومثلهم المستشرق جوستاف جرونيباوم الذي قال: (ما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من

(١) عن الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص٣٠١.

(٢) عن اللغة العربية، نذير حمدان ص ١٣٣.

قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية) (١)

وقال: (ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات.. وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران ـ وهو عارف باللغتين العربية والسريانية ـ أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبُحت وخسّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوةً وحسناً، وإن الفارابي على حقّ حين يبرّر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنّة، وهو المنزّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيسة، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً) (٢)

قال آخر: ومثلهم المستشرقة الألمانية زيكريد هونكه التي قالت: (كيف يستطيع الإنسان أن يُقاوم جمالَ هذه اللغة ومنطقَها السليم وسحرَها الفريد؟.. فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة، فلقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتكلمون اللغة العربية بشغفٍ، حتى إن اللغة القبطية مثلاً ماتت تماماً، بل إن اللغة الآرامية لغة المسيح قد تخلّت إلى الأبد عن مركزها لتحتلّ مكانها

---

(١) عن الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص٣٠٦.

(٢) عن الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص٣٠٦.

لغة محمد)[1]

قال آخر: صدقت.. وهذا ما دعا المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون إلى أن يقول عنها: (استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر سواءً كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها.. واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفرّدت بتفرّدها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي، إنّ التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم ولكنه وقف أمام تقدّم القوى المادية فلم يتطوّر.. أما الألفاظ المعبّرة عن المعاني الجدلية والنفسانية والصوفية فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب بل تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتنشّطه.. ثمّ ذلك الإيجاز الذي تتسم به اللغة العربية والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يُعدّ معجزةً لغويةً كما قال البيروني)[2]

قال آخر: ومثلهم المستشرق الألماني فرنباغ الذي قال عنها: (ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب، بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العدّ، وإن اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية وبين ما ألفوه حجاباً لا يتبيّن ما وراءه إلاّ بصعوبة) [3]

قال آخر: ومثلهم روفائيل بي ـ الكاتب السرياني العراقي ـ فقد قال عن اللغة العربية: (إنني أشهد من خبرتي الذاتية أنه ليس ثمة من بين اللغات التي أعرفها لغة تكاد تقترب من العربية، سواء في طاقتها البيانية، أو قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، وأن

---

(١) مجلة اللسان العربي ٢٤/ ٨٦ عن كتاب: شمس العرب تسطع على الغرب.

(٢) عن الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص ٣٠١.

(٣) عن الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص٣٠٣.

تنفذ بشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس تاركة أعمق الأثر فيها)

ثالثا ـ شبهات وردود:

بعد أن انتهى رفاق عبد المعز من ذكر هذه الشهادات وغيرها، قام بعض الحضور، وقال: مع احترامنا لما ذكرتم جميعا.. إلا أنه ربما يكون كلامكم صالحا في العصور السابقة إبان ازدهار الحضارة الإسلامية.. أما الآن؛ فالواقع مختلف تماما، ذلك أن اللغة العربية أصبحت قاصرة، وهزيلة، ولا يمكن أن تفي بالحاجات التي يتطلبها هذا العصر.

قال عبد المعز: لعل أحسن جواب لك على هذا الإشكال ما عبر عنه بعض الشعراء بقوله في رده على مثيري ذلك الإشكال، وعلى لسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظًا وغايةً ... وما ضقتُ عن آيٍ به وعظاتِ

فكيف أضيقُ عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسْمَاء لمخترعاتِ

أنا البحرُ في أحشائه الدر كامنٌ ... فهل سألوا الغُوَّاصَ عن صدفاتي؟

وهو جواب كاف شاف.. ذلك أن اللغة التي استطاعت أن تعبر عن كل العلوم التي لولاها لم تنشأ الحضارة الحديثة، لا تعجز عن الاستمرار في دورها.. ذلك أنها لغة حيَّة عمليَّة لها طاقة هائلة على استيعاب المعاني الغزيرة، وفي الكلمات القليلة.

أمَّا ما حصل لها من تخلف؛ فهو ليس نابعا منها، وإنما من تخلف المسلمين عن ركب الأمم الأخرى في ميادين الصناعة والعلوم، وهو أمر يمكن استدراكه وتلافيه.

قام بعض الحضور، ويبدو أنه من رفاق عبد المعز، وقال: ائذنوا لي أن أجيبكم عن هذا من واقع حياتي وتجربتي؛ فأنا قبل أن ألتحق بكم، كنت أعمل أستاذا في كلية الطب في دمشق، والتي مضى على تأسيسها ما يزيد على سبعين عامًا، وأنا وجميع الأساتذة ندرّس الطب باللغة العربيَّة، وقد أغنينا ـ بحمد الله ـ خزانة الكتب العربيَّة بما لا يقل عن ثمانين مجلدًا

في فروع الطب المختلفة[١].

بالإضافة إلى أن كثيرًا من زملائي الأساتذة الذين جربوا التدريس بالعربيَّة، لا في دمشق وحدها، وإنَّما في الكثير من الدول العربية، لم يجدوا عائقًا يذكر من اللغة ذاتها، وإذا كانوا قد اصطدموا بصعوبات فهي خارج الإطار اللغوي[٢].

قال آخر: صدقت.. بل استطاع عدد من الأساتذة المخلصين الذين أعرفهم أن يثبتوا قدرة اللغة العربيَّة على استيعاب العلوم، فوضعوا عددًا من الكتب العلميَّة تناولت شتى الموضوعات، وقدمت أمثلة لقدرة اللغة العربيَّة على التعبير عن دقائق العلوم المختلفة[٣].

قال آخر: صدقت.. وقد شهد لها بهذا، وأثبته كل الباحثين من المنصفين من المختصين باللغات المختلفة، ومنهم المستشرق البريطاني ألفريد غيوم الذي قال عنها: (ويسهل على المرء أن يدركَ مدى استيعابِ اللغةِ العربيةِ واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسرٍ وسهولة، بوجود التعدد في تغيير دلالة استعمال الفعل والاسم)

ثم ضرب مثالا على ذلك، فقال: (إن الجذر الثلاثي باشتقاقاته البالغة الألفَ عَدّاً، وكلٌّ منها متّسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه، مشكّلاً من أيّ جذر آخر، يصدر إيقاعاً طبيعياً لا سبيل إلى أن تخطئه الأذن، فنحن ـ الإنكليز ـ عندما ننطق بفكرة مجرّدة لا نفكر بالمعنى الأصلي للكلمة التي استخدمناها، فكلمة (Association) مثلاً تبدو منقطعة الصلة بـ (Socins) وهي الأصل، ولا بلفظة (Ad)، ومن اجتماعهما تتألف لفظة (Association) كما هو واضح وتختفي

---

(١) اللغة العربيَّة في التعليم العالي والبحث العلمي، مازن المبارك، ص ٤٣.

(٢) دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات، أحمد مطلوب، ص ٢٥.

(٣) دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، شحادة الخوري، ص ١٨٥.

الدالّة مدغمة لسهولة النطق، ولكن أصل الكلمة بالعربية لا يمكن أن يَسْتَسِرّ ويَسْتَدِقّ على المرء عند تجريد الكلمة المزيدة حتى يضيع تماماً، فوجود الأصل يظلّ بَيّناً محسوساً على الدوام، وما يعدّ في الإنجليزية محسّناتٍ بديعيةً لا طائل تحتها، هو بلاغةٌ غريزيةٌ عند العربي)[1]

قال آخر[2]: ما ذكره صحيح.. فاللغة العربية قائمة على جذور متناسقة لا تجدها في اللغات الأخرى قاطبة.. فالفعلُ الماضي ذهب، ومضارعه يذهبُ، وأمره اذهب، من جذرٍ واحد، أمَّا مثيله في الإنجليزية فماضيه went ومضارعه وأمره go.. وهما كلمتان مختلفتان كليًّا.. ومثل ذلك الفعل cut بمعنى قطع، يقطع، اقطع، تجده رسمًا واحدًا في الأزمنةِ الثلاثة كلِّها، وتضطر إلى وضعِها في جملٍ كي تعرفَ الزَّمنَ لكلٍّ منها، بينما زمن الفعل في العربية معروف.

قال آخر: وهكذا نجد أنَّ للأفعال المتقاربة الجذور في العربية معانيَ متشابهةً لا ترى أمثالها في اللغات الأخرى.. فالفعل (قطع) إذا بدل الحرف الأخير فقط قيل: قط، قطم، قطف، قطش، تجد فيها اشتراكًا في قضمِ الشيء إلى قطع.. وفي الفعل (سما) المفتوح العين ثلاثة حروف كذلك، بدِّل الحرفَ الأخير وقلْ مثلاً: سمج، سمر، سمح، سمك، سمق، سمط، تجد اشتراكها في العلوِّ، وهكذا.

قام آخر، وقال: وعينا هذا.. لكن هناك مشكلة كبيرة تعترضنا في حال موافقتنا على ما تطرحون..وهي صعوبة اللغة العربية مقارنة بسائر اللغات.. لعلكم أنتم أنفسكم شهدتم بذلك حين ذكرتم قوتها وسعتها وغناها.. وهذا يدل على صعوبتها.

---

(١) مجلة المورد، المجلد ٥ العدد ٢ ص ٤٣ عن مقدمة مدّ القاموس إدوارد لين، ترجمة عبد الوهاب الأمير.

(٢) من مقال بعنوان: أهمية اللغة العربية ومميزاتها، صادق بن محمد الهادي.

قال عبد المعز: صعوبة التعلم وتدريب اللسان حتى يلين لقواعد اللغة العربية وتصاريفها صعوبة محدودة، وهي موجودة في كل من يريد تعلم أي لغة من اللغات.. وهي أمرٌ نسبي يختلف من شخص لآخر، وتحكمه ظروف عدّة، منها ما يعود إلى المتعلم ذاته، ومنها ما يعود لغيره من معلمين أو مناهج تعليمية.. وهي على كل حال لا علاقة لها باللغة، وإنما بالقائمين عليها، والمهتمين بها.

قام آخر، وقال(١): الذين يثيرون هذا لا يفكرون بأي منطق علمي.. ذلك أنهم يعبرون في أحسن أحوالهم عن تجاربهم الشخصية المحكومة بالذاتية، وليس عن الحقيقة العلمية.. فاللغة العربية مثل سائر اللغات لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من اللغات، ولها من الخصائص التي تشترك فيها مع اللغات الأخرى.. وليس معنى وجود خصائص لها تنفرد بها أنها مصدر صعوبتها.. فقد تسمع أنَّ هناك العديد من الصعوبات في أصوات اللغة العربية ونظامه؛ فقد يحدث خلط بين أصوات (ت، د) أو (ذ، ز).. وغيرها من الأصوات، إلا أنه يمكن الرد على ذلك بأن معظم هذه الأصوات موجودة في العديد من اللغات الأخرى سواء اللغات السامية أو اللغات الهند أوروبية.

ألا يوجد في الإنجليزية الخلط بين T + D؟ وبالرغم من ذلك لم نسمع عن مشكلة بهذا الحجم.. وقد توجد أصوات غير موجودة في معظم اللغات الأخرى، مثل: ط، خ، ض، ق، غ.. وغيرها، وعندما نسمع إلى اللغة الألمانية نلاحظ توافر صوتي: خ + ش، ونستمع إلى صوت الراء ملتحما مع الغين في الفرنسية، وسبقت الإشارة إلى أن الجهاز النطقي عند الإنسان مصمم بحيث ينطق أصوات العربية بشكل سليم، وهذا الجهاز واحد عند كافة أجناس البشر، كما أشار تشومسكي في نظريته عن اللغة، فأين المشكلة في هذه

---

(١) من كتاب (تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها: النظرية والتطبيق، د. علي أحمد مدكور.

الأصوات؟

قال آخر: إن الصعوبة الحقيقية تكمن في (الغربة) أو عدم ألفة أصوات اللغة العربية.. ومع ذلك فقد خلق الله سبحانه وتعالى الجهاز النطقي لدى الإنسان قادرا على إصدار كل الأصوات.. أما عن تلك الصعوبات التي يجدها، ويُصادفها كل إنسان في إصدار بعض الأصوات غير الموجودة في لغة الأم، إنما مصدرها عدم التعود والتدريب على إصدارها..

قال آخر: إنَّ عدم الاستخدام الصحيح، في أغلب الأحيان للأصوات العربية وألفاظها يجعلها لغة غريبة لا تألفها الأذن؛ فعلى سبيل المثال: قد نسمع في كثير من الأماكن لفظة (Sorry) للتعبير عن الاعتذار، أو عن شيء غير مقصود.. فإذا تم استخدام لفظة (معذِرة) مكانها وألفتها الأذن.. تختفي هذه الغربة اللغوية.. وهكذا يمكن أن تذوب هذه الغربة على مستوى التراكيب والجملة والفقرة، وبالتالي على مستوى اللغة ككل.

قال آخر: ائذنوا لي أن أذكر لكم تجربتي في تعلم اللغة العربية، مع أني ولدت في بيئة تتحدث الإنجليزية.. ومع ذلك ـ وبسبب حرصي الشديد على تعلم اللغة العربية لأجل قراءة القرآن الكريم بلغته الأصلية ـ رأيت أنها أسهل اللغات، فهي لغة محكمة قوية مضبوطة نطقا وكتابة..

من الأمثلة على ذلك[1] أنه لا يوجد في اللغة العربية التفاوت بين النطق وطريقة الكتابة، مثلما هو الحال في سائر اللغات.. فاللغة الإنجليزيَّة مثلا فيها ما يزيد على (٢٠٠) أصل لغوي شاذ، في حين أنَّ التفاوت بين النطق والكتابة في اللغة العربيَّة محدود في كلمات تعد على أصابع اليد الواحدة مثل (هذا، لكن، داود، عمرو، اللام الشمسية).. ولا يعد هذا

(١) انظر هذه الأمثلة وغيرها في: اللغة العربيَّة، نذير حمدان، ص ٤٢، وبحوث ومقالات في اللغة، رمضان عبد التواب، ص ١٦٧، وغيرها.

التفاوت عيبًا، ولا سيما أنَّه مسموع عن العرب يحفظ ولا يقاس عليه.

بالإضافة إلى أن هذا في الحقيقة من مزايا اللغة العربية، لا من عيوبها؛ فمثنى الكلمة العربيَّة يختزل في كلمة واحدة مثل [رجل] مثناها [رجلان]، في حين يكتب في اللغات الأخرى كلمتين.

قال آخر: لقد ذكرني حديثك هذا بأستاذ لنا كان يدرسنا في جامعة أستنبول، كان يقول لنا: (إن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقةٍ جديدةٍ لتسهيل السهل وتوضيح الواضح.. إن الطلبة قبل الانقلاب الأخير في تركيا كانوا يكتبون ما أمليه عليهم من المحاضرات بالحروف العربية وبالسرعة التي اعتادوا عليها، لأن الكتابة العربية مختزلةٌ من نفسها.. أما اليوم فإن الطلبة يكتبون ما أمليه عليهم بالحروف اللاتينية، ولذلك لا يفتأون يسألون أن أعيد عليهم العبارات مراراً، وهو معذورون في ذلك لأن الكتابة الإفرنجية معقّدةٌ والكتابة العربية واضحةٌ كلّ الوضوح، فإذا ما فتحتَ أيّ خطابٍ فلن تجدَ صعوبةً في قراءةِ أردأ خطٍّ به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح)[1]

قال آخر: نفس ما ذكرته قاله المستشرق الفرنسي مارسي عند ذكره لتجربته في ذلك، فقد قال: (من السهل جداً تعلم أصول اللغة العربية؛ فقواعدها التي تظهر معقدة لأول نظرة هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب لا يكاد يصدق؛ فذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة وبجهد معتدل) [2]

وقالت المستشرقة الألمانية آنا ماري شميل ـ التي وضعت مقدمة للترجمة الألمانية للقرآن الكريم ـ: (اللغة العربية لغة موسيقية للغاية، ولا أستطيع أن أقول إلا أنها لغة أهل

(١) فنّ الترجمة وعلوم العربية، إبراهيم بدوي الجيلاني ص ٩١.

(٢) نايف معروف: خصائص العربيَّة: ص ٤٠، ٤١.

الجنة)

قام بعض المعارضين لتعليم اللغة العربية، وقال: لا بأس.. قد نسلم لكم بكل ما ذكرتم.. ولكن ألا ترون أننا الآن بحاجة إلى لغة حديثة، بدل اللغة العربية القديمة التي أكل عليها الدهر وشرب؟

قال عبد المعز: إن ما ذكرته يتنافى مع ما يستدعيه النظر العلمي.. فاللغة التي استطاعت أن تحافظ على قوتها تلك المدة الطويلة هي اللغة الجديرة بأن نحافظ عليها، لأنها أثبتت قدرتها وغناها وكفايتها.. ألسنا في الواقع نمارس ذلك حين نعتبر نجاعة الدواء لفترة طويلة دليلا على جدواه؟

قال آخر[١]: هناك أمر يجب أن نقطع به على وجه اليقين والجزم وهي أنه ما من لغة في العالم احتفظت بخصائصها اللغوية طوال خمسة عشر قرنا سوى العربية، ولم يكن ذلك ممكناً لولا نزول القرآن الكريم بها.. انظرو إلى الإنجليزية في القرن التاسع عشر في مؤلفات ديكنز والصحف الصادرة آنذاك، وانظروا إلى لغة الصحف والروايات الإنجليزية اليوم، ولن أقول لكم: ارجعوا إلى لغة شكسبير في القرن السابع عشر فهي لغة أشبه بالميتة مثل اللاتينية فلا يستطيع أحد أن يفهمها ـ حتى من أهل بريطانيا ـ دون قاموس أو تفسير باللغة المعاصرة.. وهذا الاختلاف الكبير في الإنجليزية على مستوى الحروف والتراكيب يرجع لعدم وجود كتاب سماوي مثل القرآن الكريم يربط خيوط اللغة ويشدها له حتى لا تنفتل.

رابعا ـ شهادة الواقع:

بعد أن استمعنا لكل تلك الأحاديث، قام عبد المعز، وقال: أريد من السادة الحضور، أعضاء الهيئة المحترمة أن يسيروا معي إلى جامعة خاصة، استطاعت أن تحقق نجاحات كثيرة

---

(١) من مقال بعنوان: هل اللغة العربية هي أفضل لغات العالم؟، أبو الحجاج محمد بشير.

في الواقع بسبب حرصها على اللغة العربية، وحرصها معه على القرآن الكريم.

قال بعض الحضور: لا شك أنها مهتمة بالأدب العربي.. أو الشعر الجاهلي.. أو شعر أبي نواس والمتنبي.. أو مقامات الحريري والهمذاني..

ضحك الحضور، فقال عبد المعز: لا.. هي مختصة في الطب.. وقد استطاع أساتذتها وطلبتها وأطباؤها أن يثبتوا كفاءتهم في هذا المجال، بل أن يدعموا العلم بالكثير من البحوث المهمة التي لم يقم بعُشرها من ينتمون لجامعات تدرّس نفس تخصصها باللغات الأجنبية.

ركبنا مع عبد المعز حافلة أقلتنا إلى الجامعة الخاصة التي ذكرها، وقد رأينا عند دخولنا إليها الكتابات العربية وهي تزين أبوابها وجدرانها.. وكان منها وعلى رأسها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]

وعندما سأل بعض الحضور المعارضين لتعليم العلوم باللغة العربية عبد المعز عن سر الآية ووضعها في جامعة متخصصة في الطب، قال: أنتم تعرفون آثار العقيدة في النفوس، وبعث الهمم.. وقد كانت هذه الآية الكريمة هي المحرك لهؤلاء الأساتذة لتعريب العلوم التي يدرسونها، ثم تطويرها، ثم اكتشاف أفضل المناهج لتدريس الطلبة بها.

لقد جمعوا بينها وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، فعلموا أن اللغة التي استطاعت أن تعبر عن حقائق الوجود الكبرى، لا تعجز عن التعبير عن أجزاء بسيطة من الكون.

بمجرد دخولنا إلى الجامعة طلب منا البواب أن نسير إلى قاعة خاصة تضم جمعا من الأساتذة والمسؤولين.

وهناك، وبعد جلوسنا قام بعض الأساتذة، وقال[1]: للأسف.. لقد سمعنا في الآونة الأخيرة دعوات لتيارات خفية تحاول أن تقطع الطريق على دعاة تعليم الطب باللغة العربية في جامعتنا خشية أن تجد لها قبولاً في سائر الجامعات.. لأنهم يرون أنه إذا نجحنا في مهمتنا، فسنكون نموذجا يحتذي به غيرنا..

لقد رأيت بعضهم يذكر قصور اللغة العربية عن اللحاق بمتطلبات العلم الحديث المتسارعة.. ورأيت آخر يندب حظ ذلك الطبيب الذي قطعته اللغة العربية عن مجالات البحث والاستفادة من التقانات الحديثة.. ورأيت آخر يذهب إلى أن تدريس الطب باللغة العربية يجب أن يسبقه ترجمة جميع المراجع الأجنبية إليها.. وإيجاد مؤسسات تقوم بترجمة جميع الدوريات العلمية العالمية إلى اللغة العربية لتأمين الاستفادة منها في متابعة تطور العلم.

وهم يرون جميعا أنهم بهذا يمكن صرف النظر عن مشروع تعريب تدريس الطب نظراً لعظم المهمة، بل تعذر القيام بها.

سكت قليلا، ثم قال: مهلاً أيها السادة ولننظر في الأمر قبل كل شيء من النواحي الوجدانية الشعورية التي باتت اليوم مهمشة بل مرذولة نضحِّي بها على مذبح التقدم والرقي.. كيف لا نشعر بالغضاضة والمرارة حين نرى لغتنا العريقة ـ وهي بدون شك أقدم لغة مازالت محكية في العالم ـ أصبحت لا تعتبر صالحة إلا لاحتياجات الحياة اليومية والشؤون المعيشية والأخبار العامة، بالإضافة إلى ذلك الأدب الذي لا يهتم به إلا الخاصة، بعد أن غزت الفضائيات أدمغة الجيل الجديد وقولبت مشاعره؟

ثم كيف نقبل أن نرى العربي يرطن بإحدى اللغات الأجنبية فور التفاته إلى أي موضوع علمي أو تقني أو حتى حين يتطرق إلى أي موضوع فكري يرتبط بالحضارة

---

(١) انظر مقالا بعنوان: لمَ التخُّوف من تعليم الطب باللغة العربية؟، د.روان المحاسني، جريدة المحجة، العدد ٢٥٦.

المعاصرة؟

قام بعض المعارضين غاضبا، وقال: أرجو أن تطرح جانباً كل تلك النواحي العاطفية، وانظر إلى الأمر بنظرة مجردة عقلانية تزن الأمور بموازين ثابتة تتماشى مع متطلبات زماننا.

قال الأستاذ: لا بأس.. سأحدثك باللغة التي تشاء.. أجبني.. بل أجيبوني جميعا.. ما هي الغاية من تعليم الطب؟.. أليست هي إيصال أفضل الخدمات في الميدان الصحي إلى أفراد المجتمع؟.. فهل يجوز للطبيب الذي يحتم عليه عمله الاتصال بجميع طبقات الشعب أن يشعر بالاغتراب حين يتفاعل مع مرضاه باللغة العربية المشتركة بينه وبينهم فيعجز عن الحوار لأن دراسته كانت بلغة أجنبية؟.. وهل يجوز أن يغلب التعالي على مسلك الأطباء في بلادنا فتراهم يحجمون عن الخوض في الموضوعات الطبية مع من لا يفهم اللغة التي يستعملونها؟

إن الطبيب ـ سادتي وأساتذتي ـ مسؤول عن نشر الثقافة الصحية وتعميق فهمها للجميع.. فهل يمكن أن يتحقق ذلك لطبيب يجهل لغته؟

قام بعض المعارضين، وقال: نراك تقصر الغاية من تعليم الطب على تخريج أطباء يقومون بتأمين خدمات الرعاية الصحية الأولية فحسب، على غرار الأطباء الحفاة الذين اشتهرت بهم الصين الشيوعية..

قاطعه الأستاذ، وقال: لا.. على العكس.. نحن في هذه الجامعة نصرّ على ارتباط الخريجين بالمسيرة العلمية العالمية، وعلى ضرورة دخولهم مجالات الأبحاث، سواء أكانت وطنية أو عالمية من خلال ممارستهم.. هذا إلى جانب الذين يتابعون دراساتهم على المستوى الأعلى في بلادهم أو خارجها، بحيث يؤهلون أنفسهم للعمل كأخصائيين في التخصصات

المختلفة وهم قادرون على متابعة التطورات العلمية العالمية دون الحاجة إلى وسطاء.

قام عبد المعز، وقال: مع احترامنا لكل ما ذكرت.. إلا أنا نريد منك أن تجيبنا على سؤال واحد،وهو: هل اللغة العربية ـ من خلال تجربتكم ـ صالحة لتعليم الطب؟

قال الأستاذ: سأجيبكم عن ذلك من خلال تجربتين.. قديمة وحديثة.. وأظن أن كليهما كاف لإقناعكم بما أقول.

قالوا: فحدثنا عن التجربة القديمة.

قال: لاشك أنكم سمعتم بتلك المؤلفات الطبية والعلمية الخالدة التي تداولها العالم كله شرقاً وغرباً طيلة قرون عديدة.. والتي لم تُكتب إلا باللغة العربية.. إن تلك المؤلفات هي نتاج علماء من أعراق مختلفة، كانوا ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية، وقد وجدوا في اللغة العربية الوعاء اللامتناهي الذي يستطيعون أن يقتطفوا منه ما يناسب احتياجاتهم في التعبير عن جسم الإنسان وما يطرأ عليه من حالات في الصحة والمرض.. إنها مؤلفات أنارت ظلام القرون الوسطى في أوروبا لأنها استوعبت في زمانها كل المعارف الطبية، ولذا بقيت تدرّس في الجامعات حتى مطلع القرن السادس عشر للميلاد.

أفلا يعني هذا أن هذه المؤلفات قد تعرضت بالضرورة لوظائف الأعضاء عند الإنسان، ووصفت الأجزاء التشريحية، وذكرت ما يطرأ على الجسم من خلل، وكل ذلك بلغة عربية قابل فيها كل مصطلح عربي مصطلحاً إغريقياً أو سريانياً بحسب المصادر التي اعتمدوها؟

إن تلك الكتب التي دأب مؤلفوها على تصنيفها باللغة العربية تحتوي دون أي شك على مفردات طبية تكفي للتعبير عن الأمور الأساسية المتعلقة بجسم الإنسان، فلا نحتاج اليوم إلى وضع التسميات للمريء أو البلعوم أو الأمعاء أو الأعضاء الأخرى، ولا إلى

وصف ما يعتري الجسم من حالات كالحمى والإسهال وغير ذلك.

قام بعض المعارضين، وقال: إن ما تذكره ينطبق على العصور الغابرة، وهو لا يتعدى البدائيات.. فأين طب اليوم من طب ابن سينا والرازي والزهراوي؟.. وكيف لنا أن نتصور اللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى آلاف المصطلحات؟

قال الأستاذ: أنت بسؤالك هذا تسلّم لي بنجاح التجربة القديمة، وتدعوني إلى ذكر التجربة الحديثة.. لا بأس.. سأذكر لك تجربتنا في ذلك.. والتي بدأت منذ فترة طويلة، ومع إمكانيات قليلة إلا أننا حاولنا مع كل الغيورين من الأطباء والأساتذة العاشقين للغة القرآن الكريم أن نوفر كل ما نحتاجه من المصطلحات الطبية العربية اللازمة لمتابعة تطور العلوم ونقل المعلومات الحديثة إلى الطلاب، مستعينين في ذلك بما أقرته مجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد وغيرها.. وبذلك أوصلنا لغة طبية مصقولة بالاستعمال اليومي قادرة على التجاوب مع متطلبات العلم الحديث.

قام بعض المعارضين، وقال: لا بأس قد نسلم لك بهذا.. لكنه يظل محصورا في البيئة المحدودة التي تعمل فيها هذه الجامعة.. وهي بيئة لا يمكن تعميمها.. فأنا لا أتصور أبدا أن هناك من يدرس الطب باللغة العربية.. عقلي لا يستسيغ ذلك.

قال الأستاذ: لقد ذكرت لكم أن المشكلة مشكلة نفسية، غرسها فينا أعداؤنا من المستكبرين الذين لم يكتفوا بإقناعنا بتخلفنا، وإنما أقنعونا أيضا بأن لغتنا أدنى من لغتهم.. مع أن أجدادهم لم يدرسوا العلوم إلا بلغتنا.

قام أستاذ آخر، وقال(١): ائذن لي أن أجيبك من واقع تجارب قمت بها أنا وبعض

---

(١) انظر: تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية،نادي المنطقة الشرقية، د. زهير السباعي، ص٨٣-٨٤-٨٥.

رفاقي.. لقد قمنا بإجراء تجربة[1] على مجموعتين من الطلاب، تقرأ المجموعة الأولى نصاً طبياً باللغة العربية، بينما تقرأ المجموعة الأخرى نصاً مماثلاً باللغة الإنكليزية.. وقد تبين وجود بون شاسع بين المجموعتين من حيث الوقت اللازم لإنجاز تلك القراءة.. فقد كان متوسط ما أمكن لهم قراءته باللغة العربية ١١٠ كلمات في الدقيقة بينما كان متوسط ما أمكن قراءته باللغة الإنكليزية ٧٧ كلمة في الدقيقة، وبذلك تكون سرعة القراءة باللغة العربية تزيد ٤٣ بالمائة عنها بالإنكليزية.

ثم أجريت تجربة تكميلية تستقصي مدى استيعاب الطلاب لما قرؤوه بعد أربع ساعات من قراءة المقال، وذلك عن طريق أسئلة متعددة الخيارات بنفس اللغة التي تمت قراءة المقال بها.. وهنا كذلك وجدت زيادة تقدر بـ ١٥ بالمائة لمصلحة القراءة بالعربية.

وقد استنتجنا من هذا أنه إذا كانت سرعة القراءة تشير إلى الجانب الكمي لعملية التحصيل؛ فإن القدرة على الاستيعاب تعكس الجانب الكيفي لها.. وبذلك يتبين أن التحسن في التحصيل العلمي باللغة العربية يفضل التحصيل العلمي باللغة الإنكليزية بما يزيد على ٥٠ بالمائة.

قام أستاذ آخر، وقال: أحب أن أضيف إلى ما ذكره زميلي، أنني وبعض رفاقي بحثنا في اللغة المستعملة في كتب الطب بأي لغة من اللغات؛ فوجدنا أنها لغة سردية عادية، تكتفي بالوصف والتوضيح والتسلسل في الأفكار.. وقد قمنا بعدة إحصاءات لتحديد نسبة ما في تلك الكتب من مصطلحات علمية طبية خاصة.. وقد بينت تلك الإحصاءات أن عدد المصطلحات في النصوص العلمية يتراوح بين ٣,٣ إلى ١٠ بالمئة حسب نوع التخصص.. أي أن المتن هو من النثر العادي، ولو بلغة أرفع من لغة التخاطب اليومي، وهو مرصع

(١) هذه التجربة أجريت في جامعة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية بإشراف الأستاذ الدكتور زهير السباعي.

بالمصطلحات العلمية ضمن السياق الموضح للفكرة.. وذلك ما يسهل على الطالب العربي أن يستوعب تلك المادة العلمية مكتوبة ومشروحة بلغته.

قال آخر: بالإضافة إلى ما ذكره زميلاي؛ فقد وجدنا أن أكثر البحوث الطبية متعلقة بحالات مرضية مألوفة كنقص الشهية للطعام، أو اختلاف وزن المريض زيادة أو نقصاناً، أو تتناول تسرع دقات القلب وما يشعر به المريض من الخفقان، أو أنها تتوخى تفسير ارتباط الأعراض التي يشكو منها المريض، وجميع هذه الموضوعات لا تتطلب إلا القليل من المصطلحات الطبية الدقيقة.

قال آخر: وقد يسر علينا الأمر أن السياسة التعليمية المتفق عليها في البلاد العربية قد جعلت التدريس في المدارس الثانوية باللغة العربية، وهذا ما يشمل العلوم والرياضيات والأحياء وغيرها.. وبذلك؛ فإن الطلبة لم يشعروا بما يشعر به غيرهم ممن يجدون التعليم الجامعي مختلفا تماما عن كل ما درسوه في المراحل السابقة.

قال آخر: لقد كنت أدرس في كلية طبية تدرس باللغة الإنجليزية، وقد لاحظت أن التدريس بها بمثابة اغتراب حقيقي للطالب حين يقوم باستجواب مريضه عن شكواه وأعراض مرضه باللغة العربية، ويكتب مشاهدته باللغة الإنكليزية، ثم يلتفت إلى أستاذه لينقل إليه أقوال المريض مترجمة إلى اللغة الإنكليزية، وكأن الأستاذ أجنبي لا علاقة له باللغة العربية.. وعندئذ تتجلى الصعوبة التي يعاني منها الطالب في شرح أعراض بسيطة لأستاذه، كفتور الهمة، أو ضيق الصدر، أو إحساس بالنفخة في البطن، أو النمَل في الأطراف، أو زيغ البصر.. وغيرها من الأمور التي لا تخرج عن كونها من الكلام العادي إذ أن المريض الإنكليزي لا يصف أعراضه بلغة طبية، بل بلغة حياته اليومية.. لكن كل هذه الإشكالات زالت بحمد الله بعد التحاقي بهذه الجامعة الخاصة.

قال آخر: وقد لاحظت كذلك خلال تدريسي سابقا في كلية طبية تدرس باللغة الإنجليزية أن الطالب يتعثر في فهم الكثير من الكلمات الإنكليزية لعدم تمكنه من ردها إلى أصلها ومعرفة اشتقاقها.. ذلك أن الطالب لم يدرس الإنكليزية دراسة لغوية صحيحة، بل درسها كوسيلة لتحصيل المعلومات المطلوبة، ولهذا فهو يحتاج لمن يشرح له أن كلمة Oval أو Ovoid تعني الشكل البيضوي لأنه لا يعرف أنها مشتقة من Ova اللاتينية.. وكيف لنا أن ننتظر من الطالب أن يميز بين Ambiguous وUncertain وEquivocal وControversial وContradictory حين ينظر في نتائج أي بحث أو استقصاء طبي إذا لم نشرح له أنها تمثل الفروق بين ما هو [ملتبس] وما هو [مثير للجدل] وما هو [متناقض] وما هو [غير مؤكد] أو [مشتبه] فهو يحفظ تلك الكلمات دون أن يفهم تركيبها.

قال آخر: أجل.. وقد وجدت مثلكم أن الطالب العربي الذي لم يدرس اللغة الإنكليزية بشكل جدي قبل دخوله كلية الطب يصبح انخراطه في تحصيل علمي لا يملك الأداة التي تفتح أبوابه يهدر الكثير من وقته.. وتبين لي أن التدريس باللغة العربية يمثل اقتصاداً كبيراً في وقت الطالب الذي يبذل في دراسة صفحة واحدة باللغة الإنكليزية أضعاف ما تتطلبه مثيلتها بلغته الأصلية، وهو جهد يصرف معظمه على إسقاط الصعوبات اللغوية.

قال آخر: بالإضافة إلى ما ذكرتم وجدت أثناء تدريسي في كلية طبية تدرس باللغة الأجنبية أن الحاجز اللغوي يحول دون قيام حوار مفتوح بين الطالب والأستاذ بحيث يبقى الطالب مستمعاً مستقبلاً للمعلومات لا يجرؤ على مناقشة الحالات المعروضة وهذا ما يفسد العملية التعليمية.

قال آخر: أرجو ألا يفهم زوارنا الأكارم أعضاء الهيئة المحترمين أننا نطلب بمقاطعة

اللغات الأجنبية مقاطعة تامة.. نحن لا نقصد هذا، ولم نطبقه في جامعتنا.. فالانفتاح على المعارف يقتضي التعرف على لغاتها.. ولذلك نضع في المقررات التي ألفناها أو ترجمناها المصطلح الأجنبي إلى جانب المصطلح العربي، بحيث يرتبط ذلك المصطلح بما يفهمه الطالب من النص العربي.

وحرصاً على فتح المجال أمام الطلاب للإطلاع على المراجع الأجنبية ومتابعة التطورات الحديثة فقد أشرفنا على برنامج لتعليم اللغات الأجنبية للتمكن من الاطلاع مباشرة على المراجع الأجنبية، والمساهمة في الكتابة بها أو الترجمة.. وقد قام بهذا مدرسون من كلية الآداب.. وهو برنامج يمتد سنوات معدودة يصل الطالب في نهاية الدراسة، وقد استوعب الطب بلغته الأصلية، وأضاف إليه اللغات التي تؤهله للاستزادة من المراجع الأجنبية بعد أن تغلب على الصعوبات اللغوية بفضل هذا التدريس الموجه إلى معرفة اللغة والتأكد من المصطلحات.

قال آخر: لقد استطعنا بهذا الإجراء أن نجعل طلبتنا غير معزولين عن الحركة العلمية في العالم، ذلك أنهم يطالعون الدوريات الطبية، بل يساهمون بمنشوراتهم فيها.. بل شارك الكثير من الخريجين من جامعتنا في مؤتمرات علمية عالمية.

قال آخر: وهذا ما تقوم به الكثير من الدول المتطورة.. فهم يدرسون الطب بلغتهم الأصلية، ثم يتابعون مسيرة العلم باللغة الإنكليزية، باعتبارها اللغة الغالبة في عصرنا.. ولذا فإننا حين ندعو إلى تعليم الطب باللغة العربية ليس ذلك من منطلق تعصبي، بل لتسهيل وصول المعلومات إلى الطالب بشكل مفهوم، ولضمان مشاركته في عملية التعلم ولإزاحة كابوس ينوء تحته أبناؤنا ويضيع عليهم فرصاً ثمينة في سياق دراستهم.

بعد انتهاء دعاة تدريس العلوم باللغة العربية من حديثهم، قام بعض المعارضين من

الهيئة المسؤولة عن تطوير العلوم، وقال: بورك فيكم جميعا.. لا أدري كيف أصف لكم شعوري، وأنا أسمع منكم تلك الأدلة والشهادات والتجارب الدالة على قدرة اللغة العربية على اقتحام كل المجالات.. وحُق لها ذلك؛ فاللغة التي استطاعت أن تعبر عن حقائق الوجود، وقيم الحضارة، لن تعجز عن مواكبة كل تطور.. وأنا الآن أتشرف بأن أتحول إلى أحد الدعاة إلى ما تدعون إليه، وقد تخليت عن كل دعواتي السابقة، وأستغفر الله منها.. فقد كنت أحارب لغة القرآن الكريم من حيث لا أشعر.

قام آخر من المعارضين: اسمحوا لي أن أذكر لكم سرا، وأرجو أن يظل بيننا.. نعم أنا كنت أدعو إلى تعليم العلوم باللغات الأجنبية.. ولم أكن مقتنعا بذلك أبدا.. ولكن الطمع وحب الجاه هو الذي ألجأني إلى ذلك.. لقد ذهبت مرة إلى مؤتمر من المؤتمرات خارج بلدي.. وهناك تم اصطيادي بشبكات المال والجاه، لأتحول إلى داعية للأجانب في بلدي.. وأنا الآن قد تبت من ذلك.. وسأعلن توبتي على الملأ.. وسأصبح داعية إلى ما تدعون إليه.

قام ثالث، وقال: وأنا على مذهبكم.. وقد جربت ذلك مع أولادي.. فأنا وإن كنت في الخارج أمام الملأ أدعو إلى تعليم العلوم باللغة الأجنبية إلا أني كنت إذا ما خلوت مع أولادي أشرح لهم تفاصيلها باللغة العربية، لأني قد رأيت صعوبة فهمهم لتلك العلوم بغير لغتهم الأصلية.

قام آخرون من المعارضين، وقالوا مثل هذه الأقوال، أو ما هو قريب منها.. وانفض الجمع بعد ذلك، وهم فرحون بما توصلوا إليه من نتائج..

أشار إلي عبد المعز، وهو يقول: لا تنس أن تكتب كل ما رأيت وسمعت.. وأخبر قومك أنهم لن يعزوا حتى تصبح اللغة العربية عزيزة بينهم.. ولن يتقدموا حتى يقدموها على كل لغات العالم.. ولن يتطوروا حتى ينظروا إليها باعتبارها لغة التطور والتقدم، وفي

كل المجالات.. ولن يتم لهم ذلك جميعا إلا بالتقرب منها وحبها.. لا لذاتها، وإنما لكونها الوسيلة التي عُبر بها عن كلمات الله المقدسة.. فلولاه لم تكن شيئا مذكورا.

القرآن.. والدقة والضبط

ما إن قال لي عبد المعز هذا، حتى وجدتني أمام مدرسة عتيقة، قد التف طلبتها حول شيخ يبدو عليه الوقار والهيبة على الرغم من ملابسه البسيطة، بل الرثة التي كان يرتديها.. لكن طلبته مع ذلك كانوا يبجلونه غاية التبجيل، بل يكتبون كل كلمة يقولها، أو إشارة يشير بها.

بينما كنت أنظر إليهم من بعيد متعجبا، إذا بشخص يقول لي: عجبا لك، ولهمتك الدنية، تأتيك الفرصة سانحة لتجلس بين يدي نابغة زمانه في العلم والذوق، والدقة والضبط، والتحقيق والإتقان، والإجادة والإحسان، والإحكام والبراعة، والبروع والحذاقة، والحذق والمهارة، ثم تعرض عنه، وكأنك لم تره.

قلت: معاذ الله أن أعرض عنه.. ولكني متعجب منه، ومن التلاميذ المحيطين به.

قال مبتسما: ومن ثيابه الرثة البالية.

قلت: أجل.. أليس بوسع هؤلاء التلاميذ المحبين أن يجمعوا له من المال ما يشتري به ثيابا جديدة سليمة؟

قال: هذا رجل زاهد في كل متاع الدنيا.. ولو أذن لنا أو لأغنياء بلدتنا لاشتروا له الحلي والحلل، وأسكنوه بدل كوخه الحقير القصور الفخمة، ولكنه يرغب عن ذلك.. ولا يقبل من عطايا الأمراء والوزراء، فكيف يقبل عطايا تلاميذه وطلبته؟

قلت: لكن ألم يمنعه علمه عن تقشفه وتضييقه على نفسه؟.. ألم يسمع بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]؟

قال: بلى.. هو سمعها، وسمع معها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]

قلت: ولكن الخطاب فيها لرسول الله ﷺ.. وليس لأمته.

قال: لقد ذكر لنا أنه سمع معها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

قلت: فكيف لم تطلبوا منه أن يجمع بين الآيات الكريمة؟

قال: لقد جمع بينها من غير أن نطلب منه.. فذكر لنا أن الرخصة في التمتع بالزينة، والكمال في الزهد فيها اقتداء برسول الله ﷺ.

قلت: ولكن لا أرى تلاميذه يقتدون به في هذا.

قال: هو ينهاهم عن ذلك.

قلت: لم.. أينهى عما يفعل؟.. ألم يسمع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]؟

قال: معاذ الله أن يكون كذلك.. عندما طلبنا منه أن نتأسى به في ذلك غضب غضبا شديدا، وقال: الله أمركم بالتأسي بنبيه.. لا بي.. ثم قال لنا: عندما تتذوقون من القرآن الكريم ما أتذوقه، وتلبسون من حليه ما ألبسه.. حينها يمكنكم أن تفعلوا بأنفسكم ما تشاؤون.. ثم ذكر لنا قوله ﷺ جوابا لمن سأله عن الوصال: (إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني) (١).. ثم ذكر لنا أن الحلاوة التي يجدها في القرآن الكريم تجعله يزهد في كل ما سواه.

قلت: إن حديثك عنه رغبني فيه كثيرا.. فليتني أجد في علمه ما وجدته في زهده.

---

(١) البخاري، (٣/ ٣٧)، ومسلم (٢/ ٧٧٤)

قال: ستجد في علمه ما ينسيك زهده.. فلولا علمه ما كان زهده.

أولا ـ دقة الكلمات:

ما إن جلست في حلقته، حتى سمعت بعض التلاميذ يقول ـ مخاطبا الشيخ ـ: مولانا.. هلا حدثتنا عن أسرار البيان القرآني المرتبط بدقة كلماته وضبطها، وكونها في المحال الخاصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

قال الشيخ[1]: بورك فيك، وفي سؤالك الوجيه، وفي استدلالك بالآية الكريمة؛ فلا يمكن أن يكون القرآن الكريم محكما ومفصلا ما لم يشمل ذلك الإحكام والتفصيل كل أجزائه.. وأولها كلماته.. ذلك أن الكلمات هي اللبنات التي يتشكل منها كل كلام.

ولذلك نرى اهتمام القرآن الكريم بدقة الكلمات، ودلالتها على المراد منها، وقد نبه إلى ذلك عند دعوته لانتقاء الكلمات واختيارها قبل التفوه بها.. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]، فقد نهت الآية الكريمة المسلمين أن يقولوا: ﴿راعنا﴾ لأن هذه الكلمة كانت لليهود كلمة مثلها يستعملونها في السب، وأصلها كلمة عبرانية معناها (أحمق)، فلما سمع اليهود المسلمين يقولون هذه الكلمة افترصوها، ومن هنا ورد النهي عنها وجيء لهم بلفظ يعدله في المعنى لا شُبهة فيه لأحد، وهو ﴿أنظرنا﴾ لعدم التشبه باليهود فيما يقولون، ولكى يسد عليهم منافذ الطعن والسباب.. فالخطأ ـ هنا ـ مُلاحَظ فيه تنزيه مخاطبات المسلمين عما يردده أعداؤهم من اليهود مما له معنى مشين.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا

---

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٥٢)

يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]، فالخطأ في قول الأعراب: ﴿آمَنا﴾ لأن اللغة والشرع يفرقان بين معنى اللفظين، فالإيمان الذي اشتقوا منه الفعل ﴿آمَنا﴾ مطلوب في تحقيقه أمران: نطق باللسان، وتصديق بالقلب ليواطئ القول الاعتقاد، وهم لم يكونوا كذلك لأن نصيبهم من الشريعة حين ادعوا ذلك لا يجاوز القول باللسان والمتابعة الظاهرين بدليل: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ في قُلوبِكُمْ﴾، وحالهم هذه ينطبق عليها معنى الإسلام ـ الذي اشتق القرآن منه في توجيههم ﴿أسلمنا﴾ ـ إذ هو حقيقة الامتثال الظاهري للشريعة من قول أو عمل، لذلك وجههم الله تعالى إلى أن يقولوا قولاً مطابقاً لحالهم وهو ﴿أسلمنا﴾

قال التلميذ: فهلا حدثتنا عن أسرار كلمات القرآن، ودلالاتها على إعجازه.

قال الشيخ[1]: أين أنا ـ يا بني ـ وإدراك أسرار كلمات القرآن، فهي مثل القرآن الكريم تماما لا حدود لها، ولا طاقة لأحد بالإحاطة بها، ذلك أنه من المتعذر أن ينهض لبيان ذلك شخص واحد، ولا حتى جماعة في زمن ما، مهما كانت سعة علمهم واطلاعهم، وتعدد اختصاصاتهم.. ذلك أن القرآن الكريم أكبر من أن يحيط به أي زمان؛ فهو مفتوح للنظر والتدبر، ولكل الأجيال.. ولهذا يجد كل جيل فيه ما لم يكن يخطر على من قبله على بال.

ومن الأمثلة على ذلك، ومن واقع تجربتي مع الكلمة القرآنية، أني سمعت وقرأت لأشخاص مختصين بالتشريع والقانون يبيّنون إعجاز القرآن التشريعي، ويبينون اختيارات الألفاظ التشريعية في القرآن ودقتها في الدلالة على دقة التشريع ورفعته ما لا يصح استبدال غيرها بها، وإن اختيار هذه الألفاظ في بابها أدق وأعلى مما تبين لغيرهم من المهتمين بالجوانب الفنية والجمالية.

---

(١) استفدنا المادة العلمية هنا من كتاب: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي (٥)

ومثل ذلك قرأت وسمعت لأشخاص متخصصين بعلم التشريح والطب في بيان شيء من أسرار التعبير القرآني من الناحية الطبية التشريحية ودقتها يفوق ما ذكره علماء البلاغة.. فألفاظه مختارة في منتهى الدقة العلمية، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من مراحل تطور الجنين في الرحم، وهي التي انتهى إليها العلم مما لم يكن معروفاً قبل هذا العصر مما دعا علماء أجانب إلى أن يعلنوا إسلامهم.. وليس ذلك فقط، بل إن في اختيار التعبير بـ (العلقة) و(المضغة) مثلاً أعجب اختيار علمي[1].

فاختيار التعبير بـ (العلقة) مثلا، اختيار له دلالته، لأن الجنين في هذه المرحلة أشبه شيء بالعلقة، وهي الطفيلية المعروفة.. ومثل ذلك التعبير بـ (المضغة)؛ فهي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ.. وقد أثبت العلم الحديث أن الجنين في هذه المرحلة ليس قطعة لحم عادية، بل هو كقطعة اللحم التي مضغتها الأسنان، فاختيار لفظ (المضغة) اختيار علمي دقيق.. فهو لم يقل [قطعة لحم صغيرة]، ولو قال ذلك لكان صواباً، ولكن قال: (مضغة) لما ذكرتُ، وربما لغيره أيضاً مما قد يكشف عنه مستقبلا.

ومثل ذلك قرأت ما توصل إليه علم التاريخ، وما دلت عليه الحفريات الحديثة من أخبار ذي القرنين أدق الكلام، وأدق الأخبار، ما لم يكن يعرفه جميع مفسري القرآن فيما مضى من الزمان.. فالذي اكتشفه المؤرخون والآثاريون وما توصلوا إليه في هذا القرن منطبق على ما جاء في القرآن الكريم كلمة كلمة، ولم يكن ذلك معلوماً قبل هذا القرن البتة.

ومثل ذلك قرأت في اختيار التعبير القرآني لبعض الكلمات التاريخية كـ (العزيز) في قصة يوسف، وكاختيار تعبير (الملك) في القصة نفسها، واختيار كلمة (فرعون) في قصة موسى، فعرفت أن هذه ترجمات دقيقة لما كان يُستعمل في تلك الأزمان السحيقة فـ (العزيز)

---

(١) ذكرنا ذلك بتفصيل في كتاب: القرآن كلمة الله.

أدق ترجمة لمن يقوم بذلك المنصب في حينه، وأن المصريين القدامى كانوا يفرقون بين الملوك الذين يحكمونهم فيما إذا كانوا مصريين أو غير مصريين، فالملك غير المصري الأصل كانوا يسمونه (الملك)، والمصري الأصل يسمونه (فرعون)، وأن الذي كان يحكم مصر في زمن يوسف غير مصري، وهو من الهكسوس فسماه (الملك)، وأن الذي كان يحكمها في زمن موسى هو مصري فسماه (فرعون)، فسمى كل واحد بما كان يُسمى في الأزمنة السحيقة.

وهكذا قرأت الكثير من الإشارات الإعجازية في مختلف العلوم، كما في أسرار البحار، والضغط الجوي، وتوسع الكون، وبداية الخلق، ما دعا كثيراً من الشخصيات العلمية إلى الشهادة للقرآن بذلك، بل فيهم من أعلن إسلامهم بعد أن رأى آيات الله واضحة متجلية أمامه.

بل إني وجدت أثناء بحثي في هذه المسائل أن هناك أموراً لم يكن من الممكن معرفتها من غير صعود في الفضاء واختراق الغلاف الجوي للأرض، ومع ذلك أشار إليها القرآن الكريم إشارات في غاية العجب.. ذلك أن الإنسان إذا اخترق الغلاف الجوي للأرض، وجد نفسه في ظلام دامس وليل مستديم، ولم تُر الشمس إلا كبقية النجوم التي نراها في الليل.. فالنهار الذي نعرفه نحن، لا يتعدى حدود الغلاف الجوي فإن تجاوزناه كنا في ظلام لا يعقبه نهار. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فإذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].. فالآية الكريمة تصور النهار بصورة الجلد الذي يُسلخ، وأما الليل؛ فهو الأصل، وهو الكل؛ فشبّه الليل بالذبيحة، والنهار جلدها، فإن سُلخ الجلد ظهر الليل فجعل النهار غلافاً، والليل هو الأصل.

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].. أي لو

مكنّاهم من الصعود إلى السماء لانتهوا إلى ظلام وقالوا ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، وهو ما دل عليه الواقع العلمي الحديث، بعد ارتياد الفضاء.

وبناء على هذا كان البحث في الكلمة القرآنية، كالبحث في القرآن الكريم جميعا، متشعب الاتجاهات، ولذلك ذكرت لكم أن الأمر أكبر من أن ينهض له واحد أو جماعة في زمن ما.. فلكل زمان فتوحه الخاصة به، كما يشير على ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]

قال التلميذ: هل تقصد من هذا أن اختيار كلمات القرآن الكريم روعيت فيه كل النواحي، لا الجمالية فقط، والتي يهتم بها عادة علماء البلاغة.. أو معناها الظاهري والتي يهتم بها المفسرون أو علماء المفردات القرآنية؟

قال الشيخ: أجل.. فبالتدبر في الكلمات القرآنية تجدون إعجازاً لغوياً جمالياً، وفي الوقت نفسه إعجازاً علمياً، أوإعجازاً تاريخياً، أو إعجازاً نفسياً، أو إعجازاً تربوياً، أو إعجازاً تشريعياً، أو غير ذلك من أنواع الإعجاز التي لم تفتح أبوابها بعد.

ولهذا، يأتي اللغوي ليبيّن مظاهر إعجازه اللغوي، وأنه لا يمكن استبدال كلمة بأخرى، ولا تقديم ما أُخّر ولا تأخير ما قُدّم، أو توكيد ما نُزع منه التوكيد أو عدم توكيد ما أُكّد.. ويأتي العالم في الطب ليقول من وجهة نظر تخصصه ما هو ألطف وأدق مما يقوله اللغوي.. ويأتي عالم الشريعة ليقول مثل ذلك من وجهة نظر التشريع والقانون.. ويأتي المؤرخ ليقول مثل ذلك من وجهة نظر التاريخ.. ويأتي صاحب كل علم ليقول مثل ذلك من وجهة نظر علمه.

قال التلميذ: ما دام الأمر كذلك.. فلم يعبر علماء البلاغة عما اكتشفوه بأنه هو عين

الإعجاز القرآني؟

قال الشيخ: إعجاز القرآن الكريم لا يمكن الإحاطة به.. ولهذا؛ فإننا على ضوء تخصصنا في علوم البلاغة والبيان قد نشير إلى مواطن الفن والجمال في هذا التعبير الفني الرفيع، ونضع أيدينا على شيء من سُمو هذا التعبير، ونبيّن إن هذا التعبير لا يقدر على مجاراته بشر، بل ولا البشر كلهم أجمعون، ومع ذلك لا نقول إن هذه هي مواطن الإعجاز، ولا بعض مواطن الإعجاز، وإنما هي ملامح ودلائل تأخذ باليد، وإضاءات توضع في الطريق، تدل السالك على أن هذا القرآن كلام فني مقصود وُضع وضعاً دقيقاً ونُسج نسجاً محكماً فريدا، لا يشابهه كلام، ولا يرقى إليه حديث، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].. أما شأن الإعجاز فهيهات، فهو أعظم من كل ما نقول، وأبلغ من كل ما نصف وأعجب من كل ما نقف عليه من دواعي العجب.

قام تلميذ آخر، وقال: وعينا ـ مولانا ـ ما ذكرته لنا، ونحن نعلم صعوبة ما طلبناه، ولكنا مع ذلك لا نكلفك إلا ما آتاك الله من طاقة ووسع.. وفي حدود تخصصك العلمي الذي نتتلمذ عليك فيه.. ولهذا نرجو أن تذكر لنا بعض الأمثلة عن عجائب الدقة والضبط في الكلمات القرآنية.

قال الشيخ: ذلك لكم.. اسألوا عما تشاؤون، وسأجيبكم في حدود طاقتي وعلمي.

قال التلميذ[١]: لقد حاولت مع أربعة من زملائي أن نفهم الأسرار المودعة في الكلمات القرآنية؛ فوجدنا أن ذلك يقتضي منا علوما نتدرب عليها.. وأولها التعرف على سر مادة الكلمة، أي معناها الذي يستفاد من مادتها.. وثانيها التعرف على سر هيئة الكلمة، أي

(١) استفدنا الكثير من المادة العلمية هنا من كتاب: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، (ص ٢٦١)

معناها المستفاد من هيئتها.. وثالثها التعرف على سر حروف المعاني وأدوات الربط التي تربط بين الكلمات.. ورابعها التعرف على سر تعريفها بأي نوع من أنواع التعريف، أو سر تنكيرها.. فهل لك أن تجيبنا أستاذنا على ما أشكل علينا أثناء بحثنا في هذا.

قال الشيخ: لكم ذلك.. فسلوا ما شئتم.

١ . مادة الكلمة ومعناها:

قال التلميذ: اسمح لي أستاذنا أن أبدأ أنا بالسؤال عن مجموعة آيات كريمة، أريد أن تذكر لي فيها ملاءمة كلماتها لسياقها الذي وردت فيه.

قال الشيخ: لك ذلك.. فسل ما بدا لك.

قال التلميذ: ما السر في محل اسم الله تعالى ﴿الرَّحْمَنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].. ذلك أن اسم ﴿الرَّحْمَنَ﴾ لا يتلاءم في الظاهر مع الخشية، وانما يكون التلاؤم ظاهرا لو قال: من خشي الجبار أو القهار.. فكيف قرن بالخشية اسمه تعالى ﴿الرَّحْمَنَ﴾ الدال على سعة الرحمة؟

قال الشيخ[1]: ذلك للثناء البليغ على الخاشي، وهو خشيته مع علمه أنه واسع الرحمة، كما أثنى عليه في موضع آخر بأنه خاش مع علمه أن المخشي منه غائب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات.

قال التلميذ: أبهذا يفسر أيضا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].. وهل هي من جنس ما يروى عن الإمام علي أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه، فنظر فإذا هو بالباب فقال له: مالك لم تجبنى؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك،

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٣١٠٣٠٩.

فاستحسن جوابه وأعتقه.. أو من جنس قولهم: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه؟

قال الشيخ: لا.. فالآية الكريمة تعني أن الإنسان العاقل العارف بالله هو الذي لا يغتر بتكرم الله عليه، فيتصور أنه سيعفيه من التكاليف التي كلف بها، مثلما حصل لصاحب الجنتين عندما قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في التعبير عن الفساد بعدم الصلاح في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، فلم لم يقل: إنه عمل فاسد؟

قال الشيخ[1]: لما نفى الله تعالى الولد عن أن يكون من أهل نوح عليه السلام نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفى، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهله وأقاربه.. وهو يعني بهذا أنه لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]

ولهذا الرمز الخفي يصف الله تعالى يوم القيامة بأنه عسير، ثم يصفه بأنه غير يسير على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ مع أن ﴿عَسِيرٌ﴾ مغن عنه؟

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٣١٢.

قال الشيخ(١): لما قال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فقصر العسر عليهم، قال: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم، وبشارة المؤمنين وتسليتهم.. ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجع يسيرا، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في وصف الله تعالى القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢].. حيث جمع بين نفي العوج واثبات الاستقامة، وفي أحدهما غنى عن الآخر؟

قال الشيخ(٢): فائدته التوكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، لكنه مع ذلك لا يخلو من العوج عند السبر والتصفح.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في كلمة ﴿عِوَجاً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].. مع أنهم قالوا: إن العِوج بالكسر في المعاني، والعَوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟

قال الشيخ(٣): اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون.. ذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٥١٧.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٥٤٨.

(٣) الكشاف ج ٣ص ٦٩.

بالقياس الهندسى.. ولهذا نفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالمقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لمّا لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل ﴿عِوَجاً﴾

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في تعبير القرآن الكريم بكلمة ﴿سِيقَ﴾ في جانب الكافرين وسوقهم إلى جهنم زمرا، وفي جانب المؤمنين وسوقهم إلى الجنة زمرا في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]؟

قال الشيخ(١): المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف، كما يُفعل بالمجرمين إذا سيقوا إلى حبس أو قتل.. والمراد بسوق أهل الجنة، سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين، فشتان ما بين السوقين.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في تعبير القرآن الكريم بكلمة ﴿غوى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].. ولم لم يقل: (وزل آدم وأخطأ) وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات؟

قال الشيخ(٢):في ذلك لطف بالمكلفين، ومزجرة بليغة، وموعظة كافة.. كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبى المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه اقتراف الذنوب، زلته بهذه الغلظة، وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر، فضلا أن يجسروا على التورط في الكبائر.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في وصف القرآن الكريم نوحا ولوطا عليهما

---

(١) الكشاف ج ٤ص ١١٤.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٧٤.

السلام بوصف [العبد] الذي يشمل الناس جميعا برهم وفاجرهم، في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]؟

قال الشيخ(١): ذكر النبيين عليهما السلام بأنهما عبدان كسائر العباد من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده، دلالة على أن أي عبد لا يُكرم عند الله تعالى إلا بالصلاح وحده لا غير، وما سواه مما يرجح به الناس ليس بسبب للرجحان.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].. فلم قال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ﴾ ولم يقل: فإن وهبن وسمحن؟

قال الشيخ(٢): في الآية الكريمة دليل على ضيق المسلك في ذلك، ووجوب الاحتياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل: ﴿فَإِنْ طِبْنَ﴾ إعلاما بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة.. وهكذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ﴾ ولم يقل: فإن طبن لكم عنها، بعثا لهن على تقليل الموهوب.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فلم ورد التفريق بين الخلق والجعل في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؟

قال الشيخ: ذلك لأن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التصيير، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]زَوْجَهَا﴾،

(١) الكشاف ج ٤ص ٤٥٨.

(٢) الكشاف ج ١ص ٣٦٣.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، وقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]

قال التمليذ: وعيت هذا.. فما السر في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤]؟.. ولم عبر بكلمة ﴿الْقَوْلَ﴾؟

قال الشيخ: القول عام يشمل السر والجهر، فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم سرهم، كما أن قوله (يعلم السر) آكد من أن يقول: يعلم سرهم، ثم بين ذلك بأنه ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لذاته فكيف تخفى عليه خافية؟

قال التلميذ: فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]؟

قال الشيخ[(١)]: أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه، من قبل أنه قدم هاهنا أنهم أسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة، ثم قصد وصف ذاته بأنه: ﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، وهو كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨]، وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في كلمة ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].. وما

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٨١.

علاقتها بالذبذبات الحسية؟

قال الشيخ[1]: الآية الكريمة تعني أن الشيطان والهوى ذبذبهم بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون.. وحقيقة المذبذب الذي يُذب عن كلا الجانبين، أي يدفع فلا يقر في جانب واحد إلا أن الذبذبة فيها تكرار ليس في الذب، وبذلك يصير: كلما مال إلى جنب ذب عنه.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فكيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].. وهل كلمة ﴿تَمْسَسْكُمْ﴾ مستعارة لمعنى الإصابة، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]، وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِّ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]

قال الشيخ: يمكنك أن تقول ذلك إن لم تفرق بين سياق الآيات التي قرأتها[2].. لكنك إن فعلت ذلك؛ فسترى أن في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] تحذيرا للمسلمين من الاطمئنان إلى الكافرين، ثم تصور ما تنطوي عليه صدورهم من الكراهية والبغضاء، وتعتب على المسلمين غفلتهم وحبهم لهؤلاء الذين لا يحبونهم، ثم رسمت صورتهم وهم في خلوتهم يعضون الأنامل من الغيظ.. فكان المقتضى والحال أن يكون مس الحسنة، وهو أقل قدر من الخير ينال المسلمين، مسيئا لهم أبلغ إساءة، وأن تكون إصابة السيئة وتمكنها من المؤمنين أمرا سارا لهم، فالمس لا يساوي

(١) الكشاف ج ١ص ٤٤٩.

(٢) وهو ما ذهب إليه الزمخشري، الكشاف ج ٤ص ٤١٧.

الإصابة.. ولو رجعنا إلى الأصل اللغوي لوجدنا المس أقل من الإصابة فالمس هو اللمس، ومن مجازاة مس العذاب ومس الخير.. ولهذا كثر استعمال المس في القرآن للإصابة الخفيفة كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، وقوله:﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقوله:﴿لَا يَسْأَمُ الإنسان مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].. وغيرها من الآيات التي يهدينا فيها التأمل إلى أن المس فيها أقل من الإصابة[1]، كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله: (يمكن أن يقال: المس أقل تمكنا من الاصابة وكأنه أقل درجاتها، فكان الكلام والله أعلم: ان تصبكم الحسنة أدنى اصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها وان تمكنت الاصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم)[2]

قال التلميذ: وعيت هذا.. لكننا مع ذلك نجد بعض الآيات يُستعمل فيها المس مع العذاب الأليم كقوله تعالى حكاية عن مخاطبة الجاحدين لرسلهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]، وقوله في آية الافك: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩]، وقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]

---

(١) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، (ص ٢٧١)

(٢) حاشية ابن المنير هامش الكشاف ج ١ ص ٣١٣.

قال الشيخ: إن سياق الآيات التي قرأتها، ومقام التهديد والوعيد فيها يُكسب المس معنى أقوى وأبلغ، وذلك بخلاف قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فإن سياقها يساعد على الذي ذكرته لك.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في كلمات: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٨]، وهل هي ذات معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة المبالغة(١).

قال الشيخ(٢): يمكنك أن تقول ذلك بالنظر المبدئي.. لكنك إن أمعنت النظر؛ فستجد فروقا بين الكلمات الثلاث المضافة إلى اليوم، فإن ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يشير إلى ما يلاقيه إبليس من الجزاء على معصيته وتمرده.. و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ تشير إلى طلب أقصى مدة؛ فإبليس يطلب الإنظار إلى يوم البعث لا إلى يوم تقوم الساعة.. و﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ فيه نبرة تهديد لا تخطئها الأذن، أي إلى يوم الوقت الذي تعرف ما فيه من العذاب والأخذ الشديد.. فإذا كانت الكلمات الثلاث تشترك في المدلول العام؛ فإن لكل كلمة خصوصية في الدلالة لاءمت موقعها.

٢. هيئة الكلمة ومعناها:

بعد أن انتهى التلميذ الأول من ذكر ما أشكل عليه من الأسرار المرتبطة بمادة الكلمة ومعناها، قام تلميذ آخر، وقال: أما أنا فائذن لي أستاذنا الفاضل أن أسألك عن بعض ما أشكل علي مما يرتبط بهيئة الكلمة ومعناها.

---

(١) هذا قول الزمخشري في الكشاف ج ١ ص ٤٥٠.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، (ص ٢٧٣)

قال الشيخ: لك ذلك.. فسل ما بدا لك.

قال التلميذ: ما السر في مجيء كلمة ﴿النَّهَر﴾ مفردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤].. مع أن الجناتِ قبله جَمْعٌ، بخلاف المواضع الأخرى من القرآن الكريم، فإنه إذا جمع الجنة، جمع النهر أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].. وهل ذلك ـ كما يذكر بعضهم ـ يرجع إلى النواحي الجمالية والبديعية المرتبطة بالنظم.. فقد جاءت الآية الكريمة ضمن هذا النظم: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٢-٥٥]؟

قال الشيخ(١): لذلك علل كثيرة، منها أن النهَر اسم جنس بمعنى الأنهار، وهو بمعنى الجمع.. وقد يؤتى بالواحد للدلالة على الجمع والكثرة، ومنه ما ورد في الأثر: (أهلكَ الناسَ الدينارُ والدرهم)، والمراد بالدينار والدرهم الجنس لا الواحد.

ومنها: أن من معاني ﴿النَّهَر﴾ السَّعة.. والسَّعة ههنا عامة تشمل سعة المنازل وسعة الرزق والمعيشة، وكل ما يقتضي تمام السعادة السعة فيه.. ولذلك فسر بعهضم ﴿النَّهَر﴾ بالسَعة في الأرزاق والمنازل.

ومنها: أن من معاني ﴿النَّهَر﴾ الضياء.. أي: في ضياء وسعة، لأن الجنة ليس فيها ليل، إنما هو نور يتلألأ.

وهذه المعاني كلها صحيحة مُرادةٌ مطلوبة، فإنَّ المتقين في جنات وأنهار كثيرة جارية، وفي سعة من العيش والرزق والسكن وعموم ما يقتضي السعة، وفي ضياء ونور يتلألأ ليس عندهم ليل ولا ظلمة.

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٧٠)

قال التلميذ: فما سر مجيء كلمة ﴿شَجَرَةٍ﴾ مفردة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]

قال الشيخ[١]: أريد بذلك تفصيل الشجر، وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا بريت أقلاما.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما السر في مجيء كلمة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ مفردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] مع أنها ذكرت جماعة.. فهلا قيل: إنما أولياؤكم؟

قال الشيخ: أصل الكلام: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ﴾؛ فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ، والمؤمنين على سبيل التبعية، لا على سبيل الأصالة.. ولو قيل: [إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا]، لم يكن في الكلام أصل وتبع[٢].

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإفراد في كلمة ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وجمع كلمة ﴿صَلَوَاتِهِمْ﴾ في قوله بعدها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] مع أنها وردت في سياق واحد، وآيات متحدة في الغرض؟

قال الشيخ[٣]: جاءت مفردة في الآية الأولى لتدل على الخشوع في جنس الصلاة، أي أيّ صلاة كانت، وجمعت آخرا لتدل على المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس،

(١) الكشاف ج٣ص ٣٩٦.

(٢) الكشاف ج١ص ٥٠٥.

(٣) الكشاف ج٣ص ١٤٠.

والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، والعيدين، والجنازة، والاستسقاء.. وغيرها.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإفراد والجمع في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].. فلم جمع الشافعين، ووحد الصديق؟

قال الشيخ[١]: لكثرة الشفعاء في العادة، وقلة الصديق.. ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وان لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك، فأعز من بيض الأنوق، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقيل: اسم لا معنى له.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الجمع في كلمة ﴿الْمُجِيبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]؟

قال الشيخ[٢]: صيغة الجمع تشعر بمعاني التعظيم والاجلال، حينما يوضع ما للجماعة للواحد. وقد أشار النحاة إلى هذا المعنى في الضمائر وقالوا: (إن ضمير جمع المتكلمين المتصل أو المنفصل قد يأتي للمتكلم المعظم نفسه).. وبذلك؛ فإن الجمع دليل العظمة، والمعنى: (إنا أجبناه أحسن إجابة وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون)

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الجمع في كلمة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وهي جمع قلة، فلم لم يجمعها جمع كثرة ﴿الأذلاء﴾؟

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٢٥٤.

(٢) الكشاف ج ٤ص ٣٧.

قال الشيخ(1): جاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال، وقلة السلاح والمال المركوب.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الجمع في ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ولم لم يقل بدلها [عيون]؟

قال الشيخ(2): لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالاضافة إلى عيون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].. وهل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟

قال الشيخ(3): نعم.. وما اختير ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء، وحالا بعد حال، وكأن السامع حاضر يسمعها تسبح.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].. فلم قيل: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم يقل قابضات؟

قال الشيخ(4): لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة.. فالطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها.. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى

(١) الكشاف ج ٤ص ٣١٦.
(٢) الكشاف ج ٣ص ٢٣٣.
(٣) الكشاف ج ٤ص ٦١٦٠.
(٤) الكشاف ج ٤ص ٤٦٥.

أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح.. ذلك أن الفعل يفيد التجدد والحدوث، والاسم يفيد الثبوت والاستمرار.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار صيغة المضارع في كلمة ﴿تُثِيرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] دون ما قبله وما بعده، والتي جاءت بصيغة الماضي؟

قال الشيخ[١]: ليحكي الحال التي تقع عليها إثارة الرياح السحاب، ولتُستحضر تلك الصورة البديعية الدالة على القدرة الربانية.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار صيغة المضارع في كلمة ﴿تَقْتُلُونَ﴾ في قوله تعالى مخاطبا بنى اسرائيل ومنكرا عليهم جسارتهم على أنبيائهم عليهم السلام: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].. فهلا قيل (وفريقا قتلتم)؟

قال الشيخ[٢]: لأن الأمر فظيع؛ فأريد استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب.. لأن صيغة المضارع تساعد على ذلك بخلاف صيغة الماضي.. وقد نجد في القرآن الكريم ما هو خلاف ذلك.. أي قد يقع المضارع موقع الماضي، لأن الغرض منه حينها ليس استحضار الصورة، وانما الإشارة إلى أن هذا الحدث مستمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]

قال التلميذ: كنت أود أن أسألك عن هذا.. فلم قيل ﴿يُطِيعُكُمْ﴾دون أطاعكم؟

قال الشيخ[٣]: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبون،

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٢٧٤.

(٢) الكشاف ج ١ص ١٢١.

(٣) الكشاف ج ٤ص ٢٨٧.

وأنه كلما عنّ لهم رأى في أمر كان معمولا عليه بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾، كقولك: فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم، تريد أنه مما اعتاده ووجد منه.

ومثل هذا المعنى للفعل المضارع الواقع موقع الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الحج: ٢٥]، ذلك أنه يقال: فلان يحسن إلى الفقراء، وينعش المضطهدين، لا يراد حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الحال منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته.

قال التلميذ[1]: هل يعني ذلك أن في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ دلالة على أن الصدود منهم مستمر دائم؟

قال الشيخ[2]: أجل.. فصيغة المضارع تدل على ذلك.. فكلمة ﴿يَصُدُّونَ﴾، تدل على استمرار الصد، وأنه غير متجدد، فلذا لا تتخلله فترات انقطاع للحدث بل هو مستمر دائم.. كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حسن عطفه على الماضي.

قال التلميذ: أهذا هو السر في اختيار صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣].. فلم يقل (أوحى) ليدل على أن الوحي من عادته؟

قال الشيخ[3]: أجل.. ومثلها الكثير من المواضع، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] حيث قال ﴿فَتُصْبِحُ﴾، ولم يقل: (فأصبحت)، ليشير إلى أن خضرتها تبقى وتتجدد زمانا بعد زمان.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختلاف نوع الفعل في الآية الواحدة والمقام

---

(١) الكشاف ج ٣ص ١١٩.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ج ٦ص ٢٩١.

(٣) الكشاف ج ٤ص ١٦٣، ج ٣ص ١٣٢.

الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤].. فلم لم يقل: إني أشهد الله وأشهدكم؟

قال الشيخ(١): لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل بهم عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار صيغة (فعّل) على صيغة (أفعل) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

قال الشيخ(٢): لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم، وهو من مجازه، لمكان التحدى، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفا لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوما، سورة بعد سورة، وآيات عقب آيات، على حسب النوازل والحوادث، وعلى سنن ما ترى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا وشيئا فشيئا حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].. وكأنه قيل لهم: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجما فردا من نجومه.

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٣١٥.

(٢) الكشاف ج ١ص ٧٣.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار صيغة (فعل) و(افتعل) في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].. ولم خص الخبر بالكسب، والشر بالاكتساب؟

قال الشيخ(١): في الاكتساب اعتمال؛ فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة اليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد؛ فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار بناء الماضي للمجهول في قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]؟

قال الشيخ(٢): لما رأى السحرة آية موسى عليه السلام واستيقنوها بعد ما سحروا أعين الناس واسترهبوهم بادروا بالانقياد والسجود لله سبحانه.. والآية الكريمة تصور هذه المفاجأة العظيمة، وهذه السرعة الفائقة في الانقياد والاستسلام في هذا الموقف الذي تمثل فيه الصراع بين حق موسى وباطل فرعون واجتمع الناس فيهم لعلهم يتبعون السحرة إن كانوا هم الغالبين، بهذه الصيغة ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ أي أنهم خروا سجدا، كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، أو أنهم لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا..

ويشبه ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].. فمجيء إخباره على الفعل المبني للمجهول للدلالة على الجلالة والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله.. فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ

---

(١) الكشاف ج ١ص ٢٥٤.

(٢) الكشاف ج ٢ص ١١١.

أَقْلِعِي﴾ ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره[1].

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر ورود فعل ﴿وَوَدُّوا﴾ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]

قال الشيخ[2]: مع أن الفعل الماضي يجري في باب الشرط مجرى المضارع إلا أن وروده به فيه سر خاص، فكأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم.. أي أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارا.. وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأولها.. لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر ورود الفعل ماضيا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] على اعتبار أن الفتح فتح مكة؟

قال الشيخ[3]: وروده على لفظ الماضي على عادة القرآن الكريم في إخباره عن المستقبل، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى.. ومثلها قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختلاف اسمي ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الصيغة مع

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٣١١.

(٢) الكشاف ج ٤ص ٤٠٩.

(٣) الكشاف ج ٤ص ٢٦٣٢٦٢.

كون جذرهما اللغوي واحدا؟

قال الشيخ[1]: في ﴿الرَّحْمَنِ﴾ من المبالغة ما ليس في ﴿الرَّحِيمِ﴾، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا.. بناء على أن الزيادة في البناء تؤدي لزيادة المعنى.. وقد قال بعض اللغويين في الغضبان الممتلئ غضبا: (ومما طن على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقدف، وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق، فقلت في طريق الطائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل؟ أردت المحمل العراقى، فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت: بلى فقال: هذا اسمه الشقنداف، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى)

فمع أن كلمة الشقنداف التي رواها عن الأعرابي ليست من كلامهم، لكنها مع ذلك دلت على جذر هذا الأصل اللغوي في فطرة الأعراب.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار كلمة ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ بدل (مرضع) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]؟

قال الشيخ: المرضعة التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها للصبى.. والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها.. ولهذا قيل ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة[2].

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار كلمة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ بدل كلمة (طاهرة) في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧]؟

---

(١) الكشاف ج ١ص ٥.

(٢) الكشاف ج ٣ص ١١٢.

قال الشيخ[1]: في كلمة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهرا طهرهن، وليس ذلك إلا لله عز وجل.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بـ ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ دون الوالد في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؟

قال الشيخ[2]: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم.. فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير باسم المفعول بدل الفعل في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ولم لم يقل: ذلك يوم يُجمع له الناس؟

قال الشيخ[3]: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه لا بد من أن يكون ميعادا مضروبا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضا لإثبات الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، ولهذا يقال في التهديد: (إنك لمنهوب مالك، محروب قومك).. ولما في ذلك من تمكن الوصف، وثباته، وهو لا يوجد في الفعل.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بـ [أفعل التفضيل] في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]؟

قال الشيخ[4]: هو إيذان بأن الشيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية، والحسن الذين يعملون هو عند الله الأحسن

(١) الكشاف ج ١ص ٨٢.
(٢) الكشاف ج ١ص ٢١٢.
(٣) الكشاف ج ١ص ٣٣٤.
(٤) الكشاف ج ٤ص ١٩٩.

لحسن إخلاصهم فيه، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوإ، وحسنهم بالأحسن.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار التأنيث على التذكير في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].. فلم قيل (كاشفات) و(ممسكات) على التأنيث، مع أنه ورد قبلها قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]؟

قال الشيخ[1]: ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة، لأن الأنوثة تدل على اللين والرخاوة، كما أن الذكورة تدل على الشدة والصلابة كأنه قال: الإناث اللاتي تعبدونهن وهن اللات والعزى ومناة، واللاتي ذكرن في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ [النجم: ١٩-٢١] أضعف مما تدعون لهن وأعجز.. وفيه تهكم أيضا.. ويشير إلى مثل هذا المعنى في التأنيث قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر قوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مع أن الإشارة للشمس؟

قال الشيخ[2]: جُعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت أمك، ومثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].. وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ألا تراهم قالوا في صفة الله (علام) ولم يقولوا (علامة)، وان كان (العلامة) أبلغ، احترازا من علامة التأنيث.

٣. الحروف والأدوات:

---

(١) الزمر: ٣٨.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٣٢.

بعد أن انتهى التلميذ الثاني من ذكر ما أشكل عليه من الأسرار المرتبطة بهيئة الكلمة ومعناها، قام تلميذ آخر، وقال: أما أنا فائذن لي أستاذنا الفاضل أن أسألك عن بعض ما أشكل علي مما يرتبط بحروف المعاني وأدوات الربط.

قال الشيخ: لك ذلك.. فسل ما بدا لك.

قال التلميذ: ما سر التعبير بـ (ثم) في القرآن الكريم؟

قال الشيخ[1]: لهذا الحرف في القرآن الكريم أصلان يرجع معنى (ثم) غالبا إليهما:

أما **الأول**، فهو الاستبعاد.. وذلك إذا كان ما قبل (ثم) من الأحداث والأفعال مهيئا لعدم حصول ما بعدها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فإن الإعراض عن آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] فقد وردت (ثم) هنا للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر[3].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤]

وأما **الثاني**؛ ببيان البعد بين الأمرين، وهذا غير الاستبعاد، إذ المراد أن الأمرين من

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، (ص ٢٨٩)

(٢) الكشاف ج ٢ص ٤٠٧.

(٣) الكشاف ج ٢ص ٤٨٨.

جنس واحد، ولكن ما بعد (ثم) أعلى مرتبة في هذا الجنس وأبلغ مما قبلها؛ فليس بين الأمرين منافاة كما في الاستبعاد، وإنما بينهما تفاوت وهما من جنس واحد.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] فمعنى (ثم): بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار، وجعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة[(١)].

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بـ (الفاء) في القرآن الكريم؟

قال الشيخ: أحسن مواقعها ما تدل فيه على المفاجأة.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]، فهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم اليها الالتفات وحذف القول.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]؛ فهي جواب شرط يدل عليه الكلام، أي: إن كنتم منكرين البعث؛ فهذا يوم البعث.. أي فقد تبين بطلان قولكم[(٢)].

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بـ (قد) في القرآن الكريم؟

قال الشيخ[(٣)]: (قد) تدل على التوقع، واذا دخلت على المضارع كانت بمعنى (ربما)

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٥.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٣٨٤.

(٣) الكشاف ج ٢ص ١٣.

فوافقتها في الخروج إلى معنى التكثير، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].. فقد أدخل (قد) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أن (قد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى التكثير.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فقد في ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ بمعنى (ربما) التي تجيء لزيادة الفعل وكثرته.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بـ (ربما) في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]؟

قال الشيخ: هي تفيد التقليل.. وهو وارد على مذهب العرب في قولهم: (لعلك ستندم على فعلك)، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل، لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون، كما يتحرزون من المتيقن، ومن القليل منه كما من الكثير، ولذلك كان المعنى في الآية: (لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحرى أن يسارعوا اليه؛ فكيف وهم يودونه في كل ساعة)[1]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر استعمال اختلاف حروف الجر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ الله وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؟

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٤٤٣، ٤٤٤.

قال الشيخ[1]: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار (على) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فلم قيل: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، ولم يقل (لكم شهيدا)، وشهادته لهم لا عليهم؟

قال الشيخ[2]: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء، كما في قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله على لسان رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر اختيار (على) في قوله تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم: ٢١-٢٢]؟

قال الشيخ[3]: لما كان الغدو اليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه لا له، كما تقول: عدا عليه العدو.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بـ (على) بدل (اللام) في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]

(١) الكشاف ج ٣ص ٤٥٩.

(٢) الكشاف ج ١ص ١٤٩.

(٣) الكشاف ج ٤ص ٤٧٣.

قال الشيخ[1]: عُبّر بـ (على) مع سبق الضار، كما عُبّر بـ (اللام) مع سبق النافع، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٢]، وقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بلام الجر في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢]، وما الفرق بينها وبين قولنا: أكان عند الناس عجبا؟

قال الشيخ[2]: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم وليس في (عند الناس) هذا المعنى.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر تعدي الفعل باللام في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، بينما ورد التعدي بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى الله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]

قال الشيخ[3]: معناه مع اللام أنه جعل وجهه، وهو ذاته، سالما لله، أي خالصا له.. ومعناه مع (إلى) أنه أسلم اليه نفسه، كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع اليه.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر تعدي فعل المغفرة بـ (من) في خطاب الكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

(١) الكشاف ج ٣ص ١٥٤.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٢٥٧.

(٣) الكشاف ج ٢ص ٣٩٤.

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].. بينما لم يرد ذلك التعدي في خطاب المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]

قال الشيخ(١): لئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد.. وليشمل كل خطايا المؤمنين.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فلم عُدي فعل الايمان بـ (الباء) إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين ب (اللام)في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]

قال الشيخ: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعدى بـ (الباء)، وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلّم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده؛ فعدى بـ (اللام)، ويدل على ذلك قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، وقوله: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقوله: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التعبير بأداتي الشرط (إن) و(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].. فكيف قيل ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ ب ﴿فَإِذَا﴾.. و﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بـ

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٤٢٣.

﴿وَإِنْ﴾.. ولم نكّرت السيئة؟

قال الشيخ[1]: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه، أما السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها، ومنه قول بعضهم: (قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء)

٤. أسرار التعريف والتنكير:

بعد أن انتهى التلميذ الثالث من ذكر ما أشكل عليه من الأسرار المرتبطة بالحروف والأدوات، قام تلميذ آخر، وقال: أما أنا فائذن لي أستاذنا الفاضل أن أسألك عن بعض ما أشكل علي مما يرتبط بأسرار التعريف والتنكير.

قال الشيخ: لك ذلك.. فسل ما بدا لك.

قال التلميذ: ما سر التعريف ب (ال) في كلمة ﴿النَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]؟

قال الشيخ[2]: لذلك وجوه.. منها أن اللام في (الناس) للعهد، أي كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه.. أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم، ومن أبناء جنسهم، أي كما آمن أصحابكم وإخوانكم.. أو للجنس، أي كما آمن الكاملون في الإنسانية.. أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر إضافة الآيات للقرآن في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]؟

---

(١) الكشاف ج ٢ص ١١٤١١٣.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤٩.

قال الشيخ(١): إضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة اليه.. ومثله الإضافة الواردة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ الله وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]، فإنها إنما أضيفت إلى اسم الله تعظيما وتفخيما لشأنها، وأنها جاءت من عنده لكونها آية من آياته(٢).

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإضافة في كلمة ﴿شُرَكَائِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]؟

قال الشيخ(٣): هي حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]؛ فإضافة الشركاء إليه تعالى على زعمهم توبيخا لهم.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإضافة في كلمة ﴿بِوَلَدِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]

قال الشيخ(٤): لما نُهيت المرأة عن المضارة أضيف اليها الولد استعطافا لها عليه، وأنه ليس بأجنبي منها، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد، كما قال تعالى بعدها: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإضافة في كلمة ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]؟

قال الشيخ(٥): أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحدة، وذلك أدعى إلى العطف والرحمة، وأعظم للحق الواجب.. أو لأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها.. أو لأنها هي

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٣٧٣.
(٢) الكشاف ج ٢ص ٥٩.
(٣) الكشاف ج ٢ص ٤٦٩.
(٤) الكشاف ج ١ص ٢١٣.
(٥) الكشاف ج ٢ص ١٢٧.

التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإضافة في كلمة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]؟

قال الشيخ(١): معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده زلزال.. وهو مثل قولك: أكرم التقي إكرامه، وأهان الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة.. أو تفيد زلزالها كله وجميع ما هو ممكن.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التنكير في كلمة ﴿هُدىً﴾ في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾؟

قال الشيخ(٢): نكرت كلمة ﴿هُدىً﴾ لتفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه، ولا يقدر قدره، كأنه قيل: على أي هدى، كما تقول: لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا.. وذلك مثل قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩].. أي أرضا منكورة مجهولة بعيدة عن العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر كلمة ﴿بَعْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ الله أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]؟

قال الشيخ: يعني بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه فوضع ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ موضع ذلك، وأراد أن لهم ذنوبا جمة كثيرة العدد، وأن هذا الذنب مع عظمه بعضها، وواحد منها.. أو هذا الإبهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر الإبهام في كلمة ﴿بَعْضَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٦٢٤وما بعدها.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٣٤٨.

الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]؟

قال الشيخ[1]: في هذا الإبهام من تفخيم فضل من رفع درجته، وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العَلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس، ولهذا يقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم.. يريد الذي اشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح وأنوه بصاحبه، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؛ فذكر زهيرا والنابغة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر تنكير كلمة ﴿غِشَاوَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]؟

قال الشيخ[2]: معنى التنكير أن على أبصارهم نوعا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر تنكير كلمة ﴿لَأَجْرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣]؟

قال الشيخ[3]: التنكير للتعظيم كقول العرب: إن له لإبلا، وإن له لغنما.. يقصدون الكثرة.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التوحيد والتنكير في ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]؟

---

(١) الكشاف ج ١ص ٢٢٦.

(٢) الكشاف ج ١ص ٤١.

(٣) الكشاف ج ٣ص ١١٠.

قال الشيخ[1]: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة.. ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم.. وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة، وإن ملؤوا ما بين الخافقين.. ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٧]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]؛ تنكير العقدة، وتنكير النفس لغرض التقليل[2].

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التنكير في كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، مع أن كل نفس تعلم ما أحضرت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]؟

قال الشيخ[3]: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه، ومنه قوله عز وجل: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، أي (كم يودون).. وهو مثل قول بعض قواد العساكر إذا سئل: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رب فارس عندى.. أو: لا تعدم عندي فارسا، مع أن عنده الكثير، وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد؛ فجاء بلفظ التقليل؛ ففهم منه معني الكثرة على الصحة واليقين.

قال التلميذ: فهل هذا يشبه ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]؟

قال الشيخ[4]: أجل.. يجوز أن يكون المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر، أو

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٤٨١.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤٨، ج ٤ص ٤٠٦.

(٣) الكشاف ج ٤ص ٥٦٧.

(٤) الكشاف ج ٤ص ١٠٥.

أن يراد بها نفس متميزة بلجاج في الكفر، أو أن يراد التكثير، مثلما يقال: رُب بلد قطعت، ورب بطل قارعت.. وهو لا يقصد إلا التكثير.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التنكير في كلمة ﴿رَجُلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] مع أن المقصود بها رسول الله ﷺ، وقد كان مشهورا في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم؟

قال الشيخ[١]: نكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يدل على مجهول في أمر مجهول، وكانوا يقصدون بذلك السخرية منه؛ فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهى، متجاهلين به وبأمره.

قال التلميذ: وعيت هذا.. فما سر التنكير في كلمة ﴿مَاءً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]؟

قال الشيخ[٢]:فيه إيذان باقتداره تعالى، وأنه لا يتغابى عليه شيء إذا أراده، وهو مثل ما ورد في الوعيد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]

ثانيا ـ دقة الجمل:

ما انتهى الشيخ من حديثه مع تلاميذه، حتى سمعنا الأذان يرفع بالصلاة؛ فسكت الشيخ إلى أن انتهى الأذان، ثم ختم مجلسه، وانفض تلاميذه، وبقيت جالسا، أنتظر أي يد تربت على كتفي، لتأخذني إلى محل آخر من محال البيان.

وقد شاء الله أن تكون تلك اليد هي يد الشيخ الزاهد نفسه، فقد خاطبني بقوله: ألا

(١) الكشاف ج ١ص ٤٥٠.

(٢) الكشاف ج ٣ص ١٤١.

تقوم للصلاة؟

قلت: بلى.. ولكني كنت أنتظر من أسير معه إليها؛ فأنا غريب في هذه البلاد، ولا طاقة لي بالسير وحدي فيها.

قال الشيخ: وهل مع الله غربة؟.. وهل مع إخوانك المؤمنين غربة؟.. وهل يمكن للشخص أن يكون غريبا في بلاد القرآن الكريم؟

قلت: لقد كنت أستمع إليك، وأنا منبهر بما آتاك الله من ذوق رفيع، وحجة بالغة.. فمن أي قبيلة عربية أنت؟.. وكيف اكتسبت هذا؟

قال: بل قل: كيف فتح الله عليك به.. فالعلوم فتوح لا مكاسب.. أما عن قبيلتي.. فأنا رجل من أهل فارس.. ولم يكن لي علم باللغة العربية.. بل لم أكن مسلما أصلا.. لكن الله شاء أن يقول لي بعض المسلمين أثناء دعوته لي: أنى لك أن تفهم إعجاز القرآن، وأنت رجل أعجمي.. وليس لك من سبيل لإدراك ذلك سوى حسن الثقة في شهادة من تحداهم القرآن الكريم.. ثم ذكر لي بعض ما يدل على ذلك من أخبار.

لكني ـ ولشدة تعلقي بالإسلام، ورغبتي في إيمان المشاهدة العيان ـ رحت مع خمسة من زملائي، ندرس اللغة العربية، بكل تفاصيلها، ومن مصادرها الأصلية.. بل إننا تركنا الجاه والمال الذي كنا فيه، ورحنا نسكن البوادي، ونصاحب الأعراب، بل نرعى لهم إبلهم وغنمهم مقابل أن نتعلم منهم لغتهم.. إلى أن من الله علينا بفهمها وتذوقها.. وقد تذوقنا من خلالها القرآن الكريم، بل عشقناه، وآمنا به إيمان عيان ومشاهدة، لا إيمان تقليد واتباع.

قلت: إن ما سمعته منك من معان يقصر الأعراب والعرب الأقحاح دون التعرف عليها؟

قال: ألم تسمع بقوله ﷺ: (نضر الله امرؤا سمع منا شيئا، فبلغه كما سمع؛ فرب مبلغ

أوعى من سامع)[1]؟

قلت: بلى.. ولكن ما تقصد منه؟

قال: لقد شاء الله للعرب أن يتشرفوا بأن يكونوا متذوقين لبلاغة القرآن بالأصالة.. وشرفنا بأن نتذوقها بالتعلم والاكتساب والتدرب.. ونحن نرجو أن يرزقنا الله من فضله لا بقدر جهدنا وصدقنا وإخلاصنا، وإنما بقدر فضله وكرمه.

قال ذلك، ثم طلب مني أن أسير معه للمسجد.. وبعد أن صليت الفريضة، جلست مستندا إلى سارية من السواري، في انتظاره، أو في انتظار من يأخذ بيدي، وما هي إلا لحظات، حتى قام الشيخ، وقال: لقد شاء الله أن يجتمع اليوم في مسجدنا للصلاة خمسة من كبار أعلام البيان.. ونحن لن نأذن لهم بالانصراف منه حتى نستفيد من كل واحد منهم علما من العلوم التي تقربنا إلى القرآن الكريم.

وقبل أن يتقدموا للحديث، أريد أن أذكر لكم أنهم جميعا ممن آتاه الله البصيرة في دينه، والمجاهدة في سبيله.. وكلهم ضحى بكل ما يملك في سبيل أن يتعلم لغة القرآن الكريم، ليتذوق حقائقه ومعانيه.. وكلهم مصاديق لقول رسول الله ﷺ: (لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء)[2].. يشير إلى أهل فارس، أو من كان قريبا منهم من غير العرب.

قام بعض المصلين، وقال: إن أذنت لنا شيخنا؛ فإنا نريد أن نسألهم عن معاني وأسرار ترتبط بالجملة القرآنية.. فقد علمنا أن لهم من الفقه فيها ما ليس لغيرهم.

قال الشيخ: لك ولكل من حضر المجلس أن يسأل ما يشاء.. فهم بحمد الله لن يضيقوا بأسئلتكم.. وكيف يضيقون بها، وهم الذين قدموا إليكم لأجل إجابتكم عنها؟

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجة (٢٣٢) تفسير ابن كثير، (٨/ ١١٦)

(٢) رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير،

١ . أسرار التقديم والتأخير:

قام العالم الأول، وقال: بما أني أكبر القوم؛ فاسمحوا لي أن أكون أول من يتصدى لجوابكم.. فسلوا ما بدا لكم.

قال بعض الحضور: لقد علمنا أن من أسرار البيان القرآني معرفة أسباب التقديم والتأخير التي تُرتب على أساسها الكلمات في الجملة.. فهل لك أن تحدثنا عنها؟

قال الشيخ: بورك فيك، وفي سؤالك.. وهو وجيه جدا.. فبالتقديم والتأخير تنكشف الكثير من الحقائق والأسرار، وخاصة في الكلام المقدس الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].. فالله لا يقدم إلا ما حقه التقديم، ولا يؤخر إلا ما حقه التأخير.. بالإضافة إلى أن البيان يبحث في أسرار وقوع الكلمات في مواقعها، ما جاء منها على الأصل وما جاء على خلافه.

وقد رأيت من خلال بحثي في هذا، أن التقديم نوعان: التقديم بين جزئي الجملة.. والتقديم في المتعلقات.. فعن أيهما تريدون مني أن أتحدث.

أ ـ التقديم بين جزئي الجملة:

قام بعض الحضور، وقال: حدثنا أولا عن التقديم بين جزئي الجملة.

قال الشيخ[1]: يشمل التقديم بين جزئي الجملة تقديم الخبر على المبتدأ سواء أكان مفردا أو جارا ومجرورا أو ظرفا، كما يشمل تقديم المبتدأ على الخبر سواء أكان هذا الخبر فعلا أو اسما.

قال السائل: ألا ترى شيخنا أن ذكرك لتقديم المبتدأ على الخبر غريبا، لأن المبتدأ حينما يتقدم على خبره يكون قد وافق الأصل، وما جاء على الأصل لا يسأل عن علته، وقد قال

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، (ص ٣٢٥)

بعضهم معبرا عن ذلك: (إنها يقال مقدم ومؤخر للمزال لا للقار)

قال الشيخ: لقد كنت أقول بهذا.. لكني رأيت أن هذا يمكن أن ينطبق على سائر الكلام ما عدا القرآن الكريم؛ ولهذا كنت أسأل في كل محل تقدم فيه المبتدأ على الخبر عن علة ذلك.. ولم جاء هذا الأسلوب على الأصل، وكان يمكن فيه المخالفة؟.. فالسكوت عن السؤال عن علة ما جاء على الأصل أمر لا يطمئن اليه الدارس المتشوق إلى معرفة أسرار لغة القرآن الكريم.

قال السائل: وعينا هذا، ونحن معك فيه.. فحدثنا عن أسرار تقديم الخبر عندما يكون جارا ومجرورا.

قال الشيخ[1]: هو حينها يدل في الغالب على الاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].. فتقديم الظرف في قوله ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ يدل على الاختصاص، يعني لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]

ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].. فسر تقديم الظرف هنا للتشديد في الوعيد، وللإخبار أن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير، ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة، وإلا فإن الله أعظم من أن يوجب عليه أحد شيئا، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٥٩٥.

وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]، وغيرها كثير.

قال السائل: فما سر التقديم في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].. وكيف تنفي الاستدلال بها على الرؤية الحسية، والتي يذكرها المجسمة؟

قال الشيخ: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ تدل على معنى الانتظار والترقب، لأنه لو كان بمعنى الرؤية للزم عليه أن هذه الوجوه لا تنظر إلا إلى ربها كما هو مقتضى التقديم، والواقع أن هذه الوجوه تنظر يوم القيامة إلى أشياء كثيرة، لأن أصحابها آمنون، وهم نظارة ذلك اليوم[1].

قال السائل: فما سر التقديم في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ولم لم يقدم الظرف على الريبة كما قدم على الغول في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]؟

قال الشيخ: لأن القصد نفي الريب عنه واثبات أنه حق وصدق، لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعون، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتابا آخر فيه ريب، لا فيه، كما قصد ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]؛ فتفضيل خمر الجنة على الدنيا، بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي من باب (ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة)[2]

قال السائل: فما سر التقديم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]؟

قال الشيخ[3]: لأنه كان أهم عنده.. وفيه ضرب من التعجب والإنكار، لرغبته عن

---

(١) ينظر الكشاف ج ٤.

(٢) الكشاف ج ١ص ٢٧.

(٣) الكشاف ج ٣ص ١٥.

آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد.

قال السائل: فما سر التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وقوله بعدها: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].. فكيف قُدمت الزانية على الزاني أولا، ثم قدمه عليها ثانيا؟

قال الشيخ(١): سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة في العادة والغالب(٢) هي المادة التي منها نشأت الجناية، لأنها لو لم تطمع الرجل، ولم تومض له، ولم تمكنه لم يطمح ولم يتمكن؛ فلما كانت أصلا وأولا في ذلك، بدئ بذكرها.. وأما الثانية فمسوقة لذكر الزواج، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب.

ب ـ التقديم في المتعلقات:

قام رجل آخر، وقال: حدثتنا عن أسرار التقديم بين جزئي الجملة.. فحدثنا عن أسرار التقديم بين المتعلقات بها.

قال الشيخ: التقديم في المتعلقات ينقسم قسمين: تقديم المتعلقات على العامل.. وتقديم بعض المتعلقات على بعض.

قال السائل: فحدثنا عن أسرار تقديم المعمول على العامل.

قال الشيخ(٣): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ فقوله ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ خرج عن سنن الخطاب مقدم فيه (النجم)،

---

(١) الكشاف ج ٣ص ١٦٨١٦٧.

(٢) والآية طبعا تتحدث عن الزنا برغبة، وليس عن الغصب، لأن المرأة لا تعاقب فيه، بل يعاقب الرجل عقوبة الغصب والحرابة.

(٣) الكشاف ج ٢ص ٤٦٦.

ومقحم فيه (هم).. كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون.. وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس بكل النجوم يهتدون.. ولا كل الناس يطيق الاهتداء بها، بل هو خاص بمن يعرف مواضعها.

قال السائل: أهو نفسه سر التقديم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].. لقد كنت أقول لنفسي: أي فائدة في تقديم الظروف حتى أوقع فصلا؟

قال الشيخ[1]: أجل.. والفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

قال السائل: أهو نفسه سر التقديم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]؟

قال الشيخ: أجل.. وهو نفسه في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣١-٣٢]

قال السائل: فما وجه التقديم في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].. وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].. وهل لها نفس ما سبق من الأمثلة؟

قال الشيخ: الأكل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣] محصور في الحب لأنه هو الشيء الذي يتعلق به معظم

(١) الكشاف ج٣ص ١٧٣.

العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، واذا قل جاء القحط، ووقع الضر، وجاء الهلاك، ونزل البلاء(١).

والأكل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] محصور في الأنعام، لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه(٢).

قال السائل: فما وجه التقديم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].. فلم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا؟

قال الشيخ(٣): لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم.

قال السائل: فلم أُخرت الصلة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقدمت في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]؟

قال الشيخ: في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] قُصد الاختصاص فقيل ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وان كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر.. وأما في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] لا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل

(١) الكشاف ج ٤ص ١١.
(٢) الكشاف ج ٢ص ٤٦٢.
(٣) الكشاف ج ١ص ١٤٩.

من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى[1].

قال السائل: فبم يتعلق قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]

قال الشيخ: بمحذوف تقديره: (ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك، ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الاسلام وإظهاره وابطال الكفر ومحقه، ويجب أن يقدر المحذوف متأخرا حتى يفيد معنى الاختصاص، فينطبق عليه المعنى[2]..

ومثله[3] قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] في سورة الفاتحة، وفي كل سورة، لأنّ الأهم من الفعل والمتعلق به، هو المتعلق به، لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء، وذلك بتقديمه، وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]

قال السائل: لكن ذلك قد يعارض بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فقد قدّم فيها الفعل.

قال الشيخ: ذلك يحسن لأن تقديم الفعل أوقع، لأنها أوّل سورة نزلت؛ فكان الأمر بالقراءة أهم.

قال السائل: فما معنى تعلق اسم الله بالقراءة في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]؟

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٣٧٥، وقد علق ابن المنير على هذا بقوله: (كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر) حاشية ابن المنير في نفس الكتاب.

(٢) الكشاف ج ٢ص ١٥٠.

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣.

قال الشيخ[1]: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتابة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى أنّ المؤمن لما اعتقد أنّ فعله لا يجيء معتدا به في الشرع، واقعا على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله ﷺ: (كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر) إلا كان فعلا كلا فعل، جعل فعله مفعولا باسم الله كما يفعل الكاتب بالقلم.. والثاني أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومعناها حينئذ: متبرّكا بسم الله أقرأ.. وهو مثل قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين، معناه أعرست ملتبسا بالرفاء والبنين، وهذا الوجه أعرب وأحسن.

قال السائل: فكيف قال الله تبارك وتعالى متبركا باسم الله أقرأ؟

قال الشيخ[2]: هذا مقول على ألسنة العباد، كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه ويمجدونه ويعظمونه.

قال السائل: لم قدمت الوصية على الدين في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]؟

قال الشيخ: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض كان إخراجها مما يشق على الورثة، ويتعاظمهم، ولا تطيب أنفسهم بها، كان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدّين، فان نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها، والمسارعة إلى اخراجها مع الدين، ولذلك جيء بكلمة (أو) للتسوية بينهما في

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٣.

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤.

الوجوب(١).

قال السائل: فلم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]

قال الشيخ(٢): لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر.

قال السائل: فما سر الترتيب الوارد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]

قال الشيخ(٣): بدأ بالأخ، ثم بالأبوين، لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين، لأنهم أقرب منه وأحب، كأنه قال: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته، وبنيه.

قال السائل: فما سر الترتيب الوارد في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]

قال الشيخ(٤): خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتى يقتل، وقدمهم في الذكر على الأنفس، لينبه على لطف مكانهم، وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها.

قال السائل: فما سر الترتيب الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].. ولم قدم رسول الله ﷺ على نوح فمن بعده؟

---

(١) الكشاف ج ١ص ٣٧٣.

(٢) الكشاف ج ٣ص ١٨١.

(٣) الكشاف ج ٤ص ٥٦٣.

(٤) الكشاف ج ١ص ٢٨٣.

قال الشيخ: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدّم من قدّمه زمانه.

قال السائل: فقد قدم نوحا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]؟

قال الشيخ[١]: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة الآية السابقة، ذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الاسلام بالأصالة والاستقامة، فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير.

قال السائل: فلم قدمت الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] مع أن حق السماء أن تقدم على الأرض كما في الكثير من الآيات؟

قال الشيخ[٢]: لما ذكر الله تعالى شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء.

قال السائل: فلم قدم الموت على الحياة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؟

قال الشيخ[٣]:لأن أقوى الدوافع إلى العمل تذكر الموت.. فقدم لأنه فيما يرجع إلى

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٤١٥.

(٢) الكشاف: ج ٢ص ٢٧٨.

(٣) الكشاف: ج ٤ص ٤٦١.

الغرض المسوق له الآية أهم.

قال السائل: فلم قدمت الإراحة على التسريح في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]؟

قال الشيخ[١]: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم آوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

قال السائل: فما السر في تقديم ﴿هَذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، ولم أخر عنها في قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]؟

قال الشيخ[٢]: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، وأن الكلام إنما سيق لأجله، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو المقصود بالكلام، وفي الأخرى المقصود هو المبعوث.

قال السائل: فما السر في تقديم اليهود في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]؟

قال الشيخ[٣]: وصف الله تعالى شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق، ولين عريكة النصارى، وسهولة ارعوائهم، وميلهم إلى الاسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا، وكذلك فعل في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

(١) الكشاف: ج ١ ص ٤٦٢.
(٢) الكشاف: ج ٣ص ٢٩٩.
(٣) الكشاف: ج ١ ص ٥٢٠.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، فإنه لما كان اليهود أدخل في وصف العداوة قدمهم القرآن وكذلك في الحرص على الحياة.

قال السائل: فلم قدمت الجبال على الطير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؟

قال الشيخ(١): لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

قال السائل: فما سر تقديم الدعاء بالاستغفار على تثبيت الأقدام في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]؟

قال الشيخ(٢): قدم الدعاء بالاستغفار على تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة.

قال السائل: فلم قدم الوعد على الرسل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].. لم لم يقل: مخلف رسله وعده.. لم قدم المفعول الثانى على الأول؟

قال الشيخ(٣): قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ثم قال ﴿رُسُلَهُ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟

---

(١) الكشاف ج ٣ص ١٠١.

(٢) الكشاف ج ١ص ٢٢٧.

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٤٤٠.

قال السائل: فما سر تقديم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؟

قال الشيخ[١]: لأن العبادة لا سبيل للعبد إليها إلا بمعونة من الله جل ثناؤه، وكان محالا أن يكون العبد عابدا إلا وهو على العبادة مُعان.

٢. أسرار الأمر والنهي:

بعد أن انتهى العالم الأول من حديثه، قام العالم الثاني، وقال: نشكر أخانا على هذه الإجابات الوافية الشافية.. وأنا الآن في خدمتكم بعده.. فسلوا ما بدا لكم.

قال بعض الحضور: لقد حدثنا صاحبك عن أسرار التقديم والتأخير.. ونحن نريد منك أن تحدثنا عن أسرار الأمر والنهي.

قال الشيخ[٢]: بورك فيك، وفي طلبك.. وهو وجيه جدا.. فبالتعرف على الأمر والنهي تتجلى الكثير من الحقائق المرتبطة بالتشريعات القرآنية.. ولهذا كان موضع عناية الأصوليين والفقهاء، لاهتمامهم ببيان ما يُراد بها في أمور الدين من ناحية الوجوب والندب والإباحة.. وأنا طبعا لن أحدثكم عنها، ولن أجيبكم على أسئلتكم في هذا المجال؛ فأنا لست مفتيا ولا فقيها.. ورحم الله أمرؤا عرف قدره، ولم يتجاوزه.. ولهذا اسألوني ما شئتم عن الأمر والنهي في البيان القرآني.

أ ـ أسرار الأمر:

قال السائل: ونحن لم نرد أن نسألك عن ذلك.. وهو الأهم عندنا.. فأخبرنا عن معنى الأمر في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ

(١) تفسير الطبرى ج ١ص ٧٠.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية (ص: ٣٦٨)

أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]

قال الشيخ[١]: هو طلب الفعل ممن هو دونك، وبعثه عليه، وبه سمى الأمر الذي هو واحد الأمور، لأن الداعى الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به فقيل له (أمر) تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به، كما قيل له (شأن) والشأن الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده.

قال السائل: فهل هو ثابت على هذا المعنى أم أن معاني الأوامر تتغير بتغير السياق؟

قال الشيخ: بل هي تتغير بتغير السياق.. فقد يراد من الأمر التهكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].. ففي أمرهم أن يستظهروا بأصنامهم التي لا تنطق في معارضة القرآن بفصاحته غاية التهكم[٢].

ومنها الاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].. قال ذلك استهزاء بهم أي: إن كنتم رجالا دافعين لأسباب الموت فادرؤوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

ومنها طلب الثبات على الفعل والزيادة منه كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالمراد بعبادة المؤمنين ازديادهم منهم وإقبالهم وثباتهم عليها، وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بد منه، وهو الإقرار كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرها وما لا بد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به[٣].

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٩١.

(٢) الكشاف ج ١ ص ٧٦.

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣٣٨.

ومنها الاباحة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢].. فإباحة الاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل: واذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا[١].

ومنها الدلالة على الحيرة والاضطراب في حال الشدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].. فهم إنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن[٢].

ومنها الاستعجال كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].. فقد قالوا ذلك استعجالا منهم للعذاب[٣].

ومنها الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]؛ فهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به[٤].

قال السائل: فما سر الدعاء الوارد في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]؟

---

(١) الكشاف ج ١ص ٦٨.
(٢) الكشاف ج ٢ص ٥٨٥.
(٣) الكشاف ج ٢ص ٩٧.
(٤) الكشاف ج ١ص ٣١٣.

قال الشيخ: هذا من الدعاء بما علم أنه واقع لا محالة، وقد لجأ إليه موسى عليه السلام بعد أن أفرغ عظيم جهده في الدعوة، لكنه لم يجد من قومه إلا إصرارا وعنادا.. وهو يشبه دعاء نوح عليه السلام، وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]

وهو في دعائه هذا يشبه من يقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكافر، مع علمه أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم صلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا، ويخلي بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه(١).

وعلى هذا المنوال ما ورد من الدعاء من باب اللجأ والضراعة إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فهو دعاء بما هو متيقن الوقوع؛ فوعد الله محقق الوقوع لا محالة.

قال السائل: فما سر الأمر الوارد في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٥]، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦]؛ فكيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبأن يعمل العصاة ما شاءوا، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟

قال الشيخ: معاذ الله أن يأمر الله بذلك.. وإنما ذاك الأمر مجاز عن الخذلان والتخلية، ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك علم أن ذلك الأمر خطأ، وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه، وقلت: أنت وشأنك، وافعل ما شئت.. فأنت لا تريد بهذا حقيقة الأمر، وكيف والآمر بالشيء مريد له وأنت شديد الكراهية متحسر، ولكنك كأنك تقول له: فإذ قد أبيت

(١) الكشاف ج ٢ص ٢٨٦.

قبول النصيحة فأنت أهل ليقال لك: افعل ما شئت، وتبعث عليه، ليتبين لك إذا فعلت صحة رأي الناصح، وفساد رأيك(١).

قال السائل: فما دلالة الأمر بالإيفاء عقب النهي عن البخس الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤-٨٥].. أليس النهي عن النقصان أمر بالايفاء فما فائدة قوله ﴿أَوْفُوا﴾؟

قال الشيخ: نهوا أولا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأن في التصريح بالقبيح نعيا على المنهى، وتعييرا له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول معرفا بلفظه، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه(٢).

قال السائل: فما دلالة الإشارة إلى التسوية بين فعل المأمور به وتركه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]؛ فكيف أمرهم بالانفاق ثم قال: ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾؟

قال الشيخ: هو أمر في الخبر، وهو دال على نهاية السخط على المأمور ورد أعماله اليه، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعا أو كرها.. ومثله قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، أي لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم.

وهو يشير كذلك إلى إهانة المأمور، واحتقاره، وازدرائه، وأنه لا يلتفت إلى فعله، كما

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٣٦٥.
(٢) الكشاف ج ١ص ٣٢٦.

في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، ففيها أمر بالاعراض عنهم، واحتقارهم، والازدراء بشأنهم، وألا يكترث بهم، وبإيمانهم، وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيرا منهم وأفضل، وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب، وعملوا بالوحي وبالشرائع قد آمنوا به وصدقوه(١).

قال السائل: فما دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]؟

قال الشيخ: هو من مجيء الخبر في صورة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، ومعناه (فسيضحكون قليلا ويبكون كثيرا)، إلا أنه أُخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره(٢).. وقد يعكس هذا فيقع الأمر في صورة الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء: ٧٦] فـ ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ فيه معنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١].. وهذا الأسلوب يدل على أنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، حتى صار يُخبر عنه(٣).

قال السائل: هل تقصد من هذا أن الأمر يصاغ بصيغة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه(٤).

قال الشيخ: أجل.. وقد يعبر القرآن الكريم عن حدث وقع بصيغة الأمر ليشير إلى كيفية وقوع هذا الحدث، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٥٤٥.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٢٣٣.

(٣) الكشاف ج ٢ص ٢٤٦.

(٤) الكشاف ج ٢ص ٣٧٢.

حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فمعنى قوله ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا﴾: فأماتهم، وانما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أُمروا بشيء؛ فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]

قال السائل: ما سر تعقيب الأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ذلك أن العادة جرت بأن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو اليها، ويبعث عليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا اليها؟

قال الشيخ: لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة، ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة؛ فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه، ويخشى عقابه.. ولأنه يدل على النعمة السابقة عليهم أن يتقوه في كفرانها، والتفريط فيها يلزمهم من القيام بشكرها.. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة، هي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله، فقيل: اتقوا ربكم الذي وصل بينكم، حيث جعلكم صنوفا مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة[1].

ب ـ أسرار النهي:

قام سائل آخر، وقال: أجبتنا عما أشكل علينا من أسرار الأمر ودلالاته.. فأجبنا عما

---

(١) الكشاف ج ١ص ٣٥٥.

أشكل علينا من أسرار النهي ودلالاته.

قال الشيخ: سلوا ما بدا لكم.

قال السائل: ما سر النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

قال الشيخ(١): النهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الاسلام إذا ماتوا، وهو كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فأنت لا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته، ولإظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة، وهو يشبه في ذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)؛ فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلا في المسجد.. وهو يشير كذلك إلى أن موتهم لا على حال الثبات على الاسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت ألا يحل فيهم، ومثله ما يقال في الأمر: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء، إذا مات، وإنما أمرته بالموت اعتدادا منك بميتته وإظهارا لفضلها على غيرها، وأنها حقيقة بأن يبحث عنها.

قال السائل: فما سر النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، مع أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم؟

قال الشيخ: هو لتأكيد الاستمرار على الحال التي عليها المخاطب، وذلك إذا كان المخاطب غير متصف بالمنهى عنه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]..

---

(١) الكشاف ج ١ص ١٤٣.

ومثله كل الآيات الكريمة التي نهي فيها رسول الله ﷺ عن أفعال لا يجوز عليه التلبس بها، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٤-٩٥]، أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك، والتكذيب بآيات الله.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٦-٨٨].. وكل ذلك لزيادة التثبيت والعصمة.

وكل ذلك نظير قوله تعالى في الأمر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، مع أن الداعي قد يكون على صراط مستقيم.. فهو يقصد طلب الثبات عليه.

قال السائل: فما سر النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].. فقد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده، ومع أموالهم؛ فلم ورد النهي عن أكله معها؟

قال الشيخ[1]: لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال، وهم على ذلك يطمعون فيها، كان القبح أبلغ والذم أحق، ولأنهم كانوا يفعلون كذلك فنعى عليهم فعلهم، وسمّع بهم ليكون أزجر لهم.

٣. أسرار النفي والإثبات:

---

(١) الكشاف ج ١ص ٣٨٥.

بعد أن انتهى العالم الثاني من حديثه، قام العالم الثالث، وقال: نشكر أخانا على هذه الإجابات الوافية الشافية.. وأنا الآن في خدمتكم بعده.. فسلوا ما بدا لكم.

قال بعض الحضور: لقد حدثنا صاحبك عن أسرار الأمر والنهي.. ونحن نريد منك أن تحدثنا عن أسرار النفي والإثبات.. فقد سمعنا أن النفي قد يأتي في صورة الإثبات.

قال الشيخ(١): أجل.. وهو حينئذ يدل على أبلغ الجحود والانكار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].. فإخراجه في معرض التسليم والإقرار، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء، ولو يستهزئوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا؟

قال السائل: فلم حذف حرف الإنكار الدال على النفي في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]

قال الشيخ: ليكون النفي أبلغ وآكد، وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه النفي والانكار، لانطوائه تحت حكم كلام مصور بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه، وانخراطه في مسلكه، وهو يشبه في ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤] فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟ أي كمثل جزاء من هو خالد في النار.

قال السائل: فلم حذف حرف الانكار، وما فائدة الحذف؟

قال الشيخ(٢): حذف حرف الانكار لزيادة تصوير مكابرة من يسوي بين التمسك

---

(١) الكشاف ج ١ص ٣٨٥، حاشية ابن المنير فى نفس الصفحة.

(٢) الكشاف ج ٤ص ٢٥٥.

بالبينة والتابع لهواه.. أو أنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يسقي أهلها الحميم.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ فالنفي هنا متوجه إلى معنى ثابت.

قال الشيخ(١): ليفيد بهذا أن وجوده مخالف لما ينبغي أن يكون، وأن الأصل في مثله أن يكون منفيا وذلك من باب التخييل، حيث خُيل أن من الممتنع المحال أن نجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والغرض منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع، ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتغلب في مجانبة أعداء الله، ومباعدتهم، والاحتراس عن مخالطتهم ومعاشرتهم.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].. فاجتناب ذلك واجب في كل حال؟

قال الشيخ(٢): ليس المراد تخصيص النفي بهذه الحالة، وانما المراد نفيه في كل الأحوال، وخصت هذه الحال لأن الفعل معها أقبح؛ فالنفس في طواعيتها لمجانبته أسرع.. وهو كلبس الحرير في الصلاة.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٣٩٦.

(٢) الكشاف ج ١ص ١٨٤.

قال الشيخ[1]: الشبع والري والكسوة والكن هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف، ولا إلى كسب كاسب، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هى: الجوع، والعرى، والظمأ، والضحوة، ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ فكيف قيد النفي في ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾

قال الشيخ[2]: المراد هنا هو نفي المقيد والقيد في كل الأحوال، فالنفي في الآية الكريمة للسؤال والإلحاف جميعا.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]

قال الشيخ: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معا.. أو أن يتناول الطاعة دون الشفاعة، كما تقول: ما عندي كتاب يُباع، فهو محتمل نفي البيع وحده، وأن عندك كتابا إلا أنك لا تبيعه، ويحتمل نفيهما جميعا، وأن لا كتاب عندك، ولا كونه مبيعا.

قال السائل: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله؟

قال الشيخ: على نفي الأمرين جميعا من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه، وأن الله لا يحب الظالمين فلا يحبونهم، واذا لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم.

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٧٣٧٢.

(٢) الكشاف ج ١ص ٢٤٣.

قال السائل: ما دام قد حصل الغرض بذكر الشفيع ونفيه، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟

قال الشيخ[1]: في ذكرها فائدة جليلة، وهي أنها ضُمت اليه ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف.. ومثاله أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو، فقلت: ما لي فرس أركبه، ولا معي سلاح أحارب به؛ فقد جعلت عدم الفرس، وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة، كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة، ولا فرس لي ولا سلاح معي، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]؛ فمعناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، ومثلها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].. فلم لم يقل ضلال، أو سفه؟

قال الشيخ[2]: قد يراد تعميم النفي وشموله، لكن يتجه النفي إلى أخص حالات المنفي التي يلزم من نفيها نفي ما عداها، ولذلك قال ﴿ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل (ضلال)، لأن الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال.. ومثله ما لو قيل لك: ألك تمر؟ قلت: ما لي تمرة.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] فلم نفي عنهم

---

(١) الكشاف ج ٤ص ١٢٣١٢٢.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٨٩.

الاستحسار الذي هو مبالغة في الحسور؟.. أليس الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور؟

قال الشيخ[1]: المراد نفي أدنى مراتب الحسور لا أبلغها، ونفي الأبلغ لا يستلزم نفي الأقل، ولكنه عمد إلى هذا ليشير إلى أن ما هم فيه من مواصلة العبادة حقيق بأن يصيبهم بغاية الضعف والكلال.. وبذلك فإن النفي قد يتجه إلى أبلغ حالات المنفي، والمراد نفيه في حالاته كلها؛ فنفي الأبلغ لا يقتضي نفي ما هو دونه، ولكن المتكلم يعمد إلى هذه الطريقة ليلفت إلى أن البلوغ إلى أبلغ الحالات في هذا الفعل المنفي حقيق بمن هو في مثل حاله.

قال السائل: فما سر النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] مع أن هذا من المعلوم نفيه؟

قال الشيخ[2]: هذا تهكم بمن كذبه، لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه ﷺ لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدا، ولا سمع فيه ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به، وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه، وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم، وقيل لهم: علمتم بالمكابرة أنه لم يكن شاهدا لما مضى من القرون الخالية.

قال السائل: فما سر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٨٥.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٣٩٥.

وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]؛ فلم قال: ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟

قال الشيخ(١): لأنه احتجاج في مقاولة خصوم موسى عليه السلام ومنكريه، وهو في حاجة إلى أن يلاوصهم ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة؛ فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له، وقبولهم منه، فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه، ليسمعوا منه، ولا يردوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا أن يتعصب له.. وهكذا نراه قدم الكاذب على الصادق من هذا الباب..ومثله قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

قال السائل: أمثل هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]

قال الشيخ(٢): أجل.. فهذا من الكلام المنصف الذي يشهد كل من سمعه من موال أو مناف بالإنصاف، ويقول لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك.. وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أفضى بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وفل شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق

---

(١) الكشاف (٤/ ١٦٣)

(٢) الكشاف (٣/ ٥٨١)

منا.

٤. أسرار الاستفهام والتعجب:

بعد أن انتهى العالم الثالث من حديثه، قام العالم الرابع، وقال: نشكر أخانا على هذه الإجابات الوافية الشافية.. وأنا الآن في خدمتكم بعده.. فسلوا ما بدا لكم.

قال بعض الحضور: لقد حدثنا صاحبك عن أسرار النفي والإثبات.. ونحن نريد منك أن تحدثنا عن أسرار الاستفهام والتعجب.

قال الشيخ: سلوا ما بدا لكم.

قال السائل: ما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣]

قال الشيخ[١]: في قوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل إلا الله وحده.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

قال الشيخ[٢]: المكرَه دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤].. فلم دخلت همزة الاستفهام على المفعول لا على الفعل؟

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٢٧٤.

(٢) الكشاف ج ٤ص ٦٥.

قال الشيخ[1]: لأن الانكار في اتخاذ غير الله وليا، لا في اتخاذ الولى؛ فكان أولى بالتقديم، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ الله لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ الله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]؟.. ولم قدم الظرف؟

قال الشيخ[2]: ذلك لأن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم؛ فهو كقولك للمسيء إلى المحسن: أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت اليه؟

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]؟

قال الشيخ[3]: الاستفهام هنا يفيد تفخيم شأن المستفهم عنه، كأنه قال: عن أي شيء يتساءلون، ونحوه (ما) في قولك: زيد ما زيد؟.. كأنه شيء خفي عليك جنسه، فأنت تسأل عن جنسه، وتفحص عن جوهره، كما تقول: ما الغول؟ وما العنقاء؟.. تريد أي شيء هو من الأشياء، هذا أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم، حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤]

قال الشيخ[4]: للتبكيت، لأنهم لم يعملوا إلا التكذيب؛ فلا يقدرون أن يكذبوا، ويقولوا قد صدقنا بها، وليس إلا التصديق بها أو التكذيب.. ومثاله أن تقول لراعيك وقد

(١) الكشاف ج ٢ص ٧.
(٢) الكشاف ج ٣ص ٤.
(٣) الكشاف ج ٤ص ٥٤٢.
(٤) الكشاف ج ٣ص ٣٠٣.

عرفته: رويعي سوء.. أتاكل نعمي أم ماذا تعمل بها؟ فتجعل (ما) تبدأ به، وتجعله أصل كلامك، وأساسه هو الذي صح عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك (أم ماذا تعمل بها؟) مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل، لتبهته وتعلمه بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح لما شهر من خلاف ذلك.. أو أراد: أما كان لهم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون غير ذلك؟.. يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، مع أنهم في الأصل خلقوا للإيمان والطاعة.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] والمركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي؟

قال الشيخ[1]: لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها؛ فالاستفهام إذا أدخل على النفي أفاد تحقيقا كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]؟

قال الشيخ[2]: هو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله، وانما أنكرت عليها الملائكة تعجبها، فقالوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [هود: ٧٣]، لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]؟

---

(١) الكشاف ج ١ص ٤٩٤٨.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٣١٢.

قال الشيخ(١): الهمزة للانكار.. أي: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم البنون لم يجعل فيهم نصيبا لنفسه، واتخذ أدونهم - بحسب اعتقادكم - وهذا خلاف الحكمة، وما عليه معقولكم وعاداتكم.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]؟

قال الشيخ(٢): تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله وتسلية له.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]؟

قال الشيخ(٣): يقال لهم يوم القيامة ذلك على جهة التوبيخ.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟

قال الشيخ(٤): ذلك من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلا عليكم ما فيها من أنواع الصوارف والموانع؛ فهل أنتم من هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٥٢١.
(٢) الكشاف ج ١ص ٢٨٢.
(٣) الكشاف ج ٢ص ٥٢.
(٤) الكشاف ج ١ص ٥٢٦.

مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]؟

قال الشيخ[١]: هذا السؤال سؤال تقريع كما تسأل الكفرة يوم القيامة.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؟

قال الشيخ[٢]: هذا تعيير لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم، وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحي من الله تعالى.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]؟

قال الشيخ[٣]: هذا تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به، وبكتابه مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦]؟

قال الشيخ: هذا استفهام تقرير، أي هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعني هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون، أراد أن يقول: هل عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال؛ فأدخل (هل) مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه، وهو كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ

---

(١) الكشاف ج ١ ص ١٩٦.

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٩٨.

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٩٤.

الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ومعناه التقرير.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]؟

قال الشيخ[١]: الهمزة و(أم) مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا، وقد قال أستاذنا سيبويه معبرا عن ذلك: (جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة).. يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام، ولا استفهام، كما أن ذاك جرى على صورة النداء، ولا نداء.. ومعنى الاستواء استواؤهما في علم المستفهم عنهما، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا بعينه فكلاهما معلوم بعلم غير معين.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، وما هو على شاكلته؟

قال الشيخ[٢]: ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخض على أحد، والتشويق إلى استماعه.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى:﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]؟

قال الشيخ[٣]: ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم، كما يقول الرجل لابنه: هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن

---

(١) الكشاف ج ١ص ٣٧.

(٢) الكشاف ج ٤ص ٧٩.

(٣) الكشاف ج ٣ص ٢٤٥.

يحركه ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل اليه أن الناس قد انطلقوا وهو واقف.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]؟

قال الشيخ[١]: ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على التقرير والتوبيخ والتعجيب من حالهم.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]؟

قال الشيخ[٢]: ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على الانكار والتعجيب، وهو كقولك: أتكفرون بالله، ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الايمان.. ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟

قال السائل: قولك (أتطير بغير جناح) إنكار للطيران لأنه مستحيل مع ما ذكر من الإماتة والإحياء.

قال الشيخ: وهذا أيضا قد أخرج في صورة المستحيل لما قوي من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]؟

قال الشيخ[٣]: ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على الاستقصار، والتعيير،

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٩٩.

(٢) الكشاف ج ١ ص ٩١.

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٦٦.

والتوبيخ.. أي أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الاسلام ويقتضي حصوله لا محالة؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته: هل فهمتها لا أمّ لك؟.. وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].. فقد استفهم بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الانصاف، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانا للحق.

قال السائل: فما سر السؤال الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]؟

قال الشيخ(١): ظاهره السؤال، ومعناه الدلالة على التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم، وشهد عليهم أنبياؤهم.

قال السائل: فما سر السؤال الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]؟

قال الشيخ(٢): ظاهره السؤال، ومعناه الدلالة على توبيخ من كذب بها، وهو نوع قريب من التعريض.. فهذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر (إياك أعني واسمعي يا جارة)، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى عليهم السلام منزهين برآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون تقريعهم أشد وتعييرهم أبلغ وخجلهم

---

(١) الكشاف ج ٢ص ٦٩.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤٦٤.

أعظم.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]؟

قال الشيخ(١): ظاهره السؤال، ومعناه الدلالة على توبيخ قومهم كما كان سؤال الموؤدة توبيخا للوائد.. قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧]؟

قال الشيخ(٢): ظاهره السؤال، ومعناه لفت المسئول إلى المسئول عنه، ليتبينه أشد التبيين، تمهيدا لإحداث أمر عظيم فيه.. فالله تعالى سأل موسى عليه السلام ليريه عظم ما يخترعه في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضاضة.. وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة.. ومثاله أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسرودا، فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد.

قال السائل: فما سر الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، ولم طلب أولا ـ وهو وامرأته على صفة العتي والعقر ـ فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟

قال الشيخ(٣): ليجاب بما أجيب به؛ فيزداد المؤمنون إيقانا، ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا عليه السلام أولا وأخيرا كان على منهاج واحد في أن الله غني عن الأسباب.

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٥٣٧.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤٤.

(٣) الكشاف ج ٣ص ٤.

قال السائل: فما سر الجواب الوارد في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧١]؛ فقد سألهم عن المعبود فحسب؛ فكان القياس أن يقولوا (أصناما) كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]؟

قال الشيخ[١]: هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم عليه السلام، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار، ولهذا تراهم عطفوا على قوله ﴿نَعْبُدُ﴾ قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ولم يقتصروا على زيادة ﴿نَعْبُدُ﴾ وحدها.

قال السائل: فما سر جواب إبليس حينما سأله الله تعالى قائلا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]؟

قال الشيخ[٢]: هو مثل جواب قوم إبراهيم عليه السلام، لأنه ذكر قصته مبتهجا بها، وهي تنطوي على علة امتناعه.

قال السائل: فما سر جواب موسى عليه السلام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣-٨٤]؛ فالسؤال كان عن سبب العجلة، وكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك، أو الشوق إلى كلامك، وتنجيز موعدك، وقوله ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ غير منطبق عليه؟

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٢٥٠.

(٢) الكشاف ج ٢ص ٧٠.

قال الشيخ[1]: قد تضمن جواب موسى عليه السلام أمران: أحدهما إنكار العجلة في نفسها.. والثاني السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه؛ فكان أهم الأمرين إلى موسى عليه السلام بسط العذر، وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه؛ فاعتل بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير، مثله لا يعتد به، ولا يحتفل به، ثم عقبه بجواب السؤال فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾

قال السائل: فما سر الجواب الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩-٣٠]؛ فكيف انطبق هذا جواب عن سؤالهم؟

قال الشيخ[2]: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتا، لا استرشادا؛ فجاء الجواب عن طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم؛ فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدما.

قال السائل: فما سر الجواب الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]؛ فكيف صح قولهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ جوابا عنه؟

قال الشيخ[3]: سألهم عن العلم بإرساله؛ فجعلوا إرساله أمرا معلوما مكشوفا مسلما لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به مما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبرهم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة: إنا بالذي آمنتم به كافرون، فوضعوا (آمنتم به) موضع (أرسل به)، ردا لما

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٦٣، ٦٤.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤٦٠.

(٣) الكشاف (٢/ ١٢٣)

جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلما.

قال السائل: فما سر التعجب الوارد في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]؟

قال الشيخ[1]: هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه، فقد قصد في ﴿كَبُرَ﴾ التعجب من لفظه.. ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله، وأسند إلى ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ ونصب ﴿مَقْتاً﴾ على تفسيره، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه.

٥. أسرار التوكيد والقسم:

بعد أن انتهى العالم الرابع من حديثه، قام العالم الخامس، وقال: نشكر أخانا على هذه الإجابات الوافية الشافية.. وأنا الآن في خدمتكم بعده.. فسلوا ما بدا لكم.

قال بعض الحضور: لقد حدثنا صاحبك عن أسرار الاستفهام والتعجب.. ونحن نريد منك أن تحدثنا عن أسرار التوكيد والقسم.

قال الشيخ: سلوا ما بدا لكم.

أ ـ أسرار التوكيد:

قال السائل: فهل لك أن تبدأ لنا حديثك عن المؤكدات وعناصرها؟

قال الشيخ[2]: المؤكدات كثيرة لا يمكن الإحاطة بها؛ فإن كثيرا من طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة، فالذكر قد يفيد توكيدا، والحذف قد يفيد توكيدا، والوصل والفصل،

(١) الكشاف ج ٤ص ٣١٨٣١٧.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية (ص: ٤١٧)

والتكرار، والاعتراض، والالتفات، وصور التشبيه، والاستعارة، وأنواع المجاز، والكناية، كل هذه وغيرها تفيد أنواعا من التوكيد والمبالغة في تثبيت المعنى أو نفيه.. وطبعا لن يفي مجلسنا هذا بالحديث عن هذه جميعا، ولذلك يمكنكم أن تسألوني عما أشكل عليكم فهمه مما يرتبط بها.

قال السائل: ما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] بتكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لـ (إن) تأكيدا على تأكيد؟

قال الشيخ[١]: لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس رسول الله ﷺ ونفس القارئ أنه إذا كان الله تعالى هو المنزل لم يكن تنزيله إلا حكمة وصوابا، ولهذا حسن الأمر بالصبر بعدها، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]

قال الشيخ[٢]: غرض التوكيد تحقيق المعنى عند المتكلم، ليوطن نفس المخاطب لتلقيه وقبوله.

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤-١٦] فلم قيل ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ أولا و﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ آخرا؟

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٥٣٩.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤١.

قال الشيخ[1]: لأن الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار.

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١١-١٢]، ولم كرر الضمير في ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾؟

قال الشيخ[2]: لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة لغرابة الخبر، وحاجته إلى التقرير والتحقيق.

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ فلم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بـ (إن)؟

قال الشيخ[3]: هذا التوكيد مظهر لتعلق النفس بالخبر واهتمامها به، وأنه جدير عندها بالتقوية والتقرير، وأن المخاطب متقبل له، غير منكر، ولا مدافع، كما أن إرسال الكلام غفلا من التوكيد لأن النفس غير متعلقة به، ولا صادقة الرغبة فيه، وأن المخاطب ينكره إنكارا لا ينفع معه أبلغ صور التوكيد.. ولهذا لم يكن ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين، وأوكدهما.

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]؛ فلم قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾؟

قال الشيخ[4]: لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قوله (هو) وقوله (مولود)، والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين، وعليتهم قبض

---

(١) الكشاف ج ٤ص ٦.

(٢) الكشاف ج ٣ص ٤٢.

(٣) الكشاف ج ١ص ٥٠.

(٤) الكشاف ج ٣ص ٣٩٨.

آبائهم على الكفر، فأريد حسم أطماعهم، وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يغنوا عنهم من الله شيئا، فلذلك جيء به على الطريق الآكد.

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ فقد ورد في الآية الكريمة التوكيد بـ ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾، وفيها مصدران، الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره، و﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾، وهو توكيد ثالث بليغ.. فما فائدة كل هذه التوكيدات؟

قال الشيخ[١]: فائدته تقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفوس اطمئنانا إليه ووثوقا فيه، فلا تلتفت إلى أماني الشيطان ووعده لأوليائه.. وفيها معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة، وأمانيه الباطلة لقرنائه، بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيبا للعباد في إيتاء ما يستحقون به تنجيز وعد الله على ما يتجرعون عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان.

قال السائل: فما سر التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾ [الحشر: ٢]، ولم لم يقل: وظنوا أن حصونهم تمنعهم، أو مانعتهم؟

قال الشيخ[٢]: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها، ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما لـ (أن)، واسناد الجملة إليه، دليل على اعتقادهم في أنفسهم، أنهم في عزة ومنعة، لا يبالي معهم بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم.

ب ـ أسرار القسم:

قال السائل: فما سر ورود القسم في القرآن الكريم، وهل الله بحاجة إلى أن يقسم؟

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٤٠.

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٣٩٨.

قال الشيخ(١): لجأ القرآن الكريم إلى القسم متبعا النهج العربي في توكيد الأخبار به، لتستقر في النّفس، ويتزعزع فيها ما يخالفها، وإذا كان القسم لا ينجح أحيانا في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيرا ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله.

قال السائل: فما سر القسم بـ ﴿رب﴾، وإضافته إلى السماء والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]

قال الشيخ(٢): لما في هذه الإضافة من الإشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره، وفي ذلك تعظيم لشأنه، وإيحاء بأن من كان هذا أمره لا يزج باسمه إلا فيما هو حق لا مرية فيه.

قال السائل: فما سر إضافة ﴿رب﴾ إلى المشارق والمغارب، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]

قال الشيخ(٣): لما توحي به هذه الإضافة من القدرة البالغة التي تسخر هذا الجرم الهائل وهو الشمس، فيشرق ويغرب في دقة وإحكام.

قال السائل: فما سر إضافة ﴿رب﴾ إلى الرسول، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]

قال الشيخ(٤): ليوحي بذلك بأن أرباب المشركين ليست جديرة بأن يقسم بها، أو تكون محل الإجلال والتقدير.

قال السائل: فما سر الحلف بحياة المخاطب، حيث أقسم الله تعالى بحياة رسوله ﷺ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٢.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٢.

عند ما قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]

قال الشيخ[١]:في ذلك تشريف لحياة الرسول ﷺ، وتعظيم لأمره في أعين السامعين.

قال السائل: فما سر القسم بمصنوعات الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١-٧]

قال الشيخ[٢]: ذلك تنبيه إلى ما فيها من روعة، تدفع إلى التفكير في خالقها.. أو لا ترى هذا القسم مثيرا في النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون، ومنظم شئونه هذا التنظيم المحكم الدقيق، أو ليست هذه الشمس التي تبلغ أوج مجدها وجمالها عند الضحى، وهذا القمر يتلوها إذا غابت، وكأنه يقوم مقامها في حراسة الكون وإبهاجه، وهذا النهار يبرز هذا الكوكب الوهاج، ثم لا يلبث الليل أن يمحو سناه، وهذه السماء وقد أحكم خلقها، واتسقت في عين رائيها كالبناء المحكم الدقيق، وهذه الأرض وقد انبسطت في سعة، وهذه النفس الإنسانية العجيبة الخلقة التي يتسرب إليها الهدى والضلال في دقة وخفاء، أليس في ذلك كله ما يبعث النفس إلى التفكير العميق في خالقها، وأن هذا الخالق لا يذكر هو وما خلق محاطا بهذا الإجلال، إلا في مقام الحق والصدق؟

قال السائل: فما سر القسم في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]، وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١]

قال الشيخ[٣]: توجيه النظر إلى ما في حفظ النجوم في مواقعها فلا تسقط ولا تضطرب، من قدرة قديرة على هذه الصيانة والضبط، وما يبعثه هوي النجوم من رهبة في

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٣.

النفس، وكلا الأمرين مثار إعجاب بخالقه، يبعث في النفس الاطمئنان إلى خبر يكون هو موضع القسم فيه.

قال السائل: فما سر القسم بالرياح التي تحمل السحب مليئة بالمياه، فتجري بها في رفق ويسر، ثم تدعها توزع مياهها هنا وهناك، كما في قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤]

قال الشيخ[١]: توجيه النظر إلى ما في الريح والسحب مما يدل على قدرة الخالق الباهرة.. وهكذا في كل ما أقسم به الله مظهر من مظاهر قدرته وعظمته.

قال السائل: فما سر القسم الوارد في قوله تعالى: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١-٣]

قال الشيخ[٢]: أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن، وجعل قوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ جوابا للقسم، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد.

قال السائل: فما سر القسم الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وهل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى؟

قال الشيخ[٣]: نعم، ذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، وأولها مسارعة إلى القلب إذا قيل ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، فحين أقسم باسمه على إثبات أنه كائن

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٣.

(٢) الكشاف ج ٤ص ١٨٥.

(٣) الكشاف ج ٣ص ٤٤٨.

لا محالة، ثم وصف بما يرجع إلى الغيب، وأنه لا يفوته علم شيء من الخفيات، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئا واضحا.

قال السائل: فحدثنا عن جواب القسم، ولم يحذف في كثير من الأحيان؟

قال الشيخ(١): معظم جواب القسم يرد للدلالة على صدق ما جاء به هذا الدين، الذي نزل القرآن الكريم لتثبيت أسسه وقواعده، كما في قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١-٤].. وقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٦].. وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].. وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١-٤].. وأحيانا يؤكد أحوال الإنسان فيقول: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١-٨].. إلى غير ذلك من آيات تتحدث عن طبائع الإنسان، وأخلاقه، وصلته بهذا الدين.

قال السائل: فلم يُحذف في بعض الأحيان؟

قال الشيخ(٢): أكثر ما يحذف الجواب إذا كان في نفس القسم به دلالة على المقسم عليه، فإن المقصود يحصل بذكره، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، فإن في المقسم به من تعظيم القرآن الكريم ووصفه بأنه ذو الذكر ما يدل على المقسم، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى..

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٣٤.

ولهذا كان تقدير الجواب، إن القرآن الكريم لحق.. وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك، كقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١]، فإنه يتضمن إثبات المعاد.

وقد يحذف عندما يفهم من السورة التي ورد فيها هذا القسم(١)، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ١-٨]، قوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ١-٣]، وقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ١-٧]

وأنتم ترون في هذا الحذف بعث النفس على التفكير، لتهتدي إلى الجواب، وتظل النفس تتبع هذه الآيات، يتلو بعضها بعضا، تستوحي منها هذا الجواب، الذي لا بدّ أن يكون شيئا عظيما يقسم عليه الله.. كأن تتبع آيات سورة فترى حديثها عن البعث، وهو ما يؤذن بأن هذا القسم وارد لتأكيده، وأنه سيكون لا محالة.

قال السائل: فما المناسبة بين القسم وجوابه؟

قال الشيخ(٢): الحديث عنها يطول.. فكل قسم له علاقة بجوابه.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣].. تأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافى بعد ظلام الليل المقسم عليه، وهو نوره الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء

______

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٩٩.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٣٥.

النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

ثالثا. دقة الترتيب:

بعد أن انتهى العالم الخامس من حديثه، قام الجميع، وبقيت في مكاني أنتظر من يأخذ بيدي، فجاء الشيخ، وقال: أظن أنك لا تزال تنتظرني.

قلت: أجل.. أو أي شخص يأخذ بيدي.. لكني كنت أتمنى أن تكون أنت الذي يفعل بي ذلك.. والحمد لله الذي جاء بك لذلك.

قال: ما دمت تلميذ القرآن؛ فأنا خادم لكل تلاميذه.

قلت: فإلى أين تريد السير بي الآن؟

قال: فماذا عرفت من أسرار الدقة والضبط، لأعرف أين أسير بك.

قلت: عرفت دقة الكلمات والجمل.. وأظن أنهما كافيان شافيان، محيطان بجميع أقسام الكلام.

قال: قد تكون الكلمات دقيقة مضبوطة.. وقد تكون في محالها الصحيحة من الجملة، لكن ترتيبها فيها، أو ترتيب الجمل مع بعضها، قد لا يكون كذلك، وبذلك قد يختل المعنى أو يتشوش، أو تقل فوائده.

قلت: ذلك صحيح.. لقد ذكرتني برجل أحضر عمالا مغفلين لبناء بيته؛ فبنوا له مرآب السيارات في الطابق الخامس.. فأنى له أن يدخل سيارته فيه.

استغرب الشيخ من حديثي، وقال: ما المرآب.. وما السيارات.. وما الطوابق الخمس؟

تذكرت المحل والزمان الذي أتحدث فيه، فقلت: اعذرني.. نسيت أني هنا.. لقد اختل في ذهني ترتيب الزمن.. ولهذا صرت أهرف بما لا أعرف.

قال: فهلم معي إذن لنتعلم من القرآن الكريم دقة الترتيب.

ما سرت معه إلا قليلا حتى وجدنا مكتبة عتيقة ضخمة، قد تجمع فيها الناسخون ينسخون بأقلامهم العتيقة بعض الكتب.. وكان بجوار كل واحد منهم من يملي عليه ما يكتب.

لكنهم ما إن رأوا الشيخ حتى وقفوا جميعا يحيونه بتبجيل واحترام كبيرين.. فسلم عليهم، وشجعهم على أعمالهم.. ثم قال لهم: ها قد جئتكم في الموعد الذي حددتموه لي.. وأنا رهن أمركم.. فاسألوني ما بدا لكم.

١. شهادات:

قال أحدهم: قبل أن تحضر إلينا اتفقت مع زملائي أن تحدثنا عن أسرار الترتيب في القرآن الكريم؛ فهو من المعارف المهمة التي وجدنا علماء البيان والقرآن يتحدثون عنها.. وقد جعلنا ذلك نتشوف، لتدريبنا على كيفية تطبيق ذلك أثناء تدبرنا للقرآن الكريم.

قال الشيخ: فأخبروني أولا ما وجدتم أثناء نسخكم، وبعدها يمكنكم أن تسألوني ما شئتم.

فخر الدين الرازي:

قال أحدهم: أثناء نسخي لكتب أستاذنا الكبير فخر الدين الرازي، وجدت له اهتماما كبيرا بهذا، ومما أحفظه مما كتبته عنه قوله: (اعلم أن سنة الله في ترتيب القرآن الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهوأنه يذكر شيئا من الأحكام، ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويقرن بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته.. ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام. وهذا أحسن أنواع الترتيب، وأقربها إلى التأثير في القلوب لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلا إذا كان مقرونا

بالوعد والوعيد، ولا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أن هذه الترتيبات أحسن الترتيبات اللائقة) [1]

قال آخر: وهو لهذا يهتم ببيان حكمة ترتيب الكلمات في الآية الواحدة بجانب ترتيب الآية في سياقها، خاصة تلك التي قد يدل ظاهره على عدم مراعاة الترتيب، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، حيث قال: (رعاية الترتيب واجبة، والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة، والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب فيه؟)[2]

ثم أجاب على هذا الإشكال بقوله: (الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية فإن حرف الواو حاصل هاهنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة، لا بحسب الشرف، ولا بحسب الزمان)، وإنما باعتبارات أخرى.. منها (أنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم السلام بنوع من الإكرام والفضل.. فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيبا عظيما.. والمرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.. والمرتبة الثالثة: من كان مستجمعا لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.. والمرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب

---

(١) مفاتيح الغيب، ١١/ ٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٥٢)

العظيم والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهارون عليهما السلام.. والمرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.. والمرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل، واليسع ويونس، ولوط.. فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، والتي سبقت بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٨-٢٩]: (اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه، وقد ذكرنا مرارا أن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلم اليقيني والعمل الصالح، فإن أهل التحقيق قالوا: كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيما في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٥٢)

١٤٣]، وقال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]) (١)

قال آخر: بل إنا نراه لا يكتفي بوجه واحد من وجوه الترتيب، وإنما يذكر وجوها كثيرة، ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]: (ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدئ حيث قالوا للرسول: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة، فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات، ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات، وعبر عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة) (٢)

ثم ذكر وجها آخر، فقال: (وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان: التام، وفوق التام.. أما التام: فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا في ذاته، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام، إذا عرفت هذا، فنقول: إن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] إشارة إلى المرتبة الأولى، وهي

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٠)

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٢)

اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق، وهو المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فهذا أيضا وجه حسن في نظم هذه الآيات) [١]

ثم عقب هذا كله بقوله: (واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصابا وافيا من العلوم الإلهية الكشفية، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن) [٢]

قال آخر [٣]: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير سورة الفاتحة: (اعلم أن المقامات محصورة في مقامين: معرفة الربوبية، ومعرفة العبودية وعند اجتماعهما يحصل العهد المذكور في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].. أما معرفة الربوبية فكمالها مذكور في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١-٤]، فكون العبد منتقلا من العدم السابق إلى الوجود يدل على كونه إلها، وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه ربا رحمانا رحيما، وأحوال معاد العبد تدل على كونه مالك يوم الدين، وعند الإحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات، وبعدها جاءت معرفة العبودية، ولها مبدأ وكمال، وأول وآخر، أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية وهو المراد، بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، فعند ذلك يستعين بالله في تحصيل كل المطالب، وذلك هو المراد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولما تم الوفاء بعهد الربوبية وبعهد العبودية ترتب عليه طلب

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٢)

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٢)

(٣) مفاتيح الغيب (١/ ٢١٥)

الفائدة والثمرة، وهو قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]: (إن الله تعالى ذكر هاهنا خمسة أنواع من الدلائل اثنين من الأنفس وثلاثة من الآفاق، فبدأ أولا: بقوله: خلقكم، وثانيا: بالآباء والأمهات، وهو قوله: ﴿والذين من قبلكم﴾، وثالثا: بكون الأرض فراشا، ورابعا: بكون السماء بناء، وخامسا: بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض، وهو قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، ولهذا الترتيب أسباب) (١)

ثم ذكر أولها، وهو أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة، وكان أولى بالذكر؛ فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان، ثم ثناه بآبائه وأمهاته، ثم ثلث بالأرض، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء، والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء وخروج الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء.

وأما الثاني؛ فهو أن خلق المكلفين أحياء قادرين أصل لجميع النعم، وأما خلق الأرض والسماء والماء فذاك إنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة، فلا جرم قدم ذكر الأصول على الفروع.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٣٥)

وأما الثالث؛ فهو أن كل ما في الأرض والسماء من دلائل الصانع فهو حاصل في الإنسان، وقد حصل في الإنسان من الدلائل ما لم يحصل فيهما، لأن الإنسان حصل فيه الحياة والقدرة والشهوة والعقل، وكل ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى، فلما كانت وجوه الدلائل له هاهنا أتم كان أولى بالتقديم.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]: (اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه وبين فساد كل واحد منها بالدلائل اللائقة به، ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات، وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها؛ فعند هذا ثبت أن إله العالم فرد واحد صمد منزه عن الشريك والنظير والضد والند، ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات، فعند هذا صرح بالنتيجة فقال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ولا تعبدوا غيره أحدا فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد، وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم، ويعلم حاجتهم، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته.. ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه، وإظهار فساد الشرك، علم أنه لا طريق أوضح منه ولا أصلح منه)(١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]: (اعلم أنه تعالى لما بين ثواب أصحاب الطاعات وعقاب أصحاب المعاصي

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٩٤)

والمحرمات وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة بين أن تخصيص المطيعين بالثواب والمذنبين بالعذاب ليس لأجل أنه محتاج إلى طاعة المطيعين أو ينتقص بمعصية المذنبين، فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين، ومع كونه غنيا فإن رحمته عامة كاملة ولا سبيل إلى ترتيب هذه الأرواح البشرية والنفوس الإنسانية وإيصالها إلى درجات السعداء الأبرار إلا بترتيب الترغيب في الطاعات والترهيب عن المحظورات فقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، أي: وربك الغني ذو الرحمة، ومن رحمته على الخلق ترتيب الثواب والعقاب على الطاعة والمعصية) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]: (اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتخويف أولا، ثم بالترغيب ثانيا.. والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق، فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجودا للملائكة، والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات.. ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، فمنع تعالى من المعصية بقوله: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ وعلل ذلك المنع بكثرة نعمه على الخلق، وهو أنهم في الأرض مسجودا للملائكة، والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجحود؛ فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا المعنى بغير هذا الترتيب فهذا بيان وجه النظم على

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٣)

أحسن الوجوه)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]: (اعلم أنه تعالى لما أثبت هذه الأصول المذكورة بهذه الدلائل المذكورة في هذه الآية ذكر بعده قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأنه لما بين أولا أن القول ببعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام أمر جائز ممكن، أردفه بذكر أن محمدا رسول حق من عند الله لأن من حاول إثبات مطلوب وجب عليه أن يبين جوازه أولا، ثم حصوله ثانيا، ثم إنه بدأ بقوله: ﴿فآمنوا بالله﴾ لأنا بينا أن الإيمان بالله أصل، والإيمان بالنبوة والرسالة فرع عليه، والأصل يجب تقديمه.. فلهذا السبب بدأ بقوله: ﴿فآمنوا بالله﴾، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]: (اعلم أن هذه الآية هي تقرير الجواب الذي ذكره في الآية الأولى، وذلك لأن جماعة من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، كيف يمكن البراءة منهم بالكلية؟ وإن هذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا وذهاب تجارتنا، وهلاك أموالنا وخراب ديارنا، وإبقاءنا ضائعين فبين تعالى أنه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما.. وذكر أنه إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٥)

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٨٥)

أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله، فتربصوا بها تحبون حتى يأتي الله بأمره، أي بعقوبة عاجلة أو آجلة، والمقصود منه الوعيد.. واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار، وهي أمور أربعة: أولها: مخالطة الأقارب، وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل، وهي لفظ العشيرة.. وثانيها: الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة.. وثالثها: الرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة.. ورابعها: الرغبة في المساكن.. ولا شك أن هذا الترتيب ترتيب حسن، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة، ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة، ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التي هي غير حاصلة، وفي آخر المراتب الرغبة في البناء في الأوطان والدور التي بنيت لأجل السكنى، فذكر تعالى هذه الأشياء على هذا الترتيب الواجب، وبين بالآخرة أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى في حكاية قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٨-٩٠]: (اعلم أن هذا الترتيب الذي راعاه شعيب عليه السلام في ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف، وذلك لأنه بين أولا أن ظهور البينة له وكثرة إنعام الله تعالى عليه في الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة في وحي الله تعالى ويصده عن التهاون في

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧)

تكاليفه.. ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا.. ثم بين صحته بطريق آخر، وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح وإخفاء موجبات الفتن، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها.. ثم لما بين صحة طريقته أشار إلى نفي المعارض، وقال: لا ينبغي أن تحملكم عداوتي على مذهب ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله تعالى، كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين.. ثم إنه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولا، وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾، ثم بين لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الإيمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته وحبه لهم يوجب ذلك، وهذا التقرير في غاية الكمال)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]: (أما الثلاثة التي نهى الله عنها، وهي الفحشاء والمنكر والبغي فنقول: إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة، وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية، وهذه القوة الرابعة أعني العقلية الملكية لا يحتاج الإنسان إلى تأديبها وتهذيبها، لأنها من جواهر الملائكة، ومن نتائج الأرواح القدسية العلوية، إنما المحتاج إلى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الأولى.. أما القوة الشهوانية، فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية، وهذا النوع مخصوص باسم الفحش، ألا ترى أنه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فقوله تعالى: ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة، وأما القوة الغضبية السبعية فهي

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٠)

أبدا تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية.. وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبدا تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم، وذلك هو المراد من البغي، فإنه لا معنى للبغي إلا التطاول على الناس والترفع عليهم، فظهر بما ذكرنا أن هذه الألفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة)[1]

ثم بين سر الترتيب الوارد فيها، فقال: (ومن العجائب في هذا الباب أن العقلاء قالوا: أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية، وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية.. والله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية، ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية، ثم بالبغي الذي هو نتيجة القوة الوهمية)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]: (الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين.. أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد ﷺ أتم، فكان إصرارهم على الكفر أقبح.. ولكونهم علماء يقتدي غيرهم بهم فكان كفرهم أصلا لكفر غيرهم، فلهذا قدموا في الذكر.. لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا في الذكر)[3]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]: (في الآية إشكال، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام، والإنعام كما

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٦١)

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٦١)

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٣٩)

يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار، ثم بعده يذكر الحمد، ثم بعده يذكر التسبيح، فما السبب في أن صار مذكورا على العكس من هذا الترتيب؟ وجوابه: من وجوه أولها: لعله ابتدأ بالأشرف، فالأشرف نازلا إلى الأخس فالأخس، تنبيها على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق، وثانيها: فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلا بجلال الله وعزته صار عين الذنب، فوجب الاستغفار منه، وثالثها: للتسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق الله، والأول كالصلاة، والثاني كالزكاة، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا هاهنا) [١]

برهان الدين البقاعي

قال الشيخ: بورك فيكم يا تلاميذ الفخر الرازي وتفسيره الكبير، وقد شفيتم وأوفيتم.. فهل يوجد غيره من الشهود على ما ذكرتم؟

قال أحدهم: أجل.. أنا من تلامذة كتب الشيخ برهان الدين البقاعي، ذلك العالم الجليل الذي زارنا قبل فترة طويلة من وادي البقاع من أرض لبنان.. وقد كان من الكتب التي تشرفت بنسخها مع بعض زملائي في المكتبة كتابه (نظم الدرر في تناول الآيات والسور)، وقد رأيت أنه من أهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع، وحاولت أن تستوعبه بقدر طاقتها.

قال آخر: وقد اختصره في كتاب أصغر منه، سماه (أدلة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم).. وله كتاب آخر له ارتباط بهذا سماه (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، والذي ذكر أنه يصلح أن يسمى (المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٤٥)

للمسمى)، وهي تسمية دالة على موضوعه، وقد قصد منه إثبات أن لكل سورة من السور ـ وإن كانت في غاية الوجازة والقصر ـ مقصدا واحدا يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، (كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الحالية، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها؛ فصارت كل سورة دائرة كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغر، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها) (١)

قال آخر: ولا شك أن كتابه (نظم الدرر في تناول الآيات والسور) من أهم كتبه في هذا وأجمعها، وهو يشيد به كثيرا، ويعتبره فتحا إلهيا عظيما، وقد قال في خاتمته: (وهذا تمام ما أردته من نظم الدرر من تناسب الآي والسور، ترجمان القرآن مبدي مناسبات الفرقان، التفسير الذي لم تسمع الأعصار بمثله، ولا فاض عليها من التفاسير على كثرة أعدادها كصيب وبله)(٢).. وقال في موضع آخر مشيدا به: (فأنا أرجو.. أن يكون ذلك مشيراً إلى أن الله تعالى يجمع بكتابي هذا الذي خصني بإلهامه وادخر لي المنحة بحله وإبرامه، واعتناقه والتزامه، أهل هذا الدين القيم جمعاً عظيماً جليلاً جسيماً، يظهر له أثر بالغ في اجتماعهم وحسن تأسيهم برؤوس نقلته وأتباعه) (٣)

قال آخر: وقد أشار إلى صعوبة إدراك الارتباط والتناسب في بعض الأحيان لدقته وخفائه، وكيفية التخلص منها، فقال: (إذا استعان طالب هذا العلم بالله، وأدام الطرق لباب الفرج، بإنعام التأمل وإظهار العجز، والوثوق بأنه في الذروة من إحكام الربط، كما كان في الأوج من حسن المعنى واللفظ؛ لكونه كلام من جل عن شوائب النقص، وحاز

---

(١) مصاعد النظر، ١/ ١٤٩.

(٢) نظم الدرر (٨/ ٦٢٠)

(٣) نظم الدرر (٦/ ٥٩٦)

صفات الكمال، إيمانا بالغيب، وتصديقا بالرب، قائلا ما قال الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رقص الفكر منه طربا، وسكر والله استغرابا وعجبا، وطاش لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مرية إيمانه)[١]

قال آخر: وهو يذكر الجهد العقلي الكبير الذي بذله للوصول إلى بعض المناسبات الغامضة، فقال: (لا تظنن أيها الناظر لكتابي هذا، أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها، والرفع لستورها، فرب آية أقمت في تأملها شهورا.. ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ما قلته، ثم لينظره، يظهر له مقدار ما تعبت، وما حصل لي من قبل الله من العون، سواء كان ظهر له وجه كذلك عند تأمله أولا.. ولا تنكشف هذه الأغراض إلا لمن خاض غمرة هذا الكتاب، وصار من أوله وآخره وأثنائه على ثقة وصواب.. وما يذكر إلا أولوالألباب)[٢]

قال آخر: وقد نقل في مقدمة كتابه عن بعض أساتذته المنهج المتبع في التعرف على أسرار الترتيب في القرآن الكريم، فقال: (الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربك بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء

---

(١) نظم الدرر، ١/ ١٢.

(٢) نظم الدرر، ١/ ١٤.

الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة سورة والله الهادي)[1]

قال آخر: ولهذا نراه يبدأ بذكر مقاصد كل سورة، ليذكر من خلال ذلك سر ترتيبها، مقارنة بما قبلها أو بعدها.. ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة آل عمران: (المقاصد التي سيقت لها هذه السورة إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما أعد للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمسارعة اليه وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة هذا ما كان ظهر لي أولاً، وأحسن منه أن نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها، فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه، وذلك لأن الوصف بالقيومية يقتضي القيام بالاستقامة، فالقيام يكون على كل نفس، والاستقامه العدل كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، أي بعقاب العاصي وثواب الطائع بما يقتضي للموقف ترك العصيان ولزوم الطاعة ؛ وهذا الوجه أوفق الترتيب، لأن الفاتحة لما كانت جامعة للدين إجمالاً جاء به التفصيل محاذياً لذلك، فابتدىء بسورة الكتاب المحيط بأمْر الدين، ثم بسورة التوحيد الذي هو سر حرف الحمد وأول حروف الفاتحة، لأن التوحيد هو الأمر الذي لا يقوم بناء إلا عليه، ولما صح الطريق وثبت الأساس جاءت التي بعدها داعية إلى الاجتماع على ذلك.. وأيضاً فلما ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنه هدى وقامت به دعائم الإسلام الخمس جاءت هذه لإثبات الدعوة الجامعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فأثبت الوحدانيه له

---

(١) نظم الدرر (١/ ١١)

بأبطال إلهية غيره بإثبات أن عيسى عليه السلام الذي كان يحيي الموتى عبده فغيره بطريق الأولى، فلما ثبت أن الكل عبيده دعت سورة النساء إلى إقبالهم إليه واجتماعهم عليه ؛ ومما يدل على أن القصد بها هو التوحيد تسميتها بـ[آل عمران]، فإن لم يعرب عنه في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من إخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو التاج الذي هو خاصة الملك المحسوسة، كما أن التوحيد خاصته المعقولة، والتوحيد موجب لزهرة المتحلي به فلذلك سميت الزهراء) [1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة الأنبياء: (مقصودها الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير، لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها، وهن من لا يبدل القول لديه، والدال على ذلك أوضح دلالة مجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء عليهم السلام، ولا يستقل قصة منها استقلالا ظاهرا بجميع ذلك، ولا تخلو قصصهم من دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل) [2]

ثم بين سر ارتباط أولها، وهو قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] بخاتمة سورة طه، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: ١٣٥]، فقال: (لما ختمت طه بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي والسعيد، وكان هذا العلم تارة يكون في الدنيا بكشف الحجاب بالإيمان، وتارة بمعاينة ظهور الدين، وتارة بإحلال العذاب بإزهاق الروح بقتل أو غيره، وتارة ببعثها يوم الدين، افتتحت هذه بأجلى ذلك وهو اليوم الذي يتم فيه كشف

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣)

(٢) نظم الدرر (٥/ ٦٣)

الغطاء، فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين وهو يوم الحساب) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة الفرقان: (مقصودها إنذار عامة المكلفين بما له سبحانه من القدرة الشاملة، المستلزم للعلم التام، المدلول عليه بهذا القرآن المبين، المستلزم لأنه لا موجد على الحقيقة سواه، فهو الحق، وما سواه باطل ؛ وتسميتها بالفرقان واضح الدلالة على ذلك، فإن الكتاب ما نزل إلا للتفرقة بين الملتبسات، وتمييز الحق من الباطل ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، فلا يكون لأحد على الله حجة)(٢)

ثم بين سر ارتباط أولها، وهو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] بخاتمة ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ للهِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤]، فقال: (لما ختم سبحانه تلك بسعة الملك، وشمول العلم، وتعظيم الرسول، والتهديد لمن تجاوز الحد، افتتح هذه بمثل ذلك على وجه ـ مع كونه أضخم منه ـ هو برهان عليه فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أي ثبت ثبوتاً مع اليمن والخير الذي به سبقت الرحمة الغضب، والتعالي في الصفات الأفعال، فلا ثبوت يدانيه، ولا يكون ذلك كذلك إلا بتمام قدرته، ولا تتم قدرته إلا بشمول علمه) (٣)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة التكاثر: (مقصودها التصريح بما أشارت إليه العاديات من أن سبب الهلاك يوم الجمع الذي صورته القارعة الجمع للمال، والإخلاد إلى دار الزوال، واسمها واضح الدلالة على ذلك) (٤)

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٦٣)

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٩١)

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٩١)

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥١٦)

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (ولما أثبت في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة العلق: (مقصودها الأمر لا سيما للمقصود بالتفضيل في سورة التين بعبادة من له الخلق والأمر، شكرا لإحسانه واجتنابا لكفرانه، طمعا في جنانه وخوفا من نيرانه، لما ثبت أنه يدين العباد يوم المعاد، وكل من اسميها دال على ذلك لأن المربي يجب شكره، ويحرم غاية التحريم كفره، على أن ﴿اقرأ﴾ يشير إلى الأمر، و﴿العلق﴾ يشير إلى الخلق، و﴿اقرأ﴾ يدل على البداية وهي العبادة بالمطابقة، وعلى النهاية وهي المنجاة يوم الدين باللازم، والعلق يدل على كل من النهاية ثم البداية بالالتزام، لأن من عرف أنه مخلوق من دم عرف أن خالقه قادر على إعادته من تراب، فإن التراب أقبل للحياة من الدم، ومن صدق بالإعادة عمل لها) (٢)

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما أمره سبحانه وتعالى في ﴿الضحى﴾ بالتحديث بنعمته، وذكره بمجامعها في ﴿ألم نشرح﴾ فأنتج ذلك إفراده بما أمره به في ختمها من تخصيصه بالرغبة إليه، فدل في ﴿الزيتون﴾ على أنه أهل لذلك لتمام قدرته الذي يلزم منه أنه لا قدرة لغيره إلا به، فأنتج ذلك تمام الحكمة فأثمر قطعاً البعث للجزاء فتشوف السامع إلى ما يوجب حسن الجزاء في ذلك اليوم وبأيّ وسيلة يقف بين يدي الملك الأعلى) (٣)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة البينة: (سورة الإعلام بأن هذا الكتاب القيم من علو مقداره وجليل آثاره أنه كما أنه لقوم نور وهدى فهو لآخرين وقر

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥١٦)

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٧٨)

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٧٨)

وعمى، فيقود إلى الجنة دار الأبرار، ويسوق إلى النار دار الأشقياء الفجار) (١)

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما أخبر سبحانه وتعالى أن الليلة الشريفة التي صانها بنوع خفاء في تنزل من يتنزل فيها وفي تعيينها لا تزال قائمة على ما لها من تلك الصفة حتى يأتي الفجر الذي يحصل به غاية البيان، أخبر أن أهل الأديان سواء كان لها أصل من الحق أم لا لم يصح في العادة الجارية على حكمة الأسباب في دار الأسباب أن يتحولوا عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر، وهوالقرآن المذكور في القدر والرسول المنزل عليه ذلك فقال: ﴿لم يكن﴾ أي في مطلق الزمان الماضي والحال والاستقبال كوناً هوكالجبلة والطبع) (٢)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة الهمزة: (مقصودها بيان الحزب الأكبر الخاسر الذي ألهاه التكاثر، فبانت خسارته يوم القارعة الخافضة الرافعة، واسمها الهمزة ظاهر الدلالة على ذلك) (٣)

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما بين الناجين من قسمي الإنسان في العصر، وختم بالصبر، حصل تمام التشوف إلى أوصاف الهالكين، فقال مبيناً لأضلهم وأشقاهم الذي الصبر على أذاه في غاية الشدة ليكون ما أعد له من العذاب مسلاة للصابر: ﴿ويل﴾ أي هلاك عظيم جداً لكل ﴿همزة﴾ أي الذي صار له الهمز عادة لأنه خلق ثابت في جبلته..) (٤)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة الفيل: (مقصودها الدلالة على آخر الهمزة من إهلاك المكاثرين في دار التعاضد والتناصر بالأسباب، فعند انقطاعها أولى

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٩٥)

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٩٥)

(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٢٥)

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٢٥)

لاختصاصه سبحانه وتعالى بتمام القدرة دون التمكن بالمال والرجال، واسمها الفيل ظاهر الدلالة على ذلك بتأمل سورته، وما حصل في سيرة جيشه وصورته) [1]

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما قدم في الهمزة أن كثرة الأموال المسببة بالقوة بالرجال ربما أعقبت الوبال، دل عليه في هذه بدليل شهودي وصل في تحريقه وتغلغله في الأجسام وتجريفه إلى القلوب في العذاب الأدنى كما ذكر فيما قبلها للعذاب الأكبر الأخفى، محذراً من الوجاهة في الدنيا وعلوالرتبة، مشيراً إلى أنها كلما عظمت زاد ضررها بما يكسبه من الطغيان حتى ينازع صاحبها الملك الأعلى، ومع كونه شهودياً فللعرب ولا سيما قريش به الخبرة التامة، فقال مقرراً منكراً على من يخطر له خلاف ذلك: ﴿ألم تر﴾ أي تعلم علماً هوفي تحققه كالحاضر المحسوس بالبصر..) [2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة قريش: (مقصودها الدلالة على ضد ما دلت عليه الفيل بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقربين العابدين، وهوبشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين، واسمها قريش ظاهر الدلالة على ذلك) [3]

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما كان ما فعله سبحانه من منع هذا الجيش العظيم من دخول الحرم الذي هومظهر قدرته ومحل عظمته الباهرة وعزته والمذكر بخليله عليه الصلاة والسلام وما كان من الوفاء بعظيم خلته كرامة لقريش عظيمة ظاهره عاجلة حماية لهم عن أن تستباح ديارهم وتسبى ذراريهم لكونهم أولاد خليله وخدام بيته وقطان حرمه ومتعززين به ومنقطعين إليه، وعن أن يخرب موطن عزهم ومحل أمنهم وعيشهم

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٢٨)

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٢٨)

(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٣٣)

وحرزقهم، ذكرهم سبحانه وتعالى ما فيه من النعمة الآجلة إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة، فقال مشيراً إلى أن من تعاظم عليه قصمه، ومن ذلك له وخدمه أكرمه وعظمه: ﴿لإيلاف قريش﴾ أي لهذا الأمر لا غيره فعلنا ذلك وهوإيقاعهم الإيلاف..) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة الماعون: (مقصودها التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبوالخبائث، فإنه يجزئ المكذب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال حتى تكون الاستهانة بالعظام خلقا له فيصير ممن ليس له خلاق، وكل من أسمائها الأربعة في غاية الظهور في الدلالة على ذلك بتأمل السورة لتعرف هذه الأشياء المذكورة، فهي ناهية عن المنكرات بتصريحها، داعية إلى المعالي بإفهامها وتلويحها) (٢)

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما أخبر سبحانه وتعالى عن فعله معهم من الانتقام ممن تعدى حدوده فيهم، ومن الرفق بهم بما هوغاية في الحكمة، فكان معرفاً بأن فاعله لا يترك الناس سدى من غير جزاء، وأمرهم آخر قريش بشكر نعمته فإفراده بالعبادة، عرفهم أول هذه أن ذلك لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالي الأخلاق الناهي عن مساوئها، وعجب ممن يكذب بالجزاء مع وضوح الدلالة عليه بحكمة الحكيم، ووصف المكذب به بأوصاف هم منها في غاية النفرة، وصوّره بأشنع صورة بعثاً لهم على التصديق وزجراً عن التكذيب..) (٣)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في سورة الكوثر: (مقصودها المنحة بكل خير يمكن أن يكون، واسمها الكوثر واضح في ذلك) (٤)

ثم بين سر ارتباطها بما قبلها، فقال: (لما كانت سورة الماعون بإفضاحها ناهية عن

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٣٣)

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٤١)

(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٤١)

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٤٧)

مساوئ الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم، فجاءت الكوثر لذلك، وكانت الماعون قد ختمت بأبخل البخلاء وأدنى الخلائق: المنع تنفيراً من البخل ومما جره من التكذيب، فابتدئت الكوثر بأجود الجود العطاء لأشرف الخلائق ترغيباً فيه وندباً إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون)[1]

أبو جعفر الغرناطي:

قال الشيخ: بورك فيكم يا تلاميذ برهان الدين البقاعي، وقد شفيتم وأوفيتم.. فهل يوجد غيره من الشهود على ما ذكرتم؟

قال أحدهم: أجل.. أنا من تلامذة كتب الشيخ أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، صاحب كتاب [البرهان في تناسب سور القرآن]، وهو من نوادر ما أُلِّف في الكشف عن أسرار النظم والمناسبة بين سور القرآن الكريم، وهو يبحث في ترتيب السور كما هي في المصحف، ثم يلتمس العلاقة بين هذه الموضوعات وموضوعات السور السابقة، فتظهر بذلك المناسبة.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة البقرة: (لما قال العبد بتوفيق ربه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ـ٧]، قيل له: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] هو مطلوبك، وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] القائلين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والخائفين من حال الفريقين ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه بامتثال أمره ونهيه.. ثم أشير من الأعمال إلى ما يستحق سائرها من قبيلي البدنيات والماليات بيانا للصراط المستقيم، فقيل في وصف المتقين: إنهم

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٤٧)

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣])[١]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة آل عمران: (اتصالها بسورة البقرة ـ والله أعلم ـ من جهات: إحداها ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.. وثانيها الإشارة في صدر السورة أيضا إلى أن الصراط المستقيم قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا الكتاب جاء مصدقا لها: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] ليبين لأمة محمد ﷺ أن من تقدمهم قد بين لهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].. والثالثة قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، كما أتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة على ما لم تكن العرب تعرفه وأنذروا وحذروا، واتبعت أيضا قصة عيسى عليه السلام بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة)[٢]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة النساء: (لما تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وأعقبت بسورة آل عمران لتضمنها ـ مع ما ذكر في صدرها أمر عيسى عليه السلام وأنه كمثل آدم في عدم الافتقار إلى أب، وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنة فيمن بعد آدم عليه السلام، فكان سائر الحيوان لا يتوقف على أبوين، أو كان يكون عيسى عليه السلام لا يتوقف إلا على أم فقط، أعلم سبحانه أن من عدا المذكورين عليهم السلام من ذرية آدم سبيلهم سبيل الأبوين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ١٩٠.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ١٩٦.

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].. ثم أعلم تعالى بكيفية النكاح المجعول سببا في التناسل وما يتعلق به، وبين حكم الأرحام والمواريث، وتضمنت السورة ابتداء الأمر وانهاءه فاعلمنا بكيفية الناكح، وصورة الاعتصام واحترام بعضنا لبعض، وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق، وبين لنا ما ينكح وما لا ينكح وما أبيح من العدد، وحكم من لم يجد الطول وما يتعلق بهذا إلى المواريث، فصل ذلك كله، إلا الطلاق لأن أحكامه قد تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ورعي حقوق ذوي الأرحام، وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا وناسب هذا المقصود من التواصل والألفة ما افتتحت به السورة بالالتئام والوصلة، ولهذا خصت حكم تشاجر الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والعدل إبقاء لذلك التواصل، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع له هنا ذكر ولا إيماء)(١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة براءة: (اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه، حتى أن شدة المشابهة والالتئام ـ مع أن الشارع عليه السلام لم يكن بين انفصالهما ـ أوجب أن لا يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وبينت أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوبة فيها بالثبوت ولحوق التأثيم للفار، وأنها على الضعف، وحكم الأسرى، وحكم ولاية المؤمنين ومن يدخل تحت هذه الولاية، ومن يخرج عنها، ثم ذكر في السورة الأخرى من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ١٩٨.

بهذا وكله باب واحد، وأحكام متواردة على قضية واحدة وهوتحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان أعظم التحام ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أسرارهم) [1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة يونس: (لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].. وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩]، إلى ما تخلل أثناء آى هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرأفة والرحمة، هذا مع ما انطوت عليه هي والأنفال من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه، وعلودعوته وإعلاء لكلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيرا لتحرك ساكن الحسد من العدو العظيم، ما منحه ﷺ قال تعالى في هذه السورة: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه، وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في

---

(١) البرهان فى تناسب سور القرآن، ص ٢٢٠.

ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد..)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة هود: (لما كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت من آي التنبيه والتحريك للنظر، ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب وتقريع المشركين والجاحدين والقطع بهم والإعلام بالجريان على حكم السوابق ووجوب التفويض والتسليم ما لم تشتمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها، وسبب تكرر ذلك فيها والله أعلم، أنها أعقبت بها السبع الطوال، وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاف أحوالهم، ثم استوفت سورة الأنعام ما وقعت الإحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كا تقدم، وبسطت ما أجمل من أمرهم، ثم أتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله ﷺ، وحذروا وأنذروا كشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين، وتم المقصود من هذا في سورة (الأنفال وبراءة) ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم، فكان مظنة لتأكيد التخويف والترهيب لإتيان ذلك بعد بسط حال وإيضاح أدلة، فلهذا كانت سورة يونس عليه السلام مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها، ألا ترى افتتاحها بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم قد نبهوا هنا كما نبهوا هناك فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ثم تأكدت المواعظ والزواجر والإشارات إلى

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ٢٢١.

أحوال المكذبين والمعاندين.. فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها، كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين، فلما تقرر هذا كله، أتبع المجموع بقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وتأمل مناسبة الإتيان بهذين الاسمين الكريمين وهما: الحكيم، الخبير..)[١]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة مريم: (لما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين موسى والخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين، أتبع سبحانه ذلك بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبا وأخفى سببا فافتتح سورة مريم بيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهما ومتعجبا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، فأجابه الله تعالى بأن ذلك عليه هين وأنه يجعل ذلك آية للناس، وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة فكأن قد قيل: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هوأعجب وأغرب وأوضح آية وهوقصة زكريا في ابنه يحيى عليهما السلام، وقصة عيسى عليه السلام في كينونته بغير أب ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وإنما الفعل له سبحانه لا لسبب وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، ثم أتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبيا ثم بذكر مريم وابنها عليهما السلام وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة)[٢]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة طه: (لما ذكر سبحانه

---

(١) البرهان فى تناسب سور القرآن، ص ٢٢٣.

(٢) البرهان فى تناسب سور القرآن، ص ٢٥١.

قصة إبراهيم عليه السلام وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وكان ظاهر هذا الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه ﷺ ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢].. وأيضا فقد ختمت سورة مريم بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، بعد قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقد رأى ﷺ من تأخر قريش عن الإسلام ولردها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم ولا شك أنه ﷺ يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠]، فكأنه ﷺ ظن أنه يستصعب المقصود من استجابتهم أوينقطع الرجاء من إنابتهم فيطول العناء والمشقة فبشره سبحانه بقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢]، فلا عليك من لدد هؤلاء وتوقفهم فسيستجيب من انطوى على الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله كما قيل له في موضع آخر.. ثم أتبع ذلك تعريفا وتأنيسا بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إلى أول قصص موسى عليه السلام؛ فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية لمن وفقه لم يصعب أمره، ثم أتبع ذلك بقصة موسى عليه السلام وما كان منه في إلقائه صغيرا في اليم، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني

إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة النور: (لما قال تعالى في السورة التي قبلها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥].. ثم قال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧] استدعى الكلام بيان حكم العادين في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور.. ثم أتبع ذلك بحكم اللعان والقذف، وانجر مع ذلك الإخبار بقصة الإفك تحذيرا للمؤمنين من زلل الألسنة رجما بالغيب.. وأتبع ذلك بوعيد محبى شياع الفاحشة في المؤمنين.. ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان المشروع.. ثم بالأمر بغض البصر للرجال والنساء، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله سبحانه في الآية.. وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث، ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام، وكل هذا مما يبرىء ذمة المؤمن بالتزام ما أمر الله به من ذلك والوقوف عند ما حده تعالى من أن يكون من العادين المذمومين)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة الفرقان: (لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام كحكم الزنا ورمي الزوجات به والقذف والاستئذان والحجاب، وإسعاف الفقير والكتابة وغير ذلك، والكشف عن مغيبات من تغاير حالات تبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب ـ كإطلاعه سبحانه نبيه والمؤمنين على ما تقوله أهل الإفك وبيان حالهم واضمحلال محالهم ـ ثم في قصة المنافقين في إظهارهم ضد ما يضمرون، ثم كريم وعده للخلفاء الصالحين، ثم ما فضح به تعالى منافقي الخندق.. كان في مجموع هذا فرقانا يعتضد به الإيمان ولا ينكره مقر بالرحمن، يشهد لرسول الله ﷺ بصحة رسالته.. وقد تضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ٢٥٢.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ٢٥٩.

ما لم يتضمن كثير من نظائرها.. ولهذا ختمت بقواطع الوعيد، وأشد التهديد)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في وجه ترتيب سورة الشعراء: (لما عرفت سورة الفرقان بشنيع مرتكب الكفرة المعاندين وختمت بما ذكر في الوعيد كان ذلك مظنة لإشفاقه ﷺ وتأسفه على فوت إيمانهم لما جبل عليه من الرحمة والإشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه السلام وأنه سبحانه لو شاء لأنزل عليهم آية تبهرهم وتذل جبابرتهم فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣-٤].. وقد تكرر هذا المعنى عند إرادته تسليته ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].. ثم أعقب سبحانه بالتنبيه والتذكير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].. وقل ما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته عليه السلام إلا معقبة بقصة موسى عليه السلام وما كابد من بنى إسرائيل وفرعون، وفي كل قصة منها إحراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني والأخبار حتى لا تجد قصة تتكرر، وإنه ظن ذلك من لم يمعن النظر، فما من قصة من القصص المتكرر في الظاهر إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل من غيرها.. ثم أتبع جل وتعالى قصة موسى عليه السلام بقصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أممهم على الطريقة المذكورة وتأنيسا له ﷺ حتى لا يهلك نفسه أسفا على فوت إيمان قومه.. ثم أتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب وعظيم النعمة.. فيا لها كرامة تقصر الألسنة عن شكرها وتعجز العقول عن تقريرها، ثم أخبر تعالى أنه بلسان عربي مبين، ثم أخبر سبحانه بعلي أمر هذا الكتاب وشائع ذكره على ألسنة الرسل والأنبياء

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ٢٦٠.

عليهم السلام فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وأخبر أن علم بني إسرائيل من أعظم آية وأوضح برهان وبينة، وأن تأمل ذلك كاف، واعتباره شاف.. ثم عاد الكلام إلى تنزيه الكتاب وإجلاله على أن تتسور الشياطين على شيء منه أوتصل إليه)[١]

عبد الحميد الفراهي:

قال الشيخ: بورك فيكم يا تلاميذ أبي جعفر الغرناطي، وكتابه [البرهان في تناسب سور القرآن]،، وقد شفيتم وأوفيتم.. فهل يوجد غيره من الشهود على ما ذكرتم؟

قال أحدهم: أجل.. أنا من تلامذة كتب الشيخ عبد الحميد الفراهي[٢] صاحب كتاب (تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان).. والذي يذكر أن تدبره في كتاب الله تعالى أداه إلى استنباط ما سماه (علم النظام) وتحديد أصوله، وذلك بعد أن نظر فيما قاله المفسرون في التناسب والترابط المحفوف بهما كتاب الله تعالى ـ آيات وسورا ـ فوجده غير كاف ولا شاف ؛ لذلك عمل على تطويره وتعميقه، حتى يجعل منه فنا مستقلا على أصول راسخة، وقواعد واضحة، مستنبطة من أساليب القرآن وقواعد اللسان.

قال آخر[٣]: وهو يذكر أن اهتمام السابقين كان منحصرا في الكشف عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام من أوله إلى آخره، حتى يصير بها شيئا واحدا، وقنعوا في ذلك بمجرد بيان المناسبة بينها، من غير أن ينظروا ـ في غالب أعمالهم ـ إلى أمر عام شامل ينتظم به محتوى الآية أوالسورة، وليس هذا التقصير راجعا بالضرورة إلى إهمالهم أوضعفهم، بل كان ـ ولا يزال ـ لدقة هذا الأمر وغموضه.

قال آخر[٤]: وقد نظم الفراهي قواعد هذا العلم، وبين أصوله، ودلل على أهميته

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ص ٢٦١.

(٢) هو حميد الدين أبو أحمد عبد المحسن الأنصاري الفراهي، ولد سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م تقريبا) في قرية (فريها)، من قرى مديرية (أعظم كره) بالهند.

(٣) دلائل النظام، ص ٣: ٥.

(٤) دلائل النظام، ص ٣: ٥.

البالغة، في كتابه (دلائل النظام).. وقد ركز فيه على توضيح التفرقة بين (التناسب) و(النظام)، وأن ما يعنيه من (النظام) ليس مجرد تناسب.

قال آخر: وهو يذكر أهمية التعرف على نظام القرآن في فهمه وإزالة الخلافات حوله، فيقول: (إن الخلافات التي جدت في الأمة الإسلامية، وأثارت بينها العداوة والبغضاء نتيجة عدم اعتناء العلماء بالنظم القرآني، وعدم معرفتهم إياه، فلوفهموا النظام، لفهموا روح القرآن، وحاولوا إزالة هذه الخلافات لا إشعال نيرانها كما يفعلون، فإني رأيت جل اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لوظهر النظام، واستبان لنا عمود الكلام، لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وجعلنا معتصمين بحبل كتابه، كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وكيف الخلاص من التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتا في ظنونهم، وهوبحمد الله متين.. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فيؤوله كل فريق حسب ظنه، ويحرف طريق الكلام عن سمته.. فبالنظام يتبين سمت الكلام، فتنتفي عن آياته أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيغ المنحرفين)[(١)]

قال آخر: وقال في بيان أهميته: (لا يخفى أن نظم الكلام بعض منه، فإن تركته ذهب معناه، فإن للتركيب معنى زائدا على أشتات الأجزاء، فمن حرم فهم النظام، فقد حرم حظا من الكلام، ويوشك أن يشبه حاله بمن قبله من أهل الكتاب، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].. وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء التي نراها في المسلمين من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم، ولا يرجعون من اختلافهم.. وسبب ذلك ما

---

(١) مقدمة تفسير نظام القرآن، ص ٣.

ذكرنا في الأمر الأول؛ لأنا إذا اختلفنا في معاني كلامه، اختلفت أهواؤنا، وصرنا مثل أهل الكتاب..غير أن رجاءهم كان بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم.. وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ)(١)

قال آخر: وقد قال مبينا منهجه في ذلك: (قد صنف بعض العلماء في تناسب الآي والسور، وأما الكلام في نظام القرآن، فلم أطلع عليه، والفرق بينهما: أن التناسب إنما هوجزء من النظام، فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئا واحدا مستقلا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئا واحدا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، ولولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب، فأنكروا به، فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيرا، ومنها ما ترى فيه اقتضابا بينا، وذلك إذا كانت الآية ـ أوجملة من الآيات ـ متصلة بالتي على بعد منها.. وبالجملة: فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كاملا واحدا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أوبالتي قبلها أوبعدها على بعد منها.. فكما أن الآيات ربما تكون معترضة؛ فكذلك ربما تكون السورة معترضة، وعلى هذا الأصل نرى القرآن كله كلاما واحدا، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه، من الأول إلى الآخر، فتبين مما قدمنا أن النظام شيء زائد على المناسبة وترتيب الأجزاء)(٢)

قال آخر: وهو في سبيل معرفة النظام على هذه الكيفية سعى إلى استخراج ما سماه (عمود) كل سورة، وهويعني به العنوان الرئيس للسورة من القرآن، فمعرفته تؤدي إلى معرفة نظام القرآن كله.. وهوفي استخراجه لا يعتمد كثيرا على حشد الأقاويل والروايات

---

(١) مقدمة تفسير نظام القرآن، ص ٣. (٢) دلائل النظام، ص ٧٤، ٧٥.

التي تملأ كتب التفسير، بل يعمد ـ مباشرة ـ إلى تدبر القرآن، والنظر في معانيه وأهدافه نظر المطلع الخبير؛ ليهديه هذا التأمل المجرد إلى معرفة العمود، ومن ثم النظام.

قال آخر: وهو مثل كل من كتبوا في هذا المجال يصرح بصعوبة هذه العملية لاستخراج (عمود السورة)، فيقول: (اعلم أن تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها.. ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها)[1]

قال آخر: وهو يضرب الأمثلة الموضحة لذلك، فيذكر أن سورة الفاتحة كالديباحة للقرآن، ففيها مفاتيح لجميع ما فيه، وسورة البقرة هي سورة الإيمان المطلوب؛ ولذلك جمعت دلائله، وسورة آل عمران سورة الإسلام، وهو طاعة النبي ﷺ، وسورة النساء كالردء لصورة الإسلام، بما تبين من كون الشريعة رحمة على الناس كافة، وسورة المائدة تركز على بناء الإسلام على العهد الإلهي بذكر أواسط العهد ونهايته، وأما سورة الأنعام، فعمودها بيان موقع الأحكام من عهد التوحيد، لسد أبواب الشرك.. وهكذا[2].

سيد قطب:

قال الشيخ: بورك فيكم يا تلاميذ الشيخ عبد الحميد الفراهي، وقد شفيتم وأوفيتم.. فهل يوجد غيره من الشهود على ما ذكرتم؟

قال أحدهم: أجل.. أنا من تلامذة كتب الأستاذ سيد قطب، صاحب تفسير (في ظلال القرآن)، و(التصوير الفني في القرآن).. وقد رأيت من خلال نسخي لكتبه اهتمامه

---

(١) دلائل النظام، ص ٧٧.

(٢) دلائل النظام، ٩٣.

بالتناسق الفني في القرآن الكريم.. ومن ألوان التناسق التي اهتم بها التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.. وإن كان يعيب على من يتكلف في ذلك.

قال آخر: وقد قال يشير إلى ذلك في تعريفه بسورة البقرة: (يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لوكان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أوعدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص.. ولها جوخاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو.. ولها إيقاع موسيقي خاص إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا) (١)

قال آخر: وقال في تعريفه بسورة الأعراف: (هذه سورة مكية ـ كسورة الأنعام ـ موضوعها الأساسي هوموضوع القرآن المكي.. العقيدة.. ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان في معالجة هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة.. إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة.. إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية) (٢)

ثم ذكر تشبيها جميلا لذلك، فقال: (إن الشأن في سور القرآن ـ من هذه الوجهة ـ كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة.. كلهم إنسان، وكلهم له خصائص

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٨)

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٣)

الإنسانية، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني.. ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع.. نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة.. هكذا عدت أتصور سور القرآن. وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها. بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته، وملامحه وسماته.. وأنا أجد في سور القرآن ـ تبعا لهذا ـ وفرة بسبب تنوع النماذج، وأنسا بسبب التعامل الشخصي الوثيق، ومتاعا بسبب اختلاف الملامح والطباع، والاتجاهات والمطالع! إنها أصدقاء.. كلها صديق.. وكلها أليف.. وكلها حبيب.. وكلها ممتع.. وكلها يجد القلب عنده ألوانا من الاهتمامات طريفة، وألوانا من المتاع جديدة، وألوانا من الإيقاعات، وألوانا من المؤثرات، تجعل لها مذاقا خاصا، وجوا متفردا.. ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة.. رحلة في عوالم ومشاهد، ورؤى وحقائق، وتقريرات وموحيات، وغوص في أعماق النفوس، واستجلاء لمشاهد الوجود.. ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة ومع كل سورة)[1]

قال آخر: ثم ذكر الفرق بين السورتين ـ مع اشتمالهما على مواضيع واحدة ـ فقال: (إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة، وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة.. ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها وتواجه الجاهلية العربية في حينها ـ وكل جاهلية أخرى كذلك ـ مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة.. نجد سورة الأعراف ـ وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك ـ تأخذ طريقا آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر.. إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٣)

مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ، يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل، وقبيلا بعد قبيل.. ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى اللهّ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة.. إنها رحلة طويلة طويلة.. ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة، في الطريق المرسوم.. ملامحه واضحة، ومعالمه قائمة، ومبدؤه معلوم، ونهايته مرسومة.. والبشرية تخطوفيه بجموعها الحاشدة، ثم تقطعه راجعة.. إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى) (١)

قال آخر: ولهذا نراه في افتتاح كل سورة من سور القرآن الكريم يشير إلى مواضيعها، ومدى تناسقها، ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة المائدة: (نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول اللهّ ﷺ لينشيء به أمة، وليقيم به دولة، ولينظم به مجتمعا وليربي به ضمائر وأخلاقا وعقولا وليحدد به روابط ذلك المجتمع فيما بينه وروابط تلك الدولة مع سائر الدول وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم.. وليربط ذلك كله برباط قوي واحد، يجمع متفرقه، ويؤلف أجزاءه، ويشدها كلها إلى مصدر واحد، وإلى سلطان واحد، وإلى جهة واحدة.. وذلك هوالدين، كما هوفي حقيقته عند اللهّ وكما عرفه المسلمون. أيام أن كانوا مسلمين، ومن ثم نجد في هذه السورة ـ كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها ـ موضوعات شتى الرابط بينها جميعا هوهذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه:

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٣)

إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد.. الأصل فيه إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك.. وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم.. إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها، وطبيعة طريقها وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك، وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين.. إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة وتربطها بربها. إلى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعها والتشريعات الدولية التي تنظم علاقاتها بغيرها.. إلى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح أوألوانا من الأعمال والمسالك.. كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة يمثل معنى (الدين) كما أراده الله وكما فهمه المسلمون. أيام أن كانوا مسلمين) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة مريم: (يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ونفي الولد والشريك ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد.. هذا هوالموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كالشأن في السور المكية غالبا.. والقصص هومادة هذه السورة. فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى. فقصة مريم ومولد عيسى. فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه.. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهرون، وإسماعيل، وإدريس. وآدم ونوح.. ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة. ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث، ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين.. ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٢٥)

المنكرين للبعث واستنكار للشرك ودعوى الولد وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا وفي الآخرة.. وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل)[1]

ثم يبين الآثار الخاصة التي تحدثها السورة في النفس، فيقول: (وللسورة كلها جوخاص يظللها ويشيع فيها، ويتمشى في موضوعاتها.. إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية.. الانفعالات في النفس البشرية، وفي نفس الكون من حولها.. فهذا الكون الذي نتصوره جمادا لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات، تشارك في رسم الجوالعام للسورة.. حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا.. أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها.. والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة، وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى.. والظل الغالب في الجوهوظل الرحمة والرضى والاتصال. فهي تبدأ بذكر رحمة اللهّ لعبده زكريا وهويناجي ربه.. ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيرا. ويكثر فيها اسم ﴿الرَّحْمنِ﴾ ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود.. وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال، كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة المؤمنون: (هذه سورة (المؤمنون).. اسمها يدل عليها، ويحدد موضوعها.. فهي تبدأ بصفة المؤمنين، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٩)

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٩)

اللهّ ـ صلوات اللهّ عليهم ـ من لدن نوح عليه السلام إلى محمد خاتم الرسل والنبيين وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها، ووقوفهم في وجهها، حتى يستنصر الرسل بربهم، فيهلك المكذبين، وينجي المؤمنين.. ثم يستطرد إلى اختلاف الناس ـ بعد الرسل ـ في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد.. ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول ﷺ ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر.. وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب، يختم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى اللهّ بطلب الرحمة والغفران.. فهي سورة (المؤمنون) أوهي سورة الإيمان، بكل قضاياه ودلائله وصفاته. وهوموضوع السورة ومحورها الأصيل) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة الفرقان: (هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول اللهّ ﷺ وتسرية، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدي وصدهم عنه.. فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به اللهّ عبده ورسوله وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحا رفيقا ويهدهد قلبه، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة.. وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة للهّ ورسوله، وهي تجادل في عنف، وتشرد في جموح، وتتطاول في قحة، وتتعنت في عناد، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين) (٢)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة العنكبوت: (والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام.. إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٥٢)

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٤٤)

الإيمان والفتنة وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف.. ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها فإن سياقها يمضي بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان، استعراضا سريعا يصور ألوانا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان على امتداد الأجيال.. ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها، وقد أخذها الله جميعا، ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصورا يجسم وهنها وتفاهتها: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].. ويربط بعد ذلك بين الحق الذي في تلك الدعوات والحق الذي في خلق السماوات والأرض، ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعا ودعوة محمد ﷺ فكلها من عند الله، وكلها دعوة واحدة إلى الله.. ومن ثم يمضي في الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال المشركين له وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم يؤمنون، ويستعجلون بالعذاب.. وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة، غير خائفين من الموت.. ويختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم.. فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق في السورة، وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام، حول محورها الأول وموضوعها الأصيل)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة السجدة: (هذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٨)

القرآن ليوقظها في الفطر، ويركزها في القلوب: عقيدة الدينونة للهّ الأحد الفرد الصمد، خالق الكون والناس، ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا اللهّ، والتصديق برسالة محمد ﷺ الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى اللهّ، والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء.. هذه هي القضية التي تعالجها السورة وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية، كل منها تعالجها بأسلوب خاص، ومؤثرات خاصة تلتقي كلها في أنها تخاطب القلب البشري خطاب العليم الخبير، المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها، ومنحنياتها ودروبها، العارف بطبيعتها وتكوينها، وما يستكن فيها من مشاعر، وما يعتريها من تأثرات واستجابات في جميع الأحوال والظروف.. وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة؛ فهي تعرضها في آياتها الأولى ثم تمضي بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب، منيرة للروح، مثيرة للتأمل والتدبر كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة في صفحة الكون ومشاهده وفي نشأة الإنسان وأطواره وفي مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة والحركة وفي مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها.. كذلك ترسم السورة صورا للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها، وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها وتعرض صورا للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان، يشهده كل قارئ لهذا القرآن.. وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة، وإلى الخوف والخشية مرة، وإلى التطلع والرجاء مرة، وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد، وتارة بالإطماع، وتارة بالإقناع.. ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين، تدعه لنفسه يختار طريقه، وينتظر مصيره

على علم وعلى هدى وعلى نور)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة غافر: (هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل.. قضية الإيمان والكفر.. قضية الدعوة والتكذيب.. وأخيرا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين.. وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.. وجوالسورة كله ـ من ثم ـ كأنه جو معركة، وهي المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل.. وتتنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين، ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة ـ وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر ـ وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جوالسورة كله، مشتركة في طبع هذا الجوبطابع العنف والشدة.. ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].. فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع، مستقرة المقاطع، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي.. كذلك نجد كلمة البأس. وبأس الله. وبأسنا.. مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة. وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أوبمعناها.. وعلى العموم فإن السورة كلها تبدووكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين، وقد ترق أحيانا فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٠٢)

ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أووهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة ق: (كان رسول الله ﷺ يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها، في الجماعات الحافلة.. وإن لها لشأنا.. إنها سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجرس فواصلها.. تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها، وتتعقبها في سرها وجهرها، وفي باطنها وظاهرها.. تتعقبها برقابة الله، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد، إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب.. وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة.. تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقا كاملا شاملا.. فهوفي القبضة التي لا تغفل عنه أبدا، ولا تغفل من أمره دقيقا ولا جليلا، ولا تفارقه كثيرا ولا قليلا. كل نفس معدود.. وكل هاجسة معلومة.. وكل لفظ مكتوب.. وكل حركة محسوبة.. والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح.. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة، في كل وقت وفي كل حال.. وكل هذه حقائق معلومة، ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة، تروع الحس روعة المفاجأة وتهز النفس هزا، وترجها رجا، وتثير فيها رعشة الخوف، وروعة الإعجاب، ورجفة الصحومن الغفلة على الأمر المهول الرهيب.. وذلك كله إلى صور الحياة، وصور الموت، وصور البلى، وصور البعث، وصور الحشر، وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها في الحس، وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض، وفي الماء والنبت، وفي الثمر

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٦٥)

والطلع.. وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف، وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال، في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني والصور والظلال، إشعاعا مباشرا للحس والضمير) [١]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة الطور: (هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري، ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتتدسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه، ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان.. حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام.. وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة، والمعنى والمدلول، والصور والظلال، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء.. ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لوكانت قذائف، وإيقاعاتها كما لوكانت صواعق، وصورها وظلالها كما لوكانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام) [٢]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله في التعريف بسورة النجم: (هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية، منغمة، يسري التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة.. وموضوع السورة الذي تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق: العقيدة بموضوعاتها الرئيسية: الوحي والوحدانية والآخرة.. والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمي الموهون) [٣]

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٥٦)

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩١)

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٠٤)

محمد تقي المدرسي:

قال الشيخ: بورك فيكم يا تلاميذ الأستاذ سيد قطب، وقد شفيتم وأوفيتم.. فهل يوجد غيره من الشهود على ما ذكرتم؟

قال أحدهم: أجل.. أنا من تلامذة كتب العلامة السيد محمد تقي المدرسي، وقد رأيت اهتمامه بهذه الجوانب في تفسيره للقرآن الكريم، بالإضافة إلى تخصيصه كتابا خاصا بذلك، اسمه [مقاصد السور]، كان لي شرف نسخه ونشره مع نفر من أصدقائي.. وقد قال في مقدمته يشير إلى هذا: (كلمة السورة مشتقة من (السور)، بمعنى الإطار المتّحد للشيء.. والسورة تعني واحدة من الأطر التي تحدد مجموعة أفكار معينة، وتعطينا في المجموع شخصية متفاعلة.. وربما نستطيع أن نعبر عنها بـ (وحدة فكرية) قياساً بتعبيرنا: وحدة حرارية، ووحدة ضوئية، أوأية وحدة كمية أخرى.. ولعل هذا اللفظ أفضل من التعبير بـ (الفصل.. القسم.. البحث)؛ لأن لفظ (سورة) لا يدل على فصل القرآن بعضه عن بعض وتقسيمه أقساماً مختلفة، مما قد يوحي بأفكار بعيدة عن حقيقة القرآن، بل يدل على مدى التفاعل بين أفكار مجموعة آيات قرآنية تشكلها السورة الواحدة، حتى إننا نستطيع تحديدها بإطار واعتبارها وحدة فكرية مستقلة)[(١)]

قال آخر: وقد أشار إلى ضرورة الاهتمام بالتفاصيل العلمية لذلك، بدل الاكتفاء بالحديث العام الذي درج عليه بعض المفسرين، فقال: (وقد حدد بعض المفسرين نظراته حول سور القرآن عبر الموضوعات العامة والمشتركة بينها وبين سائر السور، فكل سور القرآن في تصوره تدور حول ضرورة توحيد الله، والإيمان بحاكميته المطلقة على الأرض والسماء والإنسان، وهكذا.. ولا شك في أن هذا صحيح ولكن لا يكفي ذلك وحده،

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ٩.

فالمواضيع الهامة موجودة في كل السور، فلماذا إذاً تكررت، وما هي الفوارق بينها؟ وهل يكفي لنعرف مدينة أن نقول: إنها بُنيت من الطوب والإسمنت، وإن شوارعها معبدة، أم أنه يجب أن نرسم خريطة تفصيلية لها ولشوارعها، وأسواقها، وجغرافيتها الطبيعية، وجغرافيتها الاقتصادية، والبشرية وما أشبه؛ لكي يتضح الفرق بينها وبين المدن الأخرى؟ مضافاً إلى أن العلم هو الإحاطة بدقائق الأمور، وحدود الأشياء التي تفصلها عن سواها.. والإحاطة بعلوم القرآن والتبصُّر بآياته تتطلَّب خبرة بالموضوعات المتميزة في سور القرآن، وما يميز هذه الموضوعات عن مثيلاتها في سائر السور مع العلوم والمعارف الجديدة التي تُستلهم من كل سورة، ومن كل آية من هذه الآيات، بل حتى الآية الواحدة التي تأتي في القرآن مرتين بالألفاظ نفسها، وبالتعابير نفسها، ومن دون أية زيادة أونقيصة؛ يجب أن نبحث فيها عن معارف جديدة تميزها من التي سبقتها أوالتي تلحقها بسبب اختلاف السياق)[1]

قال آخر: ثم بين ضرورة التدبر لتفقه أسرار ذلك، فقال: (إن أَيَّة آية جديدة تنزل من السماء مرة جديدة لا بد أن تحمل فكرة جديدة أيضاً، ففي معرفتنا للسورة القرآنية وموضوعاتها يجب أن نبحث عما يميزها من سائر السور، في الوقت نفسه الذي نبحث فيه عن الخطوط العامة المشتركة بينها وبين سائر السور.. فآيات القرآن من نسق واحد، بعض آياته مثل بعضها، لأن أصولها واحدة وبلاغتها واحدة، وفي المستوى نفسه؛ إذ كل آيات القرآن تدل على الإعجاز، كما تدل على أنها من الله عز وجل، وليست من البشر، ولكن في الوقت نفسه نجد أن لكل آية من آيات القرآن موضوعاً خاصًّا بها، وموضوعات أعم بالنسبة إلى سياقها، وأعم بالنسبة إلى السورة الواحدة التي نجد الآية فيها)[2]

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ٩.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ٩.

قال آخر: وتحدث عن تميز القرآن الكريم بهذا، وعلته، فقال: (إن القرآن الكريم ضياء عند أحلك الظلمات، وفرقان عند تكاثف ضباب الشبهات، وشفاء الصدور من أدران العصبيات والعُقَد.. تنساب آياته الكريمة، وعبر سوره المتشابهة، لتحقيق تلكم الأهداف السامية.. وتنتظم في إطار الأهداف بنظم عظيم الروعة والدقة، ومختلف تماماً عن تنظيم أي كتاب آخر، لأنّ سائر الكتب لا ترقى إلى مستوى كتاب الرب في مسعى تلكم الأهداف، اللهم إلّا بقدر ما تستضيء بالقرآن، ومن هنا حارت العقول في نظم كتاب ربنا المجيد، كما حارت في أنه نثر أوشعر؟!.. كلَّا؛ إنّه قرآن فضلُهُ على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه سبحانه)[1]

قال آخر: وتحدث عن مبدأ اهتمامه بهذه الجوانب المهمة، فقال: (مَنْ تدبَّر في آيات القرآن الكريم قد يوفّقه الله تعالى لبعض لطائف ذلك النظام.. ومنذ أكثر من ثلاثة عقود مضت، عندما كنتُ أسجّل ما يُعرِّفني الله تعالى من معارف القرآن الكريم، عند التدبر في آيات الذكر، وذلك ضمن موسوعة (من هدى القرآن).. منذ ذلك الوقت، فكّرت في تسجيل ما أستلهمه من آيات الذكر، في تناسق آياته ونظم سوره)[2]

قال آخر: وقال ـ متحدثا عن السبل التي استعملها لتحقيق ذلك ـ: (كنت أتدبر في كل آيةٍ، آية.. ثم في كل مجموعة آيات، وأسجّل ما أحصل عليه، ثم أتدبّر في تلك المجاميع مع بعضها، بهدف التعرّف على الإطار العام الذي يجمعها، وأكتب بعدئذ عن الإطار العام لكل سورة، وهذا الإطار ـ هوكما يبدومقصد السورة المباركة ـ هذه هي الخطوة الأقرب، والأصوب للوصول إلى مقصد السورة القرآنية.. وهناك سبل شتى للوصول إلى الحقائق

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ١١.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٢.

جميعاً، ومنها حقائق الكتاب المجيد)(1)

قال آخر: ومن تلك السبل التي ذكر استعماله لها للوصول إلى دقة الترتيب والمناسبة في القرآن الكريم البدء باسم السورة، وقد قال في ذلك: (يبدوأن أسماء السور ـ كما هي السور ـ نازلة من السماء، أولا أقل مُبيَّنة من قبل رسول الوحي نبينا الأكرم محمد المصطفى ﷺ، وهي ذات صلة بموضوعات السورة، وقد تعدَّدت ـ أحياناً ـ أسماء سورة واحدة، مثل الحمد فهي فاتحة الكتاب، وهي سورة الحمد، وهي السبع المثاني) (2)

قال آخر: وضرب مثالا على ذلك باسم سورة البقرة، فقال: (فسورة البقرة تتناسب موضوعاتها مع وضعٍ قد تهبط إليه الأمة عند خور عزيمتها، فإن بني إسرائيل تردّدوا في ذبح بقرة حتى قال ربنا سبحانه عنهم ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].. وانطلاقاً من هذه القصة، عرفنا أنّ معظم آيات السورة، تدور حول الأمة الإسلامية، وصبغتها التوحيدية، وقبلتها التوحيدية، وأحكامها، وشرائعها، وما تمتاز به عن أمة الكفر والنفاق.. كل ذلك استوحيناه من التدبر في اسم السورة، وفي علاقة هذا الاسم بالقصة ومغزاها، ثم علاقة ذلك المغزى بموضوعات السورة الأخرى.. وهكذا كان إسم السورة منطلقاً للوصول إلى مقصد السورة) (3)

قال آخر: وضرب مثالا على ذلك باسم سورة آل عمران، فقال: (وتم تطبيق مثل هذا في اسم سورة آل عمران، فآل عمران هم آخر ذرية اصطفاها الله قبل الإسلام من بين البشر، ليكونوا أئمة وهداة، وهم الذي يشكّلون رأس الهرم في نظام الأمة، وبتعبير آخر: هم سنام الأمر، ونظام الأمة، كما جاء في حديث شريف، وهم بذلك الحبل المتين الذي

---

(1) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٢.

(2) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٢.

(3) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٢.

يوحّد شتات الناس ويعصمهم من التفرّق.. وهكذا، ومن خلال التفكير في هذه الحلقات المتصل بعضها ببعض، نصل إلى مقصد السورة، وهوالوحدة على أساس الإمامة الإسلامية، ونبذ العنصرية، والطبقية، والتحزُّب، والتفرُّق)(١)

قال آخر: وضرب مثالا على ذلك باسم سورة النساء، فقال: (وإذا كانت الأسرة هي الوحدة الفطرية في المجتمع الإنساني، وكانت المرأة هي عمود هذه الأسرة، فهي زوجة، وأم، وربّة بيت؛ فإنّ سورة النساء هي سورة النظام الاجتماعي (أولي الأرحام) القائم على الفطرة.. والنموذج الأمثل منه ما يعتمد على القيم المثلى، وأبرزها الطاعة للرسول ﷺ، والتمسُّك بأحكام الدين)(٢)

قال آخر: وضرب مثالا على ذلك باسم سورة المائدة، فقال: (وهناك نظام أكثر تطوُّراً، وهونظام المائدة التي تجمع الناس حول القيم المثلى، ويُبنى بهم المجتمع الإسلامي، والحضارة الإلهية، وصفات هذه الحضارة، وركائزها، وشروطها، وأهدافها، تقرؤها في سورة المائدة)(٣)

قال آخر: ومن السبل التي ذكر استعماله لها للوصول إلى دقة الترتيب والمناسبة في القرآن الكريم فواتح السور وخواتيمها، يقول في ذلك: (الكلمات الأولى والأخيرة في كل خطاب، تركِّز أهم ما فيه.. وهكذا نستفيد من فاتحة السورة، وآياتها الأولى، وخاتمة السورة، وآياتها الأخيرة، أهم ما فيها من حقائق.. وبالتالي نعرف مقصد السورة الكريمة)(٤)

قال آخر: ومن السبل التي ذكر استعماله لها أحاديث النبي ﷺ وأهل بيته الذين هم الثقل الآخر الذي أوصى به النبي الأكرم ﷺ، فقد (ساهم هوالآخر ـ وبالخصوص أحاديث

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٣.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٣.

(٣) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٣.

(٤) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٣.

فضائل السور ـ للوصول إلى مقاصدها) (١)

قال آخر: ومن السبل التي ذكرها (العلاقة الروحية مع القرآن الكريم)، فله ـ كما يقول ـ (كلمة سرّ، فلا تنفتح آياته لبشر حتى يؤتيه الله تلك الكلمة، وتلك الكلمة هي العلاقة القلبية بين الكتاب والإنسان.. وأبرز ركائز تلك العلاقة الإيمان بحقيقة الكتاب، وأنه من الله، وأنه معراج البشر إليه، وأنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].. وبالتالي الإيمان بكل صفات الكتاب، وهوعلى مستويات، وكلما تقدَّم عبر مستوى، زاد حظّه في الاستزادة منه)(٢)

قال آخر: ومن السبل التي ذكرها (التسليم المسبق لآياته، والجديّة في الاستعداد للعمل.. ومنها: التوسُّل بالكتاب، وبأهل الكتاب إلى الله، لمعرفة حقائقه)(٣)

قال آخر: وذكر دور التجربة الشخصية في ذلك كله، فقال: (هذه الركائز تختلف من شخص لآخر، بل بالنسبة إلى شخص واحد من حالة لأخرى.. وهكذا أعتقد إن معرفة حقائق القرآن تتصل بتجربة كل شخص، وحين ننقُل المعارف بعضها إلى بعض تفقد الكثير من بهجتها ونضارتها، وبالتالي من روحها.. ومن هنا نُوصي الإخوة القراء أن يسعوا جاهدين ليصلوا إلى روح القرآن، عبر فتح كلمة السر بفضل الله)(٤)

قال آخر: وهو لهذا يعطي لكل سورة عنوانا خاصا يقوم بشرحه وتفصيله بعد ذلك، ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة العلق: (سورة العلم والإيمان علاج الطغيان)، ثم شرح ذلك بقوله متسائلا: (ما هو محور سورة العلق؟)، ثم أجاب على ذلك بقوله: (إن في نفس ابن آدم كبر دفين، يستثيره شعوره بالغنا، ويذهب به إحساسه بالحاجة، وإذا لم ينتبه

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٣.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٤.

(٣) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٤.

(٤) مقاصد السور، المدرسي، ص ١٤.

الإنسان إلى هذا الداء العضال فإن نعم الله عليه لا تزيده إلا طغياناً، والطغيان مطية الهلاك.. وأما إذا تذكر الإنسان، وعرف أنه بذاته جاهل فقير مسكين مستكين، وأن الله هوالذي عَلَّمَ بالقلم، وأنه حينما يقرأ فإن الله هوالأكرم، أهل الحمد والكبرياء، وليس هذا المتعلم الذي يطغى بعلمه، وعرف أن الثروة نعمة من الله لا بد من حمدا لله عليها وشكره لا الطغيان بها، ومواجهة الحق بها، وكذلك الجاه والعشيرة.. لوعرف ذلك؛ اطمأنت نفسه، بل استطاع أن يعالج بإذن الله كبر ذاته عبر نعم ربه؛ فكلما زادت النعم ازداد شكراً لله وتواضعاً لعباد الله، وأداءً لحقوق الله.. هكذا يبدومحور سورة العلق؛ معالجة طغيان الإنسان عندما يحظى بنعمة العلم أوالمال والجاه، معالجته بالمزيد من التعبد. وهكذا تختم السورة بالأمر بالسجود الذي هومعراج الإنسان إلى ربه) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة القدر (ليلة القدر مهرجان الصالحين)، ثم شرح ذلك بقوله: (لأن الحقيقة واحدة تنبسط فتصبح مفصلات، وتتركز فتكون هدى وبينات، فإن القرآن الكريم قد يبسطها عبر آياته كما في سورة البقرة، وقد يجملها في سورة قصيرة كما في سورة القدر التي لوتدبرنا فيها بعمق لقرأنا فيها آيات الكتاب جميعا.. لقد أنزل الله كتابه في ليلة القدر التي هي عظيمة لا يكاد يحيط العقل بأبعادها، لأنها خير من ألف شهر.. لماذا؟.. لأنها ميعاد الإنسان الصالح مع ملائكة الله وأعظم منهم مع الروح.. وهم حين يهبطون ينزلون بما يقدر الله من كل أمر.. في هذه الليلة التي تتواصل ملائكة الله والروح مع عباد الله الصالحين في الأرض تتجلى رحمة الله وبركاته ومغفرته التي تتمثل في كلمة (السلام) وتستمر الليلة حتى مطلع الفجر.. وهكذا بينت هذه السورة كيف يتم الاتصال بين الإنسان وبين ملائكة الله والروح.. وهذه الصلة التي تتجلى في القرآن كما

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣١٧.

في الأقدار الحكيمة والبركات هي من أعظم الحقائق القرآنية)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة البينة (سورة الرسول ورسالة التوحيد، والوحدة)، ثم شرح ذلك بقوله: (لن يقدر الإنسان الخروج من نفق الضلال بغير هدى من الله (البتة)، ولا يكره الله الناس على اتباع البينة حينما تأتيهم، فترى بعضهم يهتدون بها، وأكثرهم يضلون عنها بأهوائهم وهكذا اختلفوا.. وليست خلافاتهم في البينة، لأن البينة قد أمرتهم بعبادة الله وحده بعيدا عن أي خلاف.. حول هذه المحاور الثلاث جاءت آيات سورة البينة التي خصت بصائر كثيرة فصلت في الكتاب الكريم، وأوضحت كذلك صفات البينة: إنها تتمثل في رسول يحمل من الله كتاباً طاهراً من أي زيف أوباطل، وهو يدعو إلى توحيد الله الخالص من أي شائبة مادية.. وهذا الخلاف الذي انتشر بينهم يرجع إلى القرآن، وهويحكم بأن شر البرية الذي يكفر برسالات الله، سواء كان من أهل الكتاب أومن المشركين، وأن خير البرية هم المؤمنون الذين يجزيهم الله بجنات عدن، ويرضى عنهم، ويرزقهم الرضا عنه، كل ذلك لخشيتهم من الله)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الزلزلة (سورة قانون الجزاء الإلهي)، ثم شرح ذلك بقوله: (إن سنة الله في الجزاء تتجلى في البصيرة التي تبينها سورة الزلزلة؛ إن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وإن من يعمل مثقال ذرة شراً يره؛ لكي لا يستهين الإنسان بأعماله التي تتجسد له يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل الذي تزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض ما في جوفها من أجساد ومعادن وأجسام مختلفة، ويستبد بالإنسان حيرة ويتساءل: ما لها؟ وترى الناس يصدرون في مذاهب شتى، حسب أفعالهم وحسب درجاتهم.. وفي ذلك اليوم، لن يضيع حتى أصغر ما يتصوره الإنسان من عمل، من وسوسة الصدر، حتى

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣١٩.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٠.

لمحة بصر، ونصف كلمة ونفضة من حركة.. فكلها مسجَّلة، وكلها يراها الإنسان.. من خير أوشر.. وإذا كانت كل ذرّة من خير تؤثر في مصيرنا، فعلينا أن نزداد منها أنّى استطعنا.. وإذا كانت كل ذرَّة من شر نحاسب عليها، فعلينا أن نتحذَّر منها)(١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة العاديات (سورة الإيثار والتضحية)، ثم شرح ذلك بقوله: (لكي نفقه كرامة المجاهدين على الله عز وجل، وعظمة دور خيلهم العاديات في سبيله، يُقسم القرآن بها، لأنها من وسائل حمل نور الإسلام إلى الآفاق، وهي تحمل صفوة عباد الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته.. إن الخيل العاديات قد تجاوزت الحد في السرعة، اشتياقاً إلى إلحاق الهزيمة بأعداء الله وتحقيق الهدف الرباني.. بعد أن يصور السياق ببلاغة نافذة معركة منتصرة، يمتطي المجاهدون فيها الخيول التي تعدووتحمحم، وتنقدح من حوافرها الشرار، ثم تغير مع بواكير الصباح على العدو، مثيرة غباراً كثيفاً، ثم تبلغ وسط الهدف.. بعد أن يصور السياق ذلك ويقسم به إكراماً له (لأنه غاية الجود والشهامة والإيثار) يبين أن الطبيعة الأولية للانسان (قبل أن يتربى ويتزكى) هوالنكد، والبخل، وحب الخير لنفسه، والاستئثار به، ولكن متى يفقه حقاً خطأه؟ عندما تتكشف القبور عما سترتها من أجساد، وتتكشف الصدور عما خبأتها من أسرار.. يومئذٍ يعرف الإنسان أن ربه خبير به.. هكذا تربي هذه السورة الكريمة التي جاء في بعض الأحاديث أنها بمثابة نصف القرآن، تربي الإنسان على الإيثار والتضحية في سبيل الله)(٢)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة القارعة (سورة ساعة القيامة)، ثم شرح ذلك بقوله: (خلق الله كل شيء بمقدار، كل ما حولك موزون بدقة، فهل يسمح للإنسان أن يعبث بحياته بلا نظام ولا حساب.. كلا.. إن حياته هي الأخرى محسوبة عليه،

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢١.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٣.

كل وسوسة وفكرة وعزم، كل كلمة وكل حركة مسجلة عليه، وعليه أن يزيد من صالح أعماله ما يثقل ميزانه، وإلا فإن مصيره إلى نار حامية، متى؟ عندما تقرع ساعة القيامة، وعندها يكون الناس كالفراش المبثوث، وكالجراد المنتشر، وتكون الجبال كما الصوف المنفوش)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة التكاثر (سورة ابن آدم بين الحرص والموت)، ثم شرح ذلك بقوله: (بين حاجة الإنسان وحرصه مسافة كبيرة، وما يلهيه عن ذكر الله، وعن المكارم ليست حاجته، بل حرصه الذي يبعثه يحرضه على التكاثر في الأموال والأولاد، حتى إذا زار قبره لم ينفعه ماله وولده شيئا، وحوسب على نعيم الله، وتلاشى عنه ما يلهيه، لأنه سوف يرى الجحيم عين اليقين.. وهكذا تعالج السورة حالة التلهي بالدنيا عبر التذكرة بالموت ثم العقاب والحساب)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة العصر (سورة الإيمان ينتصر للإنسان)، ثم شرح ذلك بقوله: (يزعم ابن آدم أنه كلما طال عمره كبر وازداد.. بينما الحقيقة عكس ذلك تماماً، فكلما مضى من عمره شطرٌ، اقترب منه أجله، وتناقص رأس مال حياته، ونقص ما تبقى منه، فزيادة المرء في دنياه نقصان، وهوكبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأس ماله كل لحظة.. لكي يتبصر الإنسان واقع الزمن، ويعلم كيف يهدم الزمن عمره لحظة بلحظة، ثم لكي يعرف بماذا يقاوم خسرانه، جاءت سورة العصر عصارةً لبصائر الذكر في هذا الموضوع الأساسي، الذي لو وعاه الإنسان لوعى حقيقة عمره، وحقائق العالم المحيط به.. قَسَماً بالزمن، إنك لولا الإيمان في خسران، وكل لحظة لا إيمان ولا عمل صالح فيها فهي جزء ضائع من كيانك، ولكن الإنسان في غفلة عن هذا العدوالخطير، بيد أن المؤمنين

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٥.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٦.

يُذكِّر بعضهم بعضاً بالحق، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره أن في سورة الهمزة دلالة على أن (التكبر خسارة عظمى)، ثم شرح ذلك بقوله: (في تسع آيات مباركات تبين سورة الهُمَزة حالة المتكبر الخاسر التي تخالف حالة المؤمن المتواصي بالحق والصبر، حيث تتجلى صفة الخسارة، فمن يزعم أنه قد ربح الدنيا، يجمع مالها ويعدده، ويستكبر على الناس بهمزهم ولمزهم.. وأية خسارة أعظم من نبذه في النار تحطم عظامه، أو ليست تتقد وتتطلع على الأفئدة؟ إنها حقاً سجن مغلق في صورة أعمدة ممددة.. إنه الويل واللعنة لكل أولئك الذين يهمزون الناس في وجوههم علوّاً في الأرض واستكباراً، ويلمزونهم ـ إذاغابوا عنهم ـ إفساداً في الأرض وفتنة، لا فرق بين من يتجاهر منهم بالكفر أويدّعي الإيمان، فليست هذه صفات المؤمنين، وليست بين الله وبين أحدٍ من خلقه صلة قرابة أورحم تمنعه عن عقابه بسبب هذه الأفعال الإجرامية) (٢)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الفيل (سورة الأمن والإيمان)، ثم شرح ذلك بقوله: (كثيرة عبر التاريخ التي لا تزال آياتها مرسومة على صفحات الزمن وفي ذاكرة الأجيال، ولكن قليلًا هم الذين ينسلون من ضوضاء حاضرهم إلى كهف التأريخ ليدرسوه بإمعان وتفتّح، ويعتبروا بحوادثه.. وكانت قصة الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكة ففزعت منه قريش ولاذت بالجبال فراراً لاتزال عالقة في أذهان أهل مكة، إلّا أن قريشاً التي أمنها الله من تلك الداهية كفرت بأنعم الله، وجحدت آياته، فجاء الوحي يذكِّرهم بذلك؛ فلقد كانت الجزيرة العربية تعجّ بالصراعات الدموية، وبقيت مكة بلداً آمناً كمثل جزيرة ساكنة في بحر هائج، حتى أن ملك اليمن (أبرهة) عندما سعى إلى غزوها رد

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٧.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٨.

على أعقابه بفعل طير غريب رمت جيشه بحجارة من سجيل، أليس في ذلك دليلًا على حرمة البيت، وآية لإكرام الله لأهله، ونعمة عظيمة ينبغي أن يشكروا الله عليها بالإيمان به وبرسالاته؟)[1]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الماعون (سورة المسلم بين القول والفعل)، ثم شرح ذلك بقوله: (القرآن ميزان ومن دونه لا يملك الإنسان بصيرة بنفسه ليعرف من هووكيف هو؟ أليس حب الذات يجعله يزعم أبدا أنه على صواب؟!.. بينما هنالك مقاييس إن طبقت عليه كان صالحا، وإلا، لا يغنيه التنمي والتظني والادعاء شيئا.. ولا يكفي أن يدعي أحد أنه مسلم، وأنه يؤمن بالآخرة، إنما يجب أن يصدق عمله قوله.. وسورة الماعون تذكرنا بهذه الحقيقة، وتبين صفات المكذب بالدين وإن ادعى التصديق به وهي: طرد اليتيم، الرغبة عن المسكين، الاستهانة بالصلاة والرياء فيها، ومنع الخير عن أهله.. وهكذا تأتي السورة المباركة فرقانا يميز المؤمن حقا بالدين والمكذب به)[2]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الكافرون (سورة براءة التوحيد من الشرك)، ثم شرح ذلك بقوله: (هل تدري لماذا اعتبر الرسول الأكرم ـ حسب رواية معروفة ـ سورة الكافرين ربع القرآن؟.. ربما لأن نصف القرآن أو يزيد يهدي إلى حقائق التوحيد، والتوحيد ـ بدوره ـ يتشكل من جزئين: الإيمان بالله، ونفي الشركاء، ونجد في هذه السورة عصارة رفض الشركاء في ربع القرآن.. وتتكرر في هذه السورة كلمات البراءة مما يعبد المشركون، وأن الرسول لن يؤمن بما يؤمنون به من الأصنام، لينفصل وبوضوح خط التوحيد عن خط الشرك)[3]

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٢٩.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣١.

(٣) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣٣.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة النصر (سورة منهاج النصر الإلهي)، ثم شرح ذلك بقوله: (بعد جهاد دائب، وانتظار طويل يأتي نصر الله والفتح، الذي لا يبتغي المؤمنون من ورائه سوى هداية الناس إلى الحق.. وهكذا تراهم فرحين حين يجدون الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. إنها بشارة عظمى ولكنها لن تدعوهم إلى الغرور، بل يتخذونها معراجا روحيا لنفوسهم الوالهة بحب الله، فيسبحونه ويحمدونه ويستغفرونه.. والتسبيح سبيل معرفة الله والتقرب إليه والحمد وسيلة منع الغرور والكبر عن النفس، والاستغفار طريق تكميل النواقص.. وهكذا توجز هذه السورة الكريمة برنامج المؤمن عند النصر وعند أي فضل يصيبه من عند الله) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة المسد (سورة عاقبة الكفر الخائن)، ثم شرح ذلك بقوله: (لقد قطع رحمه وخان، وكان عليه أن يدافع عن ابن أخيه في عرف العرب وقيمهم على الأقل، قطع الله يديه وقطعه، وأهلكهما وأهلكه.. فهل نفعته أمواله التي من أجلها خرج على أعراف العرب وقيم بني هاشم.. كلا.. كان يُدعى أبا لهب، فأمسى يَصلى لهباً، وهكذا امرأته التي مشت بالنميمة، وأشعلت نيران الفتنة وكان عنقها محاطاً بحبل من مسد ومن ليف النخل) (٢)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الإخلاص (سورة حقائق العرفان)، ثم شرح ذلك بقوله: (هل لله نسب، وماذا أعد الكتاب للعلماء المتعمقين في حقل التوحيد؟ وكيف تختصر بضع كلمات بصائر الوحي في معرفة الرب، حتى تصبح ثلث القرآن المجيد.. بلى، إن سورة الإخلاص تنسب ربنا إلى التوحيد النقي، الذي يروي غليل المتعمقين في آخر الزمان، وتختصر هدى الكتاب في حقائق العرفان.. إنها تأمرنا بأن نقولها صريحة ونقية: الله

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣٤.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣٥.

أحد.. وماذا تعني الأحدية؟.. تقول السورة ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له ولا أجزاء، ونتساءل عن تأويل الصمد؟. فتقول الآية التالية ﴿لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ﴾ فلا تدخله أجزاء من خارجه سبحانه، ولا تخرج منه أجزاء إلى الخارج سبحانه، وتستفهم: ما حقيقة أحديته وصمديته، وتعاليه عن التناسل، وتقول الآية الخاتمة، حقيقة ذلك: أنه لا شبيه له ولا نظير، ولوكانَ والداً لكان ولدهُ شبيههُ وكفوهُ، وكذلك لوكان مولوداً لكان والده أعلى منه أومساوياً له.. سبحانه عن مجانسة مخلوقاته) (١)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الفلق (جرعة شجاعة وومضة عزيمة)، ثم شرح ذلك بقوله: (دوما تتزاحم الوساوس والمخاوف على فؤاد الإنسان، ويحتاج إلى جرعة شجاعة، وومضة عزيمة، هنالك يقرأ سورة الفلق، لتشيع بصائرنا روح السكينة في روعه، ونور العزيمة في قلبه، ليستعيذ عبرها بالله خالق كل شيء من شر كل ذي شر، ومن شر طارق الليل حين يقتحم، ونافثة العقد حين تبث الفساد والشر بكلماتها المسمومة، وأفكارها السلبية، وسهام سحرها، وعينها الناضلة.. وأخيرا من شر الحسد حين يعتمل في فكر الحاسد) (٢)

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك اعتباره سورة الناس (سورة الاستعاذة من الضلالة)، ثم شرح ذلك بقوله: (ذكرتنا سورة الفلق كيف نستعيذ بالله من شر الخلق، وتذكرنا هذه السورة الكريمة التي يختم بها القرآن الكريم كيف نستعيذ الله من الضلالة.. فالشر ـ في الأولى ـ شر مادي فيما يبدو، والشر هنا معنوي، يؤدي إلى ألوان من الشر في الدنيا والآخرة، ذلك الخطر يتمثل في الوسواس الخناس، الذي يفقد الإنسان عزيمته وحكمته، والذي قد يكون نابعاً من الجن والشيطان، الذي يجري في ابن آدم مجرى الدم، أومن الناس

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣٦.

(٢) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣٧.

الذين يتأثرون بإلقاءات الشيطان) [١]

آخرون:

قال الشيخ: بورك فيكم يا تلاميذ السيد محمد تقي المدرسي، وقد شفيتم وأوفيتم.. فهل يوجد غيره من الشهود على ما ذكرتم؟

قال أحدهم[٢]: أجل.. أنا من تلاميذ أبي جعفر الطبري، وقد رأيته أنه في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) قد تحدث عن المناسبة في مواطن كثيرة من تفسيره، وانتصر لها، وإن لم يصرح بلفظ التناسب، وأغلب كلامه في المناسبة بين الآيات فحسب، أو بين الآيات والأحداث التي حصلت إبان تنزل القرآن الكريم، وربما دمج تفسير آيتين؛ ليبرز العلاقة بينهما، والكلام المقدر المحذوف الذي ترك لدلالة ما ظهر من الكلام عليه وفق تعبيره.

قال آخر: وأنا من تلاميذ القاضي عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم التي تقوم على (تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض)[٣]، وقد قال مصرحا بذلك: (إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق) [٤]

وقد أشار بعض الباحثين المتأخرين إلى دوره في بيان المناسبات القرآنية، فقال: (مع أن الجرجاني لم ينص على مفهوم التناسب والوحدة البنائية في القرآن الكريم، فإن جهوده في بناء نظرية النظم قد أسست لها، وشقت الطريق إليها؛ من حيث إن الترتيب هو الأساس

---

(١) مقاصد السور، المدرسي، ص ٣٣٨.

(٢) جامع البيان؛ للطبري، ج ٣، ص ٤٥٨، ودلالة السياق؛ للدكتور عبد الوهاب أبو صفية، ص ٨٦.

(٣) دلائل الإعجاز؛ لعبد القاهر، ص ٤.

(٤) دلائل الإعجاز؛ لعبد القاهر، ص ٥٤.

في النظم، كما أنه السر في التناسب، والجرجاني نظريا يقرر أن ترتيب الآيات والسور والأعشار، هو على أكمل وجوه الاتساق والنظام والإتقان والالتئام والإحكام، لكنه في التقعيد والتطبيق ركز على الترتيب في الجملة والآية، ولم يتجاوز إلى وحدة السورة أو التناسب بين السور، أو الوحدة في القرآن كله) (١)

قال آخر: وأنا من تلاميذ جار الله الزمخشري، والذي اعتبر المناسبات وتحدث عنها كثيرا، وقد أشار إليها في مقدمة تفسيره، فقال: (الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما، ونزله بحسب المصالح منجما، وجعله بالتحميد مفتتحا، وبالاستعاذة مختتما) (٢)

وعند مطالعة تفسيره نجده يذكر وحدة النص القرآني وتماسكه، فيصف نظم القرآن الرصين بالبناء المحكم المرصف، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فقد قال: (أحكمت آياته: نظمت نظما رصينا محكما، لا يقع فيه نقض ولا خلل؛ كالبناء المحكم المرصف) (٣)

قال آخر: وأنا من تلاميذ القاضي أبي بكر بن العربي، وقد قرأت له فيها قوله: (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة؛ متسقة المعاني، منتظمة المعاني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه بسورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق فيه بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه) (٤)

قال آخر: وأنا من تلاميذ بدر الدين الزركشي، وقد رأيته في كتابه (البرهان في علوم القرآن) يتحدث عن التناسب باعتباره واحدا من علوم القرآن، فعرفه وذكر رواده، وأبرز

(١) الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، ص ٣.

(٢) الكشاف، ج ١، ص ٦.

(٣) الكشاف، ج ٤، ص ٧٧١.

(٤) نقلا عن: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٦٢.

المشتغلين به إلى زمانه، وردودهم على المعترضين، ثم أفاض في الحديث عن وجوه التناسب.

قال آخر: وأنا من تلاميذ جلال الدين السيوطي، الذي أورد حديثه عن المناسبة في كتبه القرآنية كـ (الإتقان)، و(معترك الأقران)، وقد نقل فيهما أغلب كلام الزركشي في (البرهان).. وألف أيضا كتبا قصرها على المناسبة؛ مثل: (تناسق الدرر في تناسب السور)، وقد ذكر في مقدمته أن هذا الكتاب هو جزء من كتاب له كبير في موضوع التناسب، اسمه (أسرار التنزيل)، وله (قطف الأزهار في كشف الأسرار)، و (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)

٢.شواهد:

قال الشيخ: بورك فيكم.. والآن.. وبعد أن ذكرتم لي كل هؤلاء الشهود، يمكنكم أن تسألوني ما شئتم، فأنتم أهل لأن تسألوا، وأسأل الله أن أكون أهلا لإجابتكم؟

أدلة:

قال أحدهم: أول سؤال اتفقنا عليه جميعا، هو موقفك من البحث في هذا.. وهل هو تكلف ممقوت.. أم هو تدبر محمود؟

قال الشيخ: بل هو من التدبر المحمود.. حتى لو وقع الخطأ فيه.. فالله تعالى لم يطلب منا أن نكون معصومين في تدبرنا.. ومن لم يخطئ لم يصب.

قال: لكن بعضهم يشخص السور القرآنية.. ويتحدث عنها بتلك الطريقة التي شرحناها.

قال الشيخ: وذلك حق.. ألم تسمع قول رسول الله ﷺ في فضائل سورة البقرة وآل عمران، فقد أخبر ﷺ عن الكثير من الخصائص التي خصهما الله بها، ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وآل

عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما فرقانٌ من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرةٌ ولا تستطيعها البطلة)(١) وفي رواية: (ما من عبد يقرأ بها في ركعة قبل أن يسجد ثم سأل الله شيئا إلا أعطاه إن كادت لتحصي الدين كله) (٢)

فهذا الحديث يؤكد ما ذكروه من أن السور القرآنية بمثابة الكائنات الحية التي كُلفت بوظائف خاصة لا تنال إلا من هو أهل لها.. ولذلك كان لقراءتها والاهتمام بها وصحبتها تأثيرها الكبير في تحصيل تلك المنافع الخاصة بها.

قال أحدهم: بورك فيك شيخنا، وقد ذكرني حديثك بما ورد في فضل سورة الكهف؛ فقد روي أن رجلا كان يقرأ سورة الكهف وعنده فرسٌ مربوطة بشطنين فتغشته سحابةٌ فجعلت تدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال: (تلك السكينة تنزلت للقرآن) (٣)

قال الشيخ: هذا الحديث يشير إلى أن كل تلك المعاني من السكينة والرحمة وغيرها ليست مجرد وجودات ذهنية، وإنما لها وجودها الواقعي.. وفيه إشارة إلى أن قراءة سورة الكهف سبب لتنزل السكينة.

قال أحدهم: هلا قربت لنا ذلك سيدي بمثال كما عودتنا حتى يستقيم فهمنا لهذا.

قال الشيخ: ذلك يشبه ما تحدثه الأدوية أو الأغذية المفرحة التي إذا تناولها الإنسان يشعر بالفرح، وتزول عنه الكآبة.. فهكذا الذي يقرأ تلك السور الخاصة بهذا، يعطيه الله تعالى ما يرتبط بها من السكينة والفرح والسرور.. وقد أشار إلى ذلك قوله ﷺ عن سورة

---

(١) مسلم (٨٠٤)

(٢) مسلم (٨٠٤)

(٣) البخاري (٤٨٣٩)، ومسلم (٧٩٥)

الشرح: (من قرأها أعطاه الله اليقين والعافية، ومن قرأها على ألمٍ في الصدر وكتبت له شفاه الله)[1].. فالحقائق التي تحويها هذه السور جميعا لها تأثيرها في إزالة الكرب والكآبة؛ فسورة الشرح مثلا تتحدث عن الهبات الإلهية، وتُذكّر بأيام المحن والصعاب التي مر بها رسول الله ﷺ، وكيف يسر الله له تجاوزها، وتذكر بأن الله تعالى سيبدل العسر بيسرين.. وغيرها من المعاني التي تحويها السورة، والتي لها آثارها الكبيرة في إزالة الوحشة والكآبة.

قال أحدهم: ولهذا يعتبرها بعض الحكماء علاجا للكآبة، وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك:

إذا ضاقت بك الدنيا ... ففكر في ألم نشرح

فعسر بين يسرين ... متى تذكرهما تفرح

قال آخر: ومثل ذلك ما ورد في سورة يس، فقد أخبر رسول الله ﷺ عن فضلها والخواص المرتبطة بها، فقال: (لكل شيء قلبٌ وقلب القرآن يس، ومن قرأها كتب له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات دون يس)[2]، وقال: (من قرأ يس في صدر النهار قضيت حوائجه)[3].. وقال: (علّموا أولادكم ياسين، فإنّها ريحانة القرآن)[4]

قال آخر: ومثلها ما ورد في فضائل سورة الواقعة، والتي تؤكد علاقة هذه السورة الكريمة بالغنى ودفع الحاجة، ومما ورد عن أئمة الهدى في فضلها قول الإمام الصادق: (مَن قرأ في كلّ ليلة جمعة الواقعة أحبّه الله وأحبّه إلى الناس أجمعين، ولم يرَ في الدنيا بؤساً أبداً، ولا فقراً ولا فاقة ولا آفة من آفات الدنيا)[5].. وقال الإمام الباقر: (مَن قرأ الواقعة كلّ ليلةٍ قبل أن ينام، لقي الله عزّ وجلّ ووجهه كالقمر ليلة البدر)[6]

---

(1) البحراني، تفسير البرهان، ج ١٠، ص ١٨٣.

(2) الترمذي (٢٨٨٧)

(3) الدارمي (٣٤١٨)

(4) أمالي الطوسي ٢/ ٢٩٠.

(5) ثواب الأعمال ص١٠٥.

(6) ثواب الأعمال ص١٠٦.

قال آخر: بورك فيك شيخنا.. لكنا رأينا من العلماء من ينكر ذلك.

قال الشيخ: ومن؟

قال أحدهم: منهم الشيخ المعروف بعز الدين بن عبد السلام فقد قال عن البحث في هذا: (المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره؛ فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن الكريم نزل في نيّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض) (١)

قال آخر: ومثله قال آخر: (إن القرآن الكريم إنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم وأن ليس في القرآن الكريم شيء من حسن التخلص)(٢)

قال آخر: ومثله قال بعض المتأخرين، وهو الشيخ صبحي الصالح: (أما التماس أوجه الترابط بين السور ـ على ما فيه من تعسف وتكلف ـ فهومبني على أن ترتيب السور توقيفي، ولهذا انتصرنا وعليه عولنا، إلا أن ترتيب السور التوقيفي لا يستلزم حتما أن يكون بين كل سورة سابقة وكل سورة لاحقة أواصر قربى، كما أن ترتيب الآيات التوقيفي لا يقتضي عقلا ارتباط إحداها بالأخرى إذا وقعت كل منها على أسباب مختلفة، وإنا يغلب في السورة الواحدة أن تكون ذات موضوع بارز كلي تأتلف عليه جزئياتها كلها في مقاطعها المتلاحقة المترابطة، لكن الوحدة الموضوعية في كل سورة على حدة لا ينبغي أن تكون هي الوحدة الموضوعية عينها في السور كلها مجتمعة.. ولم يبلغ المفسرون هذا المبلغ من التكلف، بل اكتفوا بإظهار العلاقة بين ختام السورة السابقة وفاتحة السورة اللاحقة، كأن الترابط

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٠٨.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٠٨.

بينهما ـ لولا فصلهما بالبسملة ـ وقع عن طريق الآيات موقعا جزئيا، لا عن طريق السورتين موقعا شاملا كليا) [1]

قال آخر: لكنه مع ذلك قال: (وأيا ما يكن تكلف المتكلفين في إبراز التناسب بين الآيات والسور، فمما لاريب فيه أن المفسرين المحققين جنوا أطيب الثمر لما ضربوا صفحا عن كل تعسف، ووسعهم أن يقتنعوا ويقنعوا الدارسين بأن هذا القرآن الذي نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب متباينة، قد تناسقت الآيات في كل سورة من سوره أكمل تناسق وأوفاه، حتى أغنى تناسقها في مواطن كثيرة عن التماس أسباب نزولها، وعوض انسجامها الفني واقعها التاريخي.. ثم بدت السور كلها ـ بآياتها المتناسقات ـ مائة وأربع عشرة قلادة طوقت جيد الزمان!.. ولتجدن القرآن أحرص الكتب على التناسق الفني، ولتجدن علماءنا المحققين أحرص الدارسين على اقتناص أسرار تناسقه: فقد يعوض بوجوه المناسبة بين آياته أسباب نزولها إن لم تعرف، أوعرفت ولم تحفظ، أوحفظت ولم تشتهر، وقد يثبت بهذه الوجوه أسباب نزولها ويزيدها اتصالا، وارتباطا، ويشيع في سياقها كله حركة ونشاطا، وفي هذا كله ألوان من التناسق تتلاقى جميعا في علم المناسبة العظيم)[2]

قال الشيخ: فما سؤالكم بعد هذا؟

قالوا: أأنت تنعت كل تلك البحوث المرتبطة بمناسبات القرآن الكريم أو وحدته الموضوعية بالتكلف؟

قال الشيخ: معاذ الله أن أكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٠]، ثم قال بعدها: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: ١١-١٢]؟

---

(١) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص١٥١.

(٢) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص١٥٦.

قالوا: ما تعني مولانا؟

قال: إن كل هؤلاء الذين ذكرتم بذلوا جهودهم في تطبيق ما أمروا به من تدبر القرآن الكريم، والذي هو أمر إلهي لكل المسلمين، بل لكل البشر، ولو أني وقفت موقفا سلبيا من البحث في هذا، لكنت من الذين ينهون عن التدبر.. ولكني مع ذلك لا أقر كل تدبر؛ فهو من التأويل غير المعصوم.. والذي نحتاج إلى عرضه على التنزيل المعصوم.

قال أحدهم: لكنا رأينا فهومهم وتدبراتهم للمناسبات مختلفة؟

قال الشيخ: وحق لها أن تكون كذلك.. فالقرآن الكريم لا يمكن أن يحاط به، ولذلك فإن وجود الخلاف والتنوع في فهمه لا يعني التناقض.. بل يعني ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ [الرعد: ١٧].. فكل يفهم من القرآن الكريم بحسب وعائه وحاله.

قال أحدهم: فما الذي تنكره على من أنكروا على ذلك، ممن ذكرنا لك بعض أقوالهم؟

قال الشيخ: أمران..

قالوا: فما أولها؟

قال[1]: ما نراه من حسن التناسب وقوة الارتباط حقا بين الآي بعضها وبعض، محققة بذلك هدف القرآن الكريم، ولعل عز الدين ومن لف لفه كان يرى التناسب يتم إذا جمعت آيات الأحكام مثلا كلها في سورة واحدة أوعدة سور، وجمعت القصص كلها كذلك في سورة واحدة أوعدة سور، وجمعت حوادث التاريخ كلها في سورة واحدة أوعدة سور، وهكذا.. وهذا النهج لا يحقق الهدف الذي يرمي إليه القرآن الكريم من الإرشاد والهداية؛

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨١.

فليس القرآن الكريم كتاب قصص أوتاريخ، ولكنه كتاب دين، يرمي إلى التأثير في النفس، فهو يلقي العظة، مبيّنا ما في اتباعها من خير، وضاربا المثل من التاريخ على صدق ما ادعى، ومستشهدا بقصص الأولين وآثارهم، ومقنّنا من الأحكام ما فيه خير الإنسانية وكمالها، وكل ذلك في تسلسل واطراد وحسن اتساق، ترتبط المعاني بعضها ببعض، ويؤدي بعضها إلى بعض.. وهذا النهج القرآني وسيلة لتكرير العظات والإنذار والتبشير في صور متعددة مرات عدة، وللتكرير أثره في تثبيت المعنى في النفس، وبلوغ العظة الهدف الذي ترمي إليه، ولن يكون للتكرير جماله إذا عمد القرآن الكريم إلى كل غرض على حدة فوضع آية بعضها إلى جانب بعض.

قالوا: عرفنا الأول.. فما الثاني؟

قال الشيخ: ثانيهما تاريخي يعود إلى ترتيب الرسول ﷺ للقرآن بأمر ربه، فقد كانت تنزل عليه الآيات فيأمر كتبة الوحي أن يضعوها في موضعها بين ما نزل من القرآن، في هذه السورة أو تلك، ويضع بعض ما نزل في مكة بين آيات السور المدنية، فلولا أن رابطا يجمع بين هذه الآيات بعضها وبعض، ما كان ثمة سبب يدفع إلى هذا الوضع ولا يقتضيه بل لرتبت الآي كما نزلت، وما كان هناك داع إلى ترتيب ولا تبويب، أما والقرآن الكريم قد نزل للناس كافة، وللأجيال جميعها فقد اختار الله لكتابه خير ترتيب يحقق الهدف الذي له نزل الكتاب الحكيم.

قواعد:

قال أحدهم: ما دمت قد ذكرت هذا؛ فإنا نريد منك أن تذكر لنا الأصول المهمة التي يمكننا باستعمالها الوصول إلى تدبر القرآن الكريم في هذه النواحي.

قال الشيخ[1]: بما أن المناسبة في اللغة تعني المشاكلة والمقاربة؛ فإن مرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أوخاص، عقلي، أوحسي، أوخيالي، أوغير ذلك من أنواع العلاقات، أوالتلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه، بحيث تصبح أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

قالوا: فهلا فصلت لنا ذلك.

قال الشيخ: تفصيل ذلك يطول.. ولهذا سأكتفي لكم اليوم بثلاثة أصول.. ولعلكم مررتم عليها أو على بعضها أثناء نسخكم للكتب المرتبطة بهذه الجوانب.

قالوا: فما **أولها**؟

قال الشيخ[2]: التنظير.. فإن إلحاق النظير بالنظير دأب العقلاء، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] عقب قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤]، فإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون، وذلك أنهم اختلفوا يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي ﷺ وجادلوه فكره كثير منهم ما كان من فِعل الرسول ﷺ في النفل، فأنزل الله هذه الآية، وأنفذ أمره بها، وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله في شيء ما بعد أن كانوا مؤمنين، ووصف المؤمنين ثم قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥].. يريد أن كراهتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٢/ ٢٨٩)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٤٥)

قالوا: فما **الثاني**؟

قال الشيخ[1]: المضادة.. ومن الأمثلة عليه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن الكريم وشأنه وهديه وصفات من يهتدون به؛ فرجع إلى الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقب بما هو حديث عن الكفار.. ففيهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل: (وبضدها تتبين الأشياء)

قال أحدهم: ألا ترى أن هذا جامع بعيد، لأن كونه حديثاً عن المؤمنين بالعَرَض لا بالذات؟

قال الشيخ: لا يشترط في الجامع ذلك، بل يكفي التعلق على أي وجه كان، ويكفي في وجه الربط ما ذكرنا، لأن القصد تأكيد أمر القرآن، والعمل به، والحثّ على الإيمان، ولهذا لما فرغ من ذلك قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

قال آخر: وعينا هذا.. فهلا ضربت لنا مثالا آخر على ذلك.

قال الشيخ[2]: قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] للتضاد بين القبض والبسط، ومثله الولوج والخروج.. والنزول والعروج.. وشبه التضاد بين السماء والأرض..

قال آخر: فهل يدخل في هذا ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة وغيرها؟

قال الشيخ: أجل.. وقد جرت عادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٤٥)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٤٤)

أو وعيدا.. لتكون باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه، ليعلم عِظَم الآمر الناهي.

قالوا: وعينا هذا.. فما **الثالث؟**

قال الشيخ[1]: الاستطراد.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها إظهاراً للمنَّة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى.

قال أحدهم: وعينا هذا.. فهلا ضربت لنا مثالا آخر على ذلك.

قال الشيخ[2]: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩]، فكأنَ المراد أن يجري بالقول الأول إلى الإخبار عن كل شيء يسجد لله، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص.

قال آخر: وعينا هذا.. فهلا ضربت لنا مثالا آخر على ذلك.

قال الشيخ[3]: قوله تعالى ـ في الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع ـ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩]، فإن هذا القرآن نوع من الذكر لما انتهى ذكر الأنبياء عليهم السلام، وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكرَ الجنة وأهلها فقال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾، فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٤٦)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٤٤)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٤٤)

قال أحدهم: سمعت بعضهم يذكر الالتفات، ويبين أن له دورا في فهم أسرار الترتيب بين المعاني؟

قال الشيخ[1]: أجل.. فهو من الأساليب البلاغية التي تظهر المناسبة أيما ظهور.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وذلك بعد قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].. وذلك أنه لما تقدم كتمان بعض أهل الكتاب للحق، وختم ما أتبع ذلك ـ أي: الصفا والمروة ـ بصفتي الشكر والعلم، فالشكر لمن نصح لله واتبع شرعه، فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، حتى وإن دقت الأفعال واستترت، وبالغ القوم في كتمانها وإخفائها، وبعد ذلك ـ أي: اتباع شرعه كاملا، وشكر من يقوم بذلك ـ انعطف الكلام لتبكيت المنافقين، وكذلك المصارحين، ولعنهم على كتمانهم ما يعلمون من الحق[2].

قال آخر: وما تقول في العطف الذي يفيد التشريف والتكريم؟

قال الشيخ: هو الآخر وسيلة من وسائل المناسبة بين الآية وما قبلها.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فقد جاء قبلها قوله: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].. ذلك أنه لما أوجب الله تعالى للشيطان من الشقاوة لتماديه في حسد آدم وذريته، وما كان من أمره بعد

---

(١) انظر: المناسبة في القرآن الكريم، محمود حسن عمر جودة، ص ١٧، فما بعدها.

(٢) نظم الدرر؛ للبقاعي، ج ٢، ص ٢٧٢.

ذلك، وكثرة كلامه في محسوده ـ التفت الله عز وجل إلى محسوده الذي لم يتكلم فيه كلمة واحدة، بل إنه انشغل بنفسه واكتفى بجزائه، ورضي بقضاء الله، فقال الله عز وجل ـ وقد عطف عطفا تناسبيا معجزا على الآية التي قبلها: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾، فكان هذا الالتفات الرباني فيه من التشريف والإيناس لآدم وزوجه ما فيه[1].

نماذج:

قال أحدهم: والآن.. نريد منك شيخنا أن تجيبنا عن أسرار الترتيب الواردة في بعض الآيات القرآنية، لتكون لنا نماذج تفيدنا في معرفة أسرار غيرها.

قال الشيخ: اسألوا ما بدا لكم.. لكن اعلموا فقط أن ما أذكره مما يطلق عليه معلم القرآن لقب [التأويل التدبري]، وهو ليس معصوما؛ فقد أخطئ في فهمي، ولا حرج عليكم في الإنكار علي.

قال أحدهم: نعلم ذلك.. ونعلم معه أن الله تعالى بكرمه وفضله يسددك ويلهمك، ولذلك فإنا نحسن الظن بفهومك وتدبراتك، ونستفيد منها حتى ولو لم نقل بعصمتها.

قال آخر: أنبئنا عن سر الترتيب بين الدواب في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]؟

قال الشيخ[2]: قدم ما هو أعرق في القدرة، وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم، ثم الماشي على الرجلين، ثم الماشي على أربع.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار ترتيب أصناف العباد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ

---

(١) السابق نفسه، ج ٧، ص ٣٧١.

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٩٥.

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولم قدم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟

قال الشيخ[1]: للإيذان بكثرة الفاسقين، وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالاضافة اليهم، والسابقون أقل من القليل.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار الترتيب في قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، ولم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على الأناسي؟

قال الشيخ: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم، وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على مسقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار الترتيب في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ١-٥]

قال الشيخ[2]: عدّد الله تعالى آلاءه؛ فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه، وهي نعمة الدين، فقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه لأنه أعظم وحي الله رتبة، وأعلاه منزلة، وأحسنه في أبواب الدين أثرا، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها.. وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين، وليحيط علما بوحيه، وكتبه، وما خلق الإنسان من أجله، وكأن الغرض في إنشائه كان مقدما عليه وسابقا له، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار الترتيب في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٤٥٨.

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٣٥٣.

وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، فلم قدم الشكر على الإيمان؟

قال الشيخ(١): لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكرا مبهما، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكرا مفصلا، فكان الشكر متقدما على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار الترتيب في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩]، وهلا قرن الجواب بما هو جواب له، وهو قوله ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي﴾، ولم يفصل بينهما بآية؟

قال الشيخ(٢): لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى.. فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن، وأما الثاني فلما فيه من النقض بين الترتيب، وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمني الرجعة؛ فكان الصواب ما جاء عليه، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب عن بعضها على ما اقتضى الجواب.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار الترتيب في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قوله بعدها: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، ثم قوله بعدها: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، ثم قوله بعدها:

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٥١.

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٠٧.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]

قال الشيخ(١): ما أحسن ترتيب هذه الأوامر، حيث أمر الله تعالى أولا بما يعصم من الفتنة، ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن الزواج إلى أن يرزق القدرة عليه.

قال آخر: فأنبئنا عن أسرار الترتيب في مناقشات إبراهيم عليه السلام لقومه كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩]

قال الشيخ(٢): ما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر، ولا تنفع، ولا تبصر، ولا تسمع على تقليد آبائهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في

---

(١) الكشاف ج٣ص ١٨٨.

(٢) الكشاف ج٣ص ٢٥٣.

الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

قال أحدهم: فهلا قدمت لنا ضوابط لذلك تعيننا في معرفة أسرار الترتيب والتقديم والتأخير.

قال الشيخ[1]: إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، تجمعها قاعدة أن [التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام]؛ فما كانت به العناية به أكبر قدم في الكلام.. والعناية باللفظة لا تكون من حيث إنها لفظة معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال.. ولذا قد تقدم كلمة في موضع ثم تؤخر في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك.. ولهذا نرى القرآن الكريم يقدم لفظة مرة ويؤخرها أخرى على حسب المقام.. فمثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء.. ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس.. ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر.. كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير.

قال أحدهم: هل تقصد من هذا ـ شيخنا ـ أننا إذا أردنا أن نتبين أسباب التقديم أو التأخير لا يصح الاكتفاء بالعناية بها والاهتمام، دون تبيين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم؟

قال الشيخ[2]: أجل.. فإذا قيل لك مثلاً: لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟ قلت: لأن الاهتمام بالسماء هنا أكبر.. ثم إذا قيل لك: ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟ قلت: لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر.. فإذا قيل لك: ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، السامرائي، ص٨١.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨١.

أكبر وكان الاهتمام بالأرض أكبر؟ وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين الموطنين، بحيث تُبين أنه لا يصح أو لا يَحْسُنُ تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديمُ السماء على الأرض فيما قدمت الأرض بياناً شافياً.. أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام.. بل إن الاكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذ كل واحد يقول لك: إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

قال أحدهم: ولذلك سألناك أن تبين لنا بعض أسرار ذلك.. فإنا نعلم أن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها.

قال الشيخ(١): من قواعد ذلك أن سياق الكلام قد يكون متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه.. وفي إمكانكم أن تتدبروا لتكتشفوا أمثلة عن ذلك.

قال أحدهم: أجل.. فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: ﴿والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم﴾ [الحجر: ٢٧] فلذلك ذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لأن السِّنة وهي النعاس تسبق النوم فبدأ بالسنة ثم النوم.

قال آخر: ومثله تقديم عاد على ثمود في قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فإن عاداً أسبق من ثمود.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٢.

قال آخر: ومثله تقديم الليل على النهار والظلمات على النور في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود.. وقال: ﴿يُقَلِّبُ الله الليل والنهار﴾ [النور: ٤٤]

قال آخر: ومثله تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ العزيز الحكيم﴾ [الحشر: ١] لأنه عَزَّ فَحكَمَ.

قال آخر: ومثله تقديم القوة على العزة، لأنه قوي فعزّ، أي غلب فالقوة أول قال تعالى: ﴿إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠، ٤٧]، وقال: ﴿وَكَانَ الله قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٥]

قال الشيخ(١): بورك فيكم، وفي الأمثلة التي ذكرتموها.. من القواعد الأخرى التي تعينكم على اكتشاف أسرار الترتيب [التقديم بحسب الفضل والشرف].. وفي إمكانكم أن تتدبروا لتكتشفوا أمثلة عن ذلك.

قال أحدهم: أجل.. فمن الأمثلة على ذلك تقديم الله سبحانه في الذكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولائك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين وَحَسُنَ أولائك رَفِيقاً﴾ [النساء: ٦٩]، حيث قدم الله على الرسول ﷺ، ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدَهم بحسب تفاضلهم.. كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصدّيقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فهو تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل، ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلّما ترقى الناس في الفضل قلَّ صنفهم.

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٢.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [لأحزاب: ٧]، فقد بدأ بالرسول ﷺ لأنه أفضلهم.

قال آخر: ومثله تقديم السمع على البصر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ [الفرقان: ٧٣]، فقدم الصُمّ وهم فاقدو السمع على العميان هم فاقدو البصر، لأن السمع أفضل، والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أَصَمَّ، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمي لفقدِ ولده.. بالإضافة إلى أن السَّمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله، والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة؛ فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصُّمِّ؛ فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

قال الشيخ(١): بورك فيكم، وفي الأمثلة التي ذكرتموها.. من القواعد الأخرى التي تعينكم على اكتشاف أسرار الترتيب [التقديم بحسب الرتبة].. وفي إمكانكم أن تتدبروا لتكتشفوا أمثلة عن ذلك.

قال أحدهم(٢): أجل.. فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ٩-١٢]، فقد بدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس، ولا يفتقر إلى مشي ولا حركة.. ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٣.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٣.

الإيذاء وهو المشي في النميمة.. ثم انتقل إلى مرتبة أبعد من الإيذاء، وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها.. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء، ثم ختمها بقوله: ﴿أثيم﴾ وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أشد إيذاءً.

قال آخر(١): ومنه تقديم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]﴾ [البقرة: ١٣٧]، وذلك لأنه خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن مَنْ سمع حِسَكَ وخَفيّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم، وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن، ولكن ذكر السميع أوقعُ في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم.

قال آخر(٢): ومنه تقديم المغفرة على الرحمة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله: ﴿وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ١٠٠]، لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة.. والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرحيم الغفور﴾ [سبأ: ٢] لأن الرحمة شملتهم جميعاً، والمغفرة تخص بعضاً، والعموم قبل الخصوص بالرتبة، فجميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٤.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٤.

وتعيش وبرحمته تتراحم، وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم.

قال آخر(١): ومنه تقديم من يكنز الذهب والفضة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]، حيث بدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهور، وذلك لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس، ازْوَرُّوا عنه وتولوا بأركانهم وولَّوهُ ظهورهم، فتدرج بحسب الرتبة.

قال آخر(٢): ومنه التقديم بحسب الكثرة والقلة، فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فكل طائفة هي أقل من التي بعدها، فتدرّج من القلة إلى الكثرة.. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلاّ حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد عموماً.. والعاكفون أقل من الراكعين، لأن الركوع ـ أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة ـ أما العكوف فلا يكون إلاّ في المساجد.. والراكعون أقل من الساجدين، وذلك لأن لكل ركعة سجدتين، ثم إن كل راكع لا بد أن يسجد، وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر؛ فهو هنا تدرّج من القلة إلى الكثرة.

قال آخر(٣): وربما يكون لهذا التدرج سبب اقتضاه المقام، فإن الكلام على بيت الله الحرام، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والعاكفين والركع السجود﴾ [البقرة: ١٢٥] فالطائفون هم ألصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله،

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٥.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٥.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص٨٦.

فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً ثم الرُّكَّعِ السجود الذي يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، حيث بدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير.

قال آخر: وقد يكون التدرج عكسيا؛ فيتدرج من الكثرة إلى القلة، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، حيث بدأ بالقنوت وهو عموم العبادة، ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع وهو أقل وأخص.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فبدأ بالكفار لأنهم أكثر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله﴾ [فاطر: ٣٢] فقدم الظالم لكثرته، ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله، ثم السابقين وهم أقل..

قال آخر: أجل.. ففيها إيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليلا بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل، ولهذا قال الله تعالى في السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤] إشارة إلى نُدرتهم وقلة وجودهم.

قال آخر: وقريب منه أو مثله قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، حيث قدم السارق على السارقة، لأن

السرقة في الذكور أكثر، بينما قدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] لأن الزنى فيهن أكثر.

قال آخر: وقريب منه أو مثله تقديم لفظ (الضرر) على (النفع) وبالعكس، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فقدم النفع على الضرر، وذلك لأنه تقدمه في قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك قال: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء﴾ [الأعراف: ١٨٨] فقدم الخير على السوء، ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً﴾ [الرعد: ١٦]، فقدَّم النفع على الضرر، وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فقدم الطوع على الكره.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً﴾ [سبأ: ٤٢] وذلك لتقدم قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩] حيث قدم البسط.

قال آخر: وعلى خلافه في الترتيب قال: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ﴾ [يونس: ٤٩] فقدم الضرر على النفع لأنه قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]، فقدم الضر على النفع في الآيتين.. ثم جاء بعده

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠] فكان المناسب تقديم الضرر على النفع ههنا.

قال آخر: وقريب منه أو مثله تقديم الرحمة والعذاب، ذلك أنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣] وقوله: ﴿غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول﴾ [غافر: ٣]

قال آخر: لكن قد يقدم العذاب على الرحمة إن اقتضى المقام تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠] لأنها وردت في سياق ذِكْرِ قُطَّاع الطرق والمحاربين والسراق فكان المناسب تقديم ذكر العذاب، وذلك أنها وردت بعد قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]، فقدم القتل على الإحياء، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، ثم جاء بعدها: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، ثم جاء بعدها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾

[العنكبوت: ٢١] وذلك لأنها في سياق إنذار إبراهيم عليه السلام لقومه وأن العذاب سيقع بهم في الدنيا إن ظلوا على عنادهم؛ فقد أنذر إبراهيم عليه السلام قومه قائلاً: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، ثم قال: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ثم هددهم بعدها بقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٢-٢٣]، وذلك اقتضى السياق العذاب.

قال الشيخ: بورك فيكم جميعا.. وبورك في حضور بديهتكم وحفظكم لكلام ربكم.. وأضيف إلى ما ذكرتم أن التقديم والتأخير قد يكون على نمط آخر غير الذي ذكرتم من تقديم الضرر والنفع والعذاب والمغفرة وغيرها.. بل قد يقدم لفظة في مكان ويؤخرها في مكان آخر حسبما يقتضيه السياق.

قال آخر: أجل.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].. وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، حيث قدم الفجاج على السبل في الآية الأولى، وأخّرها عنها في الثانية، وذلك لأن الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في الأولى ذكر الرواسي ـ وهي الجبال ـ قدم الفجاج لذلك، بخلاف الثانية، فإنه لم يرد فيها ذكرٌ للجبال فأخرها.. فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨]، حيث قدم القتل

على الموت في الأولى، وقدم الموت في التي تليها، وذلك أنه لما ذكر في الأولى ﴿في سبيل الله﴾ وهو الجهاد قدم القتل إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً، ولذا ختمها بقوله: ﴿لمغفرة من الله ورحمة﴾ فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله.. ولما لم يقل في الثانية: ﴿في سبيل الله﴾ قدم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله: ﴿لإلى الله تحشرون﴾ إذ الميت والمقتول كلاهما يحشرُهُ الله إليه؛ ذلك أنه فرق كبير ما بين الخاتمتين، ولذلك لم يزد في غير الشهيد ومن مات على أن يقول: ﴿لإلى الله تحشرون﴾ وقال في خاتمة الشهيد: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، حيث قدم الأنعام على الناس.. وقال في محل آخر: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣١-٣٢]، حيث قدم الناس على الأنعام، وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في الأولى ناسب تقديم الأنعام، بخلاف الثانية، فإنها في طعام الإنسان، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، فقد ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكة أولاً، ثم ذكر طعام الأنعام بعده، وهو الأبّ أي: التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثَمَّ.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ [الإسراء: ٣١]، حيث قدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدم رزق الأبناء على

الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء، فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه.. وفي الثانية الخطاب لغير الفقراء، وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى، فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر، ولهذا قال: لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم، أي إن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم، فلا تخشوا الفقر.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] حيث قدم القلوب على السمع في الأولى، لأنه ذكر القلوب المريضة بعدها فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠] فقدم القلوب لذلك.. بينما قدم السمع على القلب في الثانية، وذلك لأنه ذكر قبلها الأسماع المعطلة فقال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧-٨]

قال آخر: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً ممن ذكرتهم آيةُ الجاثية، فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧]، بينما جاء في الجاثية قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم مَيؤوسٌ من إيمانهم، ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.

قال آخر: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن الله تعالى كرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم، فقال: ﴿على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ولم يقل مثل ذلك في الجاثية، بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]

قال آخر: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن الله تعالى قال في سورة البقرة: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخِلْقتهم فلا أملَ في إبصارهم في يوم من الأيام، في نفس الوقت قال في الجاثية: ﴿وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث، فـ ﴿جعل﴾ فِعلٌ ماض، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي أنه كان مبصراً قبل تَردِّيه.. ثم ختم آية البقرة بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] ولم يقل مثل ذلك في الجاثية؛ فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيه.

قال آخر: ولذا قدم ختم القلب على ما سواه، لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والضلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هاذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين﴾ [النمل: ٦٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هاذا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين﴾ [المؤمنون: ٨٣]، فقدم (هذا) في الأولى وأخرها في الثانية، وذلك أن ما قبل الأولى: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، وما قبل الثانية: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، فالجهة المنظور فيها هناك كونهم

أنفسهم وآباؤهم تراباً.. والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً، والأولى بلا شك أدخلُ عندهم في تبعيد البعث ذلك أن البِلَى في الحالة الأولى أكثر وأشد، ذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم.. أما في الثانية؛ فالبلى أقل، وذلك أنهم تراب وعظام؛ فلم يصبهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدم (هذا) في الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتعبيد.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، فقد قدم في الأنعام: ﴿لا إلاه إِلاَّ هُوَ﴾ وأخر ﴿خالق كُلِّ شَيْءٍ﴾، وفي غافر جاء بالعكس، وذلك أنه في سياق الإنكار على الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص ونَفْيِ الصاحبةِ والولد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٢]، فالكلام فيها على التوحيد ونفي الشرك والشركاء والصاحبة والولد، ولذا قدم كلمة التوحيد: ﴿لا إلاه إِلاَّ هُوَ﴾ على ﴿خالق كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو المناسب للمقام.

قال آخر: أما في سورة غافر، فليس السياق كذلك وإنما هو في سياق الخلق وتعداد النعم قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَشْكُرُونَ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٥٧-٦٢]..
فالكلام في الآيات الكريمة على الخَلْق، وعلى نعم الله وفضله على الناس، لا على التوحيد، ولذلك قدم الخلق لذلك فوضع كل تعبير في موطنه اللائق حسب السياق.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال: ٧٢] وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]، حيث قدم الأموال والأنفس على ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ في سورة الأنفال، وقدمها على الأموال والأنفس في سورة التوبة، وذلك لأنه في سورة الأنفال تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا﴾ [الأنفال: ٦٧] وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] أي من الفداء، وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً﴾ [الأنفال: ٦٩]، وغير ذلك فقدم المال ههنا، لأن المال كان مطلوباً لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتضيحة به.

قال آخر: وبخلافه في سورة التوبة فقد تقدم ذكر الجهاد في سبيل الله من مثل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ الله﴾ [التوبة: ١٩].. فقدم ذكر ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ على الأموال والأنفس وهو المناسب هنا للجهاد كما قدم الأموال والأنفس هناك لأنه المناسب للأموال.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل:

١٤]، وقوله: ﴿وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]، حيث قدم ﴿مَوَاخِرَ﴾ على الجار والمجرور في سورة النحل وقدم (فيه) على ﴿مَوَاخِرَ﴾ في سورة فاطر، وذلك لأنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير، ثم ذكر الفلك، وهي واسطة نقل أيضاً فقال: ﴿وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، فقدم المواخر لأنها من صفات الفُلْك، وهذا التقديم مناسب في سياق وسائق النقل.

قال آخر: خلاف السياق الذي ورد في سورة فاطر، حيث قال الله تعالى: ﴿والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]، فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، حيث قدم ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الإسراء وأخرها في الكهف، وذلك لأنه تقدم الكلام في الإسراء على الإنسان ونِعَم الله عليه ورحمته به فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً﴾ [الإسراء: ٨٣]، فناسب ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء، ولم يتقدم مثل ذلك في الكهف.

قال آخر: ويوضح ذلك افتتاح كل من السورتين؛ فقد بدأ سورة الكهف بقوله:

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢]، فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب، وهو القرآن الكريم، ثم ذكر بعده أصحاب الكهف، وذكر موسى عليه السلام والرجل الصالح، وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس؛ فبدأ بذكر القرآن الكريم، ثم ذكر الناس، فكان المناسب أن يقدم ذكر القرآن الكريم على الناس في هذه الآية كما في البدء.. وأما سورة الإسراء فقد بدئت بالكلام على الناس ثم القرآن الكريم؛ فقد بدئت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].. ثم تكلم على بني إسرائيل، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن الكريم في هذه الآية.

قال آخر: بالإضافة إلى ذلك، فقد ختم آية الإسراء بقوله: ﴿فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٨٩] والكُفُور: هو جحد النعم، فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل، لأن مقابل الشكر الكفران، ومقابل الشاكر الكفور، كما قال تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]، فكان ختام الآية مناسباً لما تقدم من السياق.. أما آية الكهف فقد ختمها بقوله: ﴿وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤] لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٤]، وبعدها: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، وذكر محاورة موسى عليه السلام والرجل الصالح.

قال آخر: بالإضافة إلى ذلك كله قوله تعالى في الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ

كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، بينما لم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فقدم الشيء وأَخَّرَ الكَسْب، فقال: ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾.. بينما قدّم الكسب وأخّر الشيء في قوله في سورة إبراهيم: ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وذلك أن آية البقرة في سياق الإنفاق والصدقة، والمنفقُ معطٍ وليس كاسباً، ولذلك أَخَّر الكسب فقال: ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدم الكسب.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، حيث قدم القلوب على الجار والمجرور في آل عمران، وأخّرها عنه في الأنفال، مع أن الكلام على معركة بدر في الموطنين، وذلك لأن الموقف مختلف، ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أُحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن، والمقام مقام مَسْح على القلوب وطمأنةٍ لها من مثل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠] وغيرها من

آيات المواساة والتصبير، ولهذا قال في هذا الموطن: ﴿وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فذكر أن البشرى (لهم)، وقَدَّمَ (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال: ﴿إِلاَّ بشرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] من قبيل المواساة والتبشير والطمأنينة.

قال آخر: ولما لم يكن المقام في سورة الأنفال كذلك، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها، وإبراز دور الإمداد الرباني قدم (به) على القلوب، فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، والضمير يعود على الإمداد.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] فقدم (به) على (لغير الله)، فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله﴾.. وعلى خلاف ذلك قدم (لغير الله) على (به) في سورة المائدة، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]، وفي سورة الأنعام، فقال: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].. وذلك لأن المقام في آية الأنعام هو في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس باسم الله وهم يفترون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ

اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٣٨]، وغيرها من الآيات الواردة في الدلالة على أن ثمة ذوات غير الله تُحلِّلُ وتُحَرِّمُ مفتريةً على الله، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تُعبد معه ونصيبها أكبر من نصيب الله في العبادة، ولذا قدم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (به) فقال: ﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

قال آخر: بالإضافة إلى أن الكلام في سورة المائدة على التحليل والتحريم ومَنْ بيدِه ذلك، ورفض أية جهة تُحلِّلُ وتُحرِّم من غير الله فإن الله هو يحكم ما يريد، ولذا قدمه في البطلان فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]

قال آخر: بالإضافة إلى أنه جاء في الموطنين بذكر اسم الله على الذبائح؛ فذكر في آية الأنعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً فقال: ﴿وأنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله، وأما في سورة البقرة فليس كذلك فلم يذكر أن جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحريم، وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات، فقال: ﴿ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣]، فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات قدم (به). والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام.

قال آخر: ومثل ذلك أو قريب منه قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ

الْأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، حيث قدم ﴿خَسْفَ الأرضِ﴾ على إرسال الحاصب في آية المُلك، وأخَّر عذابَ الأرض عما يأتي من السماء في آية الأنعام، وذلك لأن آية الملك تَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، فكان أنسب شيء في الموعظة تذكيره بخسفها من تحتهم. أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] فصرف هذا الخطاب تفكر النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية المُلك.

قال آخر: ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] والحَفَظةُ: هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها.

رابعا. الثراء والاستيعاب:

بعد أن انتهى الكتاب من حديثهم، قال الشيخ: بورك فيكم وفي حفظكم وفهمهم وتدبركم.. والحمد لله.. أنتم بهذا تردون على كل أولئك الذين يتهمونكم بأنكم مجرد آلات تنسخ وتكتب دون أن تعي وتفهم..

قال أحدهم: الحمد لله.. ذاك من فضل الله علينا.. لقد جئنا إلى هذه المكتبة عمالا نرتزق ما يقوت أجسادنا، فوجدنا ما يقوت أجسادنا وأرواحنا.

قال آخر: ووجدناك أنت ـ شيخنا ـ أستاذا يهدينا إلى ما أشكل علينا.. ولولا تلك الشروح التفصيلية التي كنت تقدمها لنا ما استطعنا أن نجيب على سؤال واحد من أسئلتك.

قال آخر: وأهم من ذلك كله تحبيبك القرآن الكريم لنا.. فقد صرنا نعشق كل ما يرتبط به حتى الحروف التي كتب بها.

بعد أن قالوا هذا، ودعا لهم الشيخ، أخذ بيدي، وقال: أظن أنك تحتاج إلى بعض الراحة.

قلت: وهل هناك راحة أعظم من هذه التي أنا فيها صحبتك وصحبة هؤلاء الطيبين، وفوق ذلك صحبة القرآن الكريم الذي هو كتاب الراحة والسعادة والطمأنينة؟

قال: بورك فيك.. لكني سأذهب بك الآن إلى محل يجمع الأمرين.. الراحة التي تعودها قومك.. والراحة مع القرآن الكريم.. لكن قبل ذلك أجبني عما تعلمته في هذه المدينة.

قلت: منذ أتيت وأنا أتعلم أسرار الدقة والضبط.. وقد عرفت منها دقة الكلمات.. ودقة الجمل.. ثم دقة الترتيب.. ولست أدري ما الذي بقي لي منها.

قال: ألم تتعجب من ضخامة ما كُتب في تفسير القرآن الكريم من كتب؟

قلت: والقرآن الكريم جدير بذلك.. فهو البحر الذي لا تكدره الدلاء.. وكل كلمة فيه أو آية تنبع كل حين بكل ثمار المعاني اليانعة الجميلة.

قال: فذاك هو الثراء القرآني.. وسنذهب إلى المحل الذي تتعلم بعض أسراره، لأنه لا يمكن الإحاطة بأسراره.. وستتعلم فيه أيضا استيعاب القرآن الكريم للحقائق، ولو في جمل وكلمات قصيرة قليلة.

قلت: فما علاقة ذلك بالدقة والضبط؟

قال: لأنهما قد يوهمان أن معاني القرآن الكريم محصورة محدودة منتهية.. فلذلك كان في التعرف على الثراء والاستيعاب ما يحمي من ذلك التوهم.

قلت: فقد كان يكفي أن يُهتم بالثراء.. فما الحاجة للاستيعاب؟

قال: ألا ترى أن الشخص قد يكون طويلا عريضا لكن الأطباء يذكرون مرضه بسوء التغذية؟

قلت: ذلك صحيح.. لأن غذاءه لم يكن مرتبطا بحاجات جسمه؛ فلذلك افتقر إلى ما يكفيه منها.

قال: فهذا هو الاستيعاب.. فالقرآن الكريم ليس غنيا بالمعاني فقط، وإنما فيه كل المعاني التي تلبي كل الحاجات.

بعد سيري مع الشيخ في أرجاء المدينة العتيقة الجميلة، برهة من الزمن، وجدت حديقة جميلة، قد نُصبت فيها خيمة كبيرة، اجتمع إليها الكثير من الناس من مختلف الأعمار.

بمجرد اقترابنا منها، استقبلنا بعض الشباب، وأخذ بيد الشيخ، وقبلها، ثم قال: مرحبا بكم شيخنا.. لقد كنا ننتظر حضورك.. فاليوم ستجرى المسابقة التي طلبت منا أن نجريها.. وقد حضرت جميع الفرق المتنافسة، ونحن نتشرف كثيرا بأن تكون بيننا، لتصحح ما قد نقع فيه من أخطاء.

قال الشيخ: فهل حضرتم الأسئلة الكافية التي يمكنها أن تدل حقيقة على قدرات وكفاءات المتسابقين؟

قال الشاب: أجل.. وقد شكلنا لجنة لذلك.. ونحن ندعوك لأن تجلس معها في المنصة.

قال الشيخ: لا.. دعوني هنا.. فهذا المحل أفضل لي.

ما هي إلا لحظات حتى سمعنا بعض القراء يرتل القرآن الكريم بصوت جميل، ثم قام بعض الشباب، وقال: ستبدأ الآن المسابقة السابعة للقرآن الكريم.. وقد اتفقت لجنة

صياغة الأسئلة على أن تكون حول معانيه الثرية، واستيعابها الجميل للحقائق والقيم.. وقد قسمنا المشاركين إلى فريقين.. فريق سميناه [فريق الثراء]، وفريق أطلقنا عليه لقب [فريق الاستيعاب].. ولذلك إن ورد سؤال عن الاستيعاب سيجيب مباشرة الفريق الخاص به، فإن قصر وأجاب الفريق الآخر سجلت له نقطة بسبب ذلك التقصير.

بعد أن قال هذا قام رئيس لجنة المسابقة الذي كان جالسا على طاولة هو ونفر من رفاقه الشيوخ، وقال: أول سؤال أوجهه لفريق الثراء حول معنى الثراء وعلاقته بالمعاني القرآنية.

قام أحد الشباب من فريق الثراء، والذي كان جالسا في حلقة خاصة به مقابل الفريق الآخر، وقال[1]: أي أن القرآن الكريم قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها.. وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول، وبأقل دلالة.

قال آخر[2]: والقرآن الكريم ينتقي من الألفاظ جوامعها وأغناها بالدلالة، ويختار من أدوات التعبير ما يعطي من المعنى ما هو ـ دائماً ـ متجدد متدفق، بحيث يسع وجهات النظر المختلفة.

قال آخر[3]: وهكذا يخيل إلى من اطلع عليه أنه قد أحاط خُبراً به، ووقفَ على معناه، لكن لو رجع إليه كَرة أخرى لرأى معنى جديد، غير ذلك الذي سبق إليه فهمه.. حتى أننا نرى للفظة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة، وكأنما هي فص من ألماس يعطي كل ضلع فيه شعاعاً، فإذا نظرنا إلى أضلاعه جملة بهرتنا بألوان

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٦)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٦)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٦)

الطيف كلها فلا ندرى ما نأخذ وما ندع.

قال آخر[1]: لذلك نرى العلماء يذهبون مذاهب شتى في بيان المراد من كل لفظ فيه، أو جملة.

١ . الوجوه والنظائر:

قال أحد أعضاء اللجنة: بورك فيكم.. والآن أجيبوني عن سر ذلك.. لماذا كان القرآن الكريم ثريا بالمعاني رغم محدودية ألفاظه؟

قام أحد الشباب من فريق الثراء، وقال[2]: من أسباب ذلك ما في طبيعة بعض ألفاظه من مرونة وغنى بحيث ترى للكلمة الواحد عدة معان، لا تنكرها اللغة بحسب الوضع، ولا يرفضها الدين من حيث العمل والاعتقاد.

قال آخر[3]: ومثل ذلك ما في طبيعة بعض تراكيبه من عموم وشمول فيما يحسن فيه العموم والشمول، حيث تختلف وجهات النظر حول المراد.. ويشمل هذا الفهم التعدد وصف واحد، هو أنه فهم لا يتنافى مع طبيعة النصوص، ولا يتنافى مع حقائق الشرع كاختلافهم حول ليلة القَدر، والليلة المباركة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، والمراد بالليالي العَشر في سورة الفجر، والمراد بالشفع والوتر.. وغير ذلك مما لا يكاد يخلو منه موضع في القرآن.

قال آخر[4]: ومثل ذلك صلاحية ما في جمله من قيود لتعلقها بأكثر من جهة، فيتعدد المعنى بتعدد جهات التعلق، حيث لا مانع من ذلك شرعاً.

قال أحد أعضاء اللجنة: فهلا أوردتم لنا أمثلة عما ذكرتم.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٧)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٧)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٧)

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٦٨)

قال أحدهم: من الأمثلة على استخدام القرآن الكريم اللفظ الواحد في مواضع متعددة، وكل موضع يراد به معنى غير الذي أُريد به في الموضع الآخر كلمة [الأمة].. فقد أراد بها الجماعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، أي: وجد عليه جماعة.. وأراد بها الدِّين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي على دِينٍ.. وأراد بها الرجل الصالح الذي يؤتَـمُّ به، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠].. وأراد بها الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [المرض] على وجوه.. منها: الشك، كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠] يعني شكًّا.. والفجور، كما في قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].. والجراحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى﴾ [النساء: ٤٣] أي إن كنتم جرحى، أو على سفر.. وجميع الأمراض، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ [البقرة:١٨٤] يعني من جميع الأمراض.

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [الهدى]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها البيان، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤]، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] يعني وبيَّنا لهم.. ودين الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧] يعني دين مستقيم، وهوالإسلام.. والإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] يعني إيمانًا.. وداعيًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) الأشباه والنظائر ص ١٠١ـ ١٠٢.

(٢) الأشباه والنظائر ص ٨٩ـ ٩٥.

لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] يعني داعيًا يدعوهم، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].. ومعرفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] يعني يعرفون الطرق.. ورسلاً وكتبًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] يعني رسلاً وكتبًا.. والرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] يعني يرشدني، ومثله قوله: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْأَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].. وأمر محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].. والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].. والتوراة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: ٥٣] يعني التوراة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣] يعني التوراة.. والتوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿هُوالَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩] يعني بالتوحيد ودين الحق.. وسنة، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] يعني مستنون بسنتهم في الكفر، كقوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] يعني الأنبياء يعني: فبسنتهم في التوحيد اقتده.. والصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهّ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] يعني: لا يصلح عمل الزناة.. وإلهام البهائم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].. والتوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

يعني: تبنا إليك.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [التأويل]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها عاقبة ما وعد الله في القرآن الكريم من الخير والشر يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣].. و تعبير الرؤيا، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].. والتحقيق، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] يعني: تحقيق رؤياي.. وتأويله بمعنى ألوانه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧] يعني بألوانه، يعني ألوان الطعام.

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [الفساد]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها المعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، أي لا تعملوا فيها بالمعاصي.. والهلاك، كما في قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤].. وقحط المطر، وقلة النبات، كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] يعني قحط المطر، وقلة النبات.. والقتل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤] يعني يقتلون الناس.. والسحر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] يعني السحرة.

قال آخر[3]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [السوء]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها الشدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

---

(١) الأشباه والنظائر ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) الوجوه والنظائر لهرون ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٣) الأشباه والنظائر لمقاتل ص ١٠٦ ـ ١٠٨.

سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].. والعقر، كما في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].. والزنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].. و البرص، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء﴾ [النمل: ١٢].. والعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].. و الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨].. والشتم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ [الممتحنة: ٢]، وقوله: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].. و بئس، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].. والذنب من المؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧].. والضرر، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].. والقتل والهزيمة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ [الأحزاب: ١٧]

قال آخر[١]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [أم]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها همزة الاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] والمعنى: أخلقوا من غير شيء.. وبمعنى (بل)، كما في قوله تعالى:

(١) الأشباه والنظائر لمقاتل ص ٢١٤ـ ٢١٥.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] والمعنى: بل أنا خير، وقوله: (أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].. وبمعنى (أو)، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧] والمعنى: أوأمنتم.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [في]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها معنى مع، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩] يعني مع الصالحين في الجنة.. وبمعنى على، كما في قوله تعالى: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل.. وبمعنى اللام، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] يعني وجاهدوا لله.. وللتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ [النور: ١٤]

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك استخدام كلمة [هل]، فقد استخدمها القرآن الكريم على وجوه.. منها [قد]، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] أي: قد أتاك.. وبمعنى [ألا]، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] أي: ألا أنبئكم.. والاستفهام التوبيخي، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].. ومعنى أليس، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].. والأمر، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥٤].. والسؤال، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلاتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].. وبمعنى ما النافية، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الأَحْسَانِ إِلا الإحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]

---

(١) الوجوه والنظائر للعسكري ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٢) الوجوه والنظائر ٣٤٣.

قام أحد أعضاء اللجنة، وقال: بوركتم في إجاباتكم.. والآن أسألكم عن العلم الذي يهتم بهذا الجانب.. أي بالبحث في المفردات القرآنية ودلالاتها الكثيرة.

قال أحدهم: يطلق على هذا العلم [علم الوجوه والنظائر]

قال آخر[1]: ومعناه أن تكون الكلمة الواحدة قد ذكرت في مواضع من القرآن الكريم على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى للكلمة غير معناها في المكان الآخر، وتفسير كل كلمة بمعنى يناسبها غير معنى الكلمة الأخرى، هذا ما يسمى (الوجوه)، أما النظائر: فهو اسم للألفاظ، وعلى هذا تكون الوجوه اسماً للمعاني، ومن هنا كان الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما الفرق بين التفسير بالوجوه والنظائر، والتفسير المألوف للمفردات؟

قال أحدهم[2]: التفسير بالوجوه والنظائر يختص بنوع واحد من المفردات، فيذكر عدد الوجوه التي دلّ عليها اللفظ في جميع ما ذُكر من آيات، مستعيناً على ذلك بما يرشده إليه موضعها في الآية، ثم يذكر لكل وجه جميع الآيات أو بعضها مما ورد بها اللفظ ودلّ عليه.. أما التفسير للمفردات؛ فيأتي باللفظ الوارد في القرآن الكريم، فيذكر معناه أو معانيه في اللفظ على طريقة أصحاب المعاجم مستعيناً باللغة أو ما فسره المفسرون دون أن يذكر الوجوه.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك لفظة [لبس]، والتي وردت في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] يعني: لا تخلطوا.. وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] يعني: نساؤكم سكن لكم، ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ

---

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (ص: ٤)

(٢) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (ص: ٥)

هُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] يعني سكن لهن، وكقوله: ﴿وَهُوالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] يعني سكنًا.. وقوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] يعني الثياب.. وقوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ﴾ [الأعراف: ٢٦] يعني العمل الصالح(١).. فلو تأملنا اشتقاقات هذا اللفظ في هذه الآيات لوجدنا أن معناه ليس واحداً فيها.. فنعلم أن للفظ (اللباس) أربعة وجوه أو خمسة أو غيرها بحسب التقسيم المعتمد.. وهذا ما يبحث فيه علم الوجوه والنظائر.

قال آخر: فعلم الوجوه والنظائر، يذكر اللفظ، وعدد وجوهه، ثم يضع كل وجه مع اللفظ الدال عليه في الآيات القرآنية، بخلاف التفسير بالمفردات، فهو يأتي ابتداء بالكلمة المفردة، ثم يذكر معناها لغة، مستشهدا بكلام العرب المحتج بقولهم، أو كلام رسول الله ﷺ، ثم يذكر بعض الآيات التي ورد بها اللفظ في مورد الآية كذا.

قال آخر: وعلى العموم هو اصطلاح جرت عليه العادة فيمن كتب في هذه الفنون اللغوية.. فبعضهم مال إلى كتابة معاجم مرتبطة بالمفردات.. وآخر مال إلى الوجوه والنظائر.

قال عضو اللجنة: فما تقولون في هذا.. هل تقبلون كل ما ورد في المعاجم التي وضعت لهذا العلم؟

قال أحدهم: لو فعلنا ذلك لكنا مما يقولون بعصمة [التأويل التدبري].. وذلك محال عقلا وشرعا.. فالتدبر من غير المعصوم غير معصوم.. ولذلك ترانا نأخذ منه، وندع.. ونناقش ونحقق.

قال آخر(٢): لقد بحثت مع بعض زملائي في هذا، فوجدت أن ما ينطبق عليه شروط

---

(١) الأشباه والنظائر ص ١٠٥.

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٢٧)

الوجوه والنظائر محدود جدا.. وليس كما وصفه من ألف فيه.. ذلك أنهم اعتبروا ضابطه أن تكون معاني اللفظة حقيقية غير مجازية، لأنهم لو أدخلوا المعاني المجازية، لأصبحت كل اللغة القرآنية، بل العربية جميعا من هذا الباب.

قال آخر: واشترطوا أن تكون اللفظة دالة على معنيين مختلفين فأكثر، أي: أن لا تربط بينها صلة ترادف، ولا أصل، ولا قياس، ولا وصف.. أي أن لا ترتبط الوجوه فيما بينها بأية صلة كانت من هذه الصلات المذكورة، أوغيرها سوى صلة اللفظ المشترك.

قال آخر: واشترطوا أن تكون علاقة كل وجه منها بهذا اللفظ واحدة، أي: أن لا يكون للفظ المشترك معنى مستقل يميزه من بين الأوجه المنسوبة إليه.

قال آخر: واشترطوا أن لا يكون لهذه الوجوه ألفاظ أخرى تعبر عنها غير اللفظ المشترك.

قال آخر: واشترطوا أن لا تكون العلاقة بين اللفظ ووجوهه علاقة الشيء بطرقه وأنواعه، أوعلاقة الشيء بأمثلته.

قال آخر: واشترطوا أن يكون الوجه هوالمعنى المراد.

قال آخر[1]: هذه هي حقيقة الوجوه التي لم نجدها تنطبق إلا على بضعة ألفاظ من بين مئات الألفاظ التي اشتملت عليها كتب الوجوه.

قال عضو اللجنة: فهلا ذكرتم لنا مثالا عن مناقشاتكم لما درستموه في هذا الباب، حتى نتبين أنكم لستم مجرد حفظة.

قال أحدهم: من الأمثلة على ذلك أني تأملت مع بعض زملائي ما ورد في كتب الوجوه والنظائر حول كلمة [الذكر]، فوجدنا مبالغات كثيرة بشأن ذلك.. ومن الأمثلة

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٢٧)

عنها قول بعضهم: (الذكر في القرآن على عشرين وجها: الذكر باللسان.. الذكر بالقلب.. الحديث.. الخبر.. العظة.. التوحيد.. الوحي.. القرآن.. التوراة.. الشرف.. الطاعة.. الحفظ.. البيان.. الصلوات الخمس.. صلاة الجمعة.. صلاة العصر.. الغيث.. اللوح المحفوظ.. الثناء على الله.. الرسول)[1]..وقال آخر: (الذكر في القرآن على عشرين وجهًا: ذكر اللسان.. ذكر القلب.. الوعظ.. التوراة.. القرآن.. اللوح المحفوظ.. رسالة الرسول.. العبرة.. الخبر.. الرسول.. الشرف.. التوبة.. الصلوات الخمس.. صلاة العصر.. صلاة الجمعة.. العذر من التقصير.. الشفاعة.. التوحيد.. ذكر المنة.. الطاعة والخدمة)[2]

قال آخر[3]: وقد استشهدوا على الذكر باللسان بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَّ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].. وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَّ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوأَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].. وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].. وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] أي: اذكر لأهل مكة أمر إبراهيم عليه السلام، وكذلك ما كان على نحوها.. وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣].. وقوله: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].. وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهَّ أَكْبَرُ وَاللهَّ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: ذكر

---

(١) نزهة الأعين النواظر ص ١٢٧ ـ ١٣٠.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣/ ١٣ ـ ١٥.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ٣/ ١٢.

الله لعبده أكبر من ذكر العبد له.. واستشهدوا للذكر بالقلب بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَّ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] يعني ذكروه بأنفسهم.. وقد رأينا أن في هذا بعض التكلف أو الكثير منه.. ذلك أن كل لفظة وردت في المحال التي خصصوا بها ذكر اللسان يمكن أن تفسر بغيره، فقوله تعالى ـ مثلا ـ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ليس خاصا بذكر اللسان كما ذكروه، بل يشمل كل أنواع الذكر.

قال آخر(١): ومثل ذلك فيما ذكروا أن لفظ (الذكر) جاء فيه بمعنى الوحي، مستشهدين على ذلك بقول الله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ٣].. وقوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ٥].. وقوله: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨].. وقوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].. فلِمَ لا يكون بمعنى القرآن؟.. أوبمعنى اللوح المحفوظ؟

قال آخر(٢): ومثل ذلك فيما ذكروا أن لفظ (الذكر) جاء فيه بمعنى التوراة، أوالكتب المتقدمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ ـ ٤٤].. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].. فلفظ الذكر هنا أعم من أن يقصد به ذلك فقط دون غيره.

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٤)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٤)

قال آخر: ومثل ذلك فيما ذكروا أن لفظ (الذكر) جاء فيه بمعنى القرآن، كقول الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]

قال آخر: ومثل ذلك فيما ذكروا أن لفظ (الذكر) جاء فيه بمعنى اللوح المحفوظ، أوالكتاب المتقدِّم، كقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]

قال آخر[1]:والحقيقة أنَّ المراد من أهل الذكر أهل القرآن أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ ـ ٤٤] أي: العالمين به، وليس المراد: أهل التوراة، أوالكتب المتقدمة؛ لأنَّ القرآن الكريم أخبرنا بما احتوته تلك الكتب من أحكام وشرائع، وكيف كان حال الرسل والأنبياء وأقوامهم؛ فمن كان عالمًا بالقرآن، كان عالمًا بذلك كلِّه.

قال آخر[2]: وأصحاب كتب [الوجوه والنظائر] حين جعلوا لفظ (الذكر) بهذه المعاني، وغيرها لم يشيروا إلى العلاقة بينهما.. ولم جاء الذكر بمعنى القرآن مثلا؟.. وما الجسر الذي أوصله إلى أن يكون قرآنًا؟.. وما العلاقة بين الدلالتين؟.. ذلك أنَّهم عاملوا لفظ (الذكر) معاملة اللفظ المشترك.. أي: عاملوه استنادًا إلى أنَّ دلالة الذكر على القرآن معادلة ومساوية لدلالته على الذكر بالقلب واللسان، سواء بسواء.

قال آخر: وهذا يخالف المنهج القرآني الذي اعتمد الأسماء المختلفة، لا لنجعلها مترادفة، وإنما لنبحث في كل كلمة والدلالات التي تعنيها.

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٤)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٦)

قال آخر[1]: فقد سمَّى الله تعالى كتابه الكريم بأسماء كثيرة على سبيل الوصف، بلغت مئة اسم، ولكل اسم دلالته الخاصة.. فمن بينها، تسميته بأنَّه عظيم.. وعزيز.. وعلي.. والنور.. والهدى.. والرحمة.. والفرقان.. والبرهان.. والصدق.. والذكرى.. والذكر.. والتذكرة.. والموعظة.. والبينة.. والوحي.. والرسالة.. والنبأ.. والقيِّم.. والروح.. والكلام.. والحديث.. ووصل الله.. والبلاغ.. والصراط المستقيم.. والعروة الوثقى.. والحجة البالغة.. ولكل اسم من هذه الأسماء دلالته الخاصة التي نحتاج إلى التدبر فيها، ومعرفة سرها.

قال آخر[2]: ولهذا؛ فإن الله تعالى لم يسمِّ الذكر قرآنًا، كما ذكر أصحاب كتب الوجوه والنظائر، ومن قلَّدهم من المفسرين، وإنَّما سمَّى القرآن ذكراً، والمسوغ والسر في ذلك، أنَّ ما يدل عليه الذكر يتضمنه القرآن، ففي القرآن الكريم ألفاظ التهليل والتسبيح والتكبير، وألفاظ الحمد لله، والشكر له، والثناء عليه، وفيه تذكير للإنسان بنعم الله عليه، وتذكيره بأيام الآخرة، وبيوم الحساب، وبالجنة والنار، وتذكيره بأوامر الله، ونواهيه، فالدلالة الموضوعة للفظ (الذكر) تتمثل في كل سورة من سور القرآن الكريم، بل في كل آية من آياته، وكذلك يقال الكلام نفسه في الوجوه الأُخَر: الوحي، واللوح المحفوظ، والتوراة، والزبور، وكل الكتب السماوية المنزلة؛ لأنَّها جميعًا تمثل ناموسًا واحدًا.. لذلك استحق أن يسمَّى القرآن بالذكر، لأنَّ الغاية الأساسية من نزوله على الناس، هوتذكيرهم بالله وبدين الحق، وهذا الحق لا يحتاج إلى شرح وبيان؛ لأنَّ الله سبحانه، قد فطر الناس عليه، فهولا يحتاج إلى أكثر من تذكيرهم به.

---

(1) بصائر ذوي التمييز ص ٨٨ـ ٩٦.

(2) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٧)

قال آخر(١): وقد عبَّر عن القرآن هنا بالذكر، وعبَّر عنه بلفظه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] لأنَّه أريد القرآن بعينه، بلفظه ومعناه، وهو بهذه الصفة لم يَنَزَّل إلاَّ على قلب رجل واحد، هو محمد ﷺ، لهذا قال هنا ﴿عَلَيْكَ﴾ ولم يقلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلم يقل ﴿عَلَيْكَ﴾ لأنَّه أراد القرآن بصفة الذكر الذي فيه، فهو بهذه الصفة سيكون في قلوب كل المؤمنين والمسلمين في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة، لذا اقتضى أن يحفظه الله حتى قيام الساعة.

قال آخر(٢): فلوأنّ أصحاب كتب الوجوه والنظائر، درسوا العلاقة بين لفظ (الذكر) وبين القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة وبينه وبين معنى الوحي واللوح المحفوظ، دراسة تدبرية خالصة من شوب التصنيف والتقسيم والتوجيه، لانتهت دراستهم إلى إثبات الدلالة الموضوعة للفظ (الذكر)، التي هي الذكر باللسان والقلب والتذكر والتذكير، بدلاً من إلغاء هذه الدلالة التي انتهت إليها دراستهم.

قال آخر(٣): ومثل ذلك عند التأمل في وجوه (الذكر) الأخرى التي ذكروها، كاعتبارهم [الصلوات الخمس] من وجوهها في قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].. وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَورُكْبَانًا فإذا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].. أو صلاة العصر خاصة، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].. أو صلاة الجمعة، كقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٨)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٨)

(٣) الوجوه والنظائر، لهرون بن موسى ص ٥١.

قال آخر[١]: فهذا الذي ذكروه يفتقر إلى الكثير من التدبر والتحقيق، ذلك أنهم في ادعائهم بمجيء الذكر بمعنى الصلوات الخمس، في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] لم ينقلوا الآية كاملة؛ فالآية تقول: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].. فالذكر هنا قطعًا ليس بمعنى الصلوات الخمس، ذلك أنَّه عطف قوله ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ﴾ على قوله ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ مما يدل على أنَّه أراد من الذكر غير الصلوات الخمس، لأنّ العطف يقتضي المغايرة؛ إذ لا يصح عطف الشيء على نفسه.

قال آخر[٢]: ولذلك، فإن التدبر الصحيح يهدينا إلى أن القرآن الكريم لم يستعمل الذكر بمعنى الصلاة، وإنَّما استعمل الصلاة بمعنى الذكر؛ لأنَّ الدلالة الموضوعة للذكر تتمثل بكل وضوح في الصلاة، فالمرء في صلاته، يتلفظ بألفاظ التكبير، والتسبيح، والتهليل، وفيها يقرأ سورة الفاتحة وآيات من القرآن بعدها، ففي الصلاة إذن ما في القرآن الكريم من معاني الذكر والتذكر والتذكير؛ من أجل ذلك سمَّى الله الصلاة بالذكر.

قال آخر[٣]: ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [البيان] من وجوه (الذكر) في قول الله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] ففسروها بـ (بيان من ربكم على رجل منكم).. وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩] يعني: هذا بيان.. وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤] أي: إن هو إلاّ بيان.. وقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٣٩)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٠)

(٣) منتخب قرة العيون لابن الجوزي ص ١٢١.

الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]

قال آخر(١): وهذا لا يستقيم لهم، ذلك أنَّ الله تعالى لو أراد من الذكر في هذه الآيات معنى البيان لاستعمل لفظه، فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بالبيان بلفظه، كما قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]

قال آخر(٢): بالإضافة إلى ذلك؛ فإن لغة العرب، ولغة القرآن الكريم، وضعت لفظ (البيان) للتعبير عن معنى البيان، فلِمَ إذن تستعمل لفظ (الذكر) بدلاً منه للتعبير عن هذا المعنى؟.. إن هذا يشبه رجلاً يمسك الأشياء بقدمه، ويأكل ويكتب بها، وقد ترك كفَّه السليمة التي خلقها الله للإنسان؛ ليستخدمها لمثل هذه الأعمال.. وهكذا، فإن الذي يقول هذا قد اتهم القرآن الكريم من حيث لم يشعر بأنه عدل على اللفظة المناسبة إلى غيرها.

قال آخر(٣): ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [التوحيد] من وجوه (الذكر) في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، فقد ذكروا أن المعنى: ومن أعرض عن توحيد الله.. وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أن المعنى: ومن يعش عن توحيد الله.. مع أن الذكر هنا أعم من أن يُحصر في التوحيد.

قال آخر(٤): ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [العظة] من وجوه (الذكر) في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الانعام: ٤٤]، وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٢)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٢)

(٣) الوجوه والنظائر للدامغاني ص ٢٢٠.

(٤) منتخب قرة العيون لابن الجوزي ص ١١٩.

[الذاريات: ٥٥]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الاعلى: ٩]

قال آخر(١): ذلك أنَّ الإنسان إذا ذُكِّرَ فتذكَّر، يقال له قد تذكَّرَ، ولا يقال بأنَّه قد اتَّعظ، إلا بعد أن يؤثِّرَ فيه التذكير في تغيير سلوكه، فالعظة والاتعاظ، يجيئان بعد الذكر والتذكير، وهذا يدل على أنَّ العظة غير الذكر، والعلاقة بينهما هي أنَّ من الوسائل التي تجعل الإنسان يتعظ، تذكيره بما نسيه من أُمور الخير، وتذكيره بما غفل عنه من العواقب.

قال آخر(٢): ولوكانت صيغة التذكير في تلك الآيات الكريمة ونحوها بدلالة العظة أوالوعظ، فلِمَ إذن لم يستعمل القرآن الكريم لفظ (الوعظ) بدلاً من لفظ (الذكر)؟

قال آخر(٣): ولهذا، فإن القول بأنَّ الذكر يعني العظة، يعني القول بتطابقهما التام في الدلالة في القرآن الكريم، ولا وجود لمثل هذا التطابق في كتاب الله تعالى؛ لأنَّه لوصح ذلك لتخلَّى القرآن الكريم عن استعمال أحد هذين اللفظين، فاستعمالهما معًا يدل قطعًا على اختلاف معنييهما.

قال آخر(٤): ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [الحفظ] من وجوه (الذكر) في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣] والتي فسروها بمعنى: احفظوا ما في التوراة من الأمر والنهي.. وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣] أي احفظوا ما فيه.

قال آخر(٥): ذلك أنَّ حفظ ما في كتب الله، أوحفظ أوامره ونواهيه لا يعني وضعها في صندوق، أوخزانة، وإنما المراد حفظها بالقلب، ولا يتأتى هذا إلاَّ باستمرار ذكرها باللسان، أوالحديث عنها بالقلب، أوتذكرها في الذهن بين حين وآخر، ولهذا عُرِّف الحفظ

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٤)
(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٤)
(٣) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٤)
(٤) نزهة الأعين ص ١٢٩.
(٥) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٥)

بأنَّه نقيض النسيان.

قال آخر[1]: بالإضافة إلى أن حفظ نعم الله، يكون بذكر المنعِم باستمرار وعدم نسيان فضائله؛ مما يدفع إلى ترجمة هذا الذكر باللسان إلى عمل، وهذا هو الغرض من أنّ الله سبحانه حثنا كثيرًا على أن نذكره ونذكر نعمه علينا، أي: أنَّ حفظها بالقلب لا يكون إلاّ بذكرها وتذكُّرها بين أوان وآخر.

قال آخر[2]: ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [الخبر] من وجوه (الذكر) في قول الله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء ٢٤]، فالمعنى عندهم: هذا خبر من معي، وخبر من قبلي.. وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨]، فالمعنى عندهم: لوأنَّ عندنا خبرًا من الأولين.. وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]

قال آخر[3]: وهذا يعيدنا إلى نفس التساؤل الذي طرحناه سابقا.. وهو: ألم تضع لغة العرب، ولغة القرآن الكريم لفظ (الخبر) للتعبير عن معنى الخبر؟.. فلِمَ إذن تستعمل لفظ (الذكر) بدلاً منه للتعبير عن هذا المعنى؟

قال آخر[4]: لقد وجدت من خلال بحثي في هذا أن السمة الغالبة في القرآن الكريم، أنَّه إذا قص لنا شيئًا من أخبار السابقين، فإنَّه لا يقصه لنا، لمجرد إخبارنا وتزويدنا بمعلومات نجهلها؛ وإنما يذكر لنا من قصصهم عبرًا لنتعظ بها ونعتبر؛ ونستفيد من معانيها في تعديل سلوكنا؛ وزيادة إيماننا؛ أوالتأسي بها؛ فالقرآن الكريم لا ينقل لنا أخبار السابقين بتفاصيلها؛ إذ ليس القرآن الكريم كتابًا في التاريخ؛ بل هو كتاب للتذكير والوعظ والإرشاد؛

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٥)

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣/ ١٤.

(٣) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٦)

(٤) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٦)

فاختار من هذه القصص ما يحقق هذا الغرض؛ لذلك عبَّر عنها بلفظ الذكر، الذي يعني التذكير، والخبر يعني العلم.

قال آخر(١): ولهذا نرى أن لكل من الذكر والخبر، سياقه الذي يلائمه ولا يلائم الآخر، وأقرب دليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٦٨].. فهذا هو موضع الخبر وسياقه، الذي يعني العلم بالشيء والإحاطة به؛ لأنَّ موسى عليه السلام طلب من الخضر أن يزوده بالعلم لا بالذكر.

قال آخر(٢): بالإضافة إلى هذا؛ فإنَّ الخضر عليه السلام قام بأعمال منكرة في الظاهر، يحتاج للصبر عليها إلى العلم بأسرارها ومقاصدها، لذلك خاطبه بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]

قال آخر(٣): وهذه الدلالة لم تقصد في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوعَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، بل أريد ما دلَّ عليه لفظ (الذكر) أي التذكر والتفكر، أي: (سأتلوا عليكم منه ما به التذكر، فجعل المتلونفسه ذكرًا مبالغة بالوصف بالمصدر)(٤).. فالسياق هنا سياق تذكُّر والتذكير بالعبر مما تتضمنه قصة ذي القرنين، فالفرق بين الذكر والخبر ظاهر، حتى لوتقاربا في المعنى، فالقرآن الكريم يتميز من بين سائر كتب البشر، أنَّه يُعنى بهذا الفرق المعنوي مهما خفي ودقَّ؛ فيختار لفظًا من دون لفظ آخر قريب من معناه؛ لأنَّه أدق وأقرب منه في التعبير عن المعنى المراد الذي يتطلبه المقام.

قال آخر(٥): ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [الطاعة] من وجوه (الذكر) في قول

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٦)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٦)

(٣) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٦)

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ١٢٢.

(٥) منتخب قرة العيون لابن الجوزي ص ١٢٠.

الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]

قال آخر[1]: فهذا يجعل المتدبر، يقف عند هذا الحد من البحث؛ وكأنَّ غاية ما توصل إليه في هذا المجال هو تفسير قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] بمعنى: أطيعوني أغفر لكم؛ بينما هناك مجال فسيح يمكن أن يجول فيه الفكر ليتعرف إلى أسرار هذا الاسلوب من التعبير.

قال آخر[2]: من ذلك مثلاً أنَّ المتدبر يسأل نفسه: لِمَ حثنا الله على ذكره في الآية في هذا المقام؟.. لِمَ قال: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولم يقل: فأطيعوني أغفر لكم؟

قال آخر[3]: فإذا تدبرنا جيدا وصلنا إلى أنّ لفظ ﴿اذكروني﴾ أبلغ من لفظ (أطيعوني) وأكثر ملاءمة للسياق، وللمعنى المقصود.. ذلك أن دلالة الطلب في قوله ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ ودلالة جوابه ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ واحدة، وأنَّها مرادة لفظًا ومعنىً.

قال آخر: كما أنَّها متوافقة مع القواعد المرتبطة بكون الجزاء من جنس العمل؛ كقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَّ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].. ولذلك فإن جزاء ذِكْرِنا اللهَ، هوأن يذكُرَنا اللهُ.

قال آخر[4]: ومثل ذلك عند التأمل في اعتبارهم [الشرف] من وجوه (الذكر) في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤]، فقد فسروها بـ (القرآن شرف لك، ولقومك، ولمن آمن منهم)[5].. واستشهدوا لهذا بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٩)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٩)

(٣) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٤٩)

(٤) الوجوه والنظائر لابن موسى ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٥) تفسير مقاتل ٣/ ١٩١.

فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فقد فسروها جميعا بالشرف.

قال آخر[١]: والمشكلة في هذا التفسير أنه يحول اللفظة عن دلالة مستقرة، يتفق عليها أهل اللغة، إلى دلالة غير مستقرة في الأذهان، تضيع بين المترادفات؛ لأنَّه إذا قالوا: إنَّه بدلالة الشرف، والتقدير: وإنَّه لشرف لك ولقومك، يمكن أن يقال بالقدر نفسه: إنَّه بدلالة الكرم، والتقدير: وإنَّه لكرم لك ولقومك.. أوبدلالة المجد والتقدير: وإنَّه لمجد لك ولقومك.. أوبدلالة الحسب والتقدير: وإنَّه لحسب لك ولقومك.. أوبدلالة العلو والتقدير: وإنَّه لعلو لك ولقومك.. أوبدلالة الفخر والتقدير: وإنَّه لفخر لك ولقومك.. أوبدلالة المأثرة والمنقبة والتقدير: وإنَّه لمأثرة ومنقبة لك ولقومك.. فإذا جاز جعل لفظ (الذكر) هنا بدلالة الشرف، جاز جعلها أيضًا بإحدى هذه الدلالات؛ وعندها تضيع الدلالة الحقيقية والأصلية.

قال آخر[٢]: وهذا يثير الكثير من التساؤلات.. منها.. لماذا عيَّن أصحاب الوجوه والنظائر والمفسرون للفظ (الذكر) هذه الدلالة من دون الدلالات الأخرى المرادفة والقريبة من معناها؟.. وإذا كان لفظ (الذكر) هنا بدلالة الشرف؛ فَلِمَ إذن قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]) ولم يقل: وإنَّه لشرف لك ولقومك؟!

قال آخر[٣]: وإذا كان لفظ (الذكر) في الآية بدلالة الشرف، فهل هذا يعني أنَّهما مترادفان؟.. فإذا كان الأمر كذلك، فلِمَ إذن استعمل القرآن الكريم لفظ (الذكر) من دون لفظ (الشرف)؟ وإذا كان بينهما فرق، فما هذا الفرق؟.. وما الفرق بين معنى الآية وبين

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٥٤)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٥٥)

(٣) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٥٥)

معنى التقدير؟!

قال آخر[1]: مما يدل على أنَّ لفظ (الذكر) في الآية ما أُريد أن يكون بدلالة الشرف، أنَّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ (الشرف) بأية صيغة من صيغه، فلا وجود لهذا الجذر ولا لمشتقاته في كتاب الله؛ مما يدل قطعًا على أنَّ هذه الدلالة لا تلائم تعابير القرآن الكريم، ولا مضامينه؛ ففي إقحام هذه الدلالة بلفظ (الذكر) في القرآن الكريم، يعني إقحام دلالة غريبة على كتاب الله، قد هجرها وما أرادها أن تكون في أيَّة آية من آياته.

قال آخر[2]: ولهذا، فإن قول بعضهم: (ومن الذكر يوضع موضع الشرف؛ لأنَّ الشريف يُذكَر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [ازخرف: ٤٤] يريد أنَّ القرآن شرف لك)[3].. غير صحيح أو غير كاف.. فكما أنَّ الشريف يُذكر، فكذلك الكريم يُذكر، والماجد يُذكر، والشجاع يُذكر، والصادق يُذكر، والعادل يُذكر، وكل من اتصف بصفة حميدة يُذكر.

قال آخر[4]: ولهذا؛ فإن المعنى الأصح والأقرب أن يراد بالذكر ذكر الناس باللسان محمدًا ﷺ وقومه، بالذكر الحسن الجميل، جيلاً بعد جيل.. ذلك أن الثناء الحسن الجميل مرغوب فيه، ولهذا قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الأخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]

٢. الترادف والفروق:

قال أحد أعضاء اللجنة: بورك فيكم جميعا.. وفي حفظكم وتحقيقكم.. وما ذكرتموه يتطلب منا أن نسألكم عن حقيقة الترادف في القرآن الكريم واللغة العربية.

---

(١) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٥٥)

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٥٦)

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٩٥.

(٤) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ٥٨)

قام أحد الشباب من فريق الثراء، وقال: إن أردتم من الترادف الاتحاد التام في المفهوم من غير تفريق بينهما[1].. أو التطابق التام في المعنى؛ فنحن لا نؤمن بهذا، وقد أجرينا البحوث الكثيرة في رده.

قال أحد أعضاء اللجنة: ولكن ما تذكره يخالف ما ذكره كبار العلماء بالقرآن الكريم.. ألم تقرأ قول الزركشي وغيره من أن (عطف أحد المترادفين على الآخر، أوما هو قريب منه في المعنى) من علوم القرآن.. وأن القصد منه التأكيد.. وقد ضربوا له الأمثلة الكثيرة، ومنها (بَثِّي وَحُزْنِي) في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].. و(سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].. و(شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].. و(لا تُبْقِي وَلا تَذَر) في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَر﴾ [المدثر: ٢٧ ـ ٢٨].. و(إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء) في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].. و(أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧].. و(صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].. وغيرها كثير.

قال أحدهم: مع احترامنا لكل العلماء، وخصوصا العلماء المختصين في القرآن الكريم إلا أن ما ذكروه يدخل ضمن [التأويل التدبري]، وهو ليس بمعصوم.. ولذلك لا

---

(١) التعريفات للشريف الجرجاني ص ٣٧.

حرج علينا أن ننكره أو نرده حفاظا على ثراء المعاني القرآنية.. فالقول بالترادف يتنافى معها.

قال آخر[1]: ولهذا؛ فإن اعتبارهم (البث والحزن) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦] غير صحيح.. فالبث: يفيد أنَّه ينبث ولا ينكتم من قولك: (أبثثته ماعندي، وبثثته: أعلنته إياه)، فحقيقته في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها.. وبذلك؛ فإن البث يعني ما يبديه الإنسان، والحزن: ما يخفيه؛ لذلك يكون البث أشد الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه حتى يبثه ويشكوه؛ لذا عطف البث على الحزن لما بينهما من الفرق في المعنى.

قال آخر[2]: ومثله اعتبارهم (تبقي وتذر) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر:٢٨]، وهو غير صحيح.. بل المعنى الذي تدل عليه اللغة: لا تبقي شيئًا يُلقى فيها إلاَّ أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكًا حتى يعاد.. أي: يعود كما كان.. وهو ما يشير إليه ويؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيى﴾ [طه: ٧٤] أي: لا يموت فينجومن العذاب، ولا يحيى حياة طيبة.

قال آخر[3]: ومثله اعتبارهم (السر والنجوى) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وهو غير صحيح.. بل النجوى: اسم للكلام الخفي الذي تناجي به صاحبك، كأنَّك ترفعه عن غيره.. والسر: إخفاء الشيء في النفس، يقال: ناجيته، أي: ساررته، وأصله أن تخلوبه في نجوة من الأرض.. والسر: هوالحديث المُكتَم في النفس.

قال آخر[4]: ومثله اعتبارهم (الشرع والمنهاج) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) الفروق اللغوية ص ٢٩٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٣٧.

(٣) الفروق اللغوية ص ٧٥، والمفردات ص ٥٠٦.

(٤) المفردات ص ٢٦٨ وفروق اللغات ص ١٥٤.

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وهو غير صحيح.. بل الشرعة: ما يُبتَدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع في كذا، أي: ابتدأ فيه، والشريعة: هي ما يُشرع منها إلى الماء.. أمَّا المنهاج فهو الطريق السهل المستمر.. وبذلك؛ فإن الشرعة هي الدين بأصوله الثابتة التي تتساوى فيها الملل التي لا يصح النسخ عليها، كمعرفة الله والتوحيد والإخلاص، والمنهاج: الدليل أو الطريقة التي تُطَبَّق بها هذه الأصول الثابتة؛ لذلك روي عن ابن عباس أنَّ الشرعة: ما ورد به القرآن، والمنهاج: ما وردت به السنة(١).

قال آخر(٢): ومثله اعتبارهم (الدعاء والنداء) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وهو غير صحيح.. بل النداء: هو رفع الصوت بما له معنى.. والدعاء يكون برفع الصوت وخفضه، ولهذا يقال: دعوته من بعيد، ودعوت الله في نفسي، ولا يقال: ناديته في نفسي.. والدعاء قد يكون بعلامة من غير صوت ولا كلام، ولكن بإشارة تنبئ عن معنى: تعال، ولا يكون النداء إلاَّ برفع الصوت وامتداده؛ لذا لا يُسنَد النداء إلى الله تعالى، بخلاف الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]

قال آخر(٣): ومثله اعتبارهم (السادة والكبراء) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وهو غير صحيح.. بل السادة: هم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم.. و﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ ذوي الأسنان

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٩٣.

(٢) الفروق اللغوية ص ٤٩، فروق اللغات ص ١٢٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٥، التحرير والتنوير ٢١/ ٣٣٨.

منَّا، أوعلماءنا.. ولذلك قوبل قولهم: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا﴾ بقولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ [الأحزاب: ٦٦]

قال آخر(١): ومثله اعتبارهم (الضعف والوهن) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وهو غير صحيح.. بل الضعف: ضد القوة، والضعيف من خلقه الله ضعيفًا، والقوي: من خلقه الله قويًّا، ويقال: ضعُف فلان: فَعَلَ فِعْلَ الضعيف خِلْقَةً، بينما يعني الوهن: انكسار الجد لخوف ونحوه، والاستكانة: الذل والخشوع.. لذلك كان معنى ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ ما فتروا، وما انهارت عزائمهم، ولم يصبهم الوهن باستيلاء الخوف عليهم، ولم يضعف إيمانهم وتقع الشكوك والشبهات في قلوبهم عندما شاع بينهم مقتل الرسول ﷺ ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: وما خضعوا لعدوهم وخشعوا وذلوا لهم.

قال آخر(٢): ومثله اعتبارهم (الظلم والهضم) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وهو غير صحيح.. بل الهضم يعني نقصان بعض الحق.. والظلم يكون في البعض والكل، ولهذا، فإن قوله تعالى: ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ تعني: لا يمنع حقه ولا بعض حقه، وقد قال بعض علماء البيان والتفسير في ذلك: (الظلم: أن يأخذ من صاحبه فوق حقه، والهضم: أن يكسر من حق أخيه، فلا يوفيه له، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون، وإذا كالوهم أووزنوهم يُخسرون، أي: فلا يخافون جزاء ظلم ولا هضم)(٣)

(١) مدارك التنزيل ص ١٨٩ واللباب في علوم الكتاب ٥/ ٥٩٠.

(٢) الفروق اللغوية ص ٢٦٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٨٦.

قال آخر[1]: ومثله اعتبارهم (النصب واللغوب) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]، وهو غير صحيح.. بل النصب يعني: العناء، ومعناه: أنَّ الإنسان لا يزال منتصبًا حتى يُعيي.. واللغوب: التعب والإعياء والمشقة.. أو النصب: التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له، وأمَّا اللغوب: فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب: نفس المشقة والكلفة، واللغوب: نتيجته، وما يحدث منه من الكلال والفترة.

قال آخر[2]: ومثله اعتبارهم (الخشية والخوف) بمعنى واحد في قوله تعالى: ﴿ولا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وهو غير صحيح.. بل الخشية أعلى من الخوف، وهي أشد الخوف، فإنَّها مأخوذة من قولهم: شجرة خشْيَة إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء: إذا كان بها داء، وذلك نقص وليس بفوات، ولهذا خُصَّت الخشية بالله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]

قال آخر[3]: وفُرِّق بينهما أيضًا بأنَّ الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]، فإنَّ الخوف من الله لعظمته، يخشاه كل أحد كيف كانت حاله، وسوء الحساب ربما لا يخافه من كان عالمًا بالحساب، وحاسب نفسه قبل أن يحاسب.

قال آخر: ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [الرعد: ٢٨].. وقال لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] أي: لا

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٩٦.

(٢) البرهان ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

(٣) البرهان ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

يكون عندك من ضعف نفسك ما تخاف منه من فرعون.

قال آخر[1]: أما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، فإن ذلك يعني أنه: يخشى ربه لعظمته، ويخاف ربه لضعفه بالنسبة إلى الله تعالى.. وذلك أنَّ الله تعالى لما ذكر الملائكة عليهم السلام وهم أقوياء ذكر صفتهم، فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، فبيَّن أنَّهم عند الله ضعفاء، ولما ذكر المؤمنين من الناس وهم ضعفاء لا حاجة إلى بيان ضعفهم، ذكر ما يدل على عظمة الله فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في الكتب التي خصصت لشرح كلمات القرآن أو تفسيرها.. والتي قد تفسر الكلمة بكلمة مرادفة لها؟

قال أحدهم[2]: إذا قُصِد بالألفاظ المترادفة المتطابقة في معانيها تطابقا تاما؛ فهذا ما لا وجود له أبدا.. وإن قُصِد بها المتقاربة في معانيها، فوجودها حقيقة لا مراء فيها؛ إذ اللغة، ولا سيما لغة القرآن الكريم، تُعَدُّ كصرح عظيم، لبناته المتراصة ألفاظها، ومن البديهي أن تلامس كل لبنة لبنة تجاورها، أوتفصل بينهما واحدة أواثنتان، ومن المعلوم أنَّ المعاجم اللغوية تذكر معنى اللفظ بما يرادفه بالمعنى، لا بما يطابقه؛ لأنَّ اللفظَ لا يطابق معناه إلاَّ اللفظ نفسه.

قال آخر[3]: ولهذا؛ فإننا فلو قلنا (الظلم) معناه الجور والحيف لم نعرف الظلم بمعناه، وإنَّما عرفناه بما يرادفه، أي: بالمعنى القريب منه.. ولذلك كان المنهج الأمثل في التعريفات ما فعله بعضهم حين راح يشرح اللفظ بدلاً من أن يعرفه بمرادفه، فلم يقل:

---

(١) البرهان ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

(٢) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ١٩)

(٣) لا وجوه ولا نظائر في كتاب الوجوه والنظائر (ص ١٩)

(الظلم هوالجور) مثلاً بل قال: (هووضع الشيء في غير موضعه)[1].. ولما عرف الجور قال: (هوالميل عن الطريق)

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك تعريف (النبأ) بكونه (الخبر) نفسه غير صحيح، بل هولفظ مرادف له، أي: قريب من معناه؛ لذلك جاء في الفرق بين النبأ والخبر، أنَّ النبأ لا يكون إلاَّ للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، ويجوز أن يكون الخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه؛ ولهذا يقال: تخبرني عن نفسي، ولا يقال: تنبئني عن نفسي، وتقول تخبرني عما عندي، ولا تقول: تنبئني عما عندي.. بينما الإنباء عن الشيء يكون بغير حمل النبأ، تقول: هذا الأمر يُنبئ بكذا، ولا تقول: يخبر بكذا؛ لأنَّ الإخبار لا يكون إلاَّ بحمل الخبر.

قال آخر[3]: ومثله (الريب والشك)، فالريب ليس هوالشك نفسه، بل هومعنى قريب منه، أي: لفظ مرادف له؛ لذلك جاء في الفرق بين الريب والشك أنَّ الارتياب شك مع تهمة، ولهذا نقول: إني شاك في المطر اليوم، ولا يجوز أن نقول: إني مرتاب اليوم بالمطر، ونقول: إني مرتاب بفلان: إذا شككت في أمره واتهمته.

قال آخر[4]: ومثله تعريف (نفد) بـ (فني)، فلا يعني هذا أنَّ الفناء هوالنفاد بعينه، بل هولفظ مرادف له؛ لذلك جاء في الفرق بين الفناء والنفاد، أنَّ النفاد هو فناء آخر الشيء بعد فناء أوله، ولا يستعمل النفاد فيما يفنى جملة، ولهذا نقول: فناء العالم، ولا يقال: نفاد العالم، ويقال: نفاد الزاد ونفاد الطعام؛ لأنَّ ذلك يفنى شيئًا فشيئًا.

قال آخر[5]: ومثله تعريف (الغفر) بـ (الستر)، فهذا لا يعني أنَّ الستر هوالغفر والغفران نفسه، بل هولفظ مرادف له؛ لذلك جاء في الفرق بين الغفران والستر، أنَّ الغفران

---

(1) مقاييس اللغة ص ٥٥٣.
(2) الفروق اللغوية للعسكري ص ٥٣.
(3) الفروق اللغوية للعسكري ص ٥٣.
(4) الفروق اللغوية للعسكري ص ١٢٠.
(5) الفروق اللغوية للعسكري ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

أخص، وهو يقتضي إيجاب الثواب.. والستر ستر الشيء بستر.. وستر الله عليه خلاف فضحه، ولا يقال لمن ستر عليه في الدنيا، إنَّه غفر له؛ لأنَّ الغفران ينبئ عن استحقاق الثواب.. ويجوز أن يستر في الدنيا على الكافر والفاسق.

قال آخر: ومثله تعريف (اللسان) بـ (اللغة)، ذلك أننا لو عدنا للقرآن الكريم لوجدنا فرقا كبيرا بينهما.. فاللسان في لغة القرآن، هو العنوان الأثير في الدلالة على البيان الإنساني بكافة شُعَبِهِ ومستوياته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]

قال آخر: أما (اللغة)، فهي مشتقة من (لغا يلغو)؛ وقد استعملها القرآن الكريم للدلالة على الثرثرة والبذاءة ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وغيرها من الآيات الكريمة.

قال آخر[1]: ومثله تعريف (الشح) بـ (البخل)، فهو غير صحيح، ذلك أن الشح هو البخل الشديد، وهو الحرص على منع الخير، ولو كان من الغير، والبخل منع الحق فلا يؤدي البخيل حق غيره عليه، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فإذا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فإذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩]

قال آخر[2]: ومثله تعريف (البخل) بـ (الضن)، فهو غير صحيح، ذلك أن الضن أصله أن يكون بالعواري، والبخل بالهبات، ولهذا يقال هو ضنينٌ بعلمه، ولا يقال بخيلٌ، لأن العلم بالعارية أشبه منه بالهبة، لأن الواهب إذا وهب شيئا خرج عن ملكه بخلاف العارية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]﴾. ولم يقل: ببخيل.

قال آخر: ومثله تعريف (العام) بـ (السنة)، فهو غير صحيح، ذلك أن العام يطلق على الدعة والرخاء، والسنة تطلق على الشدة والكرب والضيق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، فمدة دعوة نوح عليه السلام اشتملت على مشقة في الدعوة وشدة بسبب

---

(١) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ١٧٦)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٨)

عناد قوم نوح وسخريتهم واستهزائهم بنوح عليه السلام، وما استراح نوح عليه السلام إلا بعد أن طهر الله تعالى الأرض من رجزهم.

قال آخر: ومثله أو قريب منه قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩]، فوصف السنين بأنهن شدادٌ، ووصف العام بالرخاء وأنه: فيه يغاث الناس أي يأتيهم الغوث وفيه يعصرون من الرخاء والخير والبركة.

قال آخر: ومثله عدم التفريق بين (مد) و(أمد)، فهو غير صحيح، ذلك أن لفظ (أمد) ذكر في حق المؤمنين غالبا، وجاء في المحبوب، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]، وذكر لفظ (مد) في حق غير المؤمنين، وفي المكروه، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]

قال آخر: ومثله عدم التفريق بين (العمل والفعل)، فالأول يدل على التريث والتمهل في الشيء، والثاني يدل على السرعة.. والعمل يشتمل على القول والفعل معا.. والأول لما كان من امتداد زمان، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١] ؛ لأن خلق الأنعام والثمار والزروع بامتداد.. والثاني بخلافه نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وقوله: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] لأنها إهلاكاتٌ وقعت من غير بطء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ

مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] أي في طرفة عين.

قال آخر: ولهذا عبر بالأول في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]، وغيرها، لأن المقصود المثابرة عليها، لا الإتيان بها مرة أو بسرعة.. وعبر بالثاني في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، حيث كان بمعنى سارعوا كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، لأن القصد يأتون بها على سرعة من غير توان.

قال آخر[١]: ومثله عدم التفريق بين (القعود والجلوس)، فالأول لما فيه لبثٌ، بخلاف الثاني، ولهذا يقال: قواعد البيت، ولا يقال: جوالسه للزومها ولبثها، ويقال: جليس الملك ولا يقال: قعيده لأن مجالس الملوك يستحب فيها التخفيف.. ولهذا ورد في الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] للإشارة إلى أنه لا زوال له بخلاف قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]

قال آخر[٢]: ومثله عدم التفريق بين (بلى ونعم)؛ فإن بلى تأتي جوابا لاستفهام مقترن بنفي، كقول القائل لغيره: ألم أحسن إليك؟ فيقول صاحبه: بلى؛ فيكون إقرارا بإحسانه، ولو قال: نعم، كان إنكارا لقوله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٦٦)

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٦٦)

عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ويروى عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: (لو قالوا نعم لكفروا)[1]

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]

قال آخر[2]: وقد علل بعضهم ذلك بقوله: إنما صارت بلى تتصل بالجحد لأنها رجوعٌ عن الجحد إلى التحقيق، فهو بمنزلة بل، وبل سبيلها أن تأتي بعد الجحد كقولك: ما قام أخوك بل أبوك، وإذا قال الرجل للرجل ألا تقوم؟ فقال له: بلى، أراد: بل أقوم، فزادوا الألف على بل ليحسن السكوت عليها، لأنه لو قال بل كان يتوقع كلاما بعد بل، فزادوا الألف ليزول عن المخاطب هذا التوهم.

قال أحد أعضاء اللجنة: ما دمتم قد رأيتم هذا؛ فما تقولون لمن يعزو سبب الترادف إلى اختلاف لهجات العرب، وأن القرآن الكريم راعاها، ولذلك استعمل المفردات، حتى يفهم جميع العرب.. وقد عبر عن ذلك بقوله: (إن خفاء الواضعين حين لم يمنع اشتهار الوضعين قد زاد من ثروة اللغة المثالية حتما.. وعلى هذا الأساس نقرّ بوجود الترادف في القرآن الكريم، لأنه نزل بلغة قريش المثالية، يجري على أساليبها وطرق تعبيرها، وقد أتاح لهذه اللغة طول احتكاكها باللهجات العربية الأخرى باقتباس مفردات تمتلك أحيانا نظائرها)[3]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣١٢)

(٢) تاج العروس (٣٧/ ٢١٣)

(٣) مباحث في علوم القرآن، صبحي، ١٩٦٢.

قال أحدهم: إن قوله هذا يجعل القرآن الكريم مرتبطا بتلك البيئة التي نزل فيها.. وهو أعظم من أن يكون كذلك.. ولذلك كان الأجدى هو البحث في اللغة نفسها عن سر الاختلاف، لا القعود عنه، والاكتفاء بالقول بالترادف.

قال آخر: بالإضافة إلى أن قوله هذا قد يؤدي إلى اعتبار بعض القرآن الكريم بليغا فصيحا.. وبعضه الآخر ليس كذلك، لكونه راعى القبائل التي لا تملك تلك الفصاحة والبلاغة.

قال أحد أعضاء اللجنة: والآن سنختم أسئلتنا في باب الترادف حول كلمة الحمد، الواردة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وغيرها من الآيات الكريمة.. ولِمَ لم تستبدل بكلمة المدح أو غيرها من الكلمات؟

قال أحدهم[١]: ﴿الْحَمْدُ﴾ في اللغة هو الثناءُ على الجميل من نعمةٍ أو غيرها، مع المحبة والإجلال.. أو هو أنْ تذكر محاسنَ الغير، سواء كان ذلك الذكر على صفةٍ من صفاتهِ الذاتية كالعلم والصبر والرحمة والشجاعة، أم على عطائه وتَفضُّلِهِ على الآخرين.. وهو لا يكون إلا للحَيِّ العاقل.. ولهذا، فإن هناك فروقا كثيرة بين الحمد والمدح.. منها أننا قد نمدح جماداً، أو حيواناً ولكن لا نحمده، وقد عبر بعضهم عن هذا بقوله: (إن المدحَ قد يحصل للحي ولغير الحي، ألا ترى أن مَنْ رأى لؤلؤة في غاية الحُسْنِ أو ياقوتة في غاية الحسن فإنه قد يمدحها ويستحيل أن يحمدها فثبت أنَّ المدح أَعمُّ من الحمد)

قال آخر[٢]: ومنها أن المدحَ قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكونُ إلا بعد الإحسان.

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١١)

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١١)

قال آخر[1]: ومنها أن الحمد يكون لما هو حاصلٌ من المحاسن في الصفات، أو الفعل، فلا يُحمَدُ مَنْ ليس في صفاته ما يستحق الحمد، ولا يُحمَدُ مَنْ لم يفعل جميلاً، أما المدح، فقد يكون قبل ذلك، فقد تمدح إنساناً ولم يفعل شيئاً من المحاسن والجميل، ولذا كان المدح مَنْهياً عنه، بخلاف الحمد، فإنه مأمورٌ به.

قال آخر[2]: ولهذا، فإن في قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شهادة بأن الله حَيٌّ، له الصفات الحسنى والفعل الجميل.. وبذلك فإن قائل هذه الكلمة يحمد الله على صفاته، وعلى فِعْلِه وإنعامه.. بخلاف ما لو قال: (المدح لله)، فإنه يفيد شيئاً من ذلك.

قال آخر[3]: بالإضافة إلى هذا؛ فإنَّ في الحمد تعظيماً وإجلالاً ومحبة، وهو ما لا يوجد في المدح.. ولهذا كان اختيار (الحمد) أولى من اختيار (المدح)

قال أحد أعضاء اللجنة: فلم اختار كلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بدل [الشكر لله]؟

قال أحدهم[4]: لأن الحمد يعمُّ ما إذا وصل ذلك الإنعامُ إليكَ أو إلى غيرك، وأما الشكر، فهو مختصٌّ بالإنعام الواصل إليك.. فأنتَ تشكر الشخص إذا أوصلَ إليك نعمةً، وأما الحمدُ فإنه لا يختص بذاك، فإنك تحمدهُ على إنعامه لك، أو لغيرك.

قال آخر[5]: بالإضافة إلى أنَّ الشكرَ لا يكون إلا على النعمة، ولا يكون على صفات المشكور الذاتية، فإنك لا تشكرُ الشخصَ على عِلْمِه، أو على قدرته وقد تحمده على ذاك.

قال آخر[6]: ولهذا كان اختيار الحمد أولى من الشكر، لأنه أعَمُّ، فإنك تُثني على المحمود بنعمه الواصلة إليك، وإلى الخلق أجمعين، وتثني عليه بصفاته الحسنى الذاتية، وإن لم يتعلق شيء منها بك.. فكان اختيار (الحمد) أولى من المدح والشكر.

---

(1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١١)

(2) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١١)

(3) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١١)

(4) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٢)

(5) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٢)

(6) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٢)

قال عضو اللجنة: فلم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.. ولم يقل: (أحمدُ الله)، أو(نَحمدُ الله)؟

قال أحدهم[1]: لأن قولنا (أحمدُ الله)، أو(نَحمدُ الله) مختصٌّ بفاعل معين.. ففاعل (أحمد) هو المتكلم، وفاعل: (نحمد) هم المتكلمون، في حين أن عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مطلقة لا تختصُّ بفاعلٍ معين وهذا أولى، لأنك إذا قلت: (أَحمدُ الله) أخبرت عن حمدك أنتَ وحدك، ولم تُفِدْ أن غيركَ حَمِدهُ، وإذا قلت: نحمد الله، أخبرت عن المتكلمين ولم تفد أن غيركم حمده، في حين أن عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا تختص بفاعل معين فهو المحمودُ على وجه الإطلاقِ، منكَ ومِنْ غيركَ.

قال آخر[2]: بالإضافة إلى أنك إذا قلت: (أحمدُ فلاناً)، فإن هذا لا يعني أنه يستحقُّ الحمدَ؛ فقد تُثني على شخصٍ لا يستحقُّ الثناء، وقد يهجو شخصٌ شخصاً، وهو لا يستحق الهجو، ذلك أن الشخص قد يضع المدح في غير موضعه، ويضع الهجو في غير موضعه، ويفعل أفعالاً لا ينبغي أن يفعلها، فأنتَ إذا قلت: أحمدُ الله، أخبرتَ عن فعلك، ولا يعني ذلك أنَّ مَنْ تحمده يستحقُّ الحمد في حين أنك إذا قلت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أفاد ذلك استحقاق الله للحمد وليس ذلك مرتبطاً بفاعلٍ معين.

قال آخر[3]: بالإضافة إلى أن قولك: (أحمد الله)، أو: (نحمد الله)، مرتبطٌ بزمن معين، لأن الفِعْلَ له دلالة زمنية معينة، فالفعل المضارع يدل على الحال، أو الاستقبال، ومعنى ذلك أن الحمد لا يحدث في غير هذا الزمان الذي تحمده فيه.. ولا شك أن الزمن الذي يستطيع الشخص أو الأشخاص الحمدَ فيه محدود، وهكذا كلُّ فِعْلٍ يقوم به الشخصُ محدود الزمن، فإن أقصى ما يستطيع أن يفعله، أن يكون مرتبطاً بعمره، ولا يكون قبل ذاك

---

(1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٣)

(2) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٣)

(3) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٤)

وبعده فِعْلٌ فيكون الحمد أقل مما ينبغي، فإنَّ حمدَ الله لا ينبغي أن ينقطع ولا يُحَدَّ بفاعل، أو بزمان في حين أن عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مُطلقة غير مقيدة بزمن معين، ولا بفاعل معين، فالحمد فيها مستمرٌّ غير منقطع.

قال آخر[1]: بالإضافة إلى أنه لو قال شخص: (أحمدُ الله)، فإن ذلك يفيد كون القائل قادراً على حمده، أما قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فإن ذلك يفيد محموداً قبلَ حمدِ الحامدين، وقبلَ شُكْرِ الشاكرين.. فهؤلاء سواء حمدوا، أم لم يحمدوا، وسواء شكروا أو لم يشكروا، فهو تعالى محمودٌ من الأزل إلى الأبد بحمده القديم وكلامه القديم.

قال آخر[2]: بالإضافة إلى أن عبارة (أحمد الله)، جملة فعلية، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملة اسمية.. والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدد، في حين أن الجملة الاسمية دالة على الثبوت.. وبذلك فإنها أقوى وأدوم من الفعلية، فـ (متبصّر)، أقوى وأثبت من (يتبصّر)، و(مثقف)، أقوى وأثبت من (يتثقف)، و(متدرب) أقوى وأثبت من (يتدرب)، فاختيار الجملة الاسمية أوْلى من اختيار الجملة الفعلية ههنا، إذ هو أدلُّ على ثبات الحمد واستمراره.

قال آخر[3]: بالإضافة إلى أن قولنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعني أن الحمد والثناء حقٌّ لله وملكه فإنه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه وأنواع آلائه على العباد.. بخلاف قولنا: (أحمد الله)؛ فإنها لا تدلّ على كونه مستحقاً للحمد لذاته.. ذلك أنَّ اللفظ الدال على كونه مستحقاً للحمد أولى من اللفظ الدال على أن شخصاً واحداً حمده.

قال آخر[4]: بالإضافة إلى أن الحمدَ عبارة عن صفة القلب، وهي اعتقاد كون ذلك المحمود مُتفضِّلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال؛ فإذا تَلَفَّظَ الإنسان بقوله: (أحمدُ الله)،

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٣)

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٣)

(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٣)

(٤) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، (ص ١٣)

مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائقِ بجلال الله، كان كاذباً لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً مع أنه ليس كذلك؛ أما إذا قال: ﴿الْحَمْدُ للهِّ﴾، فإن كلامه صحيح، سواء كان غافلاً أو مستحضراً لمعنى التعظيم، لأنه يكونُ صادقاً، لأن معناه: أن الحمد حقٌّ لله، وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم والإجلال، أو لم يكن، ونظيره قولنا: (لا إله إلا الله)، فإنه لا يَدْخلُه التكذيبُ بخلاف قولنا: (أشهدُ أن لا إله إلا الله)، لأنه قد يكون كاذباً في قوله: (أشهد) ولهذا قال تعالى في تكذيب المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَاللهُّ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُّ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]

٣. التشابه والاختلاف:

قال أحد أعضاء اللجنة: بورك فيكم جميعا، وفي حفظكم وتحقيقكم.. وما ذكرتموه يتطلب منا أن نسألكم عن أسرار التشابه والاختلاف في القرآن الكريم.. وأول سؤال عن تشابه بعض الكلمات في القرآن الكريم، والتي لا تختلف فيما بينها إلا في مواطن ضئيلة جدا.. وذلك مثل لفظ (مكة) و(بكة) الذي استعمل في القرآن الكريم للدلالة على المكان المعروف؟

قال أحدهم: هو نفس ما نقوله في غيرها.. فالتشابه لا يفيد فائدة جديدة، وهو يتنافى مع الثراء والغنى القرآني.. ولهذا؛ فإن التأمل في الموارد التي وردت فيها كل كلمة تنبئ عن وجه الاختلاف بينها وبين أختها.

قال آخر[1]: وما ذكرته أحسن مثال على ذلك.. فالله تعالى استعمل لفظ (بكة) بالباء في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٤٩.

إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَللهِّ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، لأن الآية في سياق الحج: ﴿وَللهِّ عَلَى الناس حِجُّ البيت﴾ [آل عمران: ٩٧]، فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البَكِّ) الدال على الزحام لأنه في الحج يبكّ الناسُ بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها.

قال آخر(١): في حين استعمل لفظ (مكة) بالميم لأنه الاسم المشهور لها في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، لأن السياق لم يدل على ذلك، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾ و﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سوء فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ [النساء: ١٤٩]، وقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٤]؟

قال أحدهم(٢): سبب ذلك هو أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى: ﴿لاَّ يُحِبُّ الله الجهر بالسوء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] فذكرت أنّ الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾ [النساء: ١٤٩] أي: إن تُظهروا خيراً، هو عكس الجهر بالسوء؛ فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير.. وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها: ﴿والله يَعْلَمُ مَا فِي قلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]، وقال: ﴿وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٤].. ومعنى الآية إنه يستوي عنده السر

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٤٩.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٤٩.

والجهر، فناسبَ أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [الأحزاب: ٥٤] لا أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾ [النساء: ١٤٩]

قال آخر(١): بالإضافة إلى أن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها، ذلك أن كلمة (خير) ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة ولم ترد في سورة الأحزاب إلا مرتين.. وكلمة (شيء) ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة وترددت في سورة الأحزاب ست مرات، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار كلمة (خير) لآية النساء وكلمة (شيء) لآية الأحزاب.. فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين: جهة المعنى والسياق، وجهة اللفظ.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿أَشَدُّ مِنَ القتل﴾ و﴿والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فقد قال في الأولى: (أشد) وفي الثانية: (أكبر)؟

قال أحدهم(٢): ذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبيرات الأمور فقد مر فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] فناسب ذكر (أكبر) فيها، بخلاف الآية الأولى، فقد وردت في سياق الشدة على الكافرين، فقد قال الله تعالى فيها: ﴿واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٠.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥١.

أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل﴾ [البقرة: ١٩١]، وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر ﴿أشد﴾

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين كلمة ﴿أجر﴾ في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [هود: ٢٩]، وكلمة ﴿مال﴾ في سورة يونس على لسان نوح عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [يونس: ٧٢]، وجاء على لسانه في سورة الشعراء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].. وهكذا وردت كلمة (أجر) بدل كلمة (مال) على لسان غيره من الأنبياء عليهم السلام في (سورة هود ٥١ وسورة الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وسورة سبأ ٤٧)؟

قال أحدهم[1]: ذلك لأنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة ﴿مال﴾ وقعت بعدها كلمة ﴿خزائن﴾ ولفظ المال بالخزائن أليق، فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ﴾ [هود: ٣١] فناسب ذلك المال ههنا، بخلاف المواضع الأخرى.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٤]، وقوله: ﴿وَلِلهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٧].. فقد قال في الأولى: ﴿عَلِيماً حَكِيماً﴾، وفي الثانية: ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٧]؟

قال أحدهم[2]: لأن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً، فقد قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلهِ جُنُودُ

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥١.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٢.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، فهذا موضع عِلْمٍ وحكمة فقال: ﴿عَلِيماً حَكِيماً﴾.. وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات، فقد جاءت بعد قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٦-٧]

قال آخر: ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩].. فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال: ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾، و﴿أَوَلَمْ يعلموا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]؟

قال أحدهم(١): لأن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات، وفي الزمر ست مرات.. ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة وفي الروم عشر مرات، فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.. بالإضافة إلى أن الله تعالى ذكر فاقدي البصر في سورة الروم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٣]، وذكر فاقدي العلم في سورة الزمر فقال: ﴿قُلْ

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٣.

أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإذا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فقد قال في النمل: ﴿فَفَزِعَ﴾، وفي الزمر ﴿فَصَعِقَ﴾

قال أحدهم[1]: إنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فإن ذلك في مقابل الصعقة.. في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وهو المناسب للفزع، إذ معنى داخرين: صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

قال آخر: بالإضافة إلى أنه جاء بعد آية النمل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، فآمنهم من الفزع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

قال آخر: بالإضافة إلى تناسق ختام السورة مع أولها وما ورد فيها من فزع في قصة موسى عليه السلام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ياموسى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون﴾ [النمل: ١٠]

قال آخر: وهكذا ناسب ذكر الصعقة في الزمر قوله تعالى في نفس السورة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٣.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿هَامِدَةً﴾ و﴿خَاشِعَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فإذا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فإذا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٧-٣٩]

قال أحدهم(١): التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في ﴿هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥] و﴿خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩].. ففي السياق الأول نرى جو بعث وإحياء وإخراج، مما يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربوا وتُنبت من كل زوج بهيج.. والجو في السياق الثاني جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة؛ فإذا أُنزلَ عليها الماءُ اهتزت وربت، ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك، لأنه لا محلَّ لهما في جو العبادة والسجود.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٥.

[الزخرف: ٦-٧]، حيث قال في آية الحجر: ﴿من رسول﴾ وقال في آية الزخرف: ﴿من نبي﴾؟

قال أحدهم(١): لأنه لما تقدم في آية الزخرف لفظ ﴿كم﴾ الخبرية، وهي للتكثير ناسب ذلك من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل؛ فورد هنا ما يعم الصنفين.. أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التكثير، مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخُصت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له بما جرى للرسل عليهم السلام قبله، ومن البيّن أن موقع ﴿رسول﴾ هنا أمكن في تسليته ﷺ، فجاء كل على ما يجب من المناسبة.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧-٨]، وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، حيث قال في (غافر) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ﴾، وقال في الشورى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض﴾

قال أحدهم(٢): لأن في آية غافر ذكر جماعة مخصوصة من الملائكة وهم ﴿حَمَلَةُ العرش ومن حوله﴾، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة، فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

قال آخر: إضافة إلى أنه لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال:

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٥.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٦

﴿ويؤمنون به﴾ ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

قال آخر: إضافة إلى أنّ قوله: ﴿فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ﴾ يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

قال آخر[1]: إضافة إلى أنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.

قال آخر: أما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقَيِّدُ هذا العموم.

قال آخر: ثم إنه لما ختم الآية بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥] ناسب ذكر هاتين الصفتين وقَصْرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فقيل في الأولى: ﴿من أنفسهم﴾ وفي الثانية: ﴿منهم﴾

قال أحدهم[2]: لأن قولك: (فلان من أنفس القوم) أوقع في القرب والخصوص من قولك (فلان منهم)؛ فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة، أما (من أنفسهم) فأخصُّ فلا يفتقر إلى قرينه.. لذلك حيث ورد قصد التعريف

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٦

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٨

بعظم النعمة به ﷺ وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم ذكر ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال فيمن كان على النّدّ من حال المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٣]، ذلك أنه لما قصد أنه إنعام عليهم، لكن لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة قيل (منهم)

قال آخر: إضافة إلى أن لفظ الأميين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب، فقيل: ﴿منهم﴾، فناسبت هذه الآية بما فيها من الشياع عموم الأميين من العرب ممن أسلم وممن لم يسلم، ولما قال في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين﴾ فَخَصَّ مَنْ أسلمَ ناسب ذلك قوله: (من أنفسهم) بخصوصه، ولم يكن العكس ليناسب.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، حيث قال في الآية الأولى: ﴿عن مواضعه﴾ وفي الثانية: ﴿من بعد مواضعه﴾؟

قال أحدهم(١): لأن الكلام في الآية الأولى على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً، فقد قال في الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ فَبِمَا نَقْضِهِمْ

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٥٩.

مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٢-١٣].. وقال في الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، فجاء في الثانية بكلمة ﴿بعد﴾ لأنها قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمنة كثيرة، وبزمن واحد، وجاء بـ (عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه.. وجاء في الأولى بـ (عن) لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥]، وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦]، فقد ذكر ﴿سوف﴾ في آية الأنعام، وذكر السين في آية الشعراء.. وذكر ﴿الحق﴾ في آية الأنعام، ولم يذكره في آية الشعراء؟

قال أحدهم(١): أما ذكر ﴿الحق﴾ في آية الأنعام فإنه تردّد في هذه السورة اثنتي عشر مرة، ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء؛ فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء، إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.. وأما ذكر ﴿سوف﴾ في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن ﴿سوف﴾ أبعد في الاستقبال من السين.

قال آخر(٢): ومن أسباب وضع كل من سوف والسين موضعها أن المُعنِيين في سورة

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٠.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٠.

الشعراء هم قوم رسول الله ﷺ خاصة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣-٤].. أما ما ورد في سورة الأنعام فلعموم الكافرين، كما قال تعالى في أولها: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا رسول الله ﷺ وكذبوه قبل الأباعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.

قال آخر: إضافة إلى ما في السورة من تسلية للرسول ﷺ فقد قال له: لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عليك الأمر.. فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

قال آخر[1]: إضافة إلى أنه ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا، فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

قال آخر[2]: إضافة إلى أن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء، فقد أمر رسول الله ﷺ في سورة الأنعام أن يقول إنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨]، فناسب عدم الاستعجال ذكر (سوف) هنا.

قال آخر: إضافة إلى أنه قال في موطن آخر في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦١.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٢.

وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فقد ذكر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة.

قال آخر(١): إضافة إلى أنه قال في ختام سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإنّ واللام، وأكد سرعة العقاب بإنّ وحدها، كما أنه لم يؤكدها في سورة الأعراف مثلاً فقد قال فيها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] فأكد سرعة العقاب بإنّ واللام، وذلك لما كان المواطن في الأعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.

قال آخر: إضافة إلى أنه قوله تعالى في محل آخر من سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، فقد جاء بـ (ثم) الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

قال آخر(٢): إضافة إلى أنه يقتضيها السياق لسورة الأنعام، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء، فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين﴾، وختمت آية النمل بقوله: ﴿فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين﴾، والْمُكَذِّبُ قد تُعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم؛ فإن المجرم ينبغي أن يُؤخذَ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء في ﴿المكذبين﴾ بثم ومع ﴿المجرمين﴾ بالفاء، فاقتضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٣.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٤.

قال آخر[1]: إضافة إلى أن التكذيب والسخرية في سورة النمل أكبر مما في سورة الأنعام، فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٦-٦٨]، ثم جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، ثم صبَّرَ الرسول ﷺ بعدها بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

قال آخر[2]: إضافة إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] بخلاف قوله تعالى في الأنعام: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فناسب كل ذلك ذكر (ثم) في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل، لأن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر (سوف) فيها بخلاف آية الشعراء.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين التعريف والتنكير في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهَّ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهَّ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].. حيث عرَّفَ ﴿الحق﴾ في الأولى ونكَّرهُ في الثانية؟

قال أحدهم[3]: لأن كلمة ﴿الحق﴾ المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.. وأما

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٤.
(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٥.
(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٦.

النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً، لا حَقَّ يدعو إلى قتل ولا غيره، أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم.

قال آخر: فكلمة (حق) ههنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرّفة معلومة، والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره؛ فمقام التشنيع والذم ههنا أكبر منه ثَمَّ وكلاهما شنيع وذميم.

قال آخر: ولذلك ورد التنكير في مقام الزيادة في ذمهم، كما يدل على سياق كل من الآيتين، فقد قال تعالى في الأولى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، فعرّف (الحق) فيها.. وقال في الثانية: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فَنَكَّرَ (الحق)

قال آخر(١): إضافة إلى أنه من الواضح أن موطن الذم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة، فقد ورد في سورة البقرة جمع (الذلة) و(المسكنة) وأما في آي آل عمران فقد أكد وكرر وعمم، فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا﴾ [آل عمران: ١١٢]، فجعلها عامة بقوله: ﴿أينما ثقفوا﴾، ثم قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة﴾ [آل عمران: ١١٢]، فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك: (أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) آكد مِنْ قولك (أنهاك عن الكبر والرياء).. ثم إنه ذكر الجمع

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٧.

في آية البقرة بصورة القلة فقال: ﴿ويقتلون النبيين﴾ وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: ﴿ويقتلون الأنبياء﴾ أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق.. فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد، ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتنكير في آية آل عمران أليق.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين تعريف كلمة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وتنكيرها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]

قال أحدهم[(١)]: لأن الآية الأولى تذكر أنه (لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهم بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده).. وأما الثانية، فتذكر أنه (لا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود).. فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يُعرف في الدين جوازه وهوبعض ما لهن أن يفعلنه، ولهذا المعنى خُصَّ بلفظ (من) ونُكِّرَ.

قال آخر: ومما يدل على ذلك أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فقوله: ﴿يتربصن﴾ معناه: يُصَبِّرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٦٨.

الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين تعريف كلمة ﴿الكذب﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤] بينما نكره في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢-٩٣]

قال أحدهم[(١)]: جاء بـ ﴿الكذب﴾ مُعَرَّفاً في الآية الأولى لأنه مخصص بمسألة الطعام، ومثله قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٦٩]، فعرف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه.. ومثله قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، فعرف الكذب لأنه مخصص بمسألة الأنعام.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٠.

قال آخر[1]: وجاء بـ ﴿كَذِباً﴾ منكرة في الآية الثانية، لأنه عام، ولم يخصص بمسألة معينة.. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٦-١٧].. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨]

قال آخر[2]: وهكذا نرى التعريف والتنكير في غير هذا.. فالقرآن الكريم يستعمل المعرف لأمر مخصص، في حين يستعمل المنكّر لما هو عام.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]﴾ [المؤمنون: ٤١] بتعريف ﴿القوم﴾.. وقوله: ﴿فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] بتنكر ﴿قوم﴾، وذلك لأن الأولى في قوم معينين، وهم قوم صالح عليه السلام فعرّفهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].. وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ [لمؤمنون: ٤٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، فخصهم بالنكرة.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين التعريف والتنكير في اسمي الله تعالى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في قوله: ﴿وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فقد وردا في سورة الأعراف منكّرين، ووردا في سورة فصلت

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٠.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧١.

معرّفين وزيد قبلهما ضمير الفصل؟

قال أحدهم[1]: وصف الله تعالى نفسه بالسمع والعلم معرّفا في سورة الأعراف مقابل آلهتهم التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة، قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥]

قال آخر[2]: أما في سورة فصلت فقد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]، وهو في خطاب من أثبتوا لله سبحانه قليلَ العلم ونفوا عنه كثيره، فاقتضى ذلك أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل، والسمع الكامل، فجاء بالصفتين معرّفتين للدلالة على الكمال في الوصف، وجاء بضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن ما عداه لا يعلم ولا يسمع إذا ما قيس بعلمه وسمعه، ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدا هذا المعنى، إذ كل مَنْ عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في سر الاختلاف في أداة التعريف في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فقد عرف (الطغيان) بالإضافة، و(الغيّ)

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٢.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٢.

بأل؟

قال أحدهم[1]: لأنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، فالله إنما يمدهم في طغيانهم هم، ولا يمدهم في طغيان جديد لم يفعلوه، في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين؛ فذكر أنهم يمدونهم في غيٍّ جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غيّاً إلى غيهم.

قال أحد أعضاء اللجنة: من المعلوم أن القرآن الكريم يستعمل حروف العطف في غاية الدقة والجمال، فـ (الواو) تأتي لمطلق الجمع، و(الفاء) تفيد الترتيب والتعقيب، و(ثم) تفيد الترتيب والتراخي.. فاذكروا لي أمثلة عن ذلك مع تفسيرها وبيان أسرارها.

قال أحدهم[2]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢١-٢٢].. فقد جاء في ﴿أقبره﴾ بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة، وجاء بعده بـ (ثم) لأن النشور يتأخر عن الدفن.

قال آخر[3]: ومثله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].. فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بثم، لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخي، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت.

قال آخر[4]: ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]، فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٣.
(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٣.
(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٤.
(٤) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٤.

للخلق، وكان العطف في الآية الرابعة بـ (ثم) لتراخي الإحياء عن الإماتة.. وأما الفاء في قوله: ﴿فهو يَشفينِ﴾ فهي رابطة للجواب، وليست عاطفة.

قال آخر[1]: ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، لأنه يحتاج إلى خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر.. بخلاف ما يحصل بعد البعث، ولهذا قال تعالى فيه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، ففي الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا: ثم.

قال أحد أعضاء اللجنة: بورك فيكم.. فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿أفلم﴾ بالفاء، و﴿أولم﴾ بالواو في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى﴾ [طه: ١٢٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]؟

قال أحدهم[2]: لأنه ذكر في سورة طه عقوبات الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى﴾ [طه: ١٢٤]، وقال: ﴿وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى﴾ [طه: ١٢٧]، فذكر المعيشة الضنك في الدنيا، ثم قال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى﴾، وقال: ﴿وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده: ﴿وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى﴾

قال آخر: بخلاف ما في سورة السجدة، فإنه أَخَّرَ الأمرَ إلى يوم القيامة، فقد قال قبل

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٤.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٥.

هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]. فجاء بالفاء في (طه) لأنها تفيد التعقيب، وجاء الواو في السجدة.

قال آخر: وهكذا نجد من الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]) وفي طه: ﴿قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [طه: ١٢٨] بدون (من)، وذلك لأنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه فقال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠-١١]، فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في (طه) فإنه ذكر قوم موسى عليه السلام وأحوالهم، وهم قبل الرسول عليه السلام بمدة طويلة وليسوا من قبله.

قال آخر: ويدل لذلك أنه ختم آية السجدة بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وذلك لأنهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإنّ خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع بخلاف الأقدمين.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٥٨]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا..﴾ [هود: ٩٤]، حيث جاء العطف في هاتين القصتين بالواو، في حين قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦]، وقال في قصة لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، فقد عطف بالفاء؟

قال أحدهم[1]: لأن العذاب في قصة هود وشعيب عليهما السلام تأخر عن وقت الوعيد؛ فقد قال تعالى في قصة هود عليه السلام: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٧.

إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، وقال في قصة شعيب عليه السلام: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، وقد قارن التخويف التسويف، ولذلك جاء بالواو.. بينما وقع العذاب على قوم صالح ولوط عليهما السلام عقيب الوعيد فلذلك جاء بالفاء للتعجيل والتعقيب، كما قال تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال وفي قصة لوط عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، و﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]؟

قال أحدهم[1]: لأن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكير، ويدل على ذلك قوله تعالى في آية الكهف: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيءَاذَانِهِمْ وَقْراً﴾ [الكهف: ٥٧]، وهذا الوصف مما يسرع في إعراضهم، ثم قال فيما بعد: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، فذكر صَمَهم وبُعْدَهم عن الهدى، بخلاف آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الفاء في آية الكهف لدلالتها على الترتيب والتعقيب، و(ثم) في آية السجدة لدلالتها على التراخي.

قال آخر: بالإضافة إلى أن الفاء قد تدل على السبب، فلذا جاء بالفاء للدلالة على أن التذكير قد صار بالنسبة لهم سبباً للإعراض وزيادة الرجس، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الذين فِي

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٨.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا﴾ [النمل: ٥٦].. فهاتان الآيتان في قوم لوط عليه السلام، فلم جاء في آية الأعراف بالواو، وجاء في آية النمل بالفاء؟

قال أحدهم[1]: لأن سياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر، فمقام الإنكار والتقريع في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، فقد قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٢]، وقال في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٦]

قال آخر: ويدل لذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال﴾ [الأعراف: ٨١]، وفي النمل: (أإنكم) بإخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ.

قال آخر: ومثل ذلك قوله في الأعراف: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وفي النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، والوصف بالجهل فيه زيادة تقريع، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يتريثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٧٨.

قال آخر: ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل ﴿أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] بخلاف ما في الأعراف فقد جاؤوا بالضمير: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢]

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين حروف النفي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين﴾ [الجمعة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين﴾ [البقرة: ٩٥]

قال أحدهم[1]:نفى التمني في الآية الأولى بـ (لا) فقال: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ﴾ [الجمعة: ٧] ونفاه في الثانية بـ (لن) فقال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] لأن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك، فقد قال تعالى في السورة الأولى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦-٧]، بينما قال في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، فالفرق واضح بين السياقين، لأن الكلام في الآية الثانية على الآخرة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤] والدار الآخرة استقبال، فنفى بـ (لن) إذ هو حرف خاص بالاستقبال.. وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لا يختص بزمن دون زمن: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، فهو أمر مطلق فنفى بـ (لا) وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم.

قال آخر: بالإضافة إلى ذلك؛ فإنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمن نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٨٠.

للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناظر فني جميل.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه العدول عن التعدية باللام إلى التعدية بـ (على) في قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، حيث عدّى (أذلّة) بـ (على) والأصل أن يعدى باللام لانه يقال: (هو ذليل له)، ولا يقال: (ذليل عليه)؟

قال أحدهم[١]: لأن المعنى يقتضي ذاك، إذ لو عداه باللام لكان ذماً لا مدحاً، فقولك: (هو ذليل له) يفيد الذم، وهو ههنا في مقام المدح، فجاء بـ (على) للإشعار بالذلة المستعلية وللدلالة على خفض الجناح، كما قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، أي: هم يوطئون أكنافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ (على) للإشعار بالعلو بخلاف ما لو قال (أذلّة للمؤمنين)

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، حيث استعمل مع الهداية حرف الاستعلاء (على) ومع الضلال (في)؟

قال أحدهم[٢]: لأن من كان على الهدى كأنه مستعلٍ على الحق متمكن منه متثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها، والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، فالواقف على الطريق ليس كالساقط في اللجة؟ فالأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي، قال تعالى:

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٨٠.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٨٢.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، فاستعمل للهدى (على) في حين قال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] وقال: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] وقال: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمان مَدّاً﴾ [مريم: ٧٥] أي: ساقطاً فيها.

قال أحد أعضاء اللجنة: إن هذا يحتاج إلى زيادة توضيح.. فكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

قال أحدهم[١]: لأن علوه بالحق والهدى دليل على ثباته عليه واستقامته إليه، فكان الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدال على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].. وقوله: ﴿والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات﴾ [الأنعام: ٣٩].. وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]

قال آخر: بالإضافة إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] يدل على أن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل السافلين.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما سر استعمال حرف الجر (على) بدل (من) في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]؟

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٢٨٣.

قال أحدهم[1]: لأنه متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم فيهم، أي: تسلطوا عليهم بالاكتيال، لأن هناك فرقاً بين قولك: (اكتال منه) و(اكتال عليه)؛ فـ (اكتال منه) لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف (اكتال عليه)، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء.

قال آخر[2]: والمطففون كما بَيَّنهم القرآن الكريم إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من (من) وليست بمعنى (من) ولا تفيد (من) هذا المعنى.

قال آخر[3]: ولهذا جاء بعدها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣] ولم يقل: (كالوا لهم) أو (وزنوا لهم)، وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره، ذلك أن اللام تفيد الاستحقاق، وهم لم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم.

قال أحد أعضاء اللجنة[4]: فما سر حذف حرف الجر في قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، مع أنه من المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، ولم يعلم هنا أهو (في) أم (عن)؟

قال أحدهم[5]: لأنه يراد معنى الحرفين معاً؛ فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن، وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عنهن لدمامتهن، والحكم واحد في الحالتين فلو قال: (في) لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى، ولو قيل: (عن) لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط.. فلما حُذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن؛ فأطلق لإطلاق الرغبة.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٤.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٤.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٤.

(٤) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٤.

(٥) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٥.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما تقولون في وجه الاختلاف بين ﴿وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ و﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]

قال أحدهم(١): اختيرت ﴿وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ لأنها مصدرة بخطاب المسلمين، فوجب أن يختار له (إلى)، فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء، ثم انتهى من عندهم إليهم، فلما جاء ﴿قولوا﴾ خطاباً لغير الأنبياء، وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على).. أما في سورة آل عمران، فقد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٨٤]، كانت (على) أَحقَّ بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه.

قال أحد أعضاء اللجنة: فلم قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، بينما قال في آل عمران: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، فقد أعاد كلمة ﴿أوتي﴾ في سورة البقرة ولم يعدها في سورة آل عمران؟

قال أحدهم(٢): إنما لم يذكرها في آل عمران، لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١]، فقدم ذكر إيتاء

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٥.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٥.

الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد.

قال آخر(١): بالإضافة إلى أن تكرار لفظ ﴿أوتي﴾ في سورة البقرة جاء في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، فلما جرى ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإيتاء لهم، بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.

قال آخر(٢): وكذلك، فإن هذه الآية وردت في سورة البقرة بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥]، فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبييهما بالإيتاء، فأفرد ذكر إيتاء موسى وعيسى عن إيتاء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإيتاء للأنبياء الآخرين.

قال آخر(٣): وكذلك، فإن الآية في آل عمران وردت بعد ذكر أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان برسول الله ﷺ ونصره إن هم أدركه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]

قال آخر(٤): كما وردت في سياق التأكيد على الإسلام والإيمان به، فقد قال قبلها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال بعدها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

(٤) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥]، فناسب ذلك عدم تكرار الإيتاء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي رسول الله ﷺ لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.

قال آخر: بالإضافة إلى أن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرر الإيتاء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإيتاء من نحو آتى وآتينا وأوتي وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعاً، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعاً، فاقتضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإيتاء فيها.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما وجه الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢، الزمر: ٥]، وقوله: ﴿كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، فقد جاء في آية الرعد باللام ﴿لأجل﴾ وجاء في آية لقمان بـ (إلى) ﴿إلى أجل مسمى﴾؟

قال أحدهم[1]: لأن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى: (كُلٌّ يجري لبلوغ الأجل)، أي كل يجري لهذه الغاية.. وأما ما جاء بـ (إلى) فهو يفيد الانتهاء.. فمعنى قوله: ﴿يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢، الزمر: ٥] يجري لبلوغ أجل مسمى، وقوله: ﴿يجري إلى أَجَلٍ﴾ [لقمان: ٢٩]: لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقتِ جَريِهِ المسمى له.

قال آخر[2]: وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وبعدها: ﴿ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣]، فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

قال آخر[1]: وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق هو قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٥-٦]، فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى في سورة فاطر إنما هو ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٢-١٤]، فاختص ما عند ذِكرِ النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها.

قال أحد أعضاء اللجنة: فما سر اختلاف حروف الجر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦]، حيث قال أولاً: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ بـ (من) وقال بعدها: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا﴾ بالباء؟

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٦.

قال أحدهم[١]: لأن الباء ههنا تفيد التبعيض بمعنى (من) أي: يشرب منها.. أو أنه ضَمَّنَ شرب معنى (روي) أي: يرتوي بها.. أو أن قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك: (نزلت بالمكان) فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب.

قال آخر[٢]: وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء، الصنف الأول، سماهم الأبرار، والصنف الآخر سماهم ﴿عِبَادُ اللهِ﴾، وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم.. وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين. فقد قال في الأبرار: ﴿إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ [الإنسان: ٥] وقال في الآخرين: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ [الإنسان: ٦]

قال آخر[٣]: وهناك فرق واضح بين النعيمين، فقد ذكر عن الأبرار أنهم يشربون من كأس.. وذكر أن هذه الكأس ليس خالصة بل ممتزجة ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾.. أما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها، بل يشربون خالصة من العين، وهي مرتبة أعلى، ثم قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ولم يقل (يشرب منها) أي: يرتوون بها، هذا علاوة على التمتع بلذة النظر وهم نازلون بالعين.

قال آخر[٤]: ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢٨]، حيث ذكر الصنفين من

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٨.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٨.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٨.

(٤) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٨.

السعداء: صنف الأبرار وصنف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق.. ولهذا قال في نعيم الأبرار: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ.. وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٧] أي: إنهم يُسقون من رحيق ممزوج بالتسنيم، والتسنيم أعلى شرب في الجنة وهو يُمزج لهم بحسب أعمالهم، في حين قال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون﴾ [المطففين: ٢٨] أي: إن المقربين يشربون من عين التسنيم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل، وهم لا يشربون منها بل يشربون بها.

قال آخر[١]: ولهذا نرى القرآن الكريم يفرق بين أنواع الجزاء بحسب المراتب، ويختار الألفاظ الدالة على ذلك اختياراً دقيقاً عجيباً.. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان، بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً، ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، أي: أقل منزلة منهما.. ومن أوصاف الجنتين العُلْيين أنهما ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] في حين قال في الأخريين: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، أي: مائلتان للسواد من شدة الخضرة، فالوصف الأول أعلى، لأن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]

قال آخر[٢]: وهكذا قال في العُلْيين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وقال في الأخريين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، وماء الجري أكثر من ماء النضخ، وفي الجري معان أخرى من صفات النعم لا تفيدها كلمة ﴿نضاختان﴾

قال آخر[٣]: وهكذا قال في العُلْيين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] وقال في الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، فأين فاكهة الثانيتين من

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٨.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٩.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٩.

الأوليين؛ فقد ذكر أن في العليين من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراق والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الأخريين.

قال آخر[1]: وهكذا قال في العُلْيين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال في الأخريين: ﴿مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]، فقد ذكر بطائن الأولى فقال: إنها من استبرق ولم يذكر ظهائرها لِعُلُوِّها، وللإشارة إلى أن الوصف لا يرقى إليها، فإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظهائر؟.. في حين ذكر الأخرى فقال: هي ﴿رفرف خضر وعبقري حسان﴾ فأين هذا من ذاك؟

قال آخر[2]: وهكذا قال في العُلْيين: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، في حين قال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، فبوصف (القاصرات) بصيغة اسم الفاعل ووصف (المقصورات) بصيغة اسم المفعول ووزان بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

قال آخر[3]: وهكذا قال في وصف قاصرات الطرف: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعاة إلى التشويق لإحسان العمل و﴿هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]

قال آخر[4]: ومثل ذلك ما ورد من التفريق في الجزاء في سورة الواقعة بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعيم أصحاب اليمين، حيث ذكر أن السابقين على سُرُرٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متكئين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين، بل قال: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]، والفرق واضح بين الحالتين.

---

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٩.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٩.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣٠٩.

(٤) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣١٠.

قال آخر[1]: وهكذا ذكر أن السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين، بل قال: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١]، والفرق ظاهر.

قال آخر[2]: وهكذا ذكر نعيم السابقين فقال: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١] في حين قال في أصحاب اليمين: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٢٩] إلى أن قال: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣]، فأين السدر المخضود والطلح المنضود من قوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١]؟

قال آخر[3]: وهكذا ذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣]، ولم يصرح بمثل ذلك لأصحاب اليمين، بل قال: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٨]، وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان﴾ [الرحمن: ٥٨]

٤ ـ الإحصاء والاستيعاب:

قال أحد أعضاء اللجنة: بورك فيكم جميعا يا أعضاء فريق الثراء، والآن اسمحوا لنا أن نتوجه بأسئلتنا إلى فريق الاستيعاب.. وأول سؤال هو طلب ذكر نماذج مبسطة عن الاستيعاب الذي ورد في القرآن الكريم ليكون مقدمة سهلة لفهم معنى الاستيعاب.

قام أحد الشباب من فريق الاستيعاب، وقال[4]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]، إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من

(١) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣١٠.

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣١٠.

(٣) أسرار البيان في التعبير القرآني، ص ٣١٠.

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٩)

الصواعق، والطمع في الأمطار؛ ولا ثالث لهذين القسمين.

قال آخر(1): ومثله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فإن العالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة، إما عاص ظالم لنفسه، وإما سابق مبادر للخيرات، وإما متوسط بينهما مقتصد فيها.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ٧-١٠]

قال آخر(2): ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، حيث استوفى أقسام الزمان، ولا رابع لها.

قال آخر(3): ومثله قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، حيث استوفى أقسام الخلق في المشي.

قال آخر(4): ومثله قوله تعالى: ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، حيث استوفى جميع أحوال الزوجين ولا خامس لها.

قال آخر(5): ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فلم يترك سبحانه قَسماً من أقسام الهيئات حتى أتى به، وقد جاءَ ترتيب الهيئات على حسب الأفضلية، فقدم الذكر قياماً عليه قعوداً، وقدم الذِكر قعوداً عليه رقوداً،

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٩)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

(٤) الزيادة والإحسان في علوم القرآن (٦/ ٢١٦)

(٥) الزيادة والإحسان في علوم القرآن (٦/ ٢١٦)

وفي هذا من حسن النسق وجودة الترتيب ما فيه.

قال آخر(١): ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢]، فهيئَات الدعاء هنا ثلاث كهيئات الذكر هناك، مع اختلاف الترتيب في الآيتين، وذلك لأن الذكر يجب فيه تقديم القيام لأن المراد به الصلاة، والقعود لمن يسَتطيع القيام، والاضطجاع للعاجز عن القعود.. والضر يجب فيه تقديم الاضطجاع لغلبة الضعف ومبادئ الإعلال وتزيدها وإذا أزال بعض العلة قعد المضطجع.، وإذا زالت العلة كلها وتراجعت القوة قام القاعد.

قال آخر(٢): ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، فقد استوعبت جميع الأوصاف المحمودة، إذ وُصِفَ المؤمنون فيها بجميع العبادات، لأن العبادات كلها نوعان: بدنية ومالية.. والبدنية قسمان: عبادة الباطن وعبادة الظاهر.. والمالية أيضاً قسمان: ما يشترك فيه المال والبدن كالحج والجهاد، وما ينفرد به المال كالزكاة وصدقة التطوع.

قال آخر(٣): فقوله: ﴿يُؤْمنُونَ بالِغَيْبِ﴾ إشارة إلى عبادة الباطن.. وقوله: ﴿وَيُقيمُونَ الصلاةَ﴾ تصريح بعبادة الظاهر.. وقوله: ﴿وَمما رَزَقْنَاهُمْ يُنفَقُونَ﴾ إشارة إلى العباده المالية.

قال آخر(٤): وبذلك استوعبت جميع الأقسام على الترتيب، وقدم عبادة الباطن على عبادة الظاهر، وعبادة البدن على عبادة المال.

قال آخر(٥): ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٨)
(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٩)
(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٩)
(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٩)
(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٩)

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فقد استوفت جميع أقسام الزمان، فإيمانهم بما أنزل على الرسول إيمان في الحال، وبما أُنزل على الرسل من قبله إيمان في الماضي، وإيمانهم بالآخرة إيمان بالمستقبل، وعبَّر عن إيمانهم بالآخرة باليقين ليدل على قوة تصديقهم بالرسول وما أخبر به.. فحصل في هذه الآية مع نهاية المدح صحة الأقسام فى اللفظ، والمبالغة في معنى المدح والإيغال في الفاصلة.

قال أحد أعضاء اللجنة: بورك فيكم..والآن اذكروا لنا أسرار الاستيعاب في اختيار الكلمات الواردة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]

قال أحدهم[١]: في هذه الآية الكريمة وصف دقيق للأركان التي لا تتم الحياة المستقرة إلا بها.. وهي أربعة أركان.. كل كلمة عبرت عن واحد منها.

قال آخر[٢]: أما الكلمة الأولى ﴿آمِنَةً﴾؛ فقد ذكرت نعمة الأمن، والذي يعني عدم الخوف من مغير يغير عليهم، أو عدو يساورهم، أو استعمار ينهب خيراتهم، أو إرهاب يقض مضاجعهم، وينشر الفتن بينهم، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى عن مكَّة المكرمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٧٦].. وفي بدء الآية بها دليل على أنه لا يمكن أن يتحقق الاسقرار من دونها.

قال آخر[٣]: أما الكلمة الثانية ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾؛ فهي تشير إلى الإطمئنان الذي يتَّصل

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٧٩.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٧٩.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٧٩.

بنفوس الأفراد، وهو مكمل للأمن الذي يتصل بالقرية جميعا.. ذلك أنه قد يكون الشخص آمنا في الخارج، لكنه مضطرب مكتئب محبط في الداخل.. ولذلك أشارت الآية الكريمة إلى كلا المعنيين، ما يرتبط بالداخل، وما يرتبط بالخارج.

قال آخر[1]: أما الكلمة الثالثة ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾، فهي تشير إلى سهولة الحياة ويسرها، وهو ما يجعل أصحابها يتفرغون لأمور أخرى أكبر من هموم العيش وحاجاته.

قال آخر[2]: أما الكلمة الرابعة ﴿رَغَدًا﴾، فهي تشير إلى الرفاه والرزق الطيب المذاق المريء غير الوبيء، وهو الواسع الكثير.. وهي تشير بذلك إلى نعمة أخرى أكبر من النعمة السابقة.

قال آخر[3]: ثم تذكر الآية الكريمة أن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بنعم الأمن والطمأنينة والرزق والرفاه.. لم يؤدوا حق شكر تلك النعم.. أو لم يوظفوها في محالها الصحيحة.. ولهذا بدلت لهم تلك النعم بما يناقضها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

قال أحد أعضاء اللجنة: فاذكروا لنا من أسرار كلماتها ما ذكرته فيما سبقها.

قال أحدهم[4]: أما الكلمة الأولى ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ﴾ ففيها إشارة إلى أنَّ الإيلام مس نفوسهم، ومن داخلها، فبعد أن كانوا في ترف وطمأنينة صاروا يذوقون الضر ويلمسونه.. ونرى من التعبير والتقابل أنهم بعدما سكن قلوبهم من اطمئنان، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع، وبما منحوا من أمن ذاقوا الخوف، وهذا هو التقابل في أجمل صوره.

قال آخر[5]: أما الكلمة الثانية ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾؛ ففيها صورة بيانية رائعة،

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٧٩.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٧٩.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٠.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٠.

(٥) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

فهي تصور الجوع والخوف كأنَّه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يخرجون منه إلَّا إليه، ولا يدورون إلّا في دائرته، وذلك بلا ريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التي لا يستطيعون منها فكاكًا.. وهذا يفيد استمراره، وتجدده آنًا بعد آنٍ.

قال آخر(١): أما الكلمة الثالثة ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، فهي تنزه الرحمة الإلهية من أن تكون قد تخلفت عنهم في هذا الموضع، وإنما هم الذين تخلفوا عنها.

قال آخر(٢): فقد تضافرت هذه الكلمات جميعا في تكوينها؛ فاشترك فيها التعبير بأذاقهم، والتعبير باللباس، وكون اللباس جوعًا وخوفًا، ولباس الجوع والخوف أشد إيلامًا من لباس الشوك؛ لأنَّ الشوك يؤذي الجلد حسًّا، ولباس الجوع والخوف يؤذي الجسم ويؤذي النفس.

قال آخر(٣): وإذا قوبلت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان، ورخاء في العيش وطيبه واتساعه، وَجَدت الفارق بين صورة النعمة التي كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم.. فاذكروا لنا الأسرار المودعة في كلمات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء: ٨٣]، ودلالتها الاستيعابية.

قال أحدهم(٤): أما الكلمة الأولى ﴿أَنْعَمْنَا﴾، فقد أضافها الله تعالى إليه، وإنعامه فيض وإسباغ يغمر صاحبه، وهو يقتضي الشكر، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

قال آخر(٥): أما الكلمة الثانية ﴿أَعْرَضَ﴾، فهي كناية عن البعد عن الله تعالى، وعدم

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٥) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

الإقبال عليه، وأصل [أعرض] في المعنى الحسيّ أن يولِّي عرض وجهه بألَّا يقبل على الله تعالى.

قال آخر(١): أما الكلمة الثالثة ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾، فالنأي هو البعد، وكلمة بجانبه، مؤدَّاها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى، فيسير في ضلاله البعيد.. أي أنها ليست مجرد تأكيد لمعنى أعرض، وإنما تشير إلى الخطوة التالية بعد الإعراض، فالإعراض عن الكلام: عدم الإصاخة إليه، وعدم الالتفات إلى دعوة الحق.. وهذه خطوة تكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ويجافيه..

قال آخر(٢): وأنتم ترون أن هذه الكلمات ـ من حيث السياق ـ يأخذ بعضها بحجز بعض في نغم مؤتلف، من حيث إن كل معنى يعقبه آخر له مترتب عليه متناسق معه.. ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفرًا بها، وكيف يتدرَّج الكفر بها، حتى يكون البعد التام عن الله، فتكون الطاعة في جانب، ونفس المنعم عليه في جانب آخر، وهو جانب العصيان والضلال البعيد، ثم الطغيان من وراء ذلك.

قال آخر(٣): ولعلكم تلاحظون أيضا أن الصورة البيانية من هذا الكلام قد اجتمعت في تكوينها الألفاظ كلها مجتمعة، وكل كلمة صورة بيانية في ذاتها، فإنعام الله تعالى يعطي صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى، والإعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية، ثم النأي من بعد ذلك.. وهذه صورة المنعم عليه في جحود نفسه، وعدم التفاتها إلى الاعتراف بالنعم وشكرها، مع أنَّ شكر المنعم واجب عقلًا، وهو منبعث من الضمير الطيب الطاهر.

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم؛ فحدثونا عن تتمة الآية، وما ورد بعدها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٣-٨٤]، وسر ارتباطها بها.

قال أحدهم[١]: الكلمات الواردة في الآيات الكريمة تصور صورة تلك النفس المعرضة، وقد أصابها الشر، ولم تنل النعمة، وفيها كلمتان تصوران نزول الضر، وأعقابه في النفس الجاحدة، وهما (مسه الشر) و(كان يئوسًا)

قال آخر[٢]: أما الكلمة الأولى ﴿مَسَّهُ﴾، فالمسّ هو الإصابة بالشر.. والتعبير به يفيد أن الإصابة بالشر، ولو كانت خفيفة، فإنها تجعل النفس الجاحدة يائسة.

قال آخر: وقد عبر بكلمة ﴿الشر﴾، وهي تعني كل ما لا يُرغب فيه، ويطلق على الأمور الضارة حسيًّا ونفسيًّا، وعلى الأمور القبيحة خلقيًّا.. والتعبير بالشرِّ هنا يشمل الضار؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، ويشمل نتائج الطغيان والعصيان.

قال آخر[٣]: أما الكلمة الثانية ﴿يَئُوسًا﴾، فإننا نجدها مسبوقة بـ [كان] الدالة على اللزوم والاستمرار، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقد جاءت كلمة ﴿يَئُوسًا﴾ بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس، وعدم افتراقه عنها، فيكون صاحبها في حال بؤس مستمرٍّ، ويأس دائم، يكفر إذا أنعم الله عليه، ويصاب بالطغيان، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه.

قال آخر[٤]: ولا شك أنَّ هذه الجمل السامية والكلمات تصور حال إنسان غير قارٍّ

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨١.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٢.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

ولا ثابت، تبطره النعمة، ويوئسه الاختبار، وكل ذلك في ألفاظ منسجمة في نغماتها، متضافرة في معانيها، تدل على النفس المنحرفة وتصورها.

قال آخر(١): وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]، وهي تدل على أنَّ الناس جميعًا ليسوا سواء في ذلك، فمنهم شقي على الصورة التي ذكرها سبحانه، ومنهم سعيد، وهم الصابرون الذين لا تضطرب نفوسهم بنازلة تنزل، ولا يطغون بنعمة تسبغ.

قال آخر(٢): وكأنَّ هذه الجملة في موضع التخصص من عموم الإنسان المذكورة أولًا كالاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١]

قال آخر(٣): وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ نجد ثلاث كلمات.. لكل كلمة دلالتها الخاصة.. فـ ﴿قُلْ﴾ أمر للنبي ﷺ بأن يقول ذلك، وقد انتقل الكلام من ضمير المتكلم، وهو الله تعالى إلى الخطاب الذي أمر به النبي ﷺ؛ لأنَّ الأمر تنبيه يتولَّاه صاحب الرسالة المتكلِّم عن الله نازلًا إلى مرتبة المخاطبين ليواجههم بالرد، وفي ذلك فضل تنبيه وتقريب، وذات الانتقال من المتكلم إلى المخاطب فيه تجديد بياني، وتصوير بلاغي.

قال آخر(٤): وكلمة ﴿شَاكِلَتِهِ﴾، تدل على الهيئة والصورة والسجية، وهي تدل على المنهج الذي يخطه الإنسان لنفسه ويسير عليه من الضلالة كالأولين، والهدى للمهتدين، وهي تشير إلى أن الناس قسمان: قسم شاكلته تلقى النعمة بالإعراض، ووراء الإعراض

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.
(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.
(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.
(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

الظلم والطغيان والفساد في الأرض.. وقسم صابر ضابط لنفسه لا تبطره النعمة، بل يصبر عليها، فيطيع ويقوم بحق شكرها.

قال آخر(١): ثم تذكر أن الله تعالى له العلم الكامل بالصنفين، وهو مجاز للفريقين، ولهذا ختمت الآية الكريمة بقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾، والفاء فيها تفيد ترتيب الجزاء على الأعمال.

قال آخر(٢):والتعبير بـ ﴿ربكم﴾ فيه إشارة إلى أنَّه تعالى الخالق المبدع، والمربي المكمل، والهادي كلًّا إلى غايته.. وفيها إشارة إلى ارتباط علم الله تعالى بخلقه بكونه خالقهم.

قال آخر(٣): وفي ذكر العلم الكامل بأفعل التفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾ دلالة على أنه لا علم فوق علمه إن كان ثَمَّة تفاضل.

قال آخر(٤): وفي التعبير بأفعل التفضيل في ﴿أهدى﴾ إشارة إلى أنه العالم بدرجات المهتدين ومراتبهم.

قال آخر(٥): وفي التمييز بكلمة ﴿سبيلًا﴾، بيان بعد نوع من الإبهام، وهو يشير إلى أن العالم متمكن له علم بالهداية، وعلم بمنهاجها، وهو السبيل القويم.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم.. فاذكروا لنا الأسرار المودعة في كلمات قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، ودلالتها الاستيعابية.

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

(٥) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٣.

قال أحدهم[١]: إن هاتين الآيتين الكريمتين تصوران رجلًا آتاه الله تعالى العلم بالآيات الموجبة للتصديق بالحق، والتي أحاطت بقلبه ونفسه مثلما يحيط الإهاب بالجسم، لكنه ـ بدل الأخذ بها، وبهداها ـ استجاب لداعي الشيطان، فصار من الضالين الذين أغواهم، وصار مثله كمثل من ينسلخ عن الإهاب الذي لبسه ولصق بجسمه، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كبوة الضلال بما آتاه من علم، لكنَّه هو الذي انحطَّ إلى الأرض ونزل إليها بسبب هواه، فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائمًا، إن ترك يلهث، وإن حمل عليه يلهث.

قال آخر[٢]: وقد اختار كلمة ﴿انْسَلَخ﴾ دون غيرها، للتعبير على ذلك مع أن السلخ في أصل وضعه نزع جلد الحيوان للإشارة إلى أن البينات والآية المعلمة للحق أحاطت به، ولصقت بنفسه، واتصلت بعقله اتصال إهاب الحيوان بلحمه، لكنَّه انسلخ منها.. فكلمة انسلخ فيها استعارة، حيث شبَّه الكفر والفساد بالانسلاخ في الإهاب لكمال الملازمة.

قال آخر[٣]: بالإضافة إلى أنَّ الانسلاخ يكون بمعاناة وعنف، إذ إنّ مادة المطاوعة لا تكون إلّا للأفعال التي تحتاج إلى معالجة، فلا يقال كسرت القلم فانكسر، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر، ويقال: طويت الحديد فانطوى.. ولهذا كان التعبير بكلمة ﴿انْسَلَخ﴾ دون غيرها تصويرًا لإثبات أنَّ الكفر ضد الفطرة، وأنه يحتاج إلى معاناة للنفس، ومقاومة لدواعي الحق فيها، لأنه لا يكون إلَّا اتباعًا للشيطان، وهو غريب عن الإنسان.

قال آخر[٤]: وفي قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي لحقه الشيطان.. إشارة إلى أنَّ الشيطان إنما يلاحق الذين يتركون الآيات، ولا يعملون على الأخذ بموجب

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

البينات.

قال آخر[1]: وفي ذلك إشارة إلى أن أول دركات الضلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطانها، وإن تركها فإنَّ الشيطان يلحقه، ويأخذ به إلى آخر غايات الضلال.

قال آخر[2]: وإذا وصل إلى هذه الدرجة صار من الغاوين، والغواية معناها الجهل المردي، الذي يصحبه اعتقاد فاسد مردود، وكأنَّه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة، ودواعي الحقيقة ينقلب من عالم بالبينات مدرك لها إلى جاهل أراده جهله في الفساد.

قال آخر[3]: وفي قوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] دلالة على أن الراكن إلى الأرض يحسب أنَّ الركون إليها يجعله خالدًا، باقيًا مستمرًّا، لأنه ما ركن إليها إلا بسبب كونه يريد البقاء على أي صورة.

قال آخر[4]: ومقابلة هذه الكلمة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦] أي: بالبينات، يفيد أنه اختار الاستفال بدل الارتفاع، والضعة بدل الرفعة، وفي هذا إثبات بأن الرفعة لا تكون إلا بطلب الحق والإيمان والاستجابة لبيناته، وعدم الانخلاع من موجبها.. وكل هذه المعاني تشرق من مقابلة الارتفاع بالإخلاد إلى الأرض.

قال آخر[5]: وفي كل هذا نجد تصويرا كاملا مستوعبا لشخص أفاض الله تعالى عليه أسباب الإيمان بالحق، والتصقت به حتى صارت كأنها جزء من كيانه، ولكنه بسبب خلوده إلى الأرض سلخ البينات الملتصقة به بانغماسه في الضلال، حتى انسلخ من الهداية نهائيا.

قال آخر[6]: وفي ذلك إشارة بيانية إلى أنَّه ترك الهداية بعد عمل مستمر قام به، فهو قد ابتدأ في الشر متبعًا هواه، ثم كرره حتى كون له خطوطًا في نفسه، وتكرَّر حتى صارت

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٥) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

(٦) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٨٥.

الخطوط مجاري، فكان الانسلاخ، وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فأتبعه بغية الضلال.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الاستيعاب المودعة في الدعاء الوارد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤]

قال أحدهم(١): الشرُّ المستعاذُ منه نوعان: أحدهُما: موجود يُطلب رفعه.. والثاني معدومٌ يطلبُ بقاؤه على العدم وأن لا يوجد.. كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما موجودٌ فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه.. والثاني معدومٌ فيطلب وجوده وحصوله.. فهذه أربعةُ هي أمهات مطالب السَّائلين من ربِّ العالَمين، وعليها مدارُ طَلَبَاتِهِم، وقد اجتمعت جميعا في الآيات الكريمة التي قرأتها.

قال آخر(٢): فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] طلب لدفع الشر الموجود فإن الذنوب والسيئات شر كلها، بل هي أخطر الشر.

قال آخر(٣): وقوله تعالى في دعائهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ طلبٌ لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه.

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٧١٥)

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٧١٥)

(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٧١٥)

قال آخر[1]: وقوله تعالى في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه.

قال آخر[2]: وقوله تعالى في دعائهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ طلبٌ أن لا يقعَ بهم الشَّرُّ المعدومُ، وهوخزيُ يوم القيامة.

قال آخر[3]: فانتظمت الآيتان الكريمتان بذلك المطالب الأربعة أحسنَ انتظام، مرتبةً أحسن ترتيبٍ، قُدِّمَ فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة، ودوامُ الإسلام إلى الموت، ثم أُتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما: أن يُعطوا ما وُعِدُوه على ألسنة رسله، وأن لا يُخْزِيَهُم يوم القيامة.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الاستيعاب المودعة في سورتي الفلق والناس.

قال أحدهم[4]: لقد جمعتا الاستعاذة من الشرور كلها الظاهرة والخفية، سواء الواقعة على الإنسان من الخارج، أوتلك التي تصدر منه من الداخل.

قال آخر[5]: فكلمات سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من كل الشرور الظاهرة والخفية الواقعة على الإنسان من الخارج ولا يمكن له دفعها، إلا بالصبر، و﴿اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وهي مما لا تدخل تحت التكليف، ولا يطلب من الإنسان الكف عنها لأنها ليست من كسبه فهوغير محاسب عليها.

قال آخر[6]: أما كلمات سورة الناس؛ فتضمنت الاستعاذة من شرور الإنسان الداخلية، النابعة من نفسه، وهي التي قد تقع عليه أوعلى غيره، وهي التي يستطيع الإنسان

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٧١٥)

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٧١٥)

(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٧١٥)

(٤) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٣)

(٥) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٣)

(٦) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٣)

أن يدفعها ويتجنب ظلم النفس والآخرين.. وهذه الشرور مما يسجله قلم التكليف؛ فإذا وقع فيها الإنسان سجلت في صحيفة سيئاته.

قال آخر[1]: ولهذا قال عدد من المفسرين والمحققين: سورة الفلق استعاذة بالله من شرور المصائب، وسورة الناس استعاذة بالله من شرور المعايب.

قال آخر[2]: وقد وردت الاستعاذة في سورة الناس من واحد، والاستعاذة منه جاءت بالربّ والملك والإله من وسوسة الشيطان المُهلكة.. أما في سورة الفلق فقد كانت الاستعاذة بشيء واحد من شرور متعددة.. وفي هذا إشارة عظيمة إلى خطورة الوسوسة على الإنسان وعلى غيره، لأنه إن استجاب لهذه الوساوس فقد يردي نفسه في الدنيا والآخرة، أما الأمر الذي ليس من كسبه، وهو ما جاء في سورة الفلق، فقد استعاذ منه بأمر واحد، وهو يدل على خطورة البشر وخطورة الوسوسة.

قال آخر[3]: وقد جاء ترتيب أسماء الله الحسنى في سورة الناس هكذا: الرب، الملك، الإله.. لأن الإنسان إذا وقع في حاجة يستعين أولاً بخبرته وعلمه أوبمن لديه هذه الخبرة والتجربة ليرشده، وهذا شأن المربي فهوالمرشد والمعلم والموجه، ولذا بدأت الآيات به ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فإن لم ينجح فيما يريد لجأ إلى السلطة وصاحبها وهوالملك ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢]؛ فإن لم تُجد السلطة نفعاً التجأ إلى الله تعالى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٣]

قال آخر[4]: وكلمة ﴿الناس﴾ في سورة الناس ليست مكررة، ذلك أن كل كلمة منها تعني مجموعة من الناس مختلفة عن غيرها.. فكلمة الناس تطلق على مجموعة قليلة من

(١) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٤)

(٢) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٤)

(٣) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٤)

(٤) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٤)

الناس، أو واحد من الناس أو كل الناس.. والربّ هو مُرشد مجموعة من الناس قد تكون قليلة أوكثيرة.. أما الملك فناسه أكثر من ناس المربي.. وأما الإله فهو إله كل الناس، وناسه الأكثر حتماً.. ولوأن الآيات وردت بهذه الصيغة: (أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم) لعاد المعنى كله إلى المجموعة الأولى من الناس (ناس الرب) دون أن يشمل غيرهم.. لذلك لا يغني الضمير هنا، بل لا بد من تكرار المضاف إليه مذكورا صريحا، لأن لكل معنى مختلف؛ فالتدرج في الصفات بدأ من الكثرة إلى القلة، أما في المضاف إليه (الناس) فبالعكس من القلة إلى الكثرة، فناس المربي أقل، وناس الملك أكثر، وناس الإله هم الأكثر.

قال آخر[1]: ولم يأت حرف العطف ليفصل بين الكلمات: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٣] حتى لا يُظنّ أنهم ذوات مختلفة، بل هي ذات واحدة، فهو سبحانه المربي وهو الملك وهو الإله الواحد.. فمن أراد الرب يقصد رب الناس، ومن أراد الملِك يقصد ملك الناس، ومن أراد الإله فلا إله إلا الله.

قال آخر[2]: وقد جاءت الاستعاذة من ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] وليس الوسواس نفسه، كما في الاستعاذة من الشيطان: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] لأن الوسوسة في هذه الآيات ليست قاصرة على الشيطان، بل هي صادرة من الجِنّة والناس.

قال آخر[3]: وذلك لأن للوسوسة مصدرين: من الجِنّة أومن الناس.. فالجِنّة فيهم صالحون وفيهم قاسطون، كما قال تعالى على لسان الجن في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:

(١) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٤)
(٢) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٤)
(٣) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٥)

١٤ ـ ١٥]، لذا لا يصحّ الاستعاذة من الجِنّة عموماً.. ومثل ذلك الناس؛ نحن نستعيذ بالله تعالى من الظالمين والأشرار من الناس، وليس من الناس كلهم جميعاً.. ولذا جاءت الآية بتحديد الاستعاذة من الشر ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وأما الشيطان فشرّ كله لذلك ورد في القرآن الكريم الاستعاذة منه مطلقا.

قال آخر[١]: وقد جيء بكلمة ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ على صيغة (فعلال)، وهي صيغة تفيد التكرار، لأنه لا ينفك عن الوسوسة، ويطلق على هذا في اللغة [تكرار المقطع لتكرار الحَدَث]، حيث تكرر فيها المقطع (وس) كما في كلمة كبكب (تكرار كب)، وحصحص (تكرار حص)، للدلالة على تكرار الحدث.. بالإضافة إلى ذلك؛ فإن صيغة (فعلال) تفيد المبالغة أيضاً.. وبذلك فإن كلمة ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ تفيد المبالغة والتكرار.

قال آخر[٢]: وقد جاء التعبير في الآية بكلمة ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ وليس الموسوس، لأن كلمة [الموسوس] لا تفيد المبالغة، ولأنها تقال للشخص الذي تعتريه الوسوسة دون أن تفيد المبالغة.

قال آخر[٣]: وقد جاء التعبير في الآية بـ ﴿شر الْوَسْوَاسِ﴾ وليس شر الوسوسة فقط للدلالة على أن الاستعاذة إنما تكون من كل شرور الوسواس، سواء كانت وسوسة أولم تكن.

قال آخر[٤]: وقد جاء التعبير بكلمة ﴿خنّاس﴾، لأنها صفة من (الخنوس) وهوالاختفاء، وهي أيضا صيغة مبالغة، وتدل على أن الخنوس صار نوعا من حرفة يداوم عليها صاحبها؛ فعندما يكون للمرء عدو، فإنه يحرص على أن يعرف مقدار عدائه، ومدى

---

(١) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٥)

(٢) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٦)

(٣) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٦)

(٤) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٦)

قوته والأساليب التي تمكنه من التغلب عليه أوالنجاة منه، وقد أخبرنا الله تعالى أن قصارى ما نستطيع فعله مع عدونا هوأن نخنس وسوسته، لأن الشيطان باق إلى يوم الدين، ولا يمكننا قتله أوالتخلص منه بطريقة أخرى غير الاستعاذة بالله منه، والتي تجعله يخنس.. فإذا غفلنا أونسينا نقع في الوسوسة.

قال آخر(١): وقد ذكر في الآية مكان الوسوسة، وهوالصدور، ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، ولم يقل القلوب لأن الصدور أوسع، وهي كالمداخل للقلب، فمنها تدخل الواردات إلى القلب، والشيطان يملأ الصدر بالوسوسة، ومنه تدخل إلى القلب دون أن تترك خلفها ممرا نظيفا يمكن أن تدخله نفحات الإيمان، بل يملأ الساحة بالوساوس قدر استطاعته مغلقا الطريق إلى القلب.

قال آخر(٢): وقدم الجنة على الناس لأنهم الأصل في الوسوسة، والناس تَبَع، وهم المعتدون على الناس، ووسوسة الإنسي قد تكون من وسوسة الجني، والجِنّة هم الأصل في الوسوسة، ولا تقع الوسوسة في صدورهم بل في صدور الإنس..

قال آخر(٣): أما ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] من تقديم شياطين الإنس على الجنّ، فلأن السياق كان عن كفرة الإنس الذين يشاركون الجن الوسوسة لذا تقدّم ذكرهم على الجنّ.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الإحصاء والاستيعاب الواردة في كلمة ﴿حِسَابٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

---

(١) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٧)

(٢) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٧)

(٣) لمسات بيانية، السامرائي (ص ٤٤٧)

حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]

قال أحدهم[١]: هذه الكلمة تدل على طريقة أخرى يستعملها أصحاب [التأويل التدبري] في استثمار اللفظ القرآني، لاستنتاج المعاني الكثيرة المحيطة بالموضوع، وهي الطريقة التي يحتمل اللفظ فيها أكثر من معنى في تركيب واحد.

قال آخر[٢]: فقد يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]: (إن الله يرزق مَنْ يشاء من عباده دون أن يحاسبه أحد لماذا رزقه؟ لأنه يعطى عن حرية تامة)

قال آخر[٣]: وقد يكون المعنى: (إن الله يرزق مَنْ يشاء بغير محاسبة لنفسه، خشية نفاد ما بيديه لأنه غني)

قال آخر[٤]: وقد يكون المعنى: (إن الله يرزق مَن يشاء، حيث لا يكون في حسبان المرزوق جهة وكيفية الأرزاق، لأن ذلك قد اختص الله به)

قال آخر[٥]: وقد يكون المعنى: (إن الله يرزق مَن يشاء بغير معاقبة أو محاسبة له على عمله لأنه يغفر لمن يشاء، ويعذب مَن يشاء لا معقب لحكمه)

قال آخر[٦]: وقد يكون المعنى: (إن الله يرزق مَن يشاء رزقاً كثيراً، لا يدخل تحت حساب أو حصر)

قال آخر[٧]: فهذه خمسة معان احتملتها هذه الكلمة الجامعة لا يشذ واحد منها عن طبيعتها وإن بدا بينها التباين في الأرجحية والمرجوحية، فأقواها فيما يبدو: الرزق الكثير،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)
(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)
(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)
(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)
(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)
(٦) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)
(٧) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٣)

وأقلها قوة ـ فيما يبدو كذلك ـ أن يترك الله حسابه ومعاقبته إذ لا ضرورة تقتضيه، هو وجه محتمل فقط.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الإحصاء والاستيعاب الواردة في ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]

قال أحدهم: هذه العبارة ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ﴾ تدل على طريقة أخرى يستعملها أصحاب [التأويل التدبري] في استثمار الفهوم المرتبطة بالتراكيب القرآني، لاستنتاج المعاني الكثيرة المحيطة بالموضوع.

قال آخر[١]: فقد يكون معنى ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ﴾ إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً، وأن يستووا مماتاً، لافتراق أحوالهم إحياءً، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على الركون للمعاصي.. ومماتاً: حيث مات هؤلاء على الاستبشار بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله، والوصول إلى هول ما أعد لهم.

قال آخر[٢]: وقد يكون معنى ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ﴾ إنكار أن يستووا في المهات كما استووا في الحياة، لأن المسيئين مستو محياهم في الرزق والصحة، كما يرزق المحسنون ويصحون، وإنما يفترقون في المهات.

قال آخر[٣]: فقد يكون معنى ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ﴾ أن يكون المعنى كلاماً مستأنفا على

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم، أي كل يموت على حسب ما عاش عليه.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الإحصاء والاستيعاب الواردة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]

قال أحدهم: وهذه الآية الكريمة والفهوم المختلفة الواردة فيها تدل على استثمار أصحاب [التأويل التدبري] التشبيهات والأمثال القرآنية، لاستنتاج المعاني الكثيرة المحيطة بالموضوع.

قال آخر(١): فقد يكون معنى الآية: أنه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة من غير صارف يلويه وعاطف يثنيه.. فمَنْ كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده، ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور، ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في التحدي كل حد معهود، فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق خنقاً مما يرى من خلال مساعيه، وعدم إنتاج مقدماته ومباديه، ﴿فَلْيَمْدُدْ بسَبَبٍ إلى السماء﴾ ـ يعنى حبلاً إلى سقف بيته ـ ﴿ثُمَّ لْيَقْطعْ﴾ أي ليَختنق ﴿فَليَنظرْ هَلْ يُذْهبَن كَيْدُهُ مَا يَغيظُ﴾، أي فليصور في نفسه النظر، هل يذهب كيده ذلك الذي هو أقصى ما انتهت إليه قُدرته في باب المعاندة والمضارة ما يغيظه من النُصرة.

قال آخر(٢): وقد يكون معنى الآية: فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه؟

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

قال آخر[1]: فقد يكون معنى الآية: فليمدد حبلاً إلى السماء المظلة، وليصعد عليه ثم ليقطع الوحى.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الإحصاء والاستيعاب الواردة في مرجع الضمير في كلمة ﴿حُبِّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]

قال أحدهم: الفهوم المختلفة الواردة في هذا تدل على استثمار أصحاب [التأويل التدبري] للقيود والأوصاف ونحوها لاستنتاج المعاني الكثيرة المحيطة بالموضوع.

قال آخر[2]: فقد يكون مرجع الضمير في كلمة ﴿حُبِّهِ﴾ للطعام لذكره قبله، والمعنى حينئذ: إنهم يطعمون الطعام، وهم يحبونه لاحتياجهم إليه، وتعلق أغراضهم به، وهذا ما يتوافق مع قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

قال آخر[3]: وقد يكون مرجع الضمير في كلمة ﴿حُبِّهِ﴾ إلى اسم الجلالة من باب الإضمار، والمعنى عليه: ويطعمون الطعام على حب الله لا حب غيره، أي لا يريدون عليه جزاءً ولا شكوراً، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، أي أنهم يطعمَونهم مخلصِيَن العَمل لله.

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الإحصاء

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٤)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٩)

والاستيعاب الواردة في (الواو) بين ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]

قال أحدهم(١): وهذا أيضا مما تختلف الفهوم فيه، وهو مما يستثمره أصحاب [التأويل التدبري] لاستنتاج المعاني الكثيرة.. فالله تعالى لما بيَّن لرسوله ﷺ نوعي الآيات المنزلة عليه، ما كان منها واضحا في الدلالة لا يُختلف فيه، وما كان محتملا لعدة وجوه.. لما بيَّن له ذلك قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾.. ثم قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ والواو هنا يمكن أن تكون للعطف، والمعنى عليه: إن تأويل المتشابه شركة بين الله وبين الراسخين في العلم؛ فهم يعلمونه بإلهام منه سبحانه، وعليه أيضاً فإن موضع الجملة بعدها: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ استئنافية، أو هي حال من الراسخين.

قال آخر(٢): ويمكن أن تكون الواو استئنافية، أي ليست عاطفة، وحينها يكون ﴿المتشابه﴾ هو الذي استأثر الله وحده بعلمه دون سواه، وعلى هذا فإن موضع الجملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ خبر ﴿الراسخون﴾

قال أحد أعضاء اللجنة: بوركتم جميعا.. والآن أخبروني عن أسرار الإحصاء والاستيعاب الواردة في أسماء القيامة.

قال أحدهم(٣): وهذا أيضا مما يستثمره أصحاب [التأويل التدبري] لاستنتاج

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٩)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٩)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٧٩)

المعاني الكثيرة المحيطة بالموضوع الذين يريدون البحث فيه، ذلك أن الله تعالى لا يطلق الأسامي عبثا، بل لكل اسم دلالاته الخاصة به.

قال آخر: فمن أسمائها [يوم القيامة]، وذلك لأن فيه قيام الناس للحساب، وسمي كذلك لقيام أمور ثلاثة فيه.. أولها قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ ـ ٦].. وثانيها قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].. وثالثها قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]

قال آخر(١): ومن أسمائها [اليوم الآخر]، و[الآخرة] كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧]، وسمي بذلك لأنه آخر أيام الدنيا، أوآخر الأزمنة المحدودة.. وعلى هذا دل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة، وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية.

قال آخر(٢): ومن أسمائها [يوم الآزفة]، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وسميت بذلك لقربها؛ إذ كل آت قريب، و إن بعد مداه، قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]

---

(١) تفسير القرطبي، (١٨/ ١٣٦)

(٢) التذكرة للقرطبي (ص: ٢٥٤)

قال آخر(١): ومن أسمائها [يوم البعث]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، وسمي كذلك لما يقع فيه من إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم.

قال آخر(٢): ومن أسمائها [يوم التغابن]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، وسمي بذلك لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار، أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء.

قال آخر(٣): ومن أسمائها [يوم التلاق]، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُوالْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٦]، وسمي بذلك لأنه يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض.. أو يلتقي فيه العابدون والمعبودون.. أو الظالم والمظلوم.. أو يلقى كل إنسان جزاء عمله.. أو يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد.

قال آخر(٤): ومن أسمائها [يوم التناد]، كما قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]، وسمي بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضاً، فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وتنادي الملائكة أصحاب الجنة: ﴿أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وينادى كل قوم بإمامهم،

---

(١) التذكرة للقرطبي (ص: ٢٥٤)
(٢) تفسير البغوي (٧/ ١٤٣)
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٠)
(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٣١١)

إلى غير ذلك من أنواع النداء.

قال آخر[1]: ومن أسمائها [يوم الجمع]، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، وسمي كذلك لأنه يوم يجمع الله الأولين والآخرين، والإنس والجن، وأهل السماء وأهل الأرض.. أو هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله.. أو هو يجمع فيه بين الظالم والمظلوم.. أو هو يجمع فيه بين كل نبي وأمته.. أو هو يوم يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي.

قال آخر[2]: ومن أسمائها [يوم الحساب]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وسمي بذلك، لأن الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم، من إحسان وإساءة، يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض بالبعض.. أو هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيراً كانت أوشراً.

قال آخر[3]: ومن أسمائها [الحاقة]، كما قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، وسميت بذلك لأنها تحق فيها الأمور ويجب فيها الجزاء على الأعمال.. أو لأنها أحقت لكل عامل عمله.. أو لأنها أحقت لكل قوم أعمالهم.. أو لأنها كانت من غير شك.. أو أحقت لأقوام النار.

قال آخر[4]: ومن أسمائها [يوم الحسرة]، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وسمي بذلك لأنه يتحسر فيه الكافر على كفره، والظالم على ظلمه، والمسيء على إساءته.. ويتحسر الكافر كذلك حينما ييأس من

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٦)
(٢) التذكرة (ص ٢٧١)
(٣) التذكرة (ص ٢٧٥)
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٨٨)

دخول الجنة ويرى ما فاته من النعيم.

قال آخر[1]: ومن أسمائها [يوم الخلود]، كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤]، سماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له بل هو دائم أبداً.

قال آخر[2]: ومن أسمائها [يوم الخروج]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وسمي بذلك لخروج الناس فيه من قبورهم للبعث.

قال آخر[3]: ومن أسمائها [يوم الدين]، كما قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، والدين هنا بمعنى الجزاء.

قال آخر[4]: ومن أسمائها [الساعة]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]، وسميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعات الدنيا.. أوأنها تقع بغتة.. أو لأنها بالنسبة إلى كمال قدرته وجلاله كساعة واحدة.

قال آخر[5]: ومن أسمائها [الصاخة]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٣ـ٣٧]، وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان أي تصمها.

قال آخر[6]: ومن أسمائها [الطامة]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سَعَى﴾ [النازعات: ٣٤ـ٣٥]، ومعناها الغالبة، من قولك: طم الشيء إذا علا وغلب، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٧٨)
(٢) تفسير الطبري (٢٦/ ١٨٣)
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥)
(٤) كتاب تكملة شرح الصدور (ص ١، ٢)
(٥) تفسير النسفي (٤/ ٣٣٤)
(٦) التذكرة (ص ٢٧٥)

القرآن.. والوضوح والتقريب

ما إن انتهى الحديث إلى هذا المحل، حتى وجدتني قد فارقت تلك الحديقة الجميلة، وأولئك المتسابقين الأذكياء، من غير أن أعرف قرار اللجنة والشيخ حول الفائز منهم.

وقد وجدت نفسي بدل ذلك في شارع مدينة حديثة، تحف بكل مظاهر الجمال والرفاه، وقد استغربت حين سمعت المارة يتحدثون بلغات أجنبية لا أعرفها، ولا أفهمها.. وقلت في نفسي: ويل لي لو أن معلم البيان كلفني بالحوار مع هؤلاء.. فأنى لي أن أفهمهم، أو يفهموني.

وبينما أنا كذلك، إذا برجل من المارة يقول لي بعربية فصيحة: لِمَ تقف في الشارع هكذا؟.. أليس لديك أي عمل؟

قلت: الحمد لله.. لقد وجدت أخيرا من أفهمه ويفهمني..

قال: كل من في هذه المدينة يفهمك وتفهمه..

قلت: لكني وجدتهم جميعا يتحدثون بلغات أجنبية.. ولم أجد في حديثهم كلمة واحدة باللغة العربية.

قال: لكنك لم تحدثهم بالعربية ليحدثوك بها.

قلت: وأنى لي أن أعلم علمهم بالعربية..

قال: هم بينهم وبين أنفسهم وأهليهم يتحدثون بلغاتهم.. ويدرسون العلوم المختلفة بها.. لكنهم مع ذلك يعرفون اللغة العربية، ويفهمونها، ويتقنون الحديث بها.

قلت: فكيف جمعوا بين اللغتين؟

قال: لقد سمعوا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]؛ فعلموا أن هذا الاختلاف مقصود.. فلذلك لم يتخلوا عن لغاتهم التي ورثوها عن أجدادهم وأسلافهم.. خاصة وأنهم ورثوا معها الكثير من الآداب والعلوم.

قلت: هذا عن لغتهم.. وماذا عن اللغة العربية؟

قال: لقد سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].. فعلموا أنه لا يمكنهم أن يفهموا القرآن حق فهمه، أو يتلوه حق تلاوته، أو يتذوقوه حق تذوقه، ما لم يعرفوه بلغته التي نزل بها.

قلت: وعيت هذا.. لكني مع ذلك لا أزال محتارا في تواجدي في هذه المدينة.. فأنا في هذه الفترة تلميذ لمعلم البيان.. وقد كنت أتصور أني سأتنقل بين البدو وخيامهم، لا بين الحضر وشوارعهم.

قال: القرآن الكريم أكرم من أن يكون خاصا بالبدو أو بالحضر.. ورحمة الله أشمل من أن تخص جهة دون جهة.. وقد علّم الله الإنسان البيان، وهو ليس خاصا بجنس دون جنس، أو أرض دون أرض.

قلت: وعيت هذا.. لكني مع ذلك محتار أين أذهب.. فقد تعودت أن أجد من يأخذ بيدي.

قال: فقد وجدت من يأخذ بيدك.

قلت: أنت؟.. فإلى أين؟

قال: إلى المعهد الذي يدرب طلبته على القدرة على التوضيح والتصوير والتقريب.

قلت: أظنني لا أحتاج إليه.. فقد كنت في مدارس عتيقة تعلمت منها كل أساليب الضبط والتدقيق.

قال: فرق كبير بين الضبط والتدقيق، والتوضيح والتقريب.. فقد يكون الكلام مضبوطا دقيقا، لكنه يفتقر إلى ما يصوره ويقربه ويوضحه ويحوله إلى مشهود ومرئي، وليس مجرد كلام مقروء أو مسموع.

قلت: أنا لا أرى فرقا بينهما.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]؟

قلت: بلى.. فما فيها مما نحن فيه؟

قال: أرأيت لو أنه بدلها قال: (لا تنفد كلمات الله أبدا).. فهل تراها تختلف في نتيجتها عما ورد في الآية؟

قلت: لا.. هي تتفق معها تماما.

قال: فلم عدل القرآن الكريم عن ذلك، مع أنه أكثر اختصارا، وأوفر إيجازا، وأقل كلمات، وأسهل حفظا؟

قلت: الآية الكريمة تعطي صورة أكثر وضوحا وجلاء.. ذلك أن أكثر الناس قد لا يعون الحقائق المضبوطة المجردة، ما لم توضع لهم في قوالب حسية يرونها ويشاهدونها..

قال: فأنت معي إذن في ضرورة احتواء البيان الشافي على ركن الوضوح والتقريب، كاحتوائه على ركن الدقة والضبط.

قلت: أجل.. وبورك فيك.. فقد ذكرتني بما كنت نسيته.

قال: لا عليك.. فهلم معي لنتتلمذ جميعا على حكماء التوضيح والتقريب.. فهم

أساتذتك وأساتذتي في هذا الركن.

قلت: أنا أعرف نفسي.. لكنني لا أعرفك.

قال: أنا مثلك صاحب قلم وقراطيس.. وقد أفاض الله علي من فضله القدرة على تصوير الحقائق في قوالب القصص والروايات.. وفي قوالب الرسوم والصور.. وفي قوالب الأفلام والمسلسلات.

قلت: هنيئا لك كل هذه القدرات.. فكيف أتيحت لك؟

قال: لقد رزقني الله حب كتابه الكريم، وكلماته المقدسة.. وقد نذرت نفسي لها.. وعندما رحت أبحث عن الطريقة التي أبلغ بها كلمات ربي للجماهير المتعطشة له، وجدت أن أقرب طريق إلى ذلك هو هذه الفنون.. ذلك أن أكثر الناس لا يقرؤون الكتب العلمية البحتة مهما كانت قوتها، بينما يقبلون على ما صيغ منها في مثل تلك القوالب الفنية الجميلة.

قلت: فهل استفتيت من أجاز لك ذلك.. أم أنك أقدمت عليه بحسب ما بدا لك؟

قال: معاذ الله أن أقدم على أمر دون أن أعلم حكم الله فيه.

قلت: فمن استفتيت؟

قال: القرآن الكريم..

قلت: القرآن الكريم؟

قال: أجل.. لقد وجدته يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ويقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].. ففهمت منها أن الله يدعونا إلى استعمال هذه الأساليب والوسائل، لأن أكثر العقول تميل إليها أكثر من ميلها للكلام العادي.

ما إن قال هذا حتى رأيت صورة لبناء ضخم على شكل مصحف كبير، وقد زين

بصور جميلة متحركة، وقد وضع أمام كل صورة ما يناسبها من آي القرآن الكريم وكلماته.. فسألت صاحبي عنها، فقال: هذا هو المعهد الذي حدثتك عنه.. وفيه أربعة أقسام.. يهتم كل قسم منها بنوع من أنواع الوضوح والتقريب.

أولا ـ أسرار التشبيه والتمثيل:

دخلنا القسم الأول من معهد [الوضوح والتقريب]، وقد كتب على بابه [قسم التشبيه والتمثيل].. وما إن دخلنا إلى أول قاعة من قاعاته، حتى قام الطلبة جميعا، وبكل أدب واحترام، وقد ظننت في البداية أنهم قاموا لأجلي، لكني وجدت صاحبي الذي قادني إلى القسم، يصعد المنصة، ويقول[1]: أظن أنكم حضرتم جيدا ما طلبته منكم مما يتعلق بفن التشبيه وأسراره.. فلا يمكن أن ننتقل إلى غيره من الفنون ما لم نتقنه غاية الإتقان.

قال بعض الطلبة: أجل.. وقد علمت ـ من خلال بحثي فيه ـ أنه ركن أساسي من أركان التوضيح والتقريب.. لأنه الواسطة التي يوضح بها الفنان شعوره نحو شيء ما، حتى يصبح واضحا وضوحا وجدانيّا، وحتى يحس السامع بها أحس المتكلم به، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية، ذلك أنك تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل.. فإذا وصفته بما وصف القرآن الكريم به الذين لم يرتفعوا إلى مستوى كتبهم المقدسة؛ فقلت: إنه كالحمار يحمل أسفارا؛ فقد وصفت لنا شعورك نحوه، ودللت على احتقارك له، وسخريتك منه.

قال الأستاذ: فالغرض من التشبيه ـ حسب قولك ـ ليس قاصرا على التوضيح.. بل يتعداه إلى التأثير؟

---

(١) استفدنا الكثير من المادة العلمية هنا من كتاب: من بلاغة القرآن، البدوي، (١٤٧)، وما بعدها، مع التصرف الذي عهدناه في هذه السلسلة.

قال الطالب: أجل.. ولذلك رأيت من خلال بحثي في الموضوع قصور ما اعتمده البعض فيه، حيث اكتفوا بالروابط العقلية بين المشبه والمشبه به.. وأغفلوا في كثير من الأحيان وقع الشيء على النفس، وشعورها به سرورا أو ألما، مع أن التشبيه في واقع الأمر ليس سوى إدراك ما بين أمرين من صلة في وقعهما على النفس.. أما تبطن الأمور، وإدراك الصلة التي يربطها العقل وحده فليس ذلك من التشبيه الفنى البليغ..

ولهذا؛ فإن قيمة التشبيه ليست في نفاسة عناصره، بل بقدرته على التصوير والتأثير.. ولذلك رأيت أن أفضل تعريف للتشبيه هو لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسى.

قال الأستاذ: ما رأيكم فيما يقول زميلكم، وهل توافقونه عليه؟

قال بعض الطلبة[1]: أنا أوافقه في ذلك.. فبالتشبيه يوضح الفنان شعوره نحو شيء ما، حتى يصبح واضحا وضوحا وجدانيّا، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية، ذلك أنك عندما تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه، فليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل؛ فإذا قلت إنه كالحمار يحمل أسفارا، فقد وصفت لنا شعورك نحوه، ودللت على احتقارك له وسخريتك منه.

قال آخر: وأنا أوافقه أيضا.. ولهذا لم تنسجم نفسي مع ما ذكره بعض علماء البيان من استحسانهم لقول الشاعر في المدح:

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

فليس للمسك من أثر في النفس سوى ارتياحها رائحته الذكية، ولا يمر بالخاطر أبدا أنه بعض دم الغزال.. بل إن هذا الخاطر إذا مرّ بالنفس قلّل من قيمة المسك ومن التّلذذ به.. بالإضافة إلى أن تحول بعض دم الغزال إلى مسك ليس بظاهرة قريبة مألوفة، حتى تقرب إلى

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٦.

النفس ظاهرة تفوق الممدوح على الأنام، كما أن ظاهرة تحول الممدوح غير واضحة، ومن ذلك كله يبدو أن الرابط هنا مجرد رابط عقلي لا علاقة له بالنفس والوجدان.

١ . خصائص التشبيه:

قال آخر[١]: ومثله أنا.. ولهذا رأيت أن الجامع بين المشبه والمشبه به في القرآن الكريم أعظم من أن يقتصر على الحس.. بل هو يشمل الحس والنفس معا.. بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى.

ولهذا رأيت القرآن الكريم ـ حين يشبه محسوسا بمحسوس ـ يرمي أحيانا إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس..

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة على ذلك.

قال الطالب[٢]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى في وصف سفينة نوح عليه السلام: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]؛ فالجبال في هذا المشهد القرآني تصور للعين هذه الأمواج الضخمة، وتصور في الوقت نفسه، ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج، من رهبة وجلال معا، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال.

ومثله قوله تعالى، وهو يصف الجبال يوم القيامة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].. فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال، وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها.

ومثله قوله تعالى، وهو يصف القمر: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].. فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل، لا يزال يتنقل في منازله حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، وهذا الضوء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٧.

وحشته أنسا.. يصبح بعد هذا كله دقيقا نحيلا محدودبا لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له، ولا عناية بأمره، أو لا ترى في كلمة العرجون ووصفهما بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معا.

ومثله قوله تعالى، وهو يصف نيران يوم القيامة: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢-٣٣]، فالقصر وهو الشجر الضخم، والجمال الصفر توحي إلى النفس بالضخامة والرهبة معا.

قال الأستاذ: فهل فيكم ـ طلبتي الأعزاء ـ من يضرب لي أمثلة أخرى، مثلما فعل زميلكم النجيب.

قام بعض الطلبة، وقال: أجل.. أستاذنا.. لقد رأيت مثلما رأى زميلي أن للتأثير النفسي دورا كبيرا في اختيار التشبيهات في القرآن الكريم.. ولكن ذلك لا يعزل في أحيان كثيرة اشتراك الطرفين في صفة محسوسة.. لكن مع مراعاة الجانب النفسي.

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة على ذلك.

قال الطالب[1]: من الأمثلة على ذلك أن القرآن الكريم شبه نساء الجنة، فقال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٦-٥٨]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩]، وقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].. فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صاف حيّ فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تُصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط،

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٨.

أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون، فضلا عن نقاء اللون، فهى هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما، أو لا ترى في هذا الكون أيضا صلة تجمع بينهما، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أي نصيب..

وهكذا وجدت أن القرآن الكريم يوضح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة، حيث تلقى عليها أشعة الضوء التي تغمرها فتصبح شديدة الأثر، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ فهذا التشبيه يمثّل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله، وأنها لن تفيدهم أي فائدة، فهم يبذلون جهدا يظنونه مثمرا وهو لا يجدى.. وقد اختار العنكبوت ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء، ويبذل جهده في التنظيم، وهو لا يبنى سوى أوهن البيوت وأضعفها، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوي، فزادته وضوحا وتأثيرا.

ومثل ذلك عندما يريد القرآن الكريم أن يحدثنا عن أعمال الكفرة، وأنها لا غناء فيها، ولا ثمرة ترجى منها، فهى كعدمها؛ فوجد في الرماد الدقيق، الذي لا تبقي عليه الريح العاصفة، صورة تبين ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]

قال الأستاذ: على حسب ما سمعت منكم، لا يوجد في القرآن الكريم سوى هذين اللونين من التشبيه: تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمحسوس.. فهل هذا صحيح، أم أن هناك ألوانا أخرى؟

قام بعض الطلبة، وقال[1]: هناك لون آخر.. يمكننا تسميته التشبيه الخيالي.. وله تأثيره النفسي الكبير.. وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥]، والذي سمح بأن يكون المشبه به خياليّا، هو ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من تصورات وأوهام رسمت في النفس صورة رؤوس الشياطين في هيئة بشعة مرعبة، وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن، ويقوى فعلها في النفس، حتى كأنها محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح.. ولا يستطيع أحد أن ينكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس.

ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]؛ ففي الخيال صورة قوية للجان، تمثله شديد الحركة التي لا تكاد تهدأ أو تستقر.

قال الأستاذ: جميل جدا كل ما ذكرتم، وهو يدل على ذوقكم الرفيع.. والآن اسمحوا لي أن أبدأ باختباركم وأسئلتكم.. وأول سؤال أريد اختباركم فيه عن التشبيه الوارد في قول الشاعر:

كأن آذريونها ... والشمس فيه كالية

مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فما ترون عند مقارنتكم هذا التشبيه بما في القرآن الكريم من تشبيهات؟

قام بعض التلاميذ، وقال: الفرق واضح أستاذنا؛ فالتشبيه الذي ذكره الشاعر، لا يستطيع فهمه عامة الناس، بل لا يفهمه إلا من كان يعيش في مثل حياة الشاعر، وله من أدوات الترف مثل أدواته.. ولذلك لن يحدث فيهم أي تأثير.. بخلاف ما يذكره القرآن

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٩.

الكريم من تشبيهات؛ فهي كلها مستمدة من أشياء موجودة يراها جميع الناس، وبسهولة ويسر.

قال آخر[1]: أجل أستاذنا.. فمن خصائص التشبيه في القرآن الكريم أنه يستمد عناصره من الطبيعة المحسوسة المعروفة.. وذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة.. وهو سر عمومه للناس جميعا، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة منهم، وبين أيديهم، ولذلك لا تجد في القرآن الكريم تشبيها مصنوعا يدرك جماله فرد دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان.

قال الأستاذ: فهلا ضربتم لي أمثلة على ذلك.

قام بعض الطلبة، وقال: من الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].. فهذا التشبيه يعتمد السراب، وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعا، فيغرهم مرآها، ويمضون إلى السراب يظنونه ماء، فيسعون إليه، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد، فلا يجدون شيئا مما كانوا يؤمّلون، إنه يجد في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة، التي تظن أنها مجدية نافعة، وما هي بشيء.

قال آخر[2]: من الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].. فتشبيه قساة القلوب بالحجارة القاسية واضح جدا؛ فالقسوة عند ما تخطر بالذهن،

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٠.

يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية.

قال آخر(١): من الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ الله الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فإذا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فإذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ الله أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩].. فالتشبيه يصور الخائف الفزع الجبان بالذي يعالج سكرات الموت، فتدور عينه حول عواده في نظرات شاردة تائهة.

قال آخر(٢): من الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].. فهو تشبيه يصور أصحاب رسول الله ﷺ، وقد بدؤوا قلة ضعافا، ثمّ أخذوا في الكثرة والنماء، حتى اشتد ساعدهم، وقوى عضدهم، وصاروا قوة تملأ قلوب المؤمنين بهجة، وقلوب الكفار حقدا وغيظا.. بصورة الزرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا، ثمّ لا يلبث ساقه أن يقوى، بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده، ويغلظ، حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه.

قال آخر(٣): من الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩-٢٠]،

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥١.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥١.

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].. فهذا التشبيه يعتمد أعجاز النخل المنقعر المقتلع عن مغرسه، والهشيم الضعيف الذاوى ليرسم من خلاله صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى، قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم عن أماكنهم، فألقوا على الأرض مصرّعين هنا وهناك.

قال الأستاذ: جميل جدا كل ما ذكرتموه من الأمثلة.. وأنا أوافقكم تماما عليه.. فالقرآن الكريم يتخذ من الطبيعة التي يراها الناس جميعا ميدانا يقتبس منه صور تشبيهاته، من نباتها وحيوانها وجمادها..

قام بعض الطلبة، وقال(١): أجل أستاذنا.. فمما اتخذ مشبَّها به من نبات الأرض العرجون، وأعجاز النخل والعصف المأكول، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، والحبة تنبت سبع سنابل، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه.

قال آخر: ومما اتخذ مشبَّها به من حيوانها الإنسان في أحوال مختلفة، والعنكبوت والحمار، والكلب، والفراش، والجراد، والجمال، والأنعام.

قال آخر: ومما اتخذ مشبَّها به من جمادها العهن المنفوش، والصيب، والجبال، والحجارة، والرماد، والياقوت، والمرجان، والخشب.

قال آخر: ومع كل ذلك؛ فقد ورد تشبيه نور الله بمصباح، وصفه بأنه في زجاجة كأنها كوكب دريّ؛ هذا ولا يعكر ما ذكرتموه من استمداد القرآن الكريم عناصر التشبيه من الطبيعة، لأن المصباح باق ما بقي الإنسان في حاجة إلى نور يبدد به ظلام الليل.. وهومتاح لكل الناس مهما كانت أحوالهم.

قال الأستاذ: جميل جدا كل ما ذكرتموه.. وهو يدل على أن القرآن الكريم لا يعني

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٢.

بنفاسة المشبه به، وإنما يعني العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس، وشدة وضوحها وتأثيرها.. والآن هل فيكم من وجد خاصية أخرى في التشبيهات القرآنية غير التي ذكرها زملاؤكم؟

قام بعض الطلبة، وقال(١): أجل.. لقد وجدت من خلال دراستي للتشبيهات القرآنية أنها ليست مجرد عناصر إضافيّة في الجملة تزينها، ولكنها جزء أساسي فيها، بحيث لا يتم المعنى من دونها.. ولذلك كان دورها أن تضع الفكرة في صورة واضحة مؤثرة..

نعم، القرآن الكريم لا يمضي إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة، يتطلبه المعنى ليصبح واضحا قويّا..

ومن الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ ففكرة عدم سماع المنافقين للحق وأنهم لا ينطقون به، ولا ينظرون إلى الأدلة التي تهدي إليه، نقلها التشبيه في صورة قوية مؤثرة.

ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦]، ففيه تشبيه شدة الفزع والرهبة التي ألمت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفعهم إيمانهم إليه في رضاء وتسليم، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم، بذلك الذي يساق إلى الموت، وهو ينظر.

ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]، والذي يُفهم منه اضطراب المرأة وقلقها، وعدم استقرارها على حال، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٣.

ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والذي يدل على مدى حب المشركين لآلهتهم.

قال الأستاذ: جميل جدا ما ذكرت.. فللتشبيه في القرآن الكريم دور أساسي في توضيح الفكرة وتصويرها.

قال الطالب: لكني يا أستاذ توقفت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].. فهذا التشبيه ورد بعد أن اتضحت الفكرة نوع وضوح.

قال الأستاذ[1]: أجل.. ولكن مع ذلك؛ فإنك إن تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: وإذ صار الجبل كأنه ظلة، لما في كلمة (نتق) من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويرا يوحي إلى النفس بالرهبة والفزع، ولما في كلمة (فوقهم) من زيادة هذا التصوير المفزع وتأكيده في النفس، وذلك كله يمهد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكن للصورة في النفس، ووطد من أركانها.. ومع ذلك ليس التشبيه في الآية عملا إضافيا، بل فيه إتمام المعنى وإكماله، فهو يوحي بالإحاطة بهم، وشمولهم، والقرب منهم قرب الظلة من المستظل بها، وفي ذلك ما يوحي بخوف سقوطه عليهم.

قام طالب آخر، وقال[2]: لقد وجدت ـ أستاذنا الكريم ـ بالإضافة إلى ما ذكره زملائي من خصائص أن التشبيهات القرآنية تتميز بالدقة؛ فالقرآن الكريم يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة.

ومن الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].. فقد يتراءى بادئ الرأي أنه يكفي في التشبيه أن يقال: مثلهم

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٣.

كمثل الحمار الذي لا يعقل، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا والتحاما، حين يقرن بين هؤلاء، وقد حملوا التوراة، فلم ينتفعوا بها فيها، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدري مما ضمته شيئا، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية وثيقة.

قال آخر(١): أجل.. ومثله التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].. فربما بدا بادئ الرأي أنه يكفي في تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير، ولكنه في دقته لا يكتفي بذلك، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها، إسراعا يمضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجري خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجري غير مهتدية في جريها.. فصورة هذه الحمر وهي تجد في هربها لا تلوي على شيء، تبغي الفرار من أسد يجري وراءها، تنقل صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شيء، سائرين على غير هدى.. وفوق ذلك ما تبعثه هذه الصورة من الهزء والسخرية بهم.

قال آخر(٢): أجل.. ومثله التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ [المنافقون: ٤]؛ فالآية الكريمة تصف المنافقين بكونهم كالخشب المُسَنَّدَةٌ.. فهي ليست خشبا قائمة في أشجارها لما قد يكون لها من جمال في ذلك الوضع، وليست موضوعة في جدار؛ لأنها حينئذ تؤدي عملا، وتشعر بمدى فائدتها، وليست متخذا منها أبواب ونوافذ، لما فيها من الحسن والزخرف والجمال، ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال، وتوحي بالغفلة والاستسلام والبلاهة.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٤.

قال آخر[1]: أجل.. ولهذا لم يكتف القرآن الكريم بتشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن، بل وصفها بالمنفوش، إذ قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وذلك مراعاة للدقة في تصوير هشاشة الجبال.

قال آخر: أجل.. ولهذا لم يكتف القرآن الكريم بتشبيه خروج الناس يوم القيامة بأنهم كالجراد، بل وصفه بالمنتشر، فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] حتى يكون دقيقا في تصوير هذه الجموع الحاشدة، خارجة من أجداثها منتشرة في كل مكان تملأ الأفق، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف.

قال الأستاذ: جميل جدا كل ما ذكرتموه.. فهل هناك خواص أخرى غير ما ذكرتم.

قام بعض الطلبة، وقال[2]: أجل.. لقد وجدت من خصائص التشبيه في القرآن الكريم المقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية..

ومن الأمثلة على ذلك أنه شبه بالجبال في موضعين، أولهما ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، والثاني ما ورد في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢].. وهنا نلاحظ أنه آثر كلمة الجبال عند الموج، لكونها توحي بالضخامة والجلال معا.. أما عند وصف السفن فقد آثر كلمة الأعلام ـ جمع علم بمعنى جبل ـ وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة، ولما كان من معاني العلم الراية التي تستخدم للزينة والتجميل، كان ذكر الأعلام محضرا إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظا عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معا، وفي كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٤.

قال آخر[1]: أجل.. وقد اكتشفت نفس الشيء في تشبيه القرآن الكريم الموج، والذي ورد في موضعين، أولهما ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، والثاني ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وسر هذا التنويع أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عاليا ضخما، مما تستطيع كلمة الجبال أن توحي به إلى النفس، أما الآية الثانية فتصف قوما يذكرون الله عند الشدة، وينسونه لدى الرخاء، ويصف موقفا من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج.. ألا ترون أن الموج يكون أشد إرهابا وأقوى تخويفا إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس، هنالك يملأ الخوف القلوب، وتذهل الرهبة النفوس، وتبلغ القلوب الحناجر، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق.

قال آخر[2]: أجل.. وقد اكتشفت نفس الشيء، حيث رأيت القرآن الكريم يؤثر كلمة ﴿الْقَصْرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢] على الشجر الضخم؛ لأن الاشتراك في هذه الكلمة بين هذا المعنى، ومعنى البيت الضخم يثير المعنيين في النفس معا فتزيد الفكرة عن ضخامة الشرر رسوخا في النفس..

قال آخر[3]: أجل.. وقد اكتشفت نفس الشيء، حيث رأيت القرآن الكريم يؤثر ﴿بُنْيانٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] لما تثيره في النفس من معنى الالتحام والاتصال والاجتماع القوى، وهو ما لا يثار في النفس عند كلمة حائط أو جدار مثلا.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٥.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٥.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٥.

قال آخر[1]: أجل.. وقد اكتشفت نفس الشيء، حيث رأيت القرآن الكريم يؤثر كلمة ﴿لِباسٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] لما توحي به تلك الكلمة من شدة الاحتياج، كاحتياج المرء للباس يكون مصدر راحة، وعنوان زينة معا.

قال الأستاذ: أحسنتم جميعا.. فهل هناك خصائص أخرى للتشبيهات القرآنية، غير ما ذكرتم.

قام بعض الطلبة، وقال: لقد رأيت من خلال بحثي في التشبيهات القرآنية أن المشبَّه قد يكون واحدا، ويشبه بأمرين أو أكثر لمحا لصلة تربط بين هذا الأمر وما يشبهه، تثبيتا للفكرة في النفس.. أو لمحا لها من عدة زوايا.

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة على ذلك.

قال الطالب[2]: من ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠]

فهو يصور حيرة المنافقين واضطراب أمرهم، بصورة الساري قد أوقد نارا تضيء طريقه، فعرف أين يمشى، ثمّ لم يلبث أن ذهب الضوء، وشمل المكان ظلام دامس، لا يدري السائر فيه أين يضع قدمه، ولا كيف يأخذ سبيله، فهو يتخبط ولا يمشي خطوة حتى

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٥.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٥.

يرتد خطوات.. ثم يربط هذه الصورة بصورة هذا السائر تحت صيّب من المطر قد صحبه ظلمات ورعد وبرق، أما الرعد فمتناه في الشدة إلى درجة أنه يود اتقاءه بوضع أصابعه إذا استطاع في أذنه، وأما البرق فيكاد يخطف البصر، وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء السبيل.

قال آخر[1]: ومثل ذلك التشبيهات الواردة في وصف أعمال الكافرين، ومنها ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].. فهذا التشبيه يصور أعمال الكافرين من جهة كونها لا أثر لها ولا نتيجة، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق الذي لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ؛ لأنها في يوم عاصف.. فهذه الريح كفيلة بتبديد ذرّات هذا الغبار شذر مذر، وأنها لا تبقي عليه ولا تذر، وكذلك أعمال الكافرين، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر، حتى تبددها ولا تبقي عليها.

ومن ناحية أخرى يصف هذه الأعمال بأنها تغر أصحابها فيظنونها نافعة لهم، مجدية عليهم، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئا.. ولهذا اختار السراب ممثلا لهذا الأمل المطمع، ذي النهاية المؤيسة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]

ومن ناحية أخرى ينظر إليها من ناحية ما يلم بصاحبها من اضطراب وفزع، عند ما يجد آماله في أعماله قد انهارت، حيث تظلم الدنيا أمام عينيه ويتزلزل كيانه كهذا الذي اكتنفه الظلام في بحر قد تلاطمت أمواجه، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج؛ فيشعر

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٦.

بمصيره اليائس، وهلاكه المحتوم.. وهذه هي صورة هؤلاء الكفار عند ما يجيئون إلى أعمالهم، فلا يجدون لها ثوابا ولا نفعا، قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]

٢. أغراض التشبيه:

قال الأستاذ: بورك فيكم جميعا.. والآن حدثوني عما وجدتم في بحثكم عن أغراض التشبيه في القرآن الكريم.

قام بعض الطلبة، وقال[١]: لقد وجدت من أهمها استخدامه في الترغيب والترهيب.. ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه الذي يصور نفسياتهم، ويزيدها وضوحا.. كما يصور وقع الدعوة على قلوبهم، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ الله تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧-٨]؛ فهذه الآيات الكريمة تصور حال المشركين الذين استمعوا إلى دعوة الداعى، فلم تثر فيهم رغبة في التفكير فيها، لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق، وما قد يكون فيها من صواب، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة، بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئا، ولم يطرق أذنه عنها نبأ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صمم، فهو لا يسمع شيئا مما يدور حوله، وبمن أصيب بالبكم، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه، وبمن أصيب بالعمى، فهو لا يرى الحق الواضح.

قال آخر[٢]: ومن الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٦.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٧.

يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]؛ فهو يشبّه ما يشعرون به عندما يسمعون دعوة الحق فتضيق صدورهم بها، بالضيق الذي يشعر به الصاعد في جبل، فهو يجر نفسه ويلهث من التعب والعناء.

قال آخر(١): ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ فهو يشبه هؤلاء الذين لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له، ولم تصغ آذانهم إصغاء من يسمع ليتدبر، بالأنعام؛ فهو يقرنهم بها، ويعقد بينهم وبينها وثيق الصلات.. وفي هذا التشبيه نلاحظ كيف مهد له التمهيد الصالح، فجعل لهم قلوبا لا يفقهون بها، وأعينا لا يبصرون بها، وآذانا لا يسمعون بها.. وهو ما يمهد للنفس أن تنزلهم منزلة البهائم.

قال آخر(٢): ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]؛ فهو يصورهم، وقد جدوا في الهرب والنفرة من تلك الدعوة الجديدة بصورة الحمر الفارة من السباع.

قال آخر(٣): ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]؛ وهو تشبيه يليق

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٧.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

بالذي آمن ثمّ كفر، وانسلخ عن الإيمان واتبع هواه، فقد عاش مثال الذلة والهوان، وقد وجد القرآن الكريم في الكلب شبها يبين عن خسته وحقارته، ومما يزيد في الصلة بين الاثنين أن هذا المنسلخ يظل غير مطمئن القلب، مزعزع العقيدة، مضطرب الفؤاد، سواء أدعوته إلى الإيمان، أم أهملت أمره، كالكلب يظل لاهثا، طردته وزجرته، أم تركته وأهملته.

قال آخر(١): ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وهو تشبيه يصورهم بالذي يبسط كفه إلى الماء، يريد وهو على تلك الحال أن ينقل الماء إلى فيه، وما هو ببالغه.

قال آخر(٢): ومنها التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].. وهو يشبه صدقاتهم التي كان جديرا بها أن تثمر وتزهر، ويفيدوا منها، لكن ريح الشرك هبت عليها فأبادتها، كما تهب الريح الشديدة البرد بزرع كان ينتظر إثماره فأهلكته.

قال آخر(٣): ومثلها طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة، تصور أحداثها لتحدث تأثيرها النفسي الكبير، ومن الأمثلة على ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].. وهو يشبه قدرة الله على أن يأتي بذلك اليوم، بأسرع مما يتصور المتصورون، بأسرع ما يراه الرائى، وهو لمح البصر.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

قال آخر[1]: ومثله تشبيه المعاد بالمبدأ، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].. فهو يقرب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بدء الإنسان، وأن هذا البعث صورة من هذا البدء.

قال آخر[2]: ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].. فهو يوجه النظر إلى السحاب الثّقال الذي يسوقه الله لبلد ميت، حتى إذا نزل ماؤه دبت الحياة في أوصال الأرض، فخرج الثمر منها يانعا، وهكذا يخلق الله الحياة في الموتى.

قال آخر: ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].. فهو يذكّر بأنه إذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس، وحينها يشعرون بأنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا وقتا محدودا جدا، وهو يصور حالتهم النفسية حينذاك بصورة الألم للخسارة الشديدة التي منوا بها نتيجة تفريطهم في الاستعداد للآخرة.

قال آخر[3]: وقد ورد ما هو قريب من هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]

قال آخر[4]: وهو يصور هؤلاء الذين قد بعثوا، خارجين من أجداثهم في كثرة لا تدرك العين مداها، ويرسمهم بصورة تدل على الغزارة والحركة والانبعاث، قال تعالى:

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٨.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٧-٨]

قال آخر(١): ويصوّرهم ضعافا يتهافتون مسرعين إلى الداعي كي يحاسبهم، بصورة الفراش يسرع إلى الضوء، فيقول: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ١-٤]

قال آخر(٢): ويصوّر إسراعهم بالذين كانوا يسرعون في خطوهم، ليعبدوا أنصابا مقامة، وتماثيل منحوتة، كانوا متحمسين في عبادتها، يقبلون عليها في رغبة واشتياق، فيقول: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]

قال آخر(٣): ويصوّر المجرمين، وما سوف يجدونه يومئذ من ذلة وخزى، ويرسم وجوههم، وقد علتها الكآبة، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]

قال آخر(٤):ويصوّر طعامهم بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٢-٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].. وهو تشبيه يثير في النفس خوفا وانزعاجا.. فهو يتكون من شجرة الزقوم التي يتناولونها فيحسون بنيران تحرق أمعاءهم؛ فكأنما طعموا نحاسا ذائبا أو زيتا ملتهبا، وإذا ما اشتد بهم الظمأ واستغاثوا قدمت إليهم مياه كالنحاس

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٩.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٩.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٩.

والزيت تشوي وجوههم.

قال آخر(١):ويصوّر آكل الربا يوم القيامة بصورة منفرة، فيقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ وهي صورة ذلك الذي أصابه مس من الشيطان، فهو لا ينهض واقفا حتى يسقط، ولا يقوم إلّا ليقع.

قال آخر(٢): وهكذا يصوّر القرآن الكريم يوم القيامة، وكيف تفقد الجبال تماسكها، وتصير ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وتفقد السماء نظام جاذبيتها، فتنشق، ويصبح الجوّ ذا لون أحمر كالورد: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].. وأما جهنم فضخامتها وقوة لهبها مما لا يستطيع العقل تصوره، ومما لا يمكن أن تقاس إليها تلك النيران التي نشاهدها في حياتنا.. فشررها ليس كهذا الشرر الذي يشبه الهباءة اليسيرة، وإنما هو شرر ضخم ضخامة غير معهودة، فهو مثل أشجار ضخمة تتهاوى، أو جمال صفر تتساقط: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢-٣٣].. وأما الجنة ففي سعة لا يدرك العقل مداها، ولا يستطيع التعبير أن يحدها، أو يعرف منتهاها، ويأتي التشبيه ممدا في الخيال، كي يسبح ما يشاء أن يسبح، فيقول: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].. وهكذا نرى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضرا، ويقرب البعيد النائي حتى يصير قريبا دانيا.

قال آخر(٣): وهكذا يصوّر القرآن الكريم فناء هذا العالم الذي نراه مزدهرا أمامنا، عامرا بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره وخلوده، بالزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجا نضرا، يعجب رائيه، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر، ويصبح هشيما تذروه الرياح.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٩.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٠.

وقد أوجز القرآن الكريم مرة في هذا التشبيه وأطنب في أخرى، ليستقر معناه في النفس، ويحدث أثره في القلب، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]

قال آخر(١): وهكذا يصوّر القرآن الكريم الإنفاق بأجمل الصور وأكثرها تأثيرا في النفس، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].. فلهذا التشبيه أثره في دفع النفس إلى بذل المال راضية مغتبطة، كما يغتبط من له جنة قد استقرت على مرتفع من الأرض، ترتوي بما هي في حاجة إليه من ماء المطر، وتترك ما زاد عن حاجتها، فلا يظل بها حتى يتلفها، كما يستقر في المنخفضات، فجاءت الجنة بثمرها مضاعفا.

قال آخر(٢): ويشبه القرآن الكريم مضاعفة جزاء الحسنة بمضاعفة الثمرة، لهذا الذي يبذر حبة قمح، فتخرج عودا يحمل سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، قال تعالى:

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٠.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

قال آخر[١]: ويشبه القرآن الكريم من لا يراعي في صدقته ما تقتضيه من الأخلاق والآداب بالحجر الصلد قد غطته قشرة رقيقة من التراب؛ فخاله الرائي صالحا للزرع والإنبات، ولكن وابل المطر لم يلبث أن أزال هذه القشرة فبدا الحجر على حقيقته، صلدا لا يستطيع أحد أن يجد فيه موضع خصب، ولا تربة صالحة للزراعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]..

انظروا كيف اختار الله تعالى كلمة ﴿صَفْوَانٍ﴾ لتمثل القلب الخالي من الشعور الإنساني النبيل، لكن الصدقة تغطيه بثوب رقيق حتى يخاله الرائي قلبا ينبض بحب الإنسانية، لكن الرياء والمن والأذى لا تلبث أن تزيل هذا الغشاء الرقيق، فيظهر القلب على حقيقته قاسيا صلبا لا يلين.

٣. أدوات التشبيه:

قال الأستاذ: بورك فيكم جميعا.. والآن حدثوني عما وجدتم في بحثكم عن أدوات التشبيه في القرآن الكريم.

قام بعض الطلبة، وقال[٢]: لقد وجدت من أهمها استخدامه الكاف، لا للتشبيه الفني الخالص، بل لإيقاع التساوي بين أمرين، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦١.

مُقِيمٌ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٨-٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦]

ففي هذه الآيات الكريمة نرى موازنة بين الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ وبين من سبقهم، ويبين لهم الوجوه التي يتفقون فيها معهم.. ويذكر ما أصاب سابقيهم، ثم يترك لهم فرصة التفكير ليصلوا بأنفسهم إلى ما ينتظرهم من العواقب.. وهي طريقة مؤثرة في النفس، حيث تضع لها شبيها، وتتركها تصل بنفسها إلى النتيجة في سكينة وهدوء، لا أن تقذف بها في وجهها، فربما تتمرد وتثور.

قال آخر[١]: ومن الأمثلة على كاف التساوي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وهو تشبيه يهدف إلى إزالة الغرابة عن نفوس السامعين، واستبعادهم نزول الوحي على الرسول ﷺ، فالقرآن الكريم يقرنه بمن لا يشكّون في رسالته، ليأنسوا بدعوة النبى ﷺ.

قال آخر[٢]: ومن الأمثلة على كاف التساوي قوله تعالى في معرض التهكم بالجاحدين: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦١.

قال آخر[1]: ومثله في معرض الاستنكار، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِّ فإذا أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِّ﴾ [العنكبوت: ١٠].. فسر الاستنكار هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله.

قال آخر[2]: وقد تأتي الكاف وسيلة للإيضاح، وتقوم هي وما بعدها مقام المثال للقاعدة، ولهذا دوره الكبير في التأثير والإقناع، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ الله شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١٠-١١]؛ فقد ضرب الله تعالى المثل بآل فرعون لأولئك الذين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا.

قال آخر[3]: ومثل ذلك الكاف الواردة في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]

قال الأستاذ: فهل هناك أدوات أخرى للتشبيه غير الكاف؟

قام بعض الطلبة، وقال[4]: أجل.. القرآن الكريم يستعمل ﴿كَذَلِكَ﴾ للتشبيه.. وقد وردت فيه في أكثر من مائة موضع دالة على التشبيه، وعلى غيره.

وهي تدل عليه عند ما يراد عقد الصلة بين أمرين، ولمح ما بينهما من ارتباط، وهنا يؤدي التشبيه دوره في إيضاح المعنى وتوطيده في النفس، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦١.
(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٢.
(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٢.
(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٢.

فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].. فقد استخدمت ﴿كَذَلِكَ﴾ هنا لبيان الصلة الوثيقة بين بعث الحياة في الموتى، وبين بعث الحياة في الأرض الميتة، حيث تنبت من كل الثمرات.. وهذا مما يشترك في رؤيته الجميع، حيث يرون أرضا ميتة لا حياة فيها، ثم لا يلبث السحاب الثقال أن يفرغ عليها مطره، فلا تلبث أن تزدهر وتخرج من كل زوج بهيج، وذلك مما يبعث في النفس الاطمئنان إلى حقيقة البعث، والإيمان بها، فلا جرم انعقد التشبيه بين البعثين، وزاد التشبيه الفكرة جلاء.

قال آخر(١): ومثل ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].. فهذا التشبيه يصور أصحاب هذه الجنة، وقد أقسموا أن يستأثروا بثمر جنتهم، وأن يجنوا ثمارها مبكرين في الصباح، ولم يدر بخلدهم الاستعانة بالله في عملهم، وبينما هم يستعجلون قدوم الصباح، ويحلمون بالثروة التي ستدرّها عليهم حديقتهم، طاف على تلك الجنة طائف أباد ثمرها وهم نائمون، وفي بكرة الصباح أسرع بعضهم ينادي بعضا أن الخير في البكور، فانطلقوا لا تكاد تسمع لأقدامهم وقعا، يتهامسون

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٣.

وهم يتحدثون، كي لا يسمع مسكين صوتهم، فيتبعهم، ولقد وصلوا إلى حديقتهم، واطمأنوا إلى أنهم سيقدرون على إحراز غلتها، ومنع المساكين منها فما راعهم إلا أن وجدوا أشجارهم بلا ثمار، وجنتهم جرداء مقفرة، هنالك ملأ الندم قلوبهم، وأخذ بعضهم يلوم بعضا، يتحسرون على أمل قد ضاع، وعلى ما اقترفوه من ظلم وطغيان.. فهذا العذاب الذي صار إليه هؤلاء القوم، عذاب من فقد أمله وقد كان قريبا من يده، وعذاب من يؤنبه ضميره على جرم اقترفه، وقد رأى جزاءه أمام عينيه، وهو عذاب نفسي أليم جدير بأن يكون مثالا ينذر به الله كل من يتصرف تصرف أصحاب هذه الجنة.

قال آخر(١): ومثل ذلك التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]، وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].. وما على نسق هذه الآيات مما تعقد فيه الكاف صلة بين أمرين.

قال آخر(٢): وقد تأتي ﴿كَذَلِكَ﴾ في كثير من الآيات بمعنى [مثل] في قولنا: (مثلك لا يكذب)، نقصد بذلك الشهادة بعدم الكذب لكونه ليس من صفاتك، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٥-٢٦٦]، وهي تعني أن الله تعالى يبين الآيات بذلك

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٤.

البيان الجليّ الواضح المؤثر، لعله يثمر ثمرته فيدعو سامعيه إلى التفكير والتدبر

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فليس المراد هنا أن المجرمين يجزون جزاء يشبه الجزاء الموصوف في الآية الكريمة، وإنما يجزون هذا الجزاء نفسه، من غلق أبواب السماء في وجوههم وأنهم لا يدخلون الجنة أبدا.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، فالمراد من ذلك أن الله يطبع على قلوب الكافرين ذلك الطبع الذي يحول بينهم وبين الإيمان بما كذبوا من قبل.

قال آخر(٣): وقد تأتي ﴿كَذَلِكَ﴾ لتحقيق المعنى وتثبيته، ولا يبدو فيها التشبيه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقوله: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠-٢١]

قال آخر(٤): وهي تفيد التحقيق وتأكيد الجملة، ويكثر ذلك عند ما يليها فعل ماض، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٤.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٤.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٥.

قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢-١٢٣]، وقوله: ﴿فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٢-٣٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٢٨-٣٠]

٤. أمثال قرآنية:

قال الأستاذ: بورك فيكم جميعا.. والآن دعونا ننتقل إلى فن آخر من فنون التوضيح والتقريب التي اعتمدها القرآن الكريم، وأثنى كثيرا على العاقلين لها، المفكرين فيها.

قام بعض الطلبة، وقال: لاشك أنك تقصد الأمثال، فهي التي قال عنها ربنا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]

قال آخر: وهي التي اتفق جميع العقلاء على أهميتها واعتبارها وتأثيرها، وقد قال بعضهم يذكر ذلك: (فهذه وأمثالها من الأمثال لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه صورة المثال الذي مَثَّل به، فإنه قد يكون أقربَ إلى تَعقُّله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإنَّ النفسَ تأنس بالنظائر والأشباه الأُنسَ التام، وتنفِرُ من الغُربة والوَحْدَة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمرٌ لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما

ظهرتْ لها الأمثال ازْدَادَ المعنى ظهورًا، ووضوحًا، فالأمثالُ شواهدُ المعنى المراد، ومزكية له، فهي: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهي خاصة العقل ولبّه وثمرته) (١)

وقال آخر: (إنّ التمثيل ليس إلاّ إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس، لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفيّة، وفهم الدّقائق الأبيّة؛ كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء.. فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيّ، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا، وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازها لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف) (٢)

قال الأستاذ: ما دمتم قد ذكرتم هذا؛ فاسمحوا لي أن أختبر عقلكم وفهمكم وتذكركم في هذه الجوانب.. وسأحدد أنا الطلبة الذين يجيبون(٣).

أشار إلى بعض الطلبة، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٤٢٥)

(٢) هامش تفسير الفخر الرازي:١/ ١٥٦.

(٣) استفدنا معظم الشروح الواردة هنا، والمتعلقة بالأمثال القرآنية من كتاب [إعلام الموقعين] في الفصل الذي خصصه بالأمثال، ثم طبع بعدها كتابا، لأنه أحسن ما كتب في الموضوع، وأيسره، وقد حذفنا منه كل المواضع التي ينتصر فيها ابن القيم لرؤيته العقدية المعروفة. أما ما كتب غيره من التفاصيل الكثيرة؛ فسنذكرها في المحال المناسبة لها، لأن الغرض هنا قاصر على فهم الأمثال القرآنية.

تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]

قال الطالب[1]: النور المراد هنا هو النور الذي يغمر القلب، ويشرق على الضمير، فيهدي إلى سواء السبيل، ذلك أن القلب ليس في حاجة إلى أكثر من هذا المصباح، يلقي عليه ضوءه، فيهتدي إلى الحق، وأقوم السبل.. وفي اختيار هذا التشبيه إيحاء بحالة القلب وقد لفه ظلام الشك، فهو متردد قلق خائف، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه، فيجد الراحة والأمن والاستقرار، فهو كساري الليل يخبط في الظلام على غير هدى، حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح في المشكاة، وجد الأمن سبيله إلى قلبه، واستقرت الطمأنينة في نفسه، وشعر بالسرور يغمر فؤاده.

ونرى الآية الكريمة تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق في وصفه، بما يصور قوته وصفاءه، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدر ولمعانه، أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب، فصفا لذلك زيتها حتى ليكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.. وبذلك فإن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل، ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك، ويمزق دجى الكفر والنفاق.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ الله

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٥٠.

لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠]

قال الطالب(١): ضرب الله تعالى في هذه الآيات الكريمة للمنافقين بحسب حالهم مَثَلين: مثلًا ناريًا، ومثلًا مائيًا، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة، وقد جعل الله الوحي الذي أنزله من السماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سماه روحًا ونورًا، وجعل قَابِلِيه أحياءَ في النور، ومن لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل بنارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عَمِي، وعَرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صَيِّب ـ وهو المطر الذي يَصوب، أي ينزل من السماء ـ فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم، وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: لقد ذكر الله المثلين المائي والنَّاري في حق المؤمنين؛ فهل لك أن تذكر لنا موضعه وتفسيره؟

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٠.

قال الطالب(١): أجل.. المثل في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، حيث شبه الله تعالى الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كواد كبير يسع ماءً كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها؛ وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومرَّ عليها احتمل غثاءً وزبدًا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوبَ أثار ما فيها من الشَّهوات والشُّبهات ليَقْلَعَها ويُذهبها، كما يثير الدواءُ وقتَ شُرْبه من البدن أخلاطَه فيتكدَّر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهَب بها؛ فهكذا يضرب الله الحق والباطل.

قال الأستاذ: هذا عن المثل المائي.. فما معنى المثل الناري الوارد في قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ [الرعد: ١٧]

قال الطالب(٢): ﴿زَبَدٌ﴾ هو الخَبَثُ الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتُخرجُه النار وتميِّزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيُرمى ويُطرح ويذهب جُفاءً؛ فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزَّبدَ والغُثاءَ والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماءُ الصَّافي الذي يستقي منه الناسُ ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمانُ الخالصُ الصَّافي الذي يَنفع صاحبه ويَنْتفع به غيره.

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٠.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٠.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في الحياة الدنيا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]

قال الطالب[١]: شبَّه الله تعالى الحياة الدنيا في الآية الكريمة بأنها تتزين في عين الناظر فتروقُه بزينتها وتُعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظنَّ أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشَبَّهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتَعْشُب ويحسنُ نباتُها ويروق منظرها للناظر، فيغترُ بها، ويظن أنه قادرٌ عليها، مالكٌ لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتَها الآفةُ بغتةَ، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها؛ فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء.. وهذا من أبلغ التشبيه والقياس، ولهذا جاء بعدها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، ذلك أنه لما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها، سماها ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ لسلامتها من الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعمَّ بالدعوة إليها جميع الخلق، وخصَّ بالهداية مَنْ يشاء ويرغب.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في المؤمنين والكافرين: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]

قال الطالب[٢]:ذكر الله تعالى في الآية الكريمة الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٣.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٤.

يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه؛ فشُبِّه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في الذين اتخذوا من دون الله الأولياء: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]

قال الطالب[(١)]: ذكر الله تعالى في الآية الكريمة الكفار، وأنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءَهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها؛ وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء؛ فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليًا يتعزَّز به ويتكبّر

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٤.

به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضدِّ مقصوده.

قال الأستاذ: ما داموا يعلمون أنّ أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نَفى عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؟

قال الطالب: لم ينف الله تعالى عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزًا وقوة، فكان الأمر بخلاف ما ظنُّوه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في أعمال الكافرين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]

قال الطالب(١): ذكر الله تعالى في الآيتين الكريمتين للكافر مثلين: مثلًا للسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المعرضين عن الهدى و الحق نوعان: أحدهما من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة، يُرى في عين الناظر ماءً ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره، يحسبها العامل نافعة له وهي ليست كذلك.. وهذه الأعمال التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٦.

عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].. وقال في أصحابها: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣-٤]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]

وقد وصف الله تعالى محل السراب بكونه ﴿قِيعَةٍ﴾، وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات، فمَحَلُّ السَّرابِ أرضٌ قَفْر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى.

وهكذا وصف الناظر إلى الماء بكونه ظمآن، والظمآن الذي قد اشتدَّ عطشه، فرأى السراب فظنه ماءً فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء، لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول، ولغير اللهَّ، جُعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا، بل وجدوا بدلها زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق[1].

قال الأستاذ: حدثتنا عن مثل السراب؛ فحدثنا عن مثل الظلمات المتراكمة.

قال الطالب[2]: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، هو للذين عرفوا الحقَّ والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطَّبْع وظلمة النفوس وظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغَيّ والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لُجِّيّ لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٤٣)

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٧٨.

الموج موج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في حق الكفار: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]

قال الطالب(١): شَبَّه الله تعالى أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له.. وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقُها فتهتدي وتتبع الطَّريقَ، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسلُ ويهدونهم السَّبيلَ فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرُّهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تُفَرِّق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره.. والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنةً تنطق بها، وأعطى الله ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فلذلك هم أضلُّ من البهائم، فإنَّ من لا يهتدي إلى الرُّشْدِ وإلى الطريق ـ مع الدليل إليه ـ أضلُّ وأسوأ حالًا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في حق المشركين: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]

قال الطالب(٢): في هذا المثال احتجاج احتج الله تعالى به على المشركين، حيث جعلوا

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٠.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨١.

له من عَبيده ومُلْكه شركاء، فأقام عليهم حُجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، فمن أبلغ الحِجَاج أن يُؤخذ الإنسان من نفسه، ويُحتج عليه بما هو في نفسه، مُقَرَّرٌ عندها، معلومٌ لها، فقال: هل يُشارككم عَبيدُكُم في أَموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخافُ الشَّريكُ شَريكَه؟.. فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟.. فإن كان هذا الحكم باطلًا في فطركم وعقولكم ـ مع أنه جائز عليكم ممن في حقكم؛ إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، وأنتم وهم عبيد لي ـ فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي، مع أنّ مَنْ جعلتموهم لي شُركاءَ عَبيدي ومُلْكي وخَلْقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهَّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]

قال الطالب(١): هذا المثل يمكن أن يكون قد ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان، فالله تعالى هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سرًا وجهرًا وليلًا ونهارًا، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء.. ولذلك يستحيل أن تكون شريكة لله تعالى مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟.. ويدل لهذا قوله قبل ضرب هذا المثل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا للهِّ الْأَمْثَالَ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣-٧٤]

ويمكن أن يكون معناه ما عبر عنه ابن عباس بقوله: هو مثل ضربه الله للمؤمن

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٢.

والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده بمن رزقه منه رزقًا حسنًا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًا وجهرًا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء[1]؟

ولعل ما ذكره ابن عباس من لوازم هذا المثل؛ فمنها أن يكون المؤمن الموحِّد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نَبَّه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس مُنَبِّهًا به على إرادته، لا أن الآية اختصَّت به[2].

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]

قال الطالب[3]: هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه ولما يُعبد من دونه.. فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتّة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله تعالى حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل ـ وهو الحق ـ يتضمن أنه الله تعالى عالم به، مُعلِّم به، راض به، آمرٌ لعباده به، محبٌّ لأهله، لا يأمر بسواه، بل تنزَّه عن ضدِّه الذي هو الجور والظلم والسّفه والباطل، بل أمره وشرعه عدلٌ كله، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه.

ثم أخبر الله تعالى أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله هود عليه السلام:

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٢.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٣.

(٣) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٤.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وكونه تعالى كذلك يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل؛ فهو على الحق في أقواله وأفعاله؛ فلا يقضي على العبد بما يكون ظالمًا له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حسناته شيئًا، ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئًا، ولا يؤاخذ أحدًا بذنب غيره، ولا يفعل قط ما لا يُحمد عليه، ويُثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة، والغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في مثل مَنْ أعرض عن كلامه وتدبُّره: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]

قال الطالب[١]: شبَّه الله تعالى المعرضين عن القرآن الكريم بحُمر رأت الأسدَ أو الرماة فَفَرَّت منه، وهذا من بديع القياس التمثيلي، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحُمُر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها.. وكلمة ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحضه على النفور، فإن في (الاستفعال) من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد، فكأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في مثل الذي حُمِّل الكتاب ولم يعمل به: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٧.

أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]

قال الطالب(١): هذا مثل من حَمَّلَه الله تعالى كتابَهُ ليؤمنَ به ويتَدَبَّره ويعملَ به ويدعُوَ إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظَهْر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تَفهُّم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجَبه، كحمارٍ على ظهره زَامِلَةُ أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحَظُّه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظُّه من كتاب الله كحظِّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثلُ وإنْ كان قد ضُرِبَ لليهود فهو مُتناوِل من حيث المعنى لمن حَمل القرآن فترك العَمَل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يَرْعَه حقَّ رعايته.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في حق المغتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]

قال الطالب(٢): شَبَّه الله تعالى في الآية الكريمة تمزيق عِرْضِ الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المُغْتَابُ يمزق عرضَ أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت.. ولما كان المغتاب عاجزًا عن دَفْعِه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمِّه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.. ولما كان مُقْتَضَى الأخوة التراحُمَ والتواصُلَ والتناصر فعلّق عليها المغتاب ضدَّ مقتضاها من الذم والعَيْب والطعن كان ذلك نظيرَ تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حِفْظَه وصيانته والذبَّ عنه.. ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه متفكهًا بِغِيبته وذمه متحلِّيًا بذلك شُبِّه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه.. ولمَّا كان المغتاب محبًا لذلك مُعْجَبًا به شُبَّه بمن يُحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك قَدْرٌ زائد

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٨٧.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٩٦.

على مجرد أكله، كما أن أكله قدرٌ زائد على تمزيقه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في بطلان أعمال الكفار: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]

قال الطالب[١]: شبه تعالى أعمالَ الكفار في بُطْلانها وعدم الانتفاع بها برمَادٍ مَرَّتْ عليه ريحٌ شديدة في يوم عاصف، فشَبَّه الله تعالى أعمالهم ـ في حُبُوطها وذَهَابها باطلًا كالهَباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكَوْنِها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره ـ برمادٍ طَيَّرَتْهُ الريحُ العاصفُ فلا يقدر صاحبُه على شيء منه وقتَ شدة حاجته إليه؛ فلذلك قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، أي لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثرًا من ثواب ولا فائدة نافعةً، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، موافقًا لشَرْعه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف الكلمة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]

قال الطالب[٢]: شبه الله تعالى الكلمةَ الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تُثْمِرُ العملَ الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع.. ومن مصاديق الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا اللهَّ، ولذلك تُثْمِر جميعَ الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وكل عمل صالح مَرْضِيٍّ للهَّ ثمرة هذه الكلمة.

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٩٧.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٩٨.

وقد قال ابن عباس في ذلك: (كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا اللهَّ، كشجرة طيبة وهو المؤمن، أصلها ثابت: قول لا إله إلا اللهَّ، في قلب المؤمن، وفرعُها في السماء، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء) (١)

وهذا المثل يشير إلى الكثير من المعاني، منها (٢) أن الشجرة لا بد لها من عروق وساقٍ وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المُشَبَّه المشبَّه به؛ فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعُها الأعمال، وثمرتُها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصِّفات الممدوحة والأخلاق الزكيَّة والسَّمْتِ الصالح والهَدْي والدَّلِّ المرضِيِّ، فيُستدل على غَرْسِ هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلمُ صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقادُ مطابقًا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسُلُه، والإخلاصُ قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدْي والدَّلُّ والسَّمْت مُشَابه لهذه الأصول مناسبة لها، عُلِمَ أن شَجرةَ الإيمان في القلب أصلُها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس عُلِم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قَرار.

ومنها: أن الشجرة لا تَبْقَى حيةً إلا بمادة تَسْقيها وتُنْميها، فإذا قُطِعَ عنها السقي أوشَكَ أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إنْ لم يتعاهَدْهَا صاحبُها بسَقْيِها كلَّ وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعَوْد بالتّذكُّرِ على التَّفكُّر والتَّفكُّر على التذَّكُّر، إلا أوشَكَ أن تَيْبس.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله تعالى العادةَ أنه لا بُدَّ أن يُخَالطه دَغَل ونَبْتٌ غريب ليس من جنسه، فإنْ تَعَاهده رَبُّه ونَقَّاه وقَلَعه كمل الغرس والزرع، واستوى،

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٢٩٨.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٣٠١.

وتَمَّ نباتُه، وكان أوْفَرَ لثمرته، وأطيَبَ وأزكى، وإنْ تركه أوشَكَ أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلَّته، ومَنْ لم يكن له فِقْهُ نفسٍ في هذا ومعرفة به، فاته ربْحٌ كبير وهو لا يشعر؛ فالمؤمن دائمًا سعيُه في شيئين: سَقْي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في مثل الكلمة الخبيثة: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]

قال الطالب[١]: شبه الله تعالى الكلمة الخبيثة بالشَّجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض، فلا عِرْقٌ ثابت، ولا فَرع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، ولا ظل، ولا جَنًى، ولا ساقٌ قائم، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُونِق، ولا جَنَى لها، ولا تعلوا بل تُعْلَى.. وقد وصفها بعضهم بقوله: ضرب الله مثلًا للكافر بشجرة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر ليس يعمل خيرًا ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة..

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف المشرك: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]

قال الطالب[٢]: يجوز لَكَ في هذا التشبيه معنيان.. أولها أن يكون تشبيهًا مركَّبًا،

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣٠٤.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٠.

ويكون حينها وصفا لَمَنْ أشْرَك بالله، وعَبَدَ معه غيرَه برجل قد تسبَّب في هَلاكَ نفسه هلاكًا لا يُرْجَى معه نجاةٌ، فصَوَّرَ حاله بصورة حالِ مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطيرُ في الهوى فتمزَّق مِزعًا في حواصلها، أو عَصَفَتْ به الريحُ حتى هَوَتْ به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبَّه ومُقَابِله من المُشَبَّه به.

وأما الثاني؛ فهو أن يكون من التشبيه المُفَرَّقِ، فيقابَلُ كلُّ واحدٍ من أجزاء الممثَّلِ بالممثَّل به، وعلى هذا فيكون قد شَبَّهَ الإيمانَ والتوحيدَ في عُلُوه وسَعَته وشَرَفه بالسماء التي هي مصْعَدُهُ ومَهْبطُه، فمنها يهبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبَّه تارك الإيمان والتوحيد بالسَّاقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث الضيق الشديدُ والآلام المتراكمة والطيرُ التي تخطف أعضاءه وتمزِّقُه كل ممزَّقٍ بالشياطين التي يُرْسِلُها الله تعالى عليه وتَؤُزُّهُ أزًّا وتزعجه إلى مَظَانِّ هلاكه؛ فكل شيطانٍ له مزعة من دِينِه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هَوَاه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفلِ مكانٍ وأبعدِه من السماء.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف ضعف الذين يدعوهم المشركون من دون الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]

قال الطالب(١): هذا المثل يشير إلى أن المعبود أقلُّ درجاته أن يقدِرَ على إيجاد ما ينفع عابدَه وإعدام ما يضرُّه، والآلهةُ التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدرَ على خَلْق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١١.

الذباب إذا سَلَبهم شيئًا مما عليهم من طِيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلَقْ الذباب الذي هو من أضعفِ الحيواناتِ ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سَلَبهم إياه، فلا أعْجَزَ من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يَستحسن عاقلٌ عبادتها من دون الله؟

ثم سَوَّى بين العابد والمعبود في الضَّعْف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ فالطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجزٌ متعلِّق بعاجز.. أو هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الآلهة والذباب في الضَّعْف والعَجْز.. وعلى هذا يكون الطالبُ: الإله الباطل، والمطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه.. أو الطالب الذباب، والمطلوب الإله؛ فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه.. ويمكن أن يتناول اللفظ الجميع، فضَعُف العابدُ والمعبودُ، والمُستلِب والمُستَلَب؛ فمَنْ جعل هذا إلهًا مع القوي العزيز فما قَدَرَه حقَّ قَدْره، ولا عَرَفه حقَّ معرفته، ولا عَظَّمه حق تعظيمه.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف المقلِّدين والمقلَّدين: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]

قال الطالب[١]: يمكن أن يكون المعنى أن مَثَل هؤلاء في دعائهم آلهتَهم التي لا تفقَه دعاءهم كمثل الناعِق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء، وكذلك المشركُ ليس له من دعائه وعبادته إلا العَنَاء.. أو يكون المعنى: مَثَلُ الذين كفروا كالبهائم التي لا تَفْقَهُ مما يقول الراعي أكْثَرَ من الصوت؛ فالراعي هو داعي الكُفَّار، والكفار هم البهائم المَنْعوق بها.

---

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٢.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف المنفقين في سبيل اللهَّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهَّ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهَّ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهَّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

قال الطالب[١]: شبه الله تعالى الْمُنْفِقَ في سبيله، سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بَذَرَ بَذْرًا فأنبتتْ كل حبةٍ منه سبعَ سنابل، اشتملَتْ كلُّ سنبلة على مئة حبة، واللهَّ يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال الْمُنْفِق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونَفْع نفقته وقَدْرها ووقُوعها موقعَهَا؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة، وهو إخراجُ المال بقلبٍ ثابت قد انشرح صدرُه بإخراجه، وسَمَحَتْ به نفسُه، وخَرَجَ من قلبه قبلَ خروجه من يده، فهو ثباتُ القلب عند إخراجه، غيرُ جَزع ولا هَلع ولا مُتْبعَه نفَسه ترجُفُ يدُه وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومَصَارفه بمواقعه، وبحسب طِيبِ المنفق وزكاته.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف المنفقين في سبيل اللهَّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهَّ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

قال الطالب[٢]: شَبَّه الله تعالى الإنفاق بالبذَر، فالْمُنْفق ماله الطيِّب للهَّ لا لغيره باذر ماله في أرضٍ زكية، فمَغِلَّه بحسب بَذْره وطِيب أرضه وتعاهُدِ البذر بالسقي ونَفْي الدَّغَل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعتْ هذه الأمور ولم تحرقِ الزرعَ نارٌ ولا لحقته جائحةٌ جاء أمثالَ الجبال، وكان مثله كمثل جنَّةٍ بربوةٍ، وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنةُ فيه نصب

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٣.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٥.

الشمس والرياح فتتربى الأشجارُ هناك أتمَّ تربية فنزل عليها من السماء مطرٌ عظيمُ القَطْر مُتَتَابع فرَوَّاها ونَمَّاها فآتت أُكُلَها ضِعْفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإنْ لم يُصبها وابلٌ فطَلٌّ: مطر صغير القَطْر، يكفيها لكرم مَنْبَتِها، تزكو على الطل وتنمو عليه، مع أن في ذكر نَوْعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل.. فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طَلًّا، والله لا يضيع مثقالَ ذرة.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف من يُبْطل أعماله الصالحة: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]

قال الطالب(١): هذا مثل ضربه الله تعالى للذي يختم له بالفساد في آخر عمره.. أو مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه.. وهو يصور سلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله، فحاجته إلى جنته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر؟ وسلطان ثمره أجل الفواكه وأجملها وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يوما وقد وجده محترقا كله كالصريم، فأي حسرة أعظم من حسرته؟.. وقد قال بعضهم معبرا عن أهمية هذا المثل، ومعناه: هذا مثلٌ قل والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٦.

أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف من ينفق ماله في غير طاعة الله ورضوانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦-١١٧]

قال الطالب(١): هذا مثلٌ ضَرَبه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبَّه الله تعالى ما يُنفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكَسْب الثناء وحُسْن الذكر لا يبتغون به وَجْه اللهَّ، وما ينفقونه لِيَصُدُّوا به عن سبيل الله واتِّباع رسله، بالزرع الذي زرَعه صاحبُه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريحٌ شديدةُ البردِ جدًّا، يحرق بردُها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرعَ وأيْبسته.

وفي قوله تعالى: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧] تنبيهٌ على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظُلْمهُم؛ فهو الذي سَلَّط عليهم الريحَ المذكورةَ حتى أهلكتْ زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكتْ أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف المُوحِّد والمشرك: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]

قال الطالب(٢): هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك والموحِّدِ؛ فالمشركُ بمنزلة عبد يملكه جماعةٌ متنازعون مختلفون متشاحنون، والرجل الشَّكِسُ: الضَّيقُ الخُلُق، فالمشرك لَمَّا

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٧.

(٢) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٨.

كان يعبد آلهة شَتَّى شُبِّه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحِّدُ لَمَّا كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبدٍ لرجلٍ واحدٍ، قد سَلَّم له، وعلم مَقَاصده، وعرفَ الطَّريقَ إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحُنِ الخُلَطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتولِّيه لمصالحه، فَهَل يستويان هَذَان العَبْدان؟.. وهذا من أبلغ الأمثال: فإنَّ الخالصَ لمالكٍ واحدٍ يستحق من مَعُونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحق صاحبُ الشركاء المتشاكسين.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: اذكر لي معنى المثال الوارد في قوله تعالى في وصف الكفار والمؤمنين: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠-١٢]

قال الطالب[(١)]: اشتملت الآيات الكريمة على ثلاثة أمثال: مَثَل للكفار، ومَثلين للمؤمنين.. فتضمَّن مَثَلُ الكُفَّار: أنَّ الكافر يُعاقَبُ على كفره وعداوته للهَّ ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحْمَةِ نسب أو وُصْلَة صِهْر أو سَبَب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلًا باللهَّ وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وُصْلَةُ القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت

(١) إعلام الموقعين، ٢/ ٣١٩.

الوُصْلَةُ التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما، فلما لم يُغْنِيَا عنهما من الله شيئًا، قيل لهما: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾، وقد قطعت الآيةُ حينئذٍ طمع من ارتكب معصية الله وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فَوْقَ اتصال البنوَّة والأبوة والزوجية، فلم يُغْن نوح عليه السلام عن ابنه، ولا إبراهيم عليه السلام عن عمه، ولا نوح ولا لوط عليهما السلام عن امرأتيهما من الله شيئًا، قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]

وأما المثلان اللذان للمؤمنين: فأحدهما: امرأة فرعون، ووَجْهُ المثلِ أن اتصال المؤمن بالكافر لا يَضُره شيئًا إذا فارقه في كُفره وعملِه، فمعصية العاصي لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة، وإنْ تَضَرَّرَ بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحلُّ بأهل الأرض إذا أضاعوا أمرَ الله فتأتي عامة؛ فلم يَضُرَّ امرأة فرعون اتصالُها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأةَ نوح ولوطٍ عليهما السلام اتصالُهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

وأما الثاني، فهو للمؤمنين: مريمُ التي لا زَوْجَ لها، لا مؤمن ولا كافر.. فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وُصْلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وُصْلة بالرجل الكافر، والمرأة العزبة التي لا وُصْلَة بينها وبين أحد.. فالأولى: لا تنفعها وصلتها وسببها.. والثانية: لا تضرها وصلتها وسببها.. والثالثة: لا يضرها عدم الوصلة شيئًا.

ثانيا ـ أسرار المجاز والاستعارة:

بعد أن استمعت إلى الشروح المفصلة المرتبطة بالتشبيهات والأمثال القرآنية، أخذ بيدي طالب من الطلبة، وقال: هلم بنا إلى القسم الثاني؛ فهناك علوم أخرى في انتظارك.

قلت: شكرا جزيلا؛ فأنا سأنتظر أستاذك ليخرج معي.. لأنه هو الذي جاء بي إلى هنا.

قال: كلنا في هذا القسم أساتذة.. فأي أستاذ تقصد؟

قلت: ذلك الذي كان على المنصة يسألكم وتجيبونه.

قال: تقصد أستاذ التشبيه والأمثال.. أظن أن دوره معك قد انتهى، ليحل دوري بدله.

قلت: ومن أنت؟

قال: أنا أستاذ المجاز والاستعارة.

قلت: وما الذي جعلك تترك قسمك لتقصد قسمه؟

قال: لولا قسمه ما وجد قسمي.. فالمجاز والاستعارة فرعان من فروع التشبيه، أو شكلان من أشكاله.

قلت: أصدقك القول.. فأنا مع سماعي لهاتين الكلمتين [المجاز والاستعارة]، لا أكاد أفهمهما، أو أفهم الفرق بينهما.. فما المجاز، وما الاستعارة؟

قال: هل تعلم المراد من قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧-١٨]

قلت: أجل.. أي فليدع هذا الناهي أهل ناديه، أي قومه وعشيرته، ليستنصر بهم ويعينوه.

قال: فهل تعلم معنى النادي؟

قلت: أجل.. هو واضح، ولا نزال نستعمله.. فهو المجلس الذي يجتمع فيه القوم

أو الأهل والعشيرة.

قال: فهل المقصود في الآية المجلس أو الجالسين فيه؟

قلت: بل المقصود هو الجالسون فيه.. وهو واضح.

قال: فكيف اتضح لك أن المقصود هم الجالسون، لا المجلس؟

قلت: العقل والواقع يدل على ذلك.. فلم نجد أحدا ينادي الكراسي، وإنما ينادي الجالسين عليها.

قال: فهذا هو المجاز.

قلت: ما تعني؟

قال[1]: المجاز هو أن ينقل اللفظ من دلالته على المعنى الذي وُضع له إلى معنى آخر، لعلاقه بينهما، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.. فالنادي لا يُدعى، وإنما يدعى من يحلون فيه، والقرينة الدالة على عدم إرادة المعنى الظاهر الحقيقي هو الاستحالة.

قلت: أهذا هو المجاز.. هو سهل جدا.. فمثله إذن قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩]، لأن الأصابع لا تدخل جميعا إلى الآذان، وإنما يدخل بعضها.

قال: أجل.. والعلاقة هنا هي الجزئية، حيث أُطلق اسم الكل وأريد الجزء.

قلت: وعيت هذا.. ولكني لم أع معنى الاستعارة بعد.

قال: هل تعلم المراد من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

قلت: أجل.. وهو واضح؛ فهي تدل على أن أهل الكتاب لم ينفذوا التعاليم التي

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٩٥.

طلب منهم تنفيذها، بل تركوها وأهملوها.

قال: لكن الآية الكريمة لم تذكر ذلك.. وإنما أخبرت أنهم نبذوا تعاليمهم وراء ظهورهم.

قلت: ظاهر أن المقصود هنا ليس ظاهر المعنى، وإنما ما يوحي به، وهو الإهمال والترك والاحتقار، لأن الذي (ينبذ) وراء الظهر إنما هو الحقير المهمل.

قال: فهذا الذي يوحي به يطلق عليه اصطلاحا [الاستعارة] أو هو شكل من أشكالها، ونوع من أنواعها.

قلت: فهل العلم بعلوم المجاز والاستعارة ضروري؟

قال: أجل.. لا يمكن لتلميذ القرآن ألا يتعلم هذه العلوم، حتى لا يقع في الأوهام التي وقع فيها أصحاب التأويلات الجاهلة المنحرفة.

قلت: هل تقصد أولئك الذين حملوا الكلمات المقدسة على ظواهرها.. فشبهوا الله بخلقه؟

قال: أجل.. فلو طبقوا قوانين الاستعارة والمجاز، وهي الموجودة المستعملة في اللسان العربي، لما وقعوا فيما وقعوا فيه.

قلت: فأنت إذن من سيشرح لي هذه العلوم.

قال: بل طلبتي هم الذين سيفعلون ذلك.. فقد كلفتهم بالقيام ببحوث ترتبط بهما.. وستستمع لهم، مثلما استمعت لنا.

١. أسرار المجاز:

سرت مع أستاذ الاستعارة والمجاز إلى القسم المخصص لهما.. وما إن دخلنا إلى القاعة حتى وقف الطلبة جميعهم، وبكل أدب واحترام.

ثم صعد الأستاذ إلى المنصة، وقال: أظن أنكم قد قمتم بما كلفتكم به من البحث في صيغ المجاز والاستعارة في القرآن الكريم.

قالوا: أجل.. فسل ما بدا لك؛ وستجدنا إن شاء الله من المجيبين.

أشار إلى بعض الطلبة، وقال: ما وجه المجاز في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]..

قال الطالب: إسناد الذبح إلى فرعون؛ لأنه هو الآمر به، ولولاه ما حدث، وما الجند المنفذون سوى آلات مسخرة تفعل ما تؤمر به.

قال الأستاذ: فما الحكمة من هذا؟.. ولم لم يسند الفعل إلى الجنود مباشرة؟

قال الطالب: لأنه الآمر بذلك.. ولولاه لم يقدم الجنود على فعلهم..

قال الأستاذ: فما يطلق على هذا النوع من المجاز، وما الحكمة منه؟

قال الطالب: يطلق عليه المجاز العقلي.. ففيه إسناد الفعل أو ما يشبهه إلى غير فاعله الأصيل لملابسته له.. وحكمة هذا الإسناد حينها قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيسي في الجملة، أو هو الركن الذي لا يتم العمل بدونه.

قال الأستاذ: فهل لك أن تضرب لي أمثلة أخرى على ذلك؟

قال الطالب[١]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].. فهو قد طلب من هامان وزيره أن يصدر الأمر لأتباعه بإعداد مواد البناء، ولم يأمره بالقيام بها بنفسه.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٠.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] فهؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفرا، هم العنصر الفعال فيما آل إليه حال قومهم من عقبى السوء؛ لأنهم هم الذين كانوا سبب إضلالهم وكفرهم.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، ذلك أنه لما كان يوم القيامة تملؤه أحداث مرعبة، تملأ النفوس هولا يتسبب عنها لشدتها الشيب، وكان هذا اليوم ظرفا لتلك الأحداث، صح أن يسند الشيب إليه.. وقد أجاز ذلك شدة الارتباط بين الأحداث وظرفها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-٧]؛ فشدة الارتباط بين العيشة وصاحبها جعلت من الجميل نسبة الرّضا إليها.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: لقد حدثنا زميلك عن المجاز العقليّ، وضرب لنا أمثلة عنه.. فهل لك أن تحدثنا عن غيره.

قال الطالب(١):أجل.. المجاز اللغوي.. وهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولا، لصلة بين المعنيين غير صلة التشابه.. كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، فقد لا تكون اليد هي الفاعلة، ولكن لما كان أكثر الأعمال بها، جمل هذا التعبير وراق.

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة أخرى على ذلك.

قال الطالب: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-١٠]، فهو من إطلاق الجزء

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧١.

وإرادة الكل، فقد عبّر بالوجوه عن جميع الأجساد؛ لأن النصب والتنعم حاصل لكلها.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢]؛ فهو من إطلاق الملزوم على اللازم، إذ المراد هل يفعل؟.. فأطلق الاستطاعة على الفعل؛ لأنها لازمة له.

٢. أسرار الاستعارة:

أشار إلى بعض الطلبة، وقال: لا بأس.. ربما نتحدث عن المجاز بتفصيل في محل آخر(١).. والآن حدثني عن الاستعارة وفائدتها في التعبير والتصوير والتأثير.

قال الطالب(٢): كل ألوان الاستعارة.. سواء كانت استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلي.. أو استعارة محسوس لمعقول.. أو استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس.. أو استعارة تصريحية أو مكنية.. أو مرشحة أو مجردة.. أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموسا محسّا.

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة توضح ذلك.

قال الطالب(٣): مثلا.. كلمة ﴿يَمُوجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]؛ فهي لا تقف عند حد استعارتها لمعنى (الاضطراب)، بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشادا لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموّج واضطراب.

---

(١) ستتحدث عنه بتفصيل عند الحديث عن التأويل المرتبط بالانحرافات التي أدت إلى التجسيم والتشبيه نتيجة سوء فهم الآيات المتعلقة بذلك، وذلك في كتاب [القرآن. وتأويل الجاهلين] من هذه السلسلة.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٦.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٦.

ومثلها كلمة ﴿اشْتَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].. فهنا لا تقف هذه الكلمة عند معنى (انتشر) فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقى ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئا إلا التهمه، وأتى عليه، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحى بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس.

ومثلها كلمة ﴿نَسْلَخُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فإذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ فهي كلمة تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلا قليلا، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفيا من ظلمة الليل.

ومثلها كلمة ﴿الْعَقِيمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]؛ ففي العقم ما يحمل إلى النفس معنى الإجداب الذي تحمله الريح معها.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: لقد كثر في القرآن الكريم استعارة الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة، للدلالة على الأمور المعقولة والمعنوية.. ما الهدف من ذلك؟.. وهل لك أن تضرب لنا أمثلة عنها؟

قال الطالب[1]: الهدف منها تقريب الأمور المعقولة والمعنوية حتى تصبح كأنها ملموسة مرئية، لتحدث تأثيراتها الكبيرة في النفس.

ومن الأمثلة على ذلك كلمة ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٧.

أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].. فهذه الكلمة ـ فضلا عن أنها تدل على الترك ـ توحي إلى نفس القارئ معنى الإهمال والاحتقار، لأن الذي (ينبذ) وراء الظهر إنما هو الحقير المهمل.

ومن الأمثلة عنها كلمة ﴿نَقْذِفُ﴾، و﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ فهذه الكلمة ﴿نَقْذِفُ﴾ توحي بالقوة التي يهبط بها الحق على الباطل، وكلمة ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ توحي بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل، حتى يصيب رأسه ويحطمه، فلا يلبث أن يموت.

ومن الأمثلة عنها كلمة ﴿عُقْدَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؛ فهذه الكلمة تشعر بالربط القلبي الذي يربط بين الزوجين.

ومن الأمثلة عنها كلمة ﴿اصْدَعْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] ؛ فهذه الكلمة والتي تعني الجهر، توحي بما سيكون من أثر هذه الدعوة الجديدة، من أنها ستشق طريقها إلى القلوب وتحدث في النفوس أثرا قويّا.

ومن الأمثلة عنها كلمة ﴿حَبْلِ اللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].. والتي تشعر قارئها بالصلة العظيمة التي تربطه بالله.

ومن الأمثلة عنها كلمة ﴿أَفْرِغْ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ فهي تثير في النفس الطمأنينة التي يحس بها من هدأ جسمه بماء يلقى عليه، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية التي ينالها من منح هبة الصبر الجميل، ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم ﴿أَفْرِغْ﴾، وهي توحي باللين والرفق وعند حديثه عن الصبر، وهو من رحمته، فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة ﴿صَبَّ﴾ فقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، وهي مؤذنة بالشدة والقوة

معا.

ومن الأمثلة عنها كلمة ﴿زُلْزِلُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وهي تشير إلى الاضطراب النفسي العنيف.

أشار الأستاذ إلى طالب آخر، وقال: هل لك أن تذكر لنا بعض خصائص الاستعارات التي استعملها القرآن الكريم، مع ذكر الأمثلة الموضحة والمبرهنة على ذلك؟

قال الطالب[1]: أجل.. فمن ذلك أن القرآن الكريم قد يستمر في رسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة تمكّن لها في النفس، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، قد أكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة، والاهتداء في تصريف شئونها..

ومن ذلك أن بعض الاستعارات تحتاج إلى تأمل وتدبر ليفهم سرها، وهو مما يعطيها قوة وجمالا.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، فقد يبدو أن المناسبة تقضي أن يقال: فألبسها الله لباس الجوع، ولكن إيثار الذوق هنا؛ لأن الجوع يُشعر به ويُذاق، وصح أن يكون للجوع لباس؛ لأن الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال والضنى والشحوب.

ومن ذلك أن الأمر المعنوي قد يشتد وضوحه في النفس، ويقوى، لتسمح بأن يكون أصلا يقاس عليه.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٦٨.

[الحاقة: ١١].. فهنا كان الطغيان المؤذن بالثورة والفوران أصلا يُشبَّه به خروج الماء عن حده، لما فيه من فورة واضطراب.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].. فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتوّ والجبروت.

ومن ذلك أن القرآن الكريم قد يجسم المعنى، ويهب للجماد العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس ـ وهو بعض ما يُعبر عنه بالاستعارة المكنية ـ ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤].. فالغضب يبدو هنا وكأنه إنسان يدفع موسى عليه السلام ويحثه على الانفعال والثورة، ثم سكت وكفّ عن دفعه وتحريضه.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧].. فالجدار يبدو هنا لشدة وهنه وضعفه يؤثر الراحة لطول ما مر به من زمن.

قال الأستاذ: بورك فيكم جميعا.. والآن، وبعد أن أثبتم استيعابكم الجيد لهذا الفن من فنون البلاغة القرآنية.. أريد من كل منكم أن يذكر نموذجا من نماذج الاستعارة، ليسجلها تلامذة القرآن المتواجدين بيننا، حتى يزداد الأمر وضوحا لديهم.

قام بعض الطلبة، وقال[1]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فالتعبير بـ ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ تعبير مجازي بالاستعارة؛ لأنَّ الأم هي الأصل، وهي التي تقوم على أولادها، ويرجعون إليها في غذائهم وعواطفهم، فتشبهت بها الآيات المحكمات التي هي أصل الدين

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٨٩.

ومرجعه، وإذا كانت متشابهات، فهي تفسير بالرجوع إلى هذا الأصل، وهو المحكمات.

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فالمراد بالأم الأصل، وهو إما أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ الذي سجلت فيه أقدار الخلائق، لأنه محفوظ من التغيير والتبديل، فلا يغير ما فيه ولا يبدل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤][١].. وإما أن يكون المراد منه[٢] الشريعة المتفق عليها في كل الديانات، فينسخ الله تعالى ويثبت، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير، وهو الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]

قال آخر[٣]: ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].. فقد شبه الله تعالى تقديم المؤمنين أنفسهم ـ طلبا لما عند الله من نعيم مقيم ورضوان من الله أكبر ـ بمبايعة بينهم وبين ربهم لكمال الالتزام عليهم، ورجاء ما طلبوه من رضوان ونعيم مقيم، وهي استعارة تمثيلية، وفيها تشبه حال بحال، لا تشبيه ألفاظ مفردة بمثلها.

قال آخر[٤]: ومن الاستعارات الواردة في القرآن الكريم بكثرة التعبير عن النفاق بالمرض، ومنه قوله تعالى في وصف المنافقين وغيرهم من المرتابين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي

---

(١) أسرار الأقدار (١٠٤)

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٨٩.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٨٩.

(٤) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٨٩.

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].. ففي هذه الآيات الكريمة نجد التعبير عن النفاق والشك وغيرهما بالمرض، وذلك للمشابهة بينها وبين مرض الأجساد، فهي تفسد القلوب والعقول والمدارك، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها.

قال آخر(١): ومن الاستعارات الجميلة الواردة في القرآن الكريم التعبير عن العلم والإيمان بالنور، وعن الكفر والعناد بالظلمات، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].. فالظلمات هنا تشمل الجهل والكفر والجحود والعصبية الجاهلية وكل ما يسيطر على الأنفس من غير سلطان من الحق والعقل.. ولذلك عبَّر عن الباطل بالظلمات؛ لأن له أسبابًا متكاثفة بعضها فوق بعض والنور واحد، وهو الحق وطلبه والإذعان له.

قال آخر(٢): ومن الاستعارات الجميلة الواردة في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].. ففي هذه الآية الكريمة عدة استعارات تبلغ أعلى درجات السمو البياني.. فمنها إضافة اللباس إلى الجوع والخوف.. ذلك أن الجوع القائم المتمكن، والخوف الذي يفزع النفوس، ويذهب بالاطمئنان، ويلقي بالاضطراب يشبه اللباس السابغ؛ لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله،

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٩١.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٩٠.

وكذلك الجوع إذا عمّ، والخوف إذا طمّ؛ فإنه لا يبقى في الجماعة أحدًا لم ينله؛ لأن الأزمات الجائحة، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد، فكان التعبير عن هذه الحالة باللباس.. بالإضافة إلى أن اللباس يلتصق بالجسم ويلازمه ولا يفارقه، وكذلك الجوع والهم والغم والخوف، وفي ذلك تصوير للأمة أو المدينة إذا عمَّها البؤس والشقاء وداهمها الخوف من كل ما يحيط بها.

وهناك استعارة أخرى، في كلمة ﴿فَأَذَاقَهَا﴾؛ فإن اللباس يُلبس ولا يُذاق، ولكنه عبر عنه بالذوق، فشبه حال النزول بحال الإذاقة، لأن من حصل لهم ذلك أحسّوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا في بحبوحة العيش، فكان التعبير بأذاق أنسب لهذا المعنى.

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات، وهي تشبيه حال جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوقة؛ فلما كفرت بالنعم فلم تقم بحقها، ولم تؤد الطاعات، ولم تنته عن المنهيات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعًا من كل مكان فجحدت نعمة الله تعالى فضاق زرقها، وبدلت من الأمن خوفًا، ومن الرعد جوعًا.

قال آخر(١): ومن الاستعارات الجميلة الواردة في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى في تصوير حال من اعتراه الندم، ولا يجد مخلصًا له إلا أن يعترف قوله تعالى:﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].. فالتعبير في قوله تعالى: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ هو استعارة في الدلالة على الندم؛ لأن النادم يحس بالسقوط، ويحس بأنه هبط، فشبه القرآن الكريم حالهم في أن الندم برح بهم بمن سقط في يده، وهو دال على سقوطه فيما لا يليق، فشبه المعنى الخاص بالندم من ألم، ومن ظهور للخطأ، أو الإحساس بالخطيئة بمن سقط في يده دليل إثمه، ولا يجد مناصًا من

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٩٣.

التخلص من جرمه.

قال آخر[1]: ومن الاستعارات الجميلة الواردة في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى في تصوير حال أهل الكهف، وأنهم لا يسمعون: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]؛ فإن كلمة ضرب تدل على أن الله تعالى منع عنهم السمع، وكأنه غلق عليهم باب السمع، وضرب عليه، فلا يفتح سنين عددًا، وذلك يصور حالهم، وأنهم لا يسمعون ما يجرى، والناس يحسبونهم أيقاظًا يحسون بما يحس غيرهم.

قال الأستاذ: بورك فيكم جميعا.. وسنكتفي بما ذكرتم من أمثلة، وأظن أنها كافية ليتعرف تلامذة القرآن الكريم على غيرها..

ثالثا ـ أسرار الكناية والإشارة:

بعد أن استمعت إلى الشروح المفصلة المرتبطة بالمجاز والاستعارة في القرآن الكريم، أخذ بيدي طالب كان يجلس بجانبي، وقال: هلم بنا إلى القسم الثالث؛ فهناك علوم أخرى في انتظارك.

قلت: شكرا جزيلا؛ أأنت أيضا طالب وأستاذ في نفس الوقت؟

قال: ما أفلح من لم يكن كذلك.. فمن ظن أنه بكونه أستاذا استغنى عن الطلب؛ فقد استكبر وعتا في نفسه عتوا كبيرا.. ألم تعلم أن العلم من المهد إلى اللحد؟

قلت: بلى.. وقد روي ما ذكرته حديثا.

قال: فجميع تلامذة القرآن الكريم يجمعون بين قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٩٣.

١].. حتى لا يقعوا فيمن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]

قلت: بورك فيك.. وفي استدلالاتك البديعة.. فأخبرني عن العلم الذي تريد مني أن أتعلمه.. ولا تنس أني الآن في صحبة معلم البيان، الذي هو صاحب لمعلم القرآن.

قال: بلى.. فكلنا تلامذة لذينك المعلمين الشريفين.

قلت: وأنا الآن في قسم الوضوح والتقريب.

قال: أجل.. ولذلك تحتاج إلى التعرف على أسلوب آخر من الأساليب المرتبطة به.. وأنا بحمد الله من الأساتذة الذين كُلفوا بتعليمه.

قلت: فما هو؟

قال: الكناية والإشارة.. فمن لم يفهم الإشارة لم يفهم العبارة.

قلت: فما الكناية.. وما الإشارة؟

قال: إياك أعني.. واسمعي يا جارة.

قلت: ما تعني؟

قال: هل تعلم المراد من قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؟

قلت: أجل.. هذا وصف حسي لمشيتهم ولقائهم، يمشون غير مسرعين، ولا متباهين، بل يمشون مشيًا هينًا، لا سرعة فيه ولا إبطاء، وإذا خاطبهم الحمقى لا يمارونهم ولا يجادلون، فإن المراء يخل بالوقار، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء.

قال: فهل المراد فقط وصف مشيهم ومخاطبتهم؟

قلت: لا.. لو كان الأمر كذلك لتيسر على الجميع أن يتحولوا إلى هؤلاء المتقين.

قال: فهل تشير الآية إلى معان أخرى؟

قلت: أجل.. تشير إلى أدبهم وتواضعهم ولينهم وأخلاقهم العالية..

قال: لكن الآية فقط تحدثت عن مشيهم وخطابهم؟

قلت: ومشيهم وخطابهم دليل عليهم وعلى أخلاقهم.

قال: فهلم معي إذن إلى القسم الذي تُدرس فيه هذه المعاني؛ فهو من أساليب القرآن الكريم التي لا يمكن فهمه ولا تدبره من دونها.

١. أسرار الكناية:

سرت مع أستاذ الإشارة والكناية إلى القسم المخصص لهما.. وما إن دخلنا إلى القاعة حتى وقف الطلبة جميعهم، وبكل أدب واحترام.

ثم صعد الأستاذ إلى المنصة، وقال: أظن أنكم قد قمتم بما كلفتكم به من البحث في الكناية والإشارة والتعريض وما يرتبط بها في القرآن الكريم.

قالوا: أجل.. فسل ما بدا لك؛ وستجدنا إن شاء الله من المجيبين.

أشار إلى بعض الطلبة، وقال: حدثنا عن الكناية.. والداعي إليها.

قال الطالب: الكناية هي أن يريد المتكلم إتيان معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيؤتى به إليه، ويجعله دليلًا عليه.

قال الأستاذ: فما الفرق بينها وبين المجاز والاستعارة؟

قال الطالب: في الكناية يظل اللفظ على ظاهره بادي الرأي، ولكن لا يراد ذلك الظاهر، وإنما يراد لازمه.. أي إنه يفهم تبعًا له.

قال الأستاذ: فما الغاية من ذلك.

قال الطالب[1]: تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملا في أداء المعاني وتصويرها خير أداء وتصوير، فهي حينا راسمة مصوّرة موحية.. وحينا مؤدبة مهذبة.. تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، وحينا موجزة تنقل المعنى وافيا في لفظ قليل.. ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدّته الكناية في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية.

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة عن ذلك.

قال الطالب[2]: من الغايات المعتبرة في الكناية في القرآن الكريم عدم التعبير عن الأمور التي يستحيي الناس من ذكرها بالألفاظ المعبرة عنها حقيقة.. ومن الأمثلة عنها الكناية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، فقد عبرت الآية الكريمة عن قضاء الحاجة بكلمة: ﴿مِنَ الْغَائِطِ﴾، وهي تعني في أصل وضعها المكان المنخفض من الأرض، فلم يعبر باللفظ الذي يُستهجن ذكره، وكني عنه بمكانه، جرياً على عادة العرب، حيث أنهم كانوا إذا أراد قضاء حاجة قصدوا مكانًا منخفضًا من الأرض.

ومثله في الآية قوله تعالى: ﴿لامَسْتُمُ النِّسَاء﴾.. وقد ضربت الآية ﴿مِّن الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاء﴾ مثلين لما يُعف عن ذكره.

ومثله في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، فقد جاء معنى الكناية في قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، فالإفضاء إلى الشيء هو المباشرة له، وهو كناية عن المعاشرة الزوجية.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٢.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٩٧.

ومثله الكناية بكلمة ﴿دَخَلْتُمْ﴾.. كما في قال الله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فليس المراد منه ظاهر اللفظ.

ومثله الكناية بكلمة ﴿اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤]، فقد جاء معنى الكناية في قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾

ومثل ذلك الكناية بكلمة ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، فقد جاء معنى الكناية في قوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ لأن النشز من الأرض وهو المكان المرتفع، وهو يفيد تعالي الزوجة على زوجها، أو تعالي الزوج على زوجته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: ١٢٨]

قال الأستاذ: والآن.. بعد أن فهمنا المقصود من الكناية، والغرض منها.. اذكروا لنا أمثلة عنها من القرآن الكريم.

قام بعض الطلبة، وقال(١): من الكناية المصوّرة الموحية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].. فهنا نرى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة قوّية بغيضة منفرة.. فهذه اليد التي غلّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد.. وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية.. والتعبير ببسطها كل البسط

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٢.

يصوّر صورة هذا المبذر الذي لا يبقي من ماله على شيء، كهذا الذي يبسط يده، فلا يبقى بها شيء، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويّا مؤثرا.

قال آخر(١): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فقد مثّل الاغتياب بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى جعله لحم الأخ.. فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله، فشديد المناسبة جدّا، وذلك لأنّ الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، وهذا القول مبالغة في الاستكراه، لا أمد فوقها، وأما قوله ﴿مَيْتاً﴾ فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته، ولا يحس بها.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].. ففي كلمة ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ تصوير للمظهر المحسوس لخلة العفة، ولو أنه استخدم عفيفات ما كان في الآية هذا التصوير المؤثر، ولا رسم أولئك السيدات في تلك الهيئة الراضية القانعة، التي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن، ولا يفكرن في غيرهم.

قال آخر(٣): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى

---

(١) كتاب الفوائد ص ١٢٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٣.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٣.

يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، ففي التعبير بأكل الطعام أدبا ورقّة تغنيك عن أن تسمع أذنك التعبير عن قضاء الحاجة.

قال آخر[١]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ففي الآية الكريمة وصف لأولياء الله المخلصين بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذلك مراد لا ريب فيه، وذلك يلازمه أن يكونوا قريبين من ربهم، قد أخلصوا له، واستحقوا رضوانه، ومن يكون قريبًا من حبيبه، لا يخافه في مستقبل ولا يحزن فيه على ماض وقع منه، لأن المحبة تجعله قريب الرجاء في الغفران، والطمع في الرحمة.

قال آخر[٢]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في وصية لقمان عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، ففي الآية الكريمة استدلال على قدرة الله تعالى بإخراج حبة الخردل من صخرة، أو في السماوات أو في الأرض.. هذا هو ما تدل عليه الألفاظ.. وهناك اللازم لهذا، وهو إثبات علم الله الذي لا يخفى عليه خافية، وإثبات قدرة الله تعالى الذي لا يعجز عن شيء في السماء ولا في الأرض.. ولازم لهذا اللازم، وهو البعث والنشور؛ لأنه إذا كان سبحانه وتعالى قادرًا على أن يأتي بالحبة من الصخرة أو من أيِّ جزء في السماء أو الأرض، فهو قادر على إعادة ما خلق.. ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١]

قال آخر[٣]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في وصية لقمان عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٠.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٠.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٠.

أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٧-١٩]، فإن هذه الأوامر يراد منها ما يدل عليه ظاهر الألفاظ من أنه لا يصعِّر خدَّه للناس، بأن يميله عن شكله، فلا يقبل عليه بكل وجهه، ومن أنه يقصد في مشيه فلا يتباطأ ولا يسرع، بل يسير بتؤدة واطمئنان، ومن أنه يغضض من صوته، فلا يتعالى ويتكلم صياحًا، ويراد أيضًا معنى لازم لها وهو التضامن والاتصال بالناس برفق ومودة من غير كبرياء، وألَّا يغمط الناس حقوقهم، وألَّا يبطر نعمة الله تعالى، وألا يدلي نفسه بغرور؛ لأن الغرور مطية الشيطان، والسبيل إلى العصيان.

قال آخر[١]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]؛ فهذا كناية عن عظمة الله وقدرته، وأنه بمجرد أن يريد يتحقق المراد، سواء لم يكن شيء فيوجده بإرادته من لا شيء، أو كان شيئا، وأراد تحويله الى شيء آخر، فيتحول.

قال آخر[٢]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، فهو كناية عن أن ابراهيم عليه السلام هو من صفوة الصفوة، وأنه أهل للنبوة والرسالة.. ذلك انه استجاب لجميع أوامر الله ونواهيه، وقام بأعباء النبوة والرسالة على أتم الوجوه وأكملها، فالمقصود بالآية مجرد الثناء على ابراهيم، لإخلاصه وطاعته وانقياده، وفي الوقت نفسه توبيخ لليهود والنصارى والمشركين الذين يفتخرون بإبراهيم، ثم يعصون ويتمردون على من جاء لإحياء ملة ابراهيم، ونشر

---

(١) التفسير الكاشف، مغنية (١/ ١٨٧)

(٢) التفسير الكاشف، مغنية (١/ ٢٠٨)

سنته وعقيدته.

وهذا ما يجيب على الإشكال عن الوقت الذي طلب الله فيه الإسلام من إبراهيم، وهل هو قبل النبوة، أو بعدها.. فالأول غير ممكن، لأن الله لا يطلب بطريق الوحي ممن ليس بنبي، والثاني تحصيل حاصل، لأن الله لا ينزل الوحي على إنسان إلا بعد أن يسلم.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى عن بعض عقوبات الكاتمين للحقائق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، فقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كناية عن إعراضه عنهم، وغضبه عليهم.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إشارة إلى الدقة في الوزن والحساب، وقيام العدل في أدق الأمور، وعدم خفاء الأمور على الله.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فقوله: ﴿تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ كناية عن شدة الندم، والخوف من عقاب الله، وبيان الخسران، وظهوره لأصحاب الموبقات.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، فقوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ كناية عن ميلهم إلى الضلال، وانصرافهم عن الهداية تعمُّداً لا جهلاً.. والمعنى أن ضلالهم

---

(١) التفسير الكاشف، مغنية (١/ ٢٦٧)

برغبة منهم لا بقهر أو جبر أو جهل.. وأي شيء يرجى ممن يشتري الضلالة، وينفق ماله وسعيه وفكره فيها؟.. وكل ذلك كناية عن إيغالهم في غيهم.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، فقوله: ﴿نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ كناية عن وقوع العذاب وانقضاء وقت التوبة والرجوع، وذلك لاستحكام العناد والمكابرة، وأن الإمهال من الله لهم وهم لا ترجى منهم توبة أو هداية لا معنى له، فيكون وقوع العذاب أجدر ليكونوا عبرة لغيرهم.. وقد ارتبط الطمس بالوجوه، لأن الوجه علامة الإنسان فيكون طمسه خروجه عن الكرامة التي كرم بها الله عباده من بني البشر، فلا يكون هؤلاء على حد الإنسانية، وإنما مسوخ على صورة الحيوانات المستكرهة من القردة والخنازير وغيرها.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، فقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ كناية عن النعيم وبُعد الشقاء، فيما غيرهم يقاسي شدة الأهوال، ويلاقي العّذاب، يلفحه الحر الشديد؛ وقد استوحي هذا المعنى من صورة حسية هي الظل، وما يقابله من لهب الشمس.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فقوله: ﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ كناية عن وقوع الخلاف، والتنازع، والشجار هو الاشتباك بين الأمور والتداخل بينها، والأصل فيها الشجر، وتداخل أغصانه وتشاجرها، وقد استعمل للخصومة لما فيها من تشابك الأيدي؛ فسمي لذلك شجاراً لمشابهة بينهما.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، فقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ـ والفتيل هو السحاة التي في شق النواة، أو ما يفتل بين الأصابع من الوسخ ـ كناية على أنهم لا ينقصون أخس الأمور، وأبخسها عند الحساب، ولا يقع ذلك لا عن سهو ولا قصور، فكيف بالأمور العظيمة.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ كناية عن عدم امتناع أحد من الموت لأي سبب كان.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، فقوله: ﴿يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ من نبط الماء، أي نبعه، ومعناه أنهم يستخرجونه من مخابئهِ ومضانه الخفية عن سواهم؛ لأنهم امتازوا على غيرهم بالنبوغ والفهم، وقد خص قوماً بذلك صرفاً لغيرهم، ودفعاً من أن يكون البتُّ بيد من هبَّ ودَبَّ، وإنما يكون ذلك على يد من أوتي البصيرة لأن الأحكام تحتاج إلى استخراج، فكان لها وجه شبه بنبط الماء.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ

سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]، فقوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ يدل على الضيق وعدم الرغبة في الدخول في أمر، بل شدة كراهته وثقله على النفس.. إضافة إلى احتباس ذلك في قلوبهم، وظهوره في ملامح وجوهم.. والحصر: الضيق، وإذا ضاق الصدر اختنق الإنسان، وجعل ما بهم ضيقاً لاحتباس أمر من الأمور في صدورهم، وعجزهم عن البوح به.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٩١]، فقوله: ﴿أُرْكِسُوا﴾ من الرَكْس، وهو رد الشيء مقلوباً؛ بمعنى أنهم يقحمون في الفتنة كلما أرادوا الخروج منها لعدم خلوص أنفسهم، ولزيغ قلوبهم، وهي كناية عن التردد في الفتن لوجود مقدماتها، وكأنها أخذ من غمر الشيء، أي أحاط به من جميع الجوانب، فدل ذلك على أن الفتنة غمرتهم.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِّ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِّ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِّ وَكَانَ اللهُّ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]، فقوله: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، يعني وجود المجال والفرصة بتغير المكان، وما لا يكون ولا يقع في مكان؛ يكون ويقع في غيره.. والمراغمة تعني المغالبة.. فالهجرة تعني ابتعاده لكي لا يقع تحت هيمنة أي جهة من الجهات.

قال آخر: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في الدعوة للتواضع مع الوالدين: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فهذا التعبير كناية عن الرفق في معاملة الوالدين، وأخذهما باللين والرقة، كما تقول: (واخفض لهما

الجناح ذلا)، ولكن لما كان ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الإنسان وبين الذل، إذ إن هذا الجانب هو مظهر الغطرسة حين يشمخ المرء بأنفه، ومظهر التواضع حين يتطامن.

٢. أسرار الإشارة:

قال الأستاذ: بورك فيكم جميعا على هذه الأمثلة التي قد يقع الخلاف في بعضها.. والخلاف لا يفسد للود قضية.. والآن حدثوني عن الإشارة في القرآن الكريم.. والغرض منها.

قام بعض الطلبة، وقال(١): الإشارة، تعني دلالة الملزوم على اللازم.. أو هي نتيجة لازمة للعبارة.. أو هي ما يدل عليه اللفظ بغير العبارة التي تدل عليها الألفاظ.

قال الأستاذ: فهلا ضربت لنا أمثلة تقرب ذلك.

قال الطالب: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].. فعبارة النص تفيد طلب العدالة مع اليتامى، وإفادة إباحة تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع، وإباحة الدخول بملك اليمين.. وهذه أحكام علمت من العبارة نفسها.. وهناك أحكام أخرى تفهم من لوازم العبارة، أو من باب الإشارة، والتي هي ضرب من ضروب الكناية.. ومنها وجوب العدل مع الزوجة.. وأن الرجل لا يحل له أن يتزوج إذا لم يعدل مع الزوجة ولو واحدة، إذا تأكد أنه لا يعدل.. والمساواة بين الأزواج.. وأن عليه نفقة زوجته.. وأنه لا يتزوَّج إلا إذا كان قادرًا على إعالة زوجته.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في آية المداينة: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠١.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٢.

مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].. فهي تفيد من باب الإشارة أن شهادة المرأة لا تسمع وحدها، بل تسمع مع أختها التي تشهد معها؛ وذلك يقتضي أن تحضرا معًا لتسترشد كل واحدة بالأخرى إن ضلَّت، وذلك فُهم من مقتضى ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾؛ لأنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا اجتمعتا في الأداء، وسمعت كل واحدة كلام الأخرى، وذلك بخلاف شهادة الرجل، فإنه لا بُدَّ أن يسمع كل واحد منهما منفردًا، لكيلا يومئ أحدهما إلى الآخر.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في آية الرضاع: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَّ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].. فقد فهمت الأحكام التي ذكرتها الآية الكريمة بالنص، وفهم بالإشارة معانٍ أخرى تلازم ما نص عليه كنتيجة له، وما نص عليه في العبارة هو ملزوم، والثاني لازم له.. ومنها أنَّ الأب لا يشاركه في نفقة ولده أحد، وأن الولد لا يشاركه في نفقة أبيه أحد.. ومنها أنَّ الأصل في الإرضاع أن يكون على الأم، ويجوز الاسترضاع باتفاقهما، وأن أجرة الرضاعة تكون على الأب.. ومنها أن فصل الولد الذي لا إرادة له على الأم في رضاعته يكون عن تراضٍ منهما وتشاور.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]،

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٢.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٣.

فإنَّها تفيد ـ بالعبارة أن الحكم الإسلامي وإدارة الدولة الإسلامية في اقتصادها ونظمها وإدارتها تقوم على الشورى ـ وتفيد بطريق الإشارة أنه لا بُدَّ أن يكون اختيار الحاكم أو الخليفة برضا المسلمين، فلا تصح الخلافة إلا باختيار المسلمين ورضاهم، ولذلك كانت البيعة في الإسلام.. وأنه لا ينفذ حكم أو قانون إلا إذا أقرَّته جماعة المسلمين، أو الصفوة المختارة منهم.. وأنه لا بُدَّ من وجود جماعة مختارة من الشعب اختيارًا أساسه الحرية والرضا، يكون عملها مراقبة الحكام، والنظر بعين فاحصة في أعمالهم، وألَّا يسن قانون إلا برأيهم، فكل هذه لوازم لتحقيق معنى الشورى وتنفيذه.. وأنَّ الأعمال الفنية كقيادة الحرب والصناعة تكون تحت رقابة على القائمين بها من صفوة مختارة منهم، يكون عملها التوجيه.. وهكذا ثبتت كل هذه الأمور كنتائج لتنفيذ الأمر بالشورى.

رابعا ـ أسرار التصوير والتخييل:

بينما كنت مستغرقا في تتبع ما يذكره طلبة البيان القرآني في عرض فهومهم للإشارات القرآنية، إذا بي أسمع صوتا يناديني، ويطلب مني الخروج من تلك القاعة؛ فرفعت يدي أستأذن من الأستاذ.. لكنه لم يهتم بي، ولم يرد علي، لا هو ولا أحد من التلاميذ، بل ظلوا يذكرون ما يرونه من إشارات القرآن الكريم، وكأنهم لم يروني، ولم يسمعوني.

لم أجد سوى أن أخرج.. وبمجرد خروجي وجدت أحدهم يقول لي: لقد أطلت جلوسك في هذه القاعات.. من الصباح ونحن ننتظرك في قاعة التصوير والتخييل.. كنا نظن أنك ستكتفي بها دون تلك القاعات التقليدية التي زرتها.

قلت: ما بك سيدي؟.. كيف تطلق على كل تلك العلوم التي يسرت علينا الفهم والتدبر علوما تقليدية؟

قال: لأنها كذلك.. فهي علوم لم يعد لها من يهتم بها في عصرك إلا القليل المحدود..

وربما يصعب على الكثيرين فهمها.. ولذلك دعت حجة الله القائمة على خلقه أن تُستبدل تلك العلوم بعلوم جديدة، ربما تكون أكثر بيانا للبيان القرآني.

قلت: فهل تتعارض مع العلوم السابقة، التي سميتها علوما تقليدية؟

قال: لا.. ومعاذ الله أن تكون كذلك.. بل هي تستفيد منها، ولكنها تختار التعبير عن بيان القرآن الكريم بلغة أخرى.. ربما تكون أيسر وأفضل.

قلت: أظن أنك تقصد لغة التصوير والتخييل.

قال: أجل.. فالقرآن الكريم لا يكتفي بعرض الحقائق، وإنما يعرضها في شكل صور وأحداث لتمتلئ بها النفس، وتؤثر فيها.

قلت: أجل.. لقد سمعت بهذا كثيرا.. وكم وددت لو تعلمت هذه العلوم؟

قال: فهلم بي لقاعة التصوير والتخييل؛ فقد تجمع فيها المصورون والممثلون والمخرجون.. ليتعلموا من مدرسة القرآن الكريم هذه الفنون.

ما سرنا إلا قليلا، حتى دخلنا قاعة تشبه الاستديوهات السينمائية.. وقد رأيت عند دخولي لها مشهدا سينمائيا جميلا، يحوي الكثير من المرئيات المعبرة عن الآيات التي كان القارئ يقرؤها بصوت جميل.

وبعد أن انتهى المشهد، قام رجل يلبس لباس الفنانين، ويطيل شعر رأسه مثلهم، وقال: لقد حاولت في هذا المشهد أن أصور هذه الآيات الكريمة، بحسب آخر تقنيات التصوير والإخراج، وأظن أنها أعجبتكم.

قال أحدهم: هي جميلة جدا، ونتمنى أن تواصل على هذا الدرب؛ فنحن في عصر جديد، ونحتاج إلى طبع نسخة مصورة من القرآن تيسر على عامة الناس فهمه.

قال المخرج: نحن نفعل ذلك، مع فريق كبير من المخرجين.. والحمد لله.. هم

حاضرون اليوم معنا.. ومعهم بعض مدراء التصوير.. لنسمع منكم المزيد من المشاهد؛ فنحن نفكر في إخراج أفلام سينمائية ليس لها من هدف سوى توضيح الحقائق القرآنية.

قام رجل من القاعة، يلبس لباس الشيوخ، وقال: أشكر المخرج على هذا التسجيل الرائع الذي أثبت به أنه تلميذ حقيقي لمعلم القرآن.. بل لمعلم البيان أيضا.. ونحن نريد منكم الآن، وخصوصا مع وجود عدد محترم من المتخصصين أن نتحدث عن هذه الظاهرة القرآنية البيانية العجيبة.. ظاهرة التصوير والتخييل، ودورها في التعريف بالحقائق القرآنية، وتقريبها والتأثير في المتدبرين لها(١).

واسمحوا لي قبل أن تبدأوا أحاديثكم أن أشرح لكم غرض دعوتي لكم.. وذلك يستدعي أن أبدأ لكم الحكاية من البداية.. فلا تُفهم النهايات إلا بالبدايات..

سكت قليلا، ثم قال(٢): في البداية ـ كما تعرفون ـ كانت السليقة العربية الصافية تساعد أصحابها على إدراك ما في القرآن الكريم من جمال فني، وتصوير جميل، وتعبير معجز.. واستمرت هذه السليقة ردحا من الزمن، إلى أن بدأت تفقد صفاءها، وقدرتها على تذوّق التعبير القرآني.. وحينها بدأت حركة تفسير القرآن، وحركة الكشف عن مواضع الإعجاز فيه أيضا.

وقد تنوّعت الدراسات القرآنية آنذاك، وسارت في مسارات عدة، أهمها ـ ما يرتبط بمجال تخصصنا ـ تلك الدراسات التي ركزت على البلاغة والأساليب وطرائق التعبير.. وفي مقدمتها ـ كما تعرفون ـ كتب الجاحظ والجرجاني والزمخشري والخطابي والرماني والباقلاني وغيرهم.. فقد رأت هذه الدراسات القيّمة أن (البيان) هو سرّ الإعجاز، وبه كان

---

(١) استفدنا الكثير من المادة العلمية المرتبطة بهذا المبحث من كتاب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، لعبد السلام أحمد الراغب، وهو من أحسن الكتب التي تناولت هذا الموضوع بتفصيل ويسر. وقد تصرفنا في النصوص المقتبسة بما يقتضيه السياق الروائي.

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٧)

التحدي للعرب قديما فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وما زال هذا التحدي إلى يوم الدين.

واستمرارا لتلك الجهود، أو تعميقا لها، أو تبسيطا لمعانيها ظهر في العصر الحديث ما يُطلق عليه (الصورة الفنية)، باعتبارها قاعدة الأسلوب القرآني الأساسية، وأداته المفضّلة في التعبير عن المعاني المجردة، والحالات النفسية، والمواقف الإنسانية.

وقد رأيت من خلال بحثي أن العلماء في القديم تحدثوا عنها في كتبهم، ولكنها لم تحظ عندهم بدراسة متخصصة مستقلة، كما أن آراءهم حولها، لم تخرج عن الفهم الجزئي المحدود لها، إلى (الفهم الكلي) المدرك لخصائصها الفنية في النص كله.

ومثل ذلك للأسف علماء البيان في العصر الحديث؛ فمع أن الدراسات المعاصرة حول (الصورة) كثيرة جدا، إلا أنا نجد الأدباء والنقاد كرّسوا جهودهم على دراسة (الصورة الشعرية)، ولم يهتموا بدراسة الصورة القرآنية، على الرغم من روعة بنائها الفني، وإيقاعها الفريد، وقوة تأثيرها في النفوس.. وأستثني طبعا من هؤلاء الدارسين (سيد قطب) الذي خصص كتابا مستقلا لها عنوانه (التصوير الفني في القرآن)؛ فكان بذلك أول من لفت الانتباه إلى ظاهرة الإعجاز في التصوير القرآني، ولكنه أيضا قصر دراسته على الجانب الفني دون الجانب الوظيفي لها، كما صرّح هو بذلك في مقدمة كتابه بقوله: (إذ كان همي كله موجها إلى الجانب الفني الخالص) (١)

ولهذا طلبت منكم أن تحضروا جميعا ـ بتخصصاتكم المختلفة ـ سواء تلك التي ترتبط بالبيان.. أو تلك التي ترتبط بفنون التصوير والإخراج.. بل حتى بفنون الكتابة القصصية والروائية.

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ص ٩.

قام آخر، وقال[1]: بورك فيك شيخنا.. وأنا معك فيما ذكرت.. فكتاب سيد قطب حول التصوير الفني في القرآن الكريم مع أهميته إلا أنه يحتاج الكثير من التفصيل والدراسة، خاصة مع ظهور الكثير من الدراسات النقدية القيّمة التي يمكن الاستفادة منها في دراسة الصورة القرآنية.

قام بعض الحضور، وقال: أرى أننا نحتاج في بداية حديثنا عن الصورة القرآنية، أن نحدد أغراضها، حتى نسعى في أعمالنا الفنية لتطبيقها.. فالأمور بمقاصدها.. والبدايات السليمة لا تتحقق إلا بمراعاة الغايات والمقاصد.

قال آخر[2]: بما أني مختص في علم النفس.. فقد رأيت أن للصورة الفنية في القرآن الكريم تأثيرا كبيرا في النفس الإنسانية.. حيث أنها تثير فيها الانفعالات المختلفة، من خوف ورجاء وحبّ وكره، وإقدام وإحجام.. لأنّ الله الذي أنزل القرآن الكريم، هو الذي خلق الإنسان، وهو أعلم بما يؤثر فيه، ويحرك نفسه لكي تستجيب.

وربما يشير إلى هذه قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].. فالسرور حالة نفسية متولّدة من تأثير صورة اللون فيها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].. فالتذاذ العين بالصورة الحسية يكون مصحوبا بحالة شعورية من شدة تأثير الصورة فيها.

ومثل ذلك قوله تعالى عن النسوة اللاتي تعرضن ليوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٧)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٤١٦)

قال آخر[1]: بورك فيكم.. ومن الأمثلة على ذلك أن الله تعالى عندما يريد استحالة نيل الذين كفروا القبول، وأنهم لن يدخلوا الجنة إطلاقًا، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل.. وهي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة.. يعرضها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].. فالآية الكريمة تدع للخيال أن يرسم صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سم الخياط؛ ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم ﴿الْجَمَلُ﴾ خاصة في هذا المقام؛ ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة، في أعماق النفس، وقد وردا إليها من طريق العين والحس ـ تخييلًا ـ وعبرا إليها من منافذ شتى، في هينة وتؤدة، لا من منفذ الذهن وحده، في سرعة الذهن التجريدية.

قال آخر[2]: ومثل ذلك عندما يريد أن يبين ضياع أعمال الذين كفروا، بسبب عدم إيمانهم وإخلاصهم؛ فإنه يعرضها بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ليدع الخيال يتصور صورة الهباء المنثور، ليكون المعنى أوضح وآكد.

وهكذا يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه، فيقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].. فتزيد الصورة حركة وحياة، بحركة الريح في يوم عاصف، تذرو الرماد وتذهب به بددًا، إلى حيث لا يتجمع أبدًا.

قال آخر[3]: ومثل ذلك عندما يريد أن يبين أن الصدقة التي تبذل رياء، والتي يتبعها

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ٣٧)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ٣٨)

(٣) التصور الفني في القرآن، (ص ٣٨)

المن والأذى، لا تثمر شيئًا ولا تبقى.. فينقل إليهم هذا المعنى المجرد، في صورة حسية متخيلة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ليدعهم يتملون هيئة الحجر الصلب المستوي، غطته طبقة خفيفة من التراب، فظنت فيه الخصوبة؛ فإذا وابل من المطر يصيبه؛ وبدلا من أن يهيئه للخصب والنماء ـ كما هي شيمة الأرض حين تجودها السماء ـ إذا به ـ كما هو المنظور ـ يتركه صلدًا؛ وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره، وتخيل فيه الخير والخصوبة.

قال آخر(١): ومثل ذلك عندما يريد أن يبين المعنى المقابل لمعنى الرياء، ومعنى الذهاب بالصدقة التي يتبعها المن والأذى، فيقول: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].. فهذا الوجه الثاني للصورة، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى.. فهذه الصدقات التي تُنفق ابتغاء مرضاة الله، هي في هذه المرة كالجنة، لا كحفنة من تراب؛ وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان، فالجنة هنا فوق ربوة؛ وهذا هو الوابل مشتركًا بين الحالتين، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق، وفي الحالة الثانية يربي ويخصب.. في الحالة الأولى يصيب الصفوان، فيكشف عن وجه كالح كالأذى؛ وفي الحالة الثانية يصيب الجنة، فيمتزج بالتربة ويخرج أكلا.. ولو أن الوابل لم يصبها، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات، ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها.

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ٣٩)

انظروا لذلك التناسق العجيب في جو الصورة، وفي تماثل جزئياتها، وفي توزيع هذه الجزئيات على الرقعة فيها.. حيث يكون الصفوان تغشيه طبقة خفيفة من التراب، مثلا للنفس المؤذية تغشيها الصدقة تبذل رياء.. والرياء ستار رقيق يخفي القلب الغليظ.. وحيث توضع الجنة فوق ربوة، في مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان.

قال آخر(١): وهكذا تتكرر المشاهد المختلفة لنفس المعنى، حتى تقرره في النفس غاية التقرير، يقول تعالى ـ في مشهد آخر ـ: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وهذا المشهد يرسم صورة للحرث تأخذه ريح فيها برد يضرب الزرع والثمار فيهلكها، فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه، كالذي ينفق ماله وهو كافر، ويرجو الخير فيما أنفق، فيذهب الكفر بما كان يرجوه.. بالإضافة إلى ما في جرس كلمة ﴿صِرٌّ﴾ من تصوير لمدلولها، وكأنما هو قذائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه.

قال آخر(٢): ومثل ذلك عندما يريد أن يبين أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه، وينيله ما يرجوه؛ وأن الآلهة التي يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئًا، ولا تنيلهم خيرًا، ولو كان الخير قريبًا؛ حيث يرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].. وهي صورة تلح على الحس والوجدان، وتجتذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة؛ وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ: شخص حي شاخص، باسط كفيه إلى الماء، والماء منه قريب، يريد أن يبلغه فاه، ولكنه لا يستطيع.

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ٤٠)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ٤٠)

قال آخر[1]: ومثل ذلك عندما يريد أن يبين أن الآلهة الذين يعبدون من دون الله، لا يسمعون ولا يجيبون؛ لأنهم لا يعون ولا يتبينون، وأن دعاء عبادهم لهم عبث لا طائل وراءه؛ فإنه يختار صورة تبين هذا المعنى، وتجسم هذه الحالة، وتلمس الحس والنفس بأقوى مما تلمسها العبارات العادية، عن المعاني الذهنية، وهي الصورة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].. هكذا ينعق الكفار بما لا يُسمع، وينادون ما لا يفهم، فلا يصل إليه من أصواتهم إلا دعاء مبهم، ونداء لا يفهم.. فهؤلاء الآلهة لا يميزون بين الأصوات ولا يفهمون مراميها.. هذا في ظاهره مثل، لكنه في حقيقته صورة شاخصة.. صورة جماعة يدعون آلهة تصل إليها أصواتهم مبهمة، فلا تفهم مما وراءها شيئًا؛ وفيها تتجلى غفلة الداعين وعبث دعوتهم، بجانب غفلة المدعوين واستحالة إجابتهم.

قال آخر[2]: ومثل ذلك عندما يريد أن يبين ضعف هؤلاء الآلهة، أو الأولياء من دون الله عامة، ووهن الملجأ الذي يلجأ إليه عبادهم حين يحتمون بحمايتهم، فيرسم لهذا كله صورة مزدوجة، يعبر عنها بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].. فهم عناكب ضئيلة واهنة، تأوي من حمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيوت العنكبوت أوهن وأضأل.. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].. لكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهية المنظورة، فهم يضيفون إلى الضعف والوهن، جهلا وغفلة، حتى ليعجزون عن إدراك البديهي المنظور.

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ٤١)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ٤١)

قال آخر[1]: ومثل ذلك عندما يريد أن يبين أن الذي يشرك بالله، لا منبت له ولا جذور، ولا بقاء له ولا استقرار، فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات، عنيفة الحركات، يقول فيها: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].. هكذا في ومضة.. يخر من السماء من حيث لا يدري أحد، فلا يستقر على الأرض لحظة.. إن الطير لتخطفه، أو إن الريح لتهوي به.. وتهوي به في مكان سحيق، حيث لا يدري أحد كذلك.. وذلك هو المقصود.

قال آخر[2]: ومثل ذلك عندما يريد أن يثبت معنى الحرمان والإهمال في الآخرة لهؤلاء الذين أعطاهم الله الكتاب من قبل الإسلام فأهملوه، وعاهدهم على الإيمان فعاهدوه، ثم أخلفوه، ابتغاء نفع مادي قليل، شأن من لا عهد له، ولا احترام لكلمته، فيرسم لهذا الإهمال المعنوي صورة حسية، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].. فيوضح معنى الإهمال لا بألفاظ الإهمال، ولكن برسم الحركات الدالة عليه: لا كلام، ولا نظر، ولا تزكية.. وإنما عذاب أليم..

قال الشيخ[3]: بورك فيكم جميعا.. وقد أشار إلى علة ما ذكرتموه من الأمثلة العلامة الكبير عبد القاهر الجرجاني حين أرجع ذلك إلى الفطرة الإنسانية، والتي تميل ـ بحسب جبلتها التي خلقت عليها ـ إلى اكتشاف المجهول أو المستور.. وقد قال معبرا عن ذلك: (من المركوز في الطباع والراسخ في غرائز العقول أنه متى أريد الدلالة على معنى، فترك أن يصرح

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ٤٢)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ٤٢)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٤١٧)

به، ويذكر باللفظ الذي هوله في اللغة، وعمد إلى معنى آخر، فأشير به إليه، وجعل دليلا عليه كان للكلام بذلك حسن ومزية لا يكونان إذا لم يصنع ذلك وذكر بلفظه صريحا) (١)

وهذا يعني أن اللفظ المجرد لا يحدث في النفس ما تحدثه الصورة من تأثير، لأنه يقرّر المعنى بأسلوب مباشر مألوف، بينما تثير الصورة شوقا لدى الإنسان لمعرفة هذا التعبير غير المباشر.. وهذا الشوق لديه، يدفعه إلى إعمال الفكر، وبذل الجهد لمعرفة المقصود، وبذلك تتحقق له متعة اكتشاف المعنى المستور، كما عبر عبد القاهر عن ذلك بقوله: (من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف) (٢)

وذكر ميل النفس إلى المعرفة الحسية، وتفضيلها لها على المعرفة الفكرية المجردة، فقال: (أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام) (٣)

لذلك كانت الصورة ـ كما يذكر ـ (أشد العناصر المحسوسة تأثيرا في النفس، وأقدرها على تثبيت الفكرة والإحساس فيها) (٤)

قال آخر(٥): بورك فيك مولانا.. وهذا يدل على أن الاهتمام بالصور القرآنية لم يكن وليد هذا العصر، وإنما اهتم به السابقون، وإن كانوا لم يفردوه بالتأليف والبحث.. وقد

---

(١) دلائل الإعجاز: ص ٤٤٤.

(٢) أسرار البلاغة: ص ١١٨.

(٣) أسرار البلاغة: ١٠٢.

(٤) الصورة بين البلاغة والنقد: ٢٨.

(٥) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٤١٨)

رأيت أن الفخر الرازي قد سار على منوال الجرجاني في ذكره لأهمية الصورة ودورها، وذلك ضمن حديثه عن أسباب استعمال المجاز؛ فقد عدّد من هذه الأسباب، ما سمّاه (تلطيف الكلام)، يقول في ذلك: (وأما تلطيف الكلام فهو أن النفس إذا وقفت على تمام المقصود لم يبق لها شوق إليه، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون البعض، فإن القدر المعلوم يشوقها إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم، فتحصل لها بسبب علمها بالقدر الذي علمته لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة، واللذة إذا حصلت عقيب الألم كانت أقوى، وشعور النفس بها أتم وإذا عرفت هذا فنقول إذا عبر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة حصل كمال العلم به فلا تحصل اللذة القوية.. أمّا إذا عبّر عنه بلوازمه الخارجية وعرف لا على سبيل الكمال فتحصل الحالة المذكورة التي هي كالدغدغة النفسانية، فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألذ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية) [1]

قال الشيخ: بورك فيكم جميعا على هذه الكلمات التي تدل على أهمية الصورة القرآنية، وبما أن الوقت لا يكفي لكل التفاصيل المرتبطة بذلك.. فإنا نريد منكم الدخول مباشرة في ذكر نماذج عن الصور القرآنية حتى يتعرف الفنانون المتخصصون على كيفية صياغتها.. وقد رأيت أن نهتم اليوم بذكر ثلاثة معان كبرى، ترتبط بها الحياة جميعا.. وهي معرفة الكون، ومعرفة الإنسان، ومعرفة الحياة[2].

١ ـ الصورة القرآنية ومعرفة الكون:

قام أحد الحضور، وقال[3]: لعلكم تلاحظون أن السماء يكثر ورودها في القرآن

(١) المحصول في علم الأصول: ١/ ٢٥١.

(٢) سنكتفي هنا بذكر الأمثلة والنماذج المرتبطة بالتصوير الفني في القرآن. أما التفاصيل فسنوردها إن شاء الله في كتب خاصة بها.

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٢)

الكريم مرتبطة بذكر الأرض معها غالبا.. وذلك لأنها تحيط بالأرض، فيراها الإنسان دائما.. كما أنها تتسم بالضخامة والاتساع والجمال، مما يؤثر في حس الإنسان ووجدانه.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في وصف السماء والأرض: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].. فهذه الصورة الكونية الصخمة، المرسومة للسماء والأرض، تشغل مساحة واسعة في المكان، كما تحتل مكانة واسعة في الحس والشعور، وهي أكبر دليل على خلق الناس.

قال آخر[١]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].. فالصورة هذه توحي بضآلة خلق الإنسان إلى جانب هذه الصورة الكونية الضخمة، المتجاوزة في التعبير لصورة الإنسان، لتحقيق هذا الغرض من التصوير.. ويكون جواب الاستفهام معروفا بدون جدال، فهذه السماء أقوى في بنائها وضخامتها من خلق الإنسان، كما أن تصوير السماء بالبناء، يوحي بتماسكها وقوتها، وتناسقها، وهي دليل على قدرة الله، المتجلّية في الكتل الضخمة، كما هي في الكتل الصغيرة، فالإعجاز الإلهي واحد في الاثنين.

قال آخر[٢]: ومثل ذلك تصوير السماء فوق الرؤوس، ممسوكة بيد القدرة الإلهية، لإثارة مخيّلة الإنسان، وتحريك نفسه، يقول تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَّ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]

وفي موضع آخر يصوّر إمساكه السماوات والأرض من أن تزولا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].. وهي صورة ضخمة موحية، حين نتصوّر هذه الكتل العظيمة،

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٥)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٥)

تسبح في الفضاء بلا عمد، ولا أمراس تشدّها، ولكن الله وحده هو الذي يمسك بها جميعا، وهي تدور في مداراتها المرسومة لها إلى أجل معلوم.. ويأتي التعقيب متناسقا مع جوّ التصوير ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ فهو يملك هذه القوة والقدرة ولكنه حليم، لا يسمح أن تطبق السماوات فوق الرؤوس، ويمهل الناس ليوم الحساب، وهو غفور مع كل هذه العظمة والقدرة.

قال آخر(١): ومثل ذلك تصوير ارتباط السماء بالحياة على الأرض؛ فالسماء هي التي تمد الأرض بالماء والحرارة والضوء والرزق وغير ذلك.. يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].. فالتقابل في الصورة بين السماء والأرض، يظهر الصلة الوثيقة بينهما، وهي صلة تواصل وتكامل، حتى يحس الإنسان بقدرة الله عليه، في الأرض التي يقف عليها، والسماء المحيطة به وبالأرض جميعا.

قال آخر(٢): ومثل ذلك تصوير الجمال البارز في السماء، وهو عنصر مقصود في التصوير.. والقرآن الكريم يوجّه الأنظار إليها، لتأمل صورتها الجميلة المتناسقة المحكمة، يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤].. فالجمال سمة بارزة في صورة السماء، وإدراك هذا الجمال، وما فيه من التناسب والتناسق والإحكام، يعد وسيلة لإدراك جمال الخالق سبحانه، وبيان قدرته وهيمنته على هذا الكون البديع.. وتتسم هذه الصورة المعروضة بالتحدي للناظرين، أن يجدوا أي عيب في صورة السماء الجميلة، ومشهد السماوات، على هيئة الطباق المبنية، بعضها فوق بعض،

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٥)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٦)

متناسبة الأجزاء، ومحكمة وخالية من الخلل والعيوب، يدلّ على كمال خلق الله، والكمال في الخلق يعني الجمال.. ومشهد الإنسان، وهو يطيل التأمل فيها، ويدقق النظر، ويفحص أجزاءها، ومعاودة هذا النظر مرة تلو أخرى، ثم ارتداده خاسئا، حسيرا، ضعيفا، عاجزا أن يجد أي خلل فيها أو عيب، دليل على عجز الإنسان، وإقراره بعظمة هذه المشاهد التي يراها.. وهي دليل أيضا على القدرة الإلهية التي أبدعتها على هذا النحو من الكمال والجمال.. وصورة السماء صورة قريبة مدركة، يدركها الإنسان الأمّي، والعالم أيضا مع اختلاف بين الاثنين في تفسير هذا الكمال، وهذا الجمال بحسب المدارك العقلية، والثقافة العلمية لكل منهما، ولكن أثر الصورة الكونية، في النفس الإنسانية، حقيقة ثابتة لا ينكرها أحد، وإن اختلفت التفسيرات في إدراك أبعادها العلمية.

قال آخر[1]: ومثل ذلك تصوير السماء وهي مزينة بالنجوم المضيئة من خلال الظلام، وهي صورة بديعة موحية ومؤثرة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، فعنصر الجمال مقصود في التصوير أيضا، وقد دلّ عليه دخول المؤكّدات المتنوعة في بناء الصورة مثل اللام وقد، ونسبة الفعل إلى الله ﴿زيّنّا﴾

قال آخر[2]: لقد ورد تصوير السماء المزينة بالنجوم في كثير من الآيات، كي تستمتع العين برؤيتها، وتشبع حاسة الجمال الفطرية في الإنسان، بالإضافة إلى دلالتها على القدرة الإلهية.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨].. فصورتها

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٧)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٧)

المعروضة، تجمع الضخامة والدقة والسعة، والزينة، كما تضيف صفة جديدة وهي الحفظ والحراسة من كل شيطان رجيم.. فجمالها محروس من قبل الله عز وجل، وأخبارها الغيبية محفوظة، ولا سبيل إلى معرفتها، وصور الشهب الساقطة في الليل، صورة واقعية مألوفة لدى الناس، ولكنّ التصوير هنا يحمّلها معاني الحفظ والحراسة لعالم الغيب، حتى يقطع أساليب الخرافة والشعوذة في تصورات الناس الشائعة، وبذلك يتحرر العقل من الأوهام والأساطير التي كانت شائعة قبل الإسلام، فالسماء محروسة حراسة شديدة، لحجب أسرار الغيب عن المخلوقات، فهناك الشهب الراجمة للشياطين، وما يقوله الكهان خرافة وباطل بعد هذه الشهب الحارقة.

قال آخر[1]: ومثل ذلك رسم مشهد النجوم، وهي سارية متحركة، وهو ما يزيد في توضيح جمالها وإيحائها، فهذا النجم الساري في السماء، يثقب الظلام بضيائه، ويترك للعين أن تستمتع بهذه اللوحة الفنية المتناسقة والجذابة، فيها الحركة، وامتداد المساحة، واللون المؤثر يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ١-٤].. فالصورة هنا بعناصرها السماء، والنجوم، والضياء، والظلام، وما فيها من حركة وحياة، لها قيمتها وأهميتها، فالله يقسم بهذه الصورة الكونية، والله سبحانه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وذي قيمة، لذلك عقّب على القسم بالاستفهام الموحي بالتفخيم والتعظيم، ثم صرّح بالمقصود بالطارق، وهو النجم الثاقب، والمراد به جنس النجم وليس نجما بعينه، كما يوحي السياق بذلك، ثم جاء بالمقسم به ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حافِظٌ﴾ للدلالة على أن كل نفس عليها حافظ رقيب على أعمالها وخواطرها، يملك قدرة النفاذ إلى أعماقها المستورة، ومناطقها المظلمة، فيشق حجابها السميك الخارجي بقوة نفاذه

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٠٨)

كما يطرق هذا النجم الثاقب ظلام الليل، فيزيل ظلامه، وينفذ من خلاله.. وتتجلى قدرة الله سبحانه في الصورة الكونية والصورة النفسية معا، وتتلاحم الصورة في إطارها مع مضمونها كما يتّحد الغرض الفني بالغرض الديني من خلال هذا التصوير المعجز.

قال آخر(١): وهكذا نجد الصور الكثيرة المرتبطة بالأرض ومشاهدها، ومنها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].. وهو يصور تهيئة الله للأرض كي تكون صالحة للحياة عليها، فهي على الرغم من أنها كروية ومتحركة، فإن الإنسان لا يشعر بحركتها، ولا يتأثر بشكلها الكروي، بل إن حركتها وشكلها الكروي، هما من الأسباب التي جعلتها مهيأة للحياة على ظهرها، وهذا من دلائل القدرة الإلهية الملحوظة في هذه المشاهد الكونية المحسوسة.. ويتضافر التعبير مع التصوير في رسم شكل الأرض، وحركتها، وطبيعتها، فلفظ ﴿يُكَوِّرُ﴾ له دلالته القوية على حقيقة الأرض، وحركتها، فهو يثبت كرويتها ويرسم آثار كرويتها في مظاهر كونية أخرى في تعاقب الليل والنهار، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكوّر يغمره الضوء ويكون نهارا، وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي عليه النهار، وهذا السطح المكور، فالنهار كان عليه مكوّرا، والليل يتبعه مكوّرا كذلك، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى، يتكوّر على الليل، وهكذا في حركة دائبة، واللفظ يرسم الشكل، ويحدد الوضع، ويعين طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض، ودورانها يفسران هذا التعبير(٢).

قال آخر(٣): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير تهيئة الأرض لاستقبال

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢١٢)

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠٣٨.

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢١٢)

الحياة عليها: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]، وقال: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]، وقال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣] وقال: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: ٦].. وغيرها من الآيات الكريمة التي تصور الأرض، مفروشة، ومبسوطة، وممدودة، ومهاد، حتى يقرّ الإنسان عليها ويستقرّ، ثم صورة دحوها وطحوها، حتى تكون صالحة للزراعة والحياة.. وهذا ما يؤكد كونها كروية.. ولهذا ذهب كثير من العلماء المسلمين في القديم ـ بناء على تلك الآيات ـ إلى القول بكرويتها.. وأما كونها مسطحة أو ممدودة أو مبسوطة، فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها، أو بالنسبة للناظرين إليها.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير الأرض، وشكلها وحركتها وثباتنا عليها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].. فلفظ ﴿ذَلُولٌ﴾ يوحي بحركتها وثبات الإنسان عليها.. (فهذه الأرض التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة هي دابة متحركة بل رامحة، راكضة، مهطعة، وهي

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢١٢)

في الوقت ذاته، ذلول، لا تلقي براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضّه، وتهزه، وترهقه، كالدابة غير الذلول، ثم هي دابة حلوب، مثلما هي ذلول) (١)

وزيادة في تشخيصها قال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾.. والمشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية(٢).. فإذا كان المشي في مرتفعاتها أو أطرافها مذلّلا، فلا يشعر الإنسان بحركتها، فالمشي في سهولها من باب أولى.

قال آخر(٣): ومن الأمثلة على ذلك تصويرها بصورة الأم الحنون، التي تضمّ بنيها، وتحتضنهم أحياء وأمواتا، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].. والمراد بالكفت هو الجمع والضم، فهي تجمع البشر على ظهرها أحياء، وتضمهم في باطنها أمواتا(٤).. فالصورة التي يرسمها اللفظ الموحي، لهذه الأعداد الهائلة من البشر، يتجمعون على ظهرها، وفي باطنها أيضا صورة ضخمة مثيرة للخيال، دالّة على القدرة الإلهية الممسكة بهذه الأرض، التي لا تنوء بما تحمله من هذه الأثقال، وكأنها تحمل البشر ودائع عندها إلى اليوم الموعود.

قال آخر: ومثل ذلك يصور القرآن الكثير من المعاني المرتبطة بالأرض، كالجبال الراسيات، والمياه و غيرها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، وقال:﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٦٣٩.

(٢) الكشاف: ٤/ ١٣٨.

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢١٢)

(٤) صفوة التفاسير: ٣/ ٥٠٢.

﴿أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]

قال آخر[(١)]: ومثل ذلك يصور القرآن الكريم مشاهد متعددة من الطبيعة في سياق واحد متناسق، كدليل على قدرة الله سبحانه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].. وذكر الجمال هنا دون سائر الحيوانات، اقتضاها التناسق بين أجزاء الصورة المرسومة، فالسماء المرفوعة، تقابلها الأرض المبسوطة، والجبال المنصوبة في الأرض المبسوطة، تلائمها الجمال المنصوبة السنام، وهكذا ترسم الصور مشاهد الطبيعة بالمساحات والمسافات والخطوط والأشكال، وتدعو الإنسان إلى تأمل هذه المشاهد المتناسقة التي تدلّ على خالقها المبدع.

قال آخر[(٢)]: ومثل ذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣-٤].. فهذه اللوحة الفنية المرسومة هنا بأشكالها، وأحجامها، وألوانها، وخطوطها، تظهر قدرة الله في الخلق من مصدر واحد، ثم التنويع بعد ذلك في المظاهر؛ فالماء واحد، ولكنه ينبت الزروع والأشجار والثمار.. والأرض واحدة، ولكن ما تنبته متنوّع في الثمار والأشجار والزروع، ثم هذا التنوّع في الثمار والزروع والأشجار، مؤلّف من زوجين اثنين، ذكر وأنثى، وبالتلاقح بينهما، يتمّ هذا التنويع والتكثير.. ثم الأرض واحدة، ولكنها قد تكون صالحة للزراعة، وغير صالحة أو صالحة لنوع من الزروع والثمار والأشجار

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢١٣)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٢٥)

والأخرى غير صالحة، وقد تكونان متجاورتين في المكان مع كل هذا الاختلاف في القابلية للزراعة وعدمها، أو قد تكونان متجاورتين، ولكن الاختلاف بينهما في قابلية إحداهما لنوع دون الآخر.. ثم هناك الشجرة الواحدة، ولكنها تعطي ثمارا متنوعة كالنخيل والأعناب، وهذا أيضا ينطبق على الحبوب والزروع، حتى في الشجرة الواحدة، والنوع الواحد، والثمر الواحد، نلاحظ فوارق في المذاق والطعوم ونحو ذلك.. وهكذا تبرز قدرة الله في هذا التنويع والتكثير، مع وحدة الأصل، كما تبرز في تمهيد الأرض، وتثبيتها بالجبال الراسيات التي هي ذوات ألوان وأشكال، وأحجام، كذلك الأنهار تزيد من جمال اللوحة الفنية المرسومة هنا للدلالة على قدرة الله، وبديع خلقه، لمن يتفكر في ذلك ويتدبّر.

قال آخر[1]: ومثل ذلك تصوير القرآن الكريم لمظاهر الجمال في الأرض في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].. فليس المقصود بالتصوير هنا مجرد رسم حركة نزول الأمطار، وإنبات الزروع والثمار فقط، وإنما إنبات الحدائق ذاتَ بَهْجَةٍ الموحية بتأثير جمالها في النفوس أيضا.. وهذا ما نراه أيضا في تصوير مشهد آخر أكثر تفصيلا، يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].. فهذه اللوحة الفنية المرسومة للطبيعة بأشكالها وألوانها، وأنواعها وأحجامها، تظهر قدرة الله، وحسن تدبيره وإحكام تنسيقه لهذا الكون البديع.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٢٦)

والتصوير فيه تطويل وتفصيل، وتدرّج في رسم المشهد، لإظهار تناسقه، ومحاسنه من الجهات المتعددة.. ويبدأ عرض المشهد حيا شاخصا من إنزال المطر من السماء، لشدّ الأنظار إليها، لأنها هي المنبع والمصدر لكل شيء على سطح الأرض، ثم يبدأ استعراض آثار الأمطار في إنبات كل شيء، ويطيل التصوير في رسم حركة نمو النبات، فيبدأ غضّا أخضر، ثم ينمو ويكبر، فتخرج من هذا العود الأخضر السنابل المحمّلة بالحبوب، والحبوب في السنابل متراكبة بعضها فوق بعض بتنسيق وتنظيم، وصورة السنابل، ترتبط بصورة أخرى تجاورها في السياق، وتستدعيها في الخيال وهي صورة عناقيد الرطب في أشجار النخيل، وصورة عناقيد العنب أيضا.

فهذه الصور الثلاث، تتجاور في السياق، وتتفاعل في الخيال بما تحمله من حبوب وثمار مصفوفة ومرتبة ترتيبا بديعا، ثم صورة شجرة الزيتون والرمان، تتجاوران في السياق، لأن شجرتهما متشابهة في الشكل والأوراق ولكنهما لا تتشابهان في الثمار والطعوم.

وفي نهاية تصوير هذه المشاهد، تأتي الدعوة إلى تأملها، والتفكّر في هذه الثمار المصورة من وقت خروجها ونموها، إلى نضجها وإثمارها، وانتقال صورها من شكل لآخر، حسب مراحل نموها، وتغيّر ألوانها وأشكالها وحجومها وطعومها، ثم صورة الثمار فيها في النهاية مرسومة بأشكالها المتناسقة وهيئاتها الخاصة مثل صورة السنابل وعناقيد العنب، وعناقيد الرطب، وتوضع الأشكال المتشابهة في أنساق متجاورة، فتراكم الحبوب في السنابل مثل تراكم الحبوب في عناقيد العنب، وتراكم عناقيد الرطب، كما تتجاور أشجار الزيتون والرمان، وهكذا تتجاور الصور المتشابهة في أنساق التعبير والتصوير، مع اختلاف في مذاقها وطعومها.. فالتركيز في تصوير هذا المشهد، على دقة التناسق والتنظيم في خلق الطبيعة، للدلالة على الله الخالق القادر على كل شيء.

قال آخر[1]: ومثل ذلك يصور القرآن الكريم مشهد تعاقب الليل والنهار، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦].. فالصورة الحسية هنا تبدأ بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لإحياء الصورة البصرية بالفعل المضارع المكوّن من فعل الرؤية ذاته.. ثم تبدأ برسم حركة الدخول الوئيد لليل في النهار، أو النهار، أو النهار في الليل، للإيحاء بالظلال المصاحبة لدخول أحدهما في الآخر في المشهد الكوني، كما أن الصورة الزمانية لليل والنهار، مرتبطة بالشمس والقمر، فبحركتهما المنتظمة المتناسقة يتم تشكيل هذه الصورة الزمانية، وهذه الدقة في تصميم الكون، تعقبها دقة أيضا، في معرفة أعمال البشر ﴿وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى في تصوير حركة الريح وأدوارها: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].. هكذا لوحة بعد لوحة: إرسال الرياح.. إثارة السحاب.. بسطه في السماء.. جعله متراكمًا.. خروج المطر من خلاله.. نزول المطر.. استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين.. إحياء الأرض بعد موتها.. لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال، وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل، إلى ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، فيجيء هذا التقرير، في أنسب الأوقات للتقرير.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢١٤)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ٦٧)

٢ ـ الصورة القرآنية ومعرفة الإنسان:

قال الشيخ: بورك فيكم جميعا على هذه الأمثلة المرتبطة بالكون.. فحدثونا عن الصور المرتبطة بحقيقة الإنسان ووظائفه، وأصناف البشر وطباعهم.. فهي من المعارف الضرورية التي لها آثارها في كل شؤون الحياة.

قام أحد الحضور، وقال: أجل.. بورك فيك مولانا على طلبك هذا، وأنا شخصيا استفدت كثيرا من الصور الإنسانية المعروضة في القرآن الكريم لكتابة وتصوير الكثير من التسجيلات التربوية والدعوية.. وقد رأيت من خلال مقارناتي[١] بين النماذج الإنسانية في القرآن الكريم، وغيرها من النماذج الواردة في الكتب الأدبية فرقا كبيرا.. وذلك ليس بغريب؛ فالله تعالى هو أعلم بالإنسان من الإنسان نفسه، فحين يصوّر لنا في كتابه نموذجا إنسانيا، فإن تصويره هذا يكشف أعماق النفس الإنسانية، ويوضح خفاياها وأسرارها، لأنه هو خالقها، وهو أعلم بها.

قال آخر[٢]: بورك فيك.. أجل فالنماذج في القرآن الكريم تعتمد على الفكرة غالبا، متمثّلة في شخص معيّن، تصدق عليه من خلال تصويره، وإبراز ملامحه، بحيث تصبح الفكرة في الشخص نمطا معيّنا لأفراد من الناس مثل نماذج المؤمن، والكافر، والمنافق، فهذه النماذج بدأت من فكرة دينية، تجمّعت من حولها مجموعة من الصفات المميّزة لكل شخصية، حتى أصبحت نموذجا مكررا، لكل شخصية تشابه هذا النموذج في فكره وسلوكه وشعوره..

قال آخر[٣]: بورك فيك.. تعقيبا على ما ذكرت، النماذج الإنسانية في القرآن الكريم

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

قد لا تبدأ من الفكرة فحسب، بل هناك نماذج تبدأ من شخص معيّن، ثم تنتهي من خلال تصويره ليصبح نموذجا لنمط معين من البشر.. مثل (فرعون) الذي أصبح نموذجا لكل متجبر متسلّط، في فكره وسلوكه، وشعوره.

قال آخر[1]: كذلك لا تعتمد النماذج القرآنية على ذكر الجزئيات والتفصيلات المكوّنة للنموذج، وإنما تعتمد على اللمحة الخاطفة، والإشارة الموحية، فإذا بالنموذج حيّ شاخص واضح القسمات والملامح..

قال آخر[2]: وهي كذلك تتسم بالشمولية، ولا تتقيّد بزمان ومكان محددين، بل تشمل جميع الناس، باختلاف طبقاتهم وفئاتهم.. وهذا ينسجم مع القرآن الكريم الذي يخاطب الإنسان في كل عصر وجيل.

قال آخر[3]: وهي كذلك تتسم بالنظرة الواقعية للإنسان، حيث تنظر إليه من خلال طبيعته المزدوجة، التي تقبل السمو والتحليق، كما تقبل الهبوط والتدني، ففي النفس الإنسانية هذه الخطوط المتقابلة، فيها القوة والضعف، والسمو والهبوط، والهدى والضلال، والشجاعة والخوف وغيرها.

قال آخر[4]: أجل.. ولهذا يصوّر لنا القرآن الكريم الطبيعة الإنسانية، ويبرزها من خلال النماذج المصورة، وهدفه ليس تصوير الإنسان ملاكا، أو شيطانا، بل تصوير هذه الطبيعة فيه، لتوجيه استعداداته نحو الخير والصلاح.. فالإنسان بإمكانه أن يستغل طاقاته في العمل والبناء المثمر، ضمن إطار الواقع المعاش، دون أن يخلّ ذلك بطبيعته الإنسانية في السمو والهبوط، والصواب والخطأ.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٤) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

قال آخر[1]: أجل.. فالقرآن الكريم حين يصوّر هذه الطبيعة البشرية لا يزيّن نقاط الضعف والانحراف فيه، بل يبرز استعداداته نحو السمو والاستقامة والهدى، ضمن الغرض الديني من التصوير لهذه النماذج.

قال آخر[2]: والأهم من ذلك كله أن القرآن الكريم عرض حياة الإنسان كاملة، منذ بداية خلقه في عالم الغيب، حين خلق الله آدم، ثم هبوطه إلى الأرض، ثم تطور حياة الإنسان، على الأرض، وعلاقته مع نفسه ومع الآخرين وموقفه من ربه، ومن دعوة الرسل.. وقد هيّأ بهذا العرض الطويل والدقيق لحياة الإنسان، بروز النماذج الإنسانية بكثرة وغزارة.. فهناك نماذج مؤمنة وكافرة ومنافقة، ونماذج تمثل القوة، وأخرى تمثّل الضعف، ونماذج من الرجال، وأخرى من النساء، ثم هناك نماذج الجنس البشري كلّه، ونماذج تمثل طبقة، أو فئة من الناس، ونماذج ترسمها القصص التاريخية، أو الأمثال، ونماذج ترسمها الكلمات والصور فهذه النماذج المرسومة وغيرها، هي نماذج مصوّرة، لتحقيق الغرض الديني، وليست لمجرد التصوير الأدبي.. لذلك يمكن أن نقول: إن النماذج القرآنية، هي نماذج أفكار ومبادئ، لتجسيد المعاني الدينية في صورة أشخاص، يتحركون على أرض الواقع، بكل سماتهم، وملامحهم الواضحة من خلال التصوير الفني لهم.

قال آخر[3]: أجل.. ومن الواضح اهتمام القرآن الكريم بذكر نماذج الأنبياء عليهم السلام باعتبارهم قمة النماذج الإنسانية، فكرا وسلوكا وشعورا، بحيث لا يمكن قياسهم بغيرهم، فهم صفوة البشر، اصطفاهم الله لتبليغ رسالاته.. وهذا الاصطفاء جاء لتوفّر صفات فيهم، لا تتوفّر في غيرهم.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

قال آخر[1]: أجل.. لكن هذه النماذج المتميّزة عن بقية النماذج هي نماذج إنسانية أيضا، فيها كل الخصائص، أو الصفات الإنسانية، في صورتها المثالية، فقد عصمهم الله سبحانه وتعالى، وجعلهم معجزته البشرية، كما كان القرآن معجزته البيانية.

قال الشيخ: بورك فيكم جميعا.. والآن بعد هذه الملاحظات القيمة التي ذكرتموها أرجو أن تطربوا أسماعنا ببعض الشواهد القرآنية على ما ذكرتم.

قام بعض الحضور، وقال[2]: من الشواهد المهمة على ذلك ما ورد في أول سورة (البقرة).. حيث بدأت بتقسيم الناس إلى فئات ثلاث: مؤمنة وكافرة ومنافقة.. وهو تقسيم ليس مألوفا في علم التاريخ والاجتماع، وإنما هو تقسيم جديد، يعتمد على قاعدة أساسية، وهي موقف الناس من الإيمان والإسلام.. وقد رسم القرآن الكريم صورا لهذه الفئات الثلاث، محددا معالم كل فئة لتُعرف بها، حتى غدت كل فئة من هذه الفئات نمطا مألوفا في الحياة البشرية، كل نمط يعدّ نموذجا حيّا لمجموعة من البشر، نموذجا مكرّرا في كل زمان ومكان، لا تكاد تخرج البشرية عن هذه النماذج الثلاثة إلى يومنا هذا.. وقد رسم القرآن الكريم هذه النماذج، بكلمات قليلة، وعبارات موحية، فإذا بها تنتفض من خلال التصوير والتعبير صورا، ونماذج نابضة بالحياة والحركة، دقيقة السمات لأشخاص معروفين مكررين، بهذه المعالم الواضحة والسمات الدقيقة.

قال آخر[3]: أجل.. ومن أهم تلك النماذج التي لها تأثيرها الكبير، النماذج التي صور فيها القرآن الكريم المؤمنين محدّدا أبرز سماتهم وملامحهم، حتى أصبحوا بهذه الملامح المصوّرة، نماذج مكررة في كل جيل وزمان، ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٢٩٩)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٠)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٠)

لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥].. فهذه صورة وضيئة للمؤمنين المتقين، توضّح ملامح هذا النموذج الفريد بين البشر، فترتبط صورتهم بصورة حسية مرئيّة من خلال قيامهم بالفرائض المحسوسة، وصورة غيبية، من خلال إيمانهم بالغيب واليوم الآخر.. وهذه الثنائية في التصوير بين الحسي وغير الحسّي، تمثّل مجمل التصور الإسلامي في نظرته إلى الإنسان ذي الطبيعة المزدوجة المكوّنة من مادة وروح، والحياة أيضا باعتبارها دنيوية وأخروية، كما أنّ هذه الثنائية تعتبر من خصائص الصورة الفنية في القرآن التي تجمع بين الحسّي وغير الحسي.. فالصورة هنا ترسم هذا النموذج، وتحدّد معالمه، ليكون نموذجا يحتذى في عالم الواقع والحياة، كما أنها تفتح الآفاق الممتدة، أمام التفكير أو التصوّر الإنساني، ليسرح في عالم الغيب المجهول بما فيه من إيحاء، ومفاجأة، فيظلّ الإنسان مشدودا إلى اليوم الآخر، في ضبط أفعاله وأقواله ومشاعره، وفق منهج الله المرسوم.

قال آخر[١]: ومن النماذج المصورة على ذلك.. نموذج المؤمن المتجرد لله، يبيع كل شيء في سبيل مرضاة ربّه.. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].. وهناك نموذج المؤمن الشجاع، الذي نراه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهناك نموذج أولئك الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، والذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٢)

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].. فمشاعر هذا النموذج مجسّمة في صورة محسوسة، تتمثّل في حركة الجسد ساجدا لله، وحركة اللسان مسبّحا أيضا، ثم يرسم القرآن مشهدا مؤثّرا لهم، يجمع بين الصورة الحسية والصورة النفسية.. فهذا النموذج فريد بين البشر، يهجر مضجعه اللذيذ في وقت راحته ورقاده ليتوجّه إلى ربّه في ساعات الليل، وهو نموذج فريد أيضا في مشاعره، وصلته بربه، يجمع بين الرجاء والخوف.. وبين الصورة المحسوسة، والصورة النفسية، صلة وتواصل في السياق، فهذه المشاعر الخائفة، هي التي دفعتهم إلى هجر المضاجع في زمن الراحة والدّعة.. فالصورة النفسية لهم، تجسّم في صورة حسية متحركة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.. وصورة حسية متحركة أخرى، هي ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ والمضاجع تدعو الجنوب إلى الاسترخاء والدّعة، وإسناد الفعل إلى الجنوب، يوحي بها في التجافي عن المضاجع من مشقّة للأجسام.. وهذه الصفات النادرة، يناسبها الجزاء المذخور عند الله سبحانه، ولكنّ الجزاء هنا يرمز إليه بقوله: ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ فهو جزاء تقرّ به العيون وتسرّ، ولكنه محجوب في التعبير والتصوير، لكي يتناسق مع جوّ عبادتهم في الليل، حيث لا يطلع عليهم أحد إلا الله، وكأنّ هذه الصلاة المستورة في جنح الظلام، يناسبها جزاء خاص مستور أيضا.

قال آخر[1]: ومن النماذج المصورة على ذلك.. النموذج الذي لا يتجاهل الطبيعة البشرية في المؤمنين، بما فيها من قوة وضعف، لكنه لا يصور نموذج لحظات الضعف البشري، ليقرّها، ويزيّنها، وإنما يعرضها في السياق ليعالجها، ويوجّه الإنسان إلي مجاوزتها، يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٣)

لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].. وهذا النموذج يبدأ بحركة حسية، تدعو إلى السرعة طلبا للمغفرة، ووصولا إلى الجنة الواسعة، بشرط تحقيق التقوى.. ثم يبدأ القرآن الكريم برسم صفات المتقين، ويتمثّل ذلك في الإنفاق، في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والتوبة والاستغفار، وعدم الإصرار على الذنب.. وهذه الصفات للنموذج، قسم منها يرجع إلى علاقته بالناس، وقسم آخر يرجع إلى علاقته مع ربه وهذا يعني تلاحم صلة النموذج بربه وبالناس أيضا.. فصورته ممتدة في علاقته بربه، وعلاقته مع مجتمعه، فهو لا يقتصر على جانب دون الآخر، بل هو متواصل مع مجتمعه في الإنفاق وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، كما هو متواصل مع ربه في الاستغفار والتوبة.. وهكذا يصوّر القرآن الكريم نموذج المؤمن، وهو يربّيه ويهذّبه، ويحرّك مشاعره للصعود والارتقاء، فاتحا أمامه باب الرجاء، ثم يأتي الجزاء في نهاية التصوير للنموذج متناسقا مع بداية تصويره له، وكأنّ الجنة الواسعة بمنزلة الإطار الخارجي، والنموذج هذا في داخل هذا الإطار المرسوم والمحدّد.

قال آخر[١]: ومثل ذلك النموذج الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].. فهذا النموذج ينفق ويعطي، على الرغم من حاجته إلى ما ينفقه، ولكنه يؤثر غيره عليه،

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٤)

وهذه آفاق إنسانية من التجرد عن الذات في سبيل إنقاذ الآخرين.

قال آخر[1]: وفي مقابله نموذج الفقير المتعفّف، يقول تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].. وهذا النموذج في الأصل للمهاجرين، لكنّه ينطبق على كل من تمنعه كرامته من أن يسأل الناس، ويضطر إلى أن يتجمّل أمام الناس، حتى لا يظهر فقيرا محتاجا، فمظهره يدلّ على غناه، ولكنّ واقعه خلاف ذلك، والإنسان البصير يدرك الفقر من خلال قسمات الوجوه، التي لا يمكن إخفاؤها، والنموذج يحاول أيضا أن يخفيها عن الأعين، ويدفعها بكل ما يستطيع، حياء وتعففا عما في أيدي الناس.

قال آخر[2]: كما أن هناك نماذج كثيرة يرسمها القرآن الكريم لأناس طيبين، كرماء، شجعان، أتقياء، ومخلصين، وهي نماذج مرسومة للترغيب في الاقتداء بها.. هناك نماذج أخرى لأناس فاسدين، وشريرين، يتمثّلون في نموذج (الكافر)، وهو نموذج يرسمه القرآن، ليقابل نموذج المؤمن، لتوضيح الفروق بينهما.. ومن الأمثلة عنها ما عبر عنه قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].. فهذا النموذج ترسم ملامحه الأساسية، بعد نموذج المؤمن في أول سورة البقرة، لتتّضح الفوارق الجوهرية بين النموذجين من أول النص القرآني.. وكما أن نرى في نموذج المؤمن تفتّح حواسه، وإيمانه بالله سبحانه، وباليوم الآخر.. نرى نموذج الكافر، وقد عطّل حواسه، فتوقفت عنده وسائل المعرفة والإدراك، فلم يعد يدرك غاية وجوده في الحياة، أو يؤمن بربه،

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٤)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٥)

لأن أدوات الإدراك والمعرفة معطّلة.. فالقلوب هنا مختومة فلا يصل الهدى إليها، والأبصار مطموسة فلا ترى النور، والأسماع مسدودة، فلا تسمع الحق.. ومن كان هذا حاله، فلا يرجى منه خير، ولا ينفع معه إنذار وتوجيه..

قال آخر[1]: بورك فيك.. ومن الشواهد على ما ذكرت قوله تعالى في وصف الكافرين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].. وقد استحقّوا هذه الصورة المحقّرة لشأنهم، لأنهم عطّلوا أدوات المعرفة والإدراك لديهم، فلم يعد لهم إلا هذه الحياة المادية، في الطعام والشراب، التي هي أقرب إلى صورة الدواب منها إلى صورة الإنسان المكرّم بخصائصه الإنسانية المميزة له عن باقي المخلوقات.

قال آخر[2]: ومن الشواهد على ما ذكرت قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].. فهذا نموذج الخاضع لهواه، المنقاد له خضوع العبد لمولاه، فلا يرى الأشياء إلا من خلال أهوائه ورغباته وشهواته، حتى استحوذ عليه هذا الهوى، فعطّل حواسه، فأصبحت مختومة، لا تدرك الحقائق كما هي.. وحين يتخذ الإنسان هواه إلها يخضع له، ويختم على حواسه فلا يدرك الأشياء، يستحق وصفه بالأنعام، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].. وفي تصوير هذا النموذج إضافة جديدة، وهي تصويرهم بالأنعام التي لا تعقل ولا تسمع، حتى يوضّح أن هذا النموذج من الناس لا جدوى من هدايته، لأنه غير قابل للهداية، وغير صالح لها، لأنه فقد أدوات استقبال الهدى في التعقل والاستماع، والعلّة في ذلك كلّه هي اتّباع الهوى، والخضوع

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٥)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٥)

له.. وحين يتخذ الإنسان الهوى إلها، فإن نفسه تتفلّت من الموازين الضابطة لشهوات النفس، بل إنها تخضع لهذه الشهوات، وتتخذها إلها معبودا.. والتعبير القرآني يعتبر هذا النموذج أحطّ من الأنعام، لأن الأنعام تؤدي وظائفها الغريزية التي أودعها الله فيها، بينما الإنسان يعطّل وظائف حياته التي زوّده الله بها.

قال آخر[1]: بورك فيك.. وقد ذكر القرآن الكريم نموذجا آخر أخطر من هذا، وهو ذلك الذي لا يكتفي باتباع الهوى، بل يصدّ غيره عن الهدى والإيمان، يقول الله تعالى فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦-٧].. وهذا النموذج موجود في كل جيل أيضا، يتّخذ أساليب عدة للصدّ عن سبيل الله، ويفني عمره ووقته وماله في سبيل إضلال غيره، ويسميها القرآن الكريم (لهوا) تهوينا من شأنها، وتحقيرا لها.

قال آخر[2]: ومن نماذج الكفرة في القرآن الكريم، ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].. وهذا المشهد حيّ شاخص، يصوّر حركة الكافرين، وهم مسرعون في طريق الكفر، ماضون فيه، وكأنّهم يسعون إلى غاية، يريدون أن يصلوا إليها، فهم في حلبة السباق، يسرع كلّ منهم قبل الآخر، حتى يصل إلى النهاية قبل غيره، ولكم أن تتأملوا هذه الجموع تتسارع، وتتدافع في هذا الطريق، وكأنّها تأمل أن تحصل على جائزة في نهاية السباق.. وهذه الحركة الحسية السريعة، تعبر عن حركة نفسية في داخل الصدور، ولكنّ القرآن الكريم، يضع صورة مقابلة، توقف الحركة السريعة في طريق الكفر

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٦)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٦)

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ فتتلاشى صورة الكفر بما فيها من سرعة واندفاع، لهزالها وضعفها أمام الصورة المقابلة ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾

قال آخر[1]: بورك فيك.. لكنّ هذه الصورة الجماعية للكافرين، ليست متّحدة في داخل صفوفها، وإن اتّحدت في حركتها الخارجية في طريق الكفر، فهم أحزاب وجماعات، متناحرة، كل حزب بما لديهم فرحون، يقول تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].. وهذه صورة حيّة، لأهل الكفر، جماعات، وأحزابا، يرسمها التعبير القرآني، فيجعلها نماذج مكررة في كل زمان ومكان، فقد تنازع هؤلاء الأمر بينهم حتى مزّقوه تمزيقا، ثم مضى كل حزب بالقطعة التي مزّقها بيده، فرحا بها، لا يفكر بما فعله من تمزيق الأمر الواحد، لأنه أغلق تفكيره في غمرة شعور الفرح الطافح على كل شيء.

قال آخر[2]: بورك فيكم.. بالإضافة إلى ما ذكرتم؛ فإن القرآن الكريم يجمع أحيانا كثيرة بين نموذج الإيمان، ونموذج الكفر، ويقابل بينهما، لإجراء المقارنة، وتوضيح الفروق بينهما، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].. فالدنيا في نظر الكافر هي الأساس، لذا فهي مغرية، ومزيّنة في عينيه، وهي المقياس لكلّ الأشياء والتفاضل بين الناس، فهو متعلّق بها، لأنها فرصته الوحيدة، ويتجاوز ذلك إلى السخرية من المؤمنين، الذين يختلفون معه في النظر إليها، فالمؤمنون يزنون الأمور بميزان الإيمان، الذي هو المعيار الباقي، لهذا فإنهم يكونون الأعلى يوم القيامة.

قال الشيخ: بورك فيكم جميعا.. وطبعا لا يمكن إحصاء النماذج المرتبطة بالمؤمنين؛ فكل القرآن الكريم يتحدث عنها، ولهذا أرجو أن تحدثونا عن بعض النماذج التي صور الله

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٦)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٦)

تعالى بها المنافقين.

قام بعض الحضور، وقال[1]: بما أن شخصية المنافق فيها الكثير من الالتواء والغموض، وبذلك فهي بحاجة إلى توضيح أكثر، حتى تعرف سماتها المميّزة لها، فقد وردت عنهم الكثير من الصور، وخاصة عن طريق ضرب الأمثال.. ولعلنا تحدثنا عن هذا سابقا، ولهذا لا نحتاج إلى إعادته هنا[2].. لكني أريد أن أذكر الآن مثالا عن بعض صفاتهم، أو أهمها، وهي (الجبن) باعتباره الصفة التي تفسر أسباب مواقفهم الملتوية، ونفوسهم المتلوّنة، التي لا تثبت على مبدأ أو رأي؛ فمن الآيات الكريمة التي صورت هذه الناحية فيهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].. فهذه الآية الكريمة تجعل المنافقين مثالا للبلاهة والخوف، على الرغم من أجسامهم الضخمة، التي تعجب في مظهرها الخارجي، ولكنها في حقيقتها خالية من الروح، وأيّ مضمون مفيد، كذلك يتمثّل في الأقوال المنمّقة، التي تسمع وتطرب، ولكنها لا تحتوي على أساس ترتكز عليه.. ولهذا؛ فإن المنافقين في المجتمع أشبه بالأخشاب المسندة إلى جدار، أو كالتماثيل بلا حركة ولا موقف، لأن نفوسهم مهزوزة، يحسبون كل صيحة عليهم، تفضحهم وتكشف سرّهم.

قال آخر[3]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير تلوّن المنافقين بكل لون، حسب الظروف والمواقف: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٩)

(٢) انظر الفصل السابق عند ذكر الأمثال.

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٩)

هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].. فهذا تصوير جميل ودقيق لإنسان مخادع، يقوم إلى الصلاة رياء.. ويتضح الشعور الداخلي هذا في حركة الكسل والتباطؤ إذا قام إلى الصلاة.. والسمة البارزة لهذا النموذج هي التلوّن بكل لون، حسب الموقف الذي هو فيه، أو الظرف المحيط به، فهو متذبذب في مواقفه وأقواله وسلوكه، لا يثبت على رأي أو مبدأ، لجبنه، وخواء فكره وروحه.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير التناقض الذي يعيشه المنافقون: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].. وهو تصوير بديع لما يعيشه المنافق من تناقض ظاهره مع باطنه.. فهو يجيد الكلام، ويحسن سبكه وحبكه، ليؤثّر في الناس، ويتظاهر بالطيب والأخلاق والإيمان، ولكنّه في حقيقته ألدّ الخصام، فلو وجد فرصة سانحة لأفسد أهل الأرض، وأهلك كل بذور الخير في جميع الأجيال، وهذا ما يوحي به التعبير بـ ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وهذا يدلّ على سوء باطنه، وكثرة شروره، وخطورة دوره في المجتمع الإسلامي.. وزيادة في توضيح صورته وإبطال ادعائه، فإن هذا النموذج لا يقبل النصح والتوجيه، لأنه يرى نفسه أكبر من ذلك، فهو مدّع أيضا بالإضافة إلى أنه متناقض.. وتوضع عاقبة هذا النموذج بعد رسم ملامحه، للتحذير منه، والتنفير من هذه الصفات ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير ضعف رأي المنافق، وعدم تحمله المسؤولية في الالتزام بمبدإ أو رأي: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٩)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٠٩)

يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].. وهي تصور انسلال المنافق ـ حين يرى الحقّ في الآيات المنزلة ـ في حركة خفية، وهيئة مثيرة للريبة، وتبادل النظرات مع أقرانه، بإشارات مفهومة بينهم، ليخرجوا جميعا هاربين بصمت وحذر.

قال آخر[١]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير تخاذل المنافق عن الجهاد الذي يقاوم به المعتدين المتربصين: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣].. فالآيات الكريمة تصور المنافق متخاذلا يبطئ عن الخروج إلى الجهاد، وربّما يبطّئ غيره أيضا، لأنّه يؤثر السلامة، وينتظر نتيجة المعركة.. فإن رأى هزيمة المسلمين، عدّ نفسه محظوظا في تقاعسه، وإن رأى أنهم انتصروا راح يطلق الأمنيات كي يفوز بالغنائم.. والصورة ترسم حركة المتخاذل من خلال جرس الكلمة الشديد المتعثر ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ فهي ترسم حركة التثاقل الحسية بكل التواءاتها وعثراتها، وهذه الحركة الحسية، تعبر عن حالة نفسية مريضة، تؤثر السلامة، وترغب في الغنيمة في الوقت نفسه.

قال آخر[٢]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير تذبذب المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].. فهذا النموذج يمسك بطرف من الدين، ولا يأخذه كلّه، فهو يعبد الله وكأنّه على حرف ـ أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه ـ فإن وجد أن الدين يجلب له المنفعة فرح واطمأنّ، وإن أصابه ابتلاء في الدين، ارتدّ

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣١٠)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣١٠)

منقلبا على وجهه، لأنه غير متمكّن منه ولا ثابت عليه.. والتعبير القرآني يصوّره في عبادته لله على (حرف) غير متمكن من العقيدة ولا متثبت في العبادة، يصوّره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى، ومن ثم ينقلب على وجهه عند مسّ الفتنة، ووقفته المتأرجحة تمهّد من قبل لهذا الانقلاب[١].

٣ ـ الصورة القرآنية ومعرفة الحياة:

قال الشيخ: بورك فيكم جميعا على هذه الأمثلة المرتبطة بالإنسان، وطبعا سنعود إلى تفاصيلها في وقت لاحق.. فحدثونا عن الصور المرتبطة بحقيقة الحياة وامتدادها، وخاصة ما يتعلق منها بالحياة الآخرة التي تمثل الحياة الحقيقية.. فهي من المعارف الضرورية التي لها آثارها في كل الشؤون.

قام أحد الحضور، وقال[٢]: أجل.. بورك فيك مولانا على طلبك هذا.. وأنا شخصيا استفدت كثيرا من الصور التي صُورت بها الحياة، وخصوصا الحياة الآخرة في القرآن الكريم، ذلك أنه لا تكاد تخلو صورة من الإشارة إلى القيامة، تصريحا أو تلميحا، لأن الإيمان باليوم الآخر يعدّ قضية أساسية لها آثارها في جميع مناحي الحياة.. من هنا تدفقت الصور القرآنية، تصبّ في مجراه، لتثبته، وتوضحه، وتقرّبه من الأذهان..

قال آخر[٣]: أجل.. فصور اليوم الآخر تعد من أوسع صور القرآن، امتدادا في الزمان والمكان، وأكثرها غزارة وإثارة فتبدو الحياة في مشاهده، ليست هذه الحياة فقط، التي تمثّل عمر الإنسان الفاني، على ظهر هذه الأرض المحدودة، بل هناك حياة ممتدة في الزمان والمكان، في عالم اليوم الآخر الغيبي، الذي لا نعرف عنه شيئا إلا من خلال هذه المشاهد

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤١٢.

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٠)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٠)

المصوّرة له، لتقريبه من الأذهان.

قال آخر[1]: ولهذا.. فإن الصورة القرآنية، تقدم لنا إجابات وافية لكل الأسئلة الفطرية، التي تلحّ على ذهن الإنسان، من أين جاء؟ وإلى أين ينتهي؟ وتعرض ذلك في مشاهد خلق الإنسان، وحياته، ومشاهد موته، ثم مشاهده في يوم القيامة. إمّا في الجنة وإمّا في النار.. وهكذا ترتسم صورة الإنسان واضحة بسيطة، منذ خلقه وحتى نهايته، وامتداد حياته في عالم الجزاء والحساب، وهذا التصوّر يضفي على حياة الإنسان أملا ممتدا، وحيوية فائضة، وعملا جادا مثمرا، انتظارا للجزاء في عالم الخلود والبقاء.

قال آخر[2]: أجل.. ولهذا كان من رحمة الله تعالى أن أرى الإنسان، حياته الممتدة في العالم الآخر في مشاهد مصوّرة، يرى فيها نفسه وعمله معا، فالمؤمن الذي يسير على منهج الله، يرى مشهده في الجنة، فيشعر بالراحة والطمأنينة لنهاية حياته المرسومة في مشهد الجنة، أما الكافر الذي حارب الله ورسوله، فيرى مشهده في النار فيعرف عقوبة تكذيبه، وكفره.. وبهذه المشاهد المصورة، تتحقّق العدالة الإلهية، لأنّ الله سبحانه عرّف الإنسان وهو مازال في الدنيا، مشهد حياته في الآخرة، وما ينتظره من ثواب أو عقاب، لكي يختار طريقه على بيّنة ووضوح.. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، فإن المشاهد المصوّرة للعالم الآخر، تعرض متصلة بالعالم الدنيوي دون فاصل في التعبير والتصوير، للمواقف الإنسانية، والانفعالات البشرية؛ فيبدأ المشهد غالبا في الدنيا، وينتهي بتصوير مشهد في الآخرة، أو العكس، حتى يتحقّق الأثر النفسي، فيشعر الإنسان بقرب الآخرة، من خلال هذا الاتصال بين المشهدين في التصوير.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٢)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٢)

قال آخر(١): بورك فيك على هذه الإشارة.. ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في التعبير عن استعداد الإنسان للهداية أو الضلالة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٣-٩].. فالسياق يتحدث عن استعداد الإنسان لشكر الله أو للكفر به، وبمناسبة الحديث عن كفره، ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد من مشاهد القيامة، لبيان عاقبة الكفر وهي تقييد الكافرين بالسلاسل والأغلال، ورميهم في السعير.. ثم استعرض مشهد الأبرار في النعيم وأطال في تصويره، ثم ذكر مشهدا من مشاهد الدنيا، والعمل الصالح فيها.. وهكذا تترابط الصور، وتتواصل في السياق الواحد، كما يتواصل العالمين المحسوس وغير المحسوس أيضا، تتفاعل الصور كلّها في السياق، لتوليد الأثر المطلوب في اتصال العالمين، واتصال الحياتين.. وهذا الاتصال يتمّ فجأة بلا مقدمات، ولا فواصل، حتى يبقى الإنسان مستعدا دائما لهذا الانتقال المفاجئ، ويحسب حسابه على الدوام.

قال آخر(٢): أجل.. فالكثير من مشاهد القيامة تنتقل فجأة إلى مشهد في الدنيا، لربط العالمين وربط النتيجة بأسبابها الموصلة إليها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]

قال آخر(٣): كذلك.. فإنه غالبا ما تُعرض مشاهد النعيم، ومشاهد العذاب،

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٢)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٣)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٣)

متقابلة.. وهذه السمة البارزة في مشاهد القيامة، حتى تتمّ المقارنة بينهما، لإيضاح الفروق في الجزاء بحسب اختلاف الأعمال في الدنيا، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩-٣١].. ونلاحظ هنا الفوارق بين حياة الظالمين، وحياة المؤمنين في الآخرة، وهي تعدّ امتدادا للفوارق بينهما في الدنيا، فكرا وسلوكا وشعورا.. فالظالمون كانوا في الدنيا في نعيم وعيش رغيد، وهم في الآخرة يحيط بهم العذاب الحسي، في شيّ الوجوه بالنار، وشرب الحميم الغسّاق الذي يحرق البطون والحلوق، عقابا على أفعالهم في الدنيا.. وتختلف حياة المؤمنين في الآخرة، فهم في ألوان من النعيم المحسوس في جنات وأنهار، وألوان من الشراب اللذيذ.

قال آخر[1]: كذلك.. فإن هذه الصور الحسية للنعيم والعذاب تدور حول الطعام والشراب واللباس والمسكن، والمجلس، والمناخ، والأصحاب وغير ذلك مما هو مألوف لدى الإنسان، لتكون هذه الصور للنعيم أو العذاب أبلغ تأثيرا في النفس، وأقرب إلى التصور والخيال الإنساني.. فهي صور حسية تشمل الصور اللمسية، والذوقية، والبصرية، والسمعية، والشميّة، والصور النفسية أيضا.. فتصوير مشاهد القيامة، يشمل الحس والنفس، ليكون التأثير فيهما قويا أيضا.

قال آخر[2]: كذلك.. فإنا نلاحظ التدرّج في تصوير المشاهد، وارتباط هذه المشاهد

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٤)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٤)

المصوّرة بعضها في بعض، ضمن نظام العلاقات التصويرية والتعبيرية والفكرية.. حيث تبدأ المشاهد برسم أهوال يوم القيامة، وموعدها المفاجئ والنفخ في الصور، والانقلابات الكونية الهائلة في الأرض والسماء، وصور الحشر، والحساب، ثم الجنة والنار وما فيهما من نعيم أو عذاب حتى تكتمل صورة القيامة في الأذهان بوضوح وجلاء.. فهذه المشاهد مترابطة ومتناسقة في التعبير والتصوير، كي تحقّق غرضها وتأثيرها في النفوس.. وهي طويلة ومفصّلة لتعميق الإيمان باليوم الآخر، وإقراره في العقول والنفوس، كما تتسم بالتهويل والرعب، لتحقيق هذا التأثير الديني.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ما ذكرتم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].. حيث يبدأ المشهد برسم حركة الزلزلة العنيفة للساعة، المؤثّرة في النفوس البشرية، حتى إنّ حركة الناس تضطرب من قوة الزلزلة وهولها، ويصور هذا الهول المرعب المؤثر، في المرضعات والحوامل، وترنّح الناس؛ فالمرضعة ذاهلة عن رضيعها، والحامل واضعة حملها، والناس يبدون كالسكارى، ترنّحا وتمايلا.. وقد عبّر عن الذهول، وانقطاع الروابط القوية في ذلك المشهد، باختيار صورة المرضعة الذاهلة عن رضيعها، والحامل التي تضع حملها، من عنف الحركة، وهي زلزلة حسية كونية، تعقبها زلزلة نفسية، مرسومة في هذه الصور.

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك تلك الأسماء التي سميت بها القيامة في القرآن الكريم، فهي في حقيقتها صفات لذلك اليوم، فكلّ اسم يرسم بجرسه صورة من أهواله وأحواله.. ف (القيامة) تصوّر قيام الناس من القبور، و(الساعة) تصوّر قربها الزمني،

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٤)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٥)

وكأنها هذا الوقت المحدود، و(البعث) تصوّر بعث الناس من جديد، وما يرافق ذلك من حركات وهيئات وذهول، و(القارعة) لأنها تقرع القلوب والآذان بالأهوال، و(الصاخّة) تصخّ الآذان من شدّة وقعها وتأثيرها، و(الطامّة) تطمّ الأشياء والمخلوقات جميعا وتعمّهم، وتعلوهم بأهوالها وأحوالها.. وكذلك بقية أسماء القيامة مثل الواقعة، والغاشية، والحاقة، والحساب، والفصل..وغيرها.. فهذه الأسماء أو الصفات الكثيرة تدلّ على عظم شأن ذلك اليوم.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦].. فالصورة لهولها وضخامتها وأثرها، مرسومة بلفظ ﴿مُرْسَاهَا﴾، وكأنها سفينة قادمة، تسير في لجّة البحر المجهول، نحو مكان رسوّها ومستقرّها.. وهذه الصورة متحركة مرسومة وهي قادمة، ولكنّ وصولها مجهول لنا، وهذا يضفي على الصورة ضخامة وهولا من خلال موعدها المجهول، وحركة القدوم السريعة في طريق كلّه أهوال، وأمواج واضطرابات.. واستخدام ﴿أيّان﴾ في السؤال عن موعدها، يزيد الصورة هولا وضخامة، وكذلك قوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها﴾ حتى الرسول ﷺ لا يعرف موعدها أيضا، ولكنّها تأتي مباغتة الناس، وبذلك يقترن الهول بالمباغتة، لتضخيم أثرها في النفوس؛ فتبدو الدنيا قصيرة هزيلة إلى جانب صورتها الضخمة المباغتة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].. فهذه الدنيا بكلّ ما فيها من أعمار مديدة، وأزمان وأحداث، ومتاع، هي بالقياس إليها عشية أو ضحاها، وكأنها جزء من نهار، وليست نهارا كاملا.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٥)

قال آخر(١): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٤-٢٧]، حيث تتقابل صورتان في هذا السياق، صورة انتشار الخلق في الحياة، تعقبها صورة تجميع لهذا الخلق المنتشر، وترتسم آثار الإنكار للبعث في وجوه الكافرين، في مشهد معروض في السياق، وكأنّه حاضر الآن، لأن الساعة بمقاييس الزمان المحدود، الذي يخضع له البشر غائبة، ولكنّها بالنسبة لله حاضرة واقعة، لأن علم الله فوق الزمان والمكان، وهو محيط بكل شيء، فمتى شاء، كشف الستار عنها فرأوها رأي العين، كما يرونها في تصوير هذا المشهد المقروء، بدون فاصل بين العالمين الدنيوي والأخروي.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في بيان قرب الساعة وأثره على القلوب: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].. فهي آزفة، قريبة، وكأنّها زاحفة نحو الناس، وحين يرونها بأعينهم، ويرون أهوالها، يشتد خفقان القلوب، حتى تصل إلى الحلوق من شدة الاضطراب والخفقان.. وهذه الصورة تعبّر عن شدة الكرب، ومنتهى الضيق، وغيظ النفوس، ويزيد هذه الصورة هولا ورعبا، تقطّع الروابط الاجتماعية، وانشغال الإنسان بنفسه عمّن سواه.

قال آخر(٣): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في تصوير أهوال القيامة وتقطيعها للروابط الاجتماعية: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٦)
(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٦)
(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٧)

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].. فالصاخّة بجرسها الشديد، الذي يصخّ الآذان، ترسم مشهدا مرعبا لذلك اليوم، نرى فيه حركة الفرار الجماعيّة، وتقطع الروابط الاجتماعية.. وهذه الحركة تجسّم الحالة النفسية المضطربة والخائفة وتفكير الإنسان، بنجاته، وانشغاله بذلك عن أقرب الناس إليه.

قال آخر(١): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في تصوير ملامح الوجوه التي تدلّ على خفايا النفوس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]، فبشر الوجوه وسرورها دليل على هدوء النفوس المؤمنة، واطمئنانها، وتقابلها صورة مغايرة لوجوه الكافرين، فهي وجوه منكسرة ذليلة، مغبّرة بالحزن والهمّ والحسرة.. وهكذا تتقابل الصور في السياق الواحد، لكشف الحقائق، وبيان الفروق بين الناس.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة عنها قوله تعالى في تصوير عرض الناس في المحشر، في صفوف منظمة: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].. وصورة الصفوف المنظمة، مناسبة للموقف الجليل، ومثيرة للخيال، وهو يتأمل أعداد البشر من أول خلق الإنسان إلى الحساب، وهم يقفون على هذه الهيئة، استعدادا، لتلقي سجل أعمالهم، والخزي مرسوم على وجوه الكافرين، والسرور واضح في قسمات وجوه المؤمنين، والله يواجه الكافرين والمجرمين بذنوبهم،

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٢٧)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٤٣)

ويضع أمامهم سجل أعمالهم الدقيق.

قال آخر(١): وفي هذا المشهد، تلازم الأعمال أصحابها، ولا تفارقهم، يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٥].. فالأعمال حاضرة مجسّمة في صورة كتاب، مكشوف أمام الخلائق، بعد أن كان مستورا عن أعين الناس في الدنيا، وزيادة في توضيح الصورة، جعله ملازما لصاحبه، ملازمة الطائر لصاحبه، وهذه صورة عميقة الدلالة في الحس والشعور توحي بأن الإنسان، لا يستطيع الإفلات من أعماله، مهما حاول ذلك، ولكم أن تتأملوا صورة الإنسان في ذلك المشهد، وهو يحاول الإفلات من طائره، وهو يطارده في كل مكان، وفي أي اتجاه، وما يعانيه من هذه الملازمة أو المطاردة، لأنه يعرف مضمون كتابه، وما قدم في الدنيا من أعمال.

قال آخر(٢): وزيادة في إثارة الألم والندم، يتوجّه الخطاب مباشرة إلى الإنسان: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].. وهذا الانتقال إلى أسلوب الخطاب، يجعل المشهد حيا حاضرا، وكأن قراءة الكتاب مطلوبة في الدنيا قبل الآخرة، وبذلك يتضافر التعبير مع التصوير في تحقيق التأثير النفسي.. وتجسيم الأعمال على هذا النحو، وجعلها حاضرة الحساب، لمواجهة أصحابها بها له أعمق الأثر في النفس الإنسانية، حتى إنّ الإنسان المذنب، يتمنى أن يكون بعيدا عن أعماله، تفصل بينهما المسافات الشاسعة يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].. ومن شدة الكرب، وأهواله، يتمنى

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٤٣)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٤٣)

الكافر العدم على الحياة، حتى لا يحاسب، ولا يواجه بأعماله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]

قال آخر(١): ومن المشاهد المرتبطة بالمعاد ما ورد في القرآن الكريم من تصوير العذاب بالنار، بعد تصوير مشاهد الحساب، حتى تتّضح نتائج الأعمال، وطبيعة العقاب والثواب، حيث يصوّر النار تصويرا حسيا مرعبا، فيذكر خزنتها، وأبوابها، وسعتها، وحرّها، ودخانها، ووقودها من الناس والحجارة، ويذكر صورا من العذاب المخيف، مثل نضج الجلود، والصهر، واللفح، وتسويد الوجوه، والسّحب عليها أيضا، والقيود، والسلاسل، والأغلال، والمطارق.. كما يصور طعام أهل النار، وشرابهم ولباسهم، وغير ذلك من الصور الحسية المرعبة، التي تهدف إلى التخويف من عذاب الله، والتأثير في الإنسان، حتى يستقيم على منهج الله، ويبتعد عن مخالفته.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تصوير صفة النار، ووقودها من الناس والحجارة: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].. والجمع بين الحجارة والكافرين في وقودها، إشارة إلى أن الكافرين، حين عطّلوا حواسهم غدوا كالحجارة قسوة وجمودا، فجاء هذا الجمع، وهذا التفاعل بين الصورة الآدمية، والصورة الكونية، في تصوير هولها، وشدتها، فهي تشعل الأجسام وتنضجها، وتصهر الأحجار، وتذيبها.. لذلك، فإن تباهي الكفار بالأموال والأولاد لا يفيد، لأنهم وقود النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].. فالكافرون، حين عطّلوا حواسهم، تجردوا من صفاتهم الإنسانية، فصاروا أشبه بالأشياء الجامدة، توقد بها النار مع

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٥٢)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٥٢)

الحجارة والحطب ونحوهما.

قال آخر(١): ومن المشاهد المرتبطة بالمعاد ما ورد في القرآن الكريم من تصوير مشاهد النعيم في الجنة، وهي مشاهد حية شاخصة، وكأنّها حاضرة.. وهي مستمدّة من مألوف الناس، وما تعارفوا عليه من أنواع النعيم، كما كانت في مشاهد العذاب أيضا، ولكن القرآن الكريم يرقى بهذه الصور الحسية، فيجعلها متشابهة في الظاهر مع النعيم الحسي في الدنيا فحسب، بيد أن مذاقاتها وطعومها مختلفة..

قال آخر(٢): ويبدأ تصوير مشاهد النعيم، بفتح الآفاق أمام الخيال ليتصوّر ما شاء من أنواع النعيم وألوانه، وذلك حين يستره، ولا يظهره في التعبير إلا عن طريق الإيحاء به، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].. فهو نعيم تقرّ به العيون، ويترك للخيال أن يستحضر أنواعه، وتلتذّ النفس بالتشوّق إليه، وكأنّ الصورة هنا تريد الإيحاء من هذا الإجمال بأنه نعيم لا مثيل له، ولكنّ الصورة فصلّت في أنواع هذا النعيم في مواضع أخرى، ابتداء من تصوير سعة الجنة، وأبوابها، وأنهارها، وجمالها، وطعام أهلها، وشرابهم ولباسهم، ومجالسهم، وانتهاء بمشاهد اطلاعهم على أهل النار وحوارهم معهم..

قال آخر(٣): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].. وهذه المساحة الواسعة، تتلاءم مع أنواع النعيم، الذي لا نظير له فيها، وبذلك تتسع مساحة الجنة في حسّ الإنسان وشعوره،

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٦٢)

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٦٢)

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٦٣)

وتتضاءل الدنيا بما فيها من ملذّات ومتاع.

قال آخر[1]: ومشاهد أهل الجنة في القرآن الكريم حافلة بالحركة والحفاوة والترحيب، ومشاعر السرور، والفرحة، وعبارات الثناء والتكريم، فالملائكة يستقبلونهم بكلمات الترحيب، والتذكير بماضيهم ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ومشاعر السرور مجسّمة في صورة الدعاء: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].. والحركة المصوّرة، تبدأ من مشهد إقبالهم نحو الجنة على هيئة وفود، وجماعات، ثم تستمر عند أبواب الجنة حين تفتح لهم، مع عبارات السلام والثناء من الملائكة، ثم تستمرّ حركة المشهد بعد دخولهم الجنة، فتجسّم مشاعرهم في صورة دعاء وحمد لله، بعد أن تبوّأ كل واحد مكانه فيها، واطمأن، واستقر.

قال آخر: ويصور القرآن الكريم اجتماع الآباء والأزواج والذرية في مشهد النعيم، وتشاركهم أيضا الملائكة في هذا السرور، قال وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].. وذكر الأقارب والأحباب في المشهد، يلامس المشاعر والقلوب، ويوحي بالعمل الصالح الذي يجمعهم كلّهم في مشهد النعيم.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص٣٦٣)

القرآن.. والحسن والجمال

بعد أن استمعت إلى الشواهد الكثيرة على التصوير الفني في القرآن الكريم، ثم رأيت بعدها بعض المشاهد التي صاغها الفنانون من خلال تطبيقاتهم المرتبطة بذلك.. شعرت برغبة كبيرة في التجول في الحقول والحدائق.. وما إن تم هذا الخاطر في نفسي حتى وجدتني في حقل كبير مزدان بكل ألوان الزهور الجميلة.

حينها رحت أعاتب نفسي على هواها، وقلت لها: ويلك يا نفس.. أنت لا تهتمين إلا لأهوائك ورغباتك.. فكيف تتركين حدائق القرآن الغناء إلى هذه الحدائق التي سرعان ما يذبل زهرها، وتتحول إلى ما ذكره الله تعالى عنها في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]

فجأة، سمعت صوتا يقول لي: المتكلم بتلك الكلمات المقدسة هو نفسه صاحب هذه الحقول والحدائق.. والذي أبدع في كلماته وآياته هو نفسه الذي أبدع في الزهور والثمار وكل شيء.. فإن أردت أن ترى جماله يمكنك أن تراه في قرآنه الناطق، أو قرآنه الصامت.

التفت إلى مصدر الصوت؛ فإذا بي أجد رجلا قد تم فيه كل الحسن والجمال، وكان يرتدي ثيابا في غاية الأناقة والكمال.. فقلت له: من أنت؟.. وما هذا اللباس الذي تلبسه؟.. أتتزين بزينة قارون، ثم تتحدث عن القرآن؟

قال: أنت سألت أسئلة كثيرة.. ولو اكتفيت بأولها لأغناك عن آخرها.

قلت: فمن أنت؟

قال: أنا مثلك تلميذ للقرآن الكريم بعد أن كنت عدوا من أعدائه.. لكن الله منّ علي بأن أرى من جماله ما كان محجوبا عني.. وهو ما جعلني أغوص في حقائقه بعد أن سلبت لبي ظواهره.. وها أنت تراني في حدائقه أتزود من أزهاره وثماره.

قلت: ولباسك هذا.. ألا تراه لباس المترفين، لا لباس الزاهدين العابدين؟

قال: الزهد أعظم من أن يكون في لباس أو طعام.. إنه الرغبة في الله، وفيما عند الله.. وهذا الذي تراه علي فضل من فضل الله.. وأنا أعبد الله بحمده عليه.

قلت: هذه علة الحريصين التي يحتالون بها للخلود إلى الأرض.

قال: بل هي علة المكرمين الطاهرين الذين يجعلون من هذه النعم حبالا ينقذون بها عباد الله من درك الغواية ليزجوهم في حدائق الهداية.

قلت: من تعني؟

قال: ألم تسمع بقصر سليمان عليه السلام الممرد من القوارير؟

قلت: بلى.. وقد أخبرني معلمي أن غايته منه ليس التنعم به، وإنما استعماله وسيلة للهداية.. ولذلك بمجرد أن رأته ملكة سبأ آمنت، كما قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]

قال: فقد اهتديت به في هذا.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]؟.. لقد رأيت قومي ينفرون من لباس الدراويش وأحوالهم، ولذلك رحت أظهر لهم بالمظهر الذي يشتهون، حتى لا يكون مظهري حجابا بينهم وبين ربهم.

قلت: بورك لك في نيتك وعملك.. واعذرني لأن استعجلت في الحكم عليك.

قال: لا عليك.. فما كنا نقوله لم يكن لغوا ولا عبثا ولا حشوا.. بل كان ضرورة لتفهم سر مراعاة القرآن الكريم للحسن والجمال في ألفاظه ومعانيه ونظمه وصوته.

قلت: ما تعني؟

قال: لقد كان من الممكن أن يكون القرآن الكريم كلاما يتضمن الحقائق بأسلوب عادي، كسائر الأساليب.. لكن الله شاء أن يجعله بتلك الهيئة الجميلة، ليجتذب القلوب والعقول، ويؤثر فيها جميعا.

قلت: فهمت إذن.. فأنا في هذه الحدائق لأطلع على ما في القرآن الكريم من أسرار الحسن والجمال.. كما ذكر لي معلم البيان ذلك.

قال: أجل.. بعد أن تعرفت على اللغة المناسبة.. والدقة والضبط.. والوضوح والتقريب.. لم يبق لك إلا التعرف على الحسن والجمال.. فهو ركن من أركان البيان الشافي.

قلت: ولكني لا أرى في هذه الحدائق أي مدارس.. فكيف أتعرف على ذلك؟

قال: المدارس أكبر من أن تحصر بين الجدران.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]؟.. فهل يمكن تنفيذ الأوامر الواردة في هذه الآيات لمن يحبس نفسه بين البيوت والجدران؟

قلت: بلى.. وقد سمعت معها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠-٦١].. وكل ذلك لا يمكن النظر فيه لمن حبس نفسه، ولم يسر في الأرض.

قال: فسر في هذه الحدائق.. فسترى من يعلمك علوم الحسن والجمال.. ولا تنس أن تكتب كل ما تسمع.

قلت: فإن سألوني عني.. ماذا أقول لهم؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم.

قال: كل من تجدهم مجتمعين منشغلون بالقرآن الكريم وجماله عن كل شيء..

أولا. معان غير مقصودة:

ما سرت في تلك الحدائق إلا قليلا، كما طلب مني صاحبي، حتى وجدت نفرا من الناس يجتمعون إلى شيخ طاعن في السن، وقد بدا لي ـ من خلال خطابتهم له ـ أنه جدهم، وأن المجتمعين حوله من نساء ورجال وأطفال أبناءه وأحفاده.

قال الجد: ما رأيكم أبنائي وأحفادي الأعزاء أن نستثمر هذا الوقت الجميل في لهونا المفضل؟

قالوا جميعا: أجل.. كم هو جميل.. فما جئنا هنا إلا لأجل ذلك.

قال الجد: أنتم تعلمون أن الألفاظ تدل على معانيها.. وأنها دقيقة في ذلك.. لكن هناك بعض المحال لا تدل فيه الألفاظ على معانيها بدقة، وذلك لأغراض جمالية مختلفة.. وأنا أريد الآن أن أسألكم عنها.. فهل أنتم مستعدون للإجابة؟

قال أحدهم: أجل.. نحن نقرأ القرآن الكريم ـ بفضل توجيهاتك ـ كل يوم.. ونتبدبر فيه بحسب الطرق التي شرحتها لنا.. وإن شاء الله ستجد عندنا الجواب.

١. المشاكلة والمقابلة:

قال الجد[1]: بورك فيكم.. سأرى مصداق ما ذكرتموه.. فأخبروني عما ورد في القرآن الكريم من المشاكلة والمقابلة؟

قالوا: وما تعني بالمشاكلة والمقابلة؟

قال: هي أن يستعمل اللفظ في غير معناه الأصلي، لأنه وقع في مقابلة لفظٍ يشاكله أي يُشبهه، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

قالوا اقترح شيئًا نُجد لك طبخه قُلتُ اطبُخُوا لي جُبةً وقَميصا

فالجبة والقميص ليسا مما يُطبخ، ولكنَّ الشاعر استعار لفظ [اطبُخُوا] للجبة والقميص لوقوعه في مقابلة لفظٍ يُشبهه.

قالت إحداهن: بورك فيك جدنا على تذكيرنا بهذا.. فهذا العلم ضروري لمن يريد أن يتدبر القرآن الكريم ومن لم يُحِط علمًا بها لربما دفعه الجهل إلى حمل الآيات الكريمة على خلاف الحق الوارد فيها.. ولذلك فإن أمثال هذه الآيات قد تدخل ضمن المتشابهات التي تحتاج إلى تحكيمها للمحكمات.

قال الجد: ما دمت قد ذكرت ذلك.. فاذكروا لي أمثلة عنها.

قال أحدهم: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].. فالمكر عمل ينطوي على خداع واستعمال للحيلة والدهاء والتآمر، والله سبحانه وتعالى منزه عن كل ذلك، وإنما جاءت الصفتان مسندتان إلى الله تعالى من قبيل المشاكلة.. فالمقصود بمكر الله وكيده أنه سيجازي الماكرين من العالمين عقابًا من جنس عملهم وما يستحقونه من العذاب.

---

(١) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١١). وغيره.

قال آخر: ومنها قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فقد نسب النفس إلى الله من باب المشاكلة.

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].. لأن الجزاء الحق لا يوصف بأنه سيئة، فهو قصاص وعدل وتقويم لازم وردع مناسب للمخالفين لأوامر الله، فوصف مجازاة المسيئين بالسيئة من قبيل المشاكلة لوقوعها في صحبة السيئة الأولى الحقيقية.

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].. فالمدافع عن نفسه ليس معتديا، ولكن ذكر هنا من باب المشاكلة.

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤]، وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].. فالله أعظم وأكرم من أن ينسى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].. ولذلك فإن معنى ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ هنا تركهم في العذاب

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].. وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].. فالله أعظم وأكرم من أن يستهزئ أو يسخر.. وجزاء الساخرين منه عز وجل بما يناسب عملهم الشنيع يعتبر عدلا وردعا لهم.. وإنما وصف هذا الجزاء بالسخرية لوقوعه في صحبة سخر الساخرين.

قالت أخرى: ومنها قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].. فالمراد بصبغة الله تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس.. والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: إنه تطهير لهم، فعبر عن الإيمان بصبغة الله للمشاكلة بهذه القرينة.

قالت أخرى: ومنها قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]

فكل هذه الآيات الكريمة لا تعني أن الله عز وجل يختبر ويبتلي الناس كي يعلم شيئا لا يعلمه.. وإنما هذا من باب المشاكلة.. فحسب الظاهر يخبرنا الله تعالى بأنه يفعل هذا ليعلم الفائز والخاسر.. والقصد أن يعلموا هم من الفائز ومن الخاسر، لأن علم الله محيط بكل شيء.

قالت أخرى[1]: لقد ذكر لنا هذا جدنا سابقا.. فقد ذكر لنا أن أمثال هذه التعبيرات القرآنية، لا تعني أن الله لم يكن يعلم شيئاً، ثم علم به بعد ذلك، بل تعني تحقّق هذه

---

(١) تفسير الأمثل، (١/ ٤١١)

الواقعيات.. أو بعبارة أوضح، الله سبحانه يعلم منذ الأزل بكل الحوادث والموجودات، وإن ظهرت بالتدريج على مسرح الوجود.. فحدوث الموجودات والأحداث لا يزيد الله علماً، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما كان في علم الله.. وهذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم، ثم يتحول التصميم إلى بناء عملي، والمهندس يقول حين ينفّذ تصميمه على الأرض: أريد أن أرى عملياً ما كان في علمي نظرياً.. وطبعا علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً، وهذا المثال للتوضيح فقط.

٢. التورية والستر:

قال الجد[١]: بورك فيكم أبنائي وبناتي.. فأخبروني الآن عن أمثلة عما ورد في القرآن الكريم من التورية والإخفاء والستر.

قال إحداهن: ما تعني بالتورية والإخفاء والستر؟

قال الجد: ذلك بأن أن تحتمل الكلمة معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله.. أو أن يطلق لفظ له معنيان. قريب وبعيد، ويراد به البعيد منهما.. أو أن يذكر لفظ له معنيان: بعيد مراد، وقريب غير مراد.

قال أحدهم[٢]: من الأمثلة على التورية المجردة، قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فـ ﴿استوى﴾ لها معنيان، قريب هو الاستقرار، وهو غير مراد، ولم يقرن بما يلائمه.. ومعناه البعيد المراد هو الاستيلاء، والقرينة استحالة الاستقرار الحسي في جنب الله.

قال آخر[٣]: من الأمثلة على التورية المرشحة، قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٠)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢١)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢١)

لْمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، حيث أراد بـ ﴿الأيدي﴾ المعنى البعيد الذي هو القدرة، وقد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذي هو الجارحة المخصوصة، وهو ﴿بنيناها﴾ لأن البناء يكون باليد، والذي يبدو أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية وإذ معناها يرجع إليها عند التحقيق.. وعلى القول بأنها تورية فإن القرينة هي استحالة الجارحة في حق الله سبحانه.

قالت أخرى[1]: ولهذا؛ فإن للتورية دور كبير في توجيه متشابهات القرآن[2]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].. وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧].. فما في هذه الآيات، وما أشبهها، من إثبات العين أو الوجه، أو القُرب والمكان، كلها محمولة على التورية، بأن يراد من الأعين: الرعاية والحفظ.. ومن الوجه: الذات التي لا يعلمها إلا هو.. والقُرب: قُرب العلم لا قُرب المكان والملاصقة.. ومن العندية: العندية المعنوية لا عندية المكان.

قال آخر[3]: وقد ترد التورية في معانٍ ليست وصفاً لله، كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، لأن الضلال يُحمل على ضد الهدى ويحتمل الحب، فاستعملوه مريدين به ضد الهدى مورّين به عن الحب ليعلم أن المراد ما أهملوا، لا استعملوا.

قال آخر[4]: ومن التورية اللطيفة قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٢)

(٢) سنعرض لها بتفصيل في كتاب [القرآن وتأويل الجاهلين] من هذه السلسلة.

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٢)

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٢٢)

وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ذلك أنه لما كان الخطاب لموسى عليه السلام من جانب الطور الغربي توجهت اليهود إليه وتوجهت النصارى إلى الشرق، وكانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي خياراً، وظاهر اللفظ يوهم التوسط مع ما يَعضده من توسط قبْلة المسلمين، صدق على لفظ ﴿وسط﴾ هنا أن يسمى تعالى به، لاحتماله المعنيين. ولما كان المراد أحد المعنيين الذي هو الخيار دون الآخر، صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب.

٣. التهكم والسخرية:

قال الجد[١]: بورك فيكم أبنائي وبناتي.. فأخبروني الآن عن أمثلة عما ورد في القرآن الكريم من تهكم وسخرية، كالوعيد بصيغة الوعد.. والإنذار بصيغة التبشير.. وما الغرض منها؟

قال أحدهم: لقد وردت السخرية والاستهزاء والتهكم في القرآن الكريم من المنافقين والكافرين والمشركين على أنواعهم لما يصدر عنهم من ضلالات وأهواء تنافي العقل والحكمة.. ولذلك فوائد عديدة منها كبح جماحهم وتقريعهم وتوبيخهم.. ومنها فضحهم وبيانُ هوانهم.. ومنها تحذير المؤمنين أن يتصفوا بصفاتهم الذميمة.. ومنها الردُّ على ادعاءاتهم وتخرصاتهم.

قالت أخرى: من الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم للسخرية من المنحرفين عن الهدى المستقيم، مع أنها ليست أصلاً من ألفاظها، ولعلها تكون ألفاظاً للمدح بدل الذم، لفظ [التذوّق، والذوق].. فهذه اللفظة تستعمل في الأصل والعادة للتلذذ بالأطايب من الطعام والشراب، والحياة الرغيدة المنعّمة.. لكنها وردت في القرآن الكريم في بعض

---

(١) الزيادة والإحسان في علوم القرآن (٦/ ١٩٩)

المواضع للتبكيت، والتوبيخ، والهزء، والسخرية.. ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: ٥]

قال آخر: ومثله قوله تعالى في الكافرين الذين تشوى جلودهم، حتى تَنضج كما يَنضج اللحم المشوي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]

قال آخر: ومثله قوله تعالى في الكافرين الذين كانوا يسخرون من شجرة الزقوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩]

قالت أخرى: ومثله قوله تعالى في الذي يبخل في الدنيا فلا يتصدق أو يزكي أمواله، ويكنز الذهب والفضة والمال، ويتلذذ في تكديسه فيذوق العذاب كيّاً في جبهته، وجنبيه وظهره ويسمع التوبيخ من الملائكة هو وأمثاله من أهل الشح والبخل: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥]

قال آخر: ومثله قوله تعالى في المجرمين الذين يُسحبون إلى جهنم لينالوا العذاب جزاء ما اقترفت أيديهم، والملائكة تسخر منهم وتوبخهم: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]

قال الجد: فهل هناك كلمات أخرى غير الكلمات الدالة على الذوق والتذوق؟

قال أحدهم: أجل.. فقد ورد التهكم بلفظ الهدى، والذي يدل في الأصل على

الوصول إلى الحق والإيمان وسبل السعادة، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].. لكنها أتت كذلك بمعنى يناقض ذلك.. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في التحذير من الشيطان وموالاته: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].. ومثله قوله تعالى في المشركين الضالين حين تدفعهم الملائكة وتسوقهم إلى النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]

قال آخر: ومنها الألفاظ الدالة على التبشير، والتي تكون عادة لزف الخبر السعيد من ثواب جزيل ومغفرة من الله ورضوانه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].. لكنها قد تأتي بمعنى الإنذار والتوبيخ والتحقير، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تهديد الكافرين والمنافقين بالعذاب الشديد: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].. وقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].. وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].. وقوله: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧-٨]

قالت أخرى: ومنها كلمة ﴿كيف﴾، فهي مع كونها اسم استفهام يحتاج إلى جواب.. لكنها استعملت في القرآن الكريم للسخرية والتقريع، وفي آيات كثيرة.. ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]

قال الجد: بورك فيكم جميعا.. كل ما ذكرتموه مرتبط بالتهكم والسخرية الحسية.. أو المرتبطة بالألفاظ والكلمات.. فاذكروا لي ما ورد في القرآن الكريم من السخرية المعنوية.

قالت إحداهن: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].. فالآيات الكريمة تذكر أن الكفار إذا أحسوا بالخطر وتيقنوا نزوله هربوا منهزمين، فتقول الملائكة لهم استهزاءً: لا تولوا هاربين من نزول العذاب، وعودوا إلى دياركم، وما كنتم فيه من النعمة والسرور.. وهذا كله من باب السخرية والتوبيخ.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].. فالآية الكريمة تذكر أن المشركين كانوا يظنون أن الله ليس بناصر عبده محمداً ﷺ، لكن الله يؤكد نصره وتأييده له؛ فإن كان هذا التأييد من الله لنبيه يغيظ المشرك والكافر فليغتظ، وليمدد بحبل إلى السقف، وليشنقق نفسه، لعله يجد الشفاء لنفسه من غيظه.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تشبيه اليهود الذين أنزلت عليهم

التوراة ليعملوا بها، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها، بالحمار الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة ثم لا ينتفع بها.. وهل هناك أشدُّ سُخرية من هذا؟.. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]

قالت أخرى: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في اليهود الذين ذكروا أنهم أحباب الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].. وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في المنافقين الذين تخالف أقوالهم ما في قلوبهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في تشبيه أهل الأهواء والضلالات بالأنعام السارحة: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]

قالت أخرى: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في وصف مهانة المنافقين حين تأتي الملائكة لتقبض أرواحهم، ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم، استهانة بهم واحتقاراً لشأنهم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى فرعون وجنوده: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ

فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].. فكلمة ﴿نبذ﴾ في أصلها تفيد الطرح والإهمال.

٤. التسليم الجدلي:

قال الجد: بورك فيكم أبنائي وبناتي.. فأخبروني الآن عن معنى التسليم الجدلي.. واذكروا لي أمثلة عن استعماله في القرآن الكريم.

قال أحدهم(١): التسليم الجدلي هو أن يذكر المتكلم أمرًا ثبت استحالته، أو مشروطًا، فيه شرط مستحيل، ثم يسلم وقوعه.. ثم يأتي بما يدل على إبطاله وعدم الفائدة فيه.. وفي هذا النوع من الجدل استدراج للخصم، واستجلاب لإصغائه، وربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الإنكار.

وقد يبدأ الكلام حينئذ بحرف امتناع، ليدل على أنه ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فحينا ينفي صراحة، ثم يسلم وقوعه تسليما جدليا، لا يلبث أن يحكم الواقع بانتفائه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فالمعنى ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه إلها لزم من ذلك ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلا بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض وجود إلهين محال، لما يترتب عليه من المحال.. وفي هذا اللون من الجدل تقليب للأمر على جميع وجوهه، ليكون الحكم المراد سليما لا شك فيه.

قال آخر: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى يحكي عن الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم:

---

(١) من بلاغة القرآن الكريم، البدوي (ص٢٨١)، وانظر: الإتقان ج ٢ ص ١٣٧، والزيادة والإحسان في علوم القرآن (٦/ ٢٠٠)

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].. فهنا تسليم جدلي من الأنبياء عليهم السلام للمنكرين لنبوتهم لأنهم بشر بأنهم بشر حقاً، ولكن ليست البشرية مانعاً من النبوة.. وبذلك فإنه ليس المراد أنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، بل كأنهم قالوا: إن ما ادعيتم من كوننا بشرا حق لا سبيل إلى إنكاره، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله علينا بالرسالة.. كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩]

قال الجد[1]: بورك فيكم.. إن هذا يدعوني إلى سؤالكم عن الجدل نفسه في القرآن الكريم، وهل هو النظام المنطقي الذي اعتمده الفلاسفة والمتكلمون.. أم أنه مختلف عنها؟

قالت إحداهن: بل مختلف عنها تماما.. فالقرآن الكريم لم ينزل لهداية طائفة خاصة لها ثقافتها الخاصة، بل نزل لهداية الناس جميعا، وما به من أدلة يلقى في النفس الاقتناع، ويملأ القلب باليقين، سواء في ذلك العامة والخاصة.

قال الجد: فاذكروا لي نماذج عنه.

قال أحدهم[2]: من الأمثلة على ذلك [القول بالموجب].. وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه.. وهو قسمان.. أولهما: أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فتثبتها لغير ذلك الشيء، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ

---

(١) من بلاغة القرآن الكريم، البدوي (ص٢٨٠)

(٢) من بلاغة القرآن الكريم، البدوي (ص٢٨٠)

مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].. فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكأنه قيل: صحيح ذلك: ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرج، والله ورسوله الأعز المخرج..

وأما الثاني، فهو حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].. يريدون أنه ﷺ سمّاع لكل شيء، مصدق لكل قول، ولكن الآية لم تترك الأذن مطلقة، بل نسبتها إلى الخير، ولهذا كان تمام الآية ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦١].. أي أنه يصدق بالله، ويسلم للمؤمنين، لا لكم، لعدم تصديقه إياكم، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم، حيث قبلهم، ولم يكشف حقيقتهم.

قالت أخرى[1]: ومن أنواع الجدل في القرآن الكريم [الانتقال]، وذلك بأن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذا فيه، لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فإن الملك الذي جادله إبراهيم عليه السلام فهم من الإحياء والإماتة قدرته على إبقاء من

---

(١) من بلاغة القرآن الكريم، البدوي (ص٢٨١)، وانظر: الإتقان ج ٢ ص ١٣٧.

يستحق القتل، وحكمه على الحيّ بالموت، فلم يرد إبراهيم عليه السلام مناقشته، لكي يبين له مراده من الإحياء والإماتة، بل انتقل إلى استدلال لا يجد الملك له وجها يتخلص به منه، فقال: ﴿فَإِنَّ اللهَّ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهنا بهت الملك، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتى بها من المشرق، لأن من هو أسن منه يكذبه.

قال آخر(١): ومن أنواع الجدل القرآن الكريم [الإسجال]، وهو أن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].. وفي مثل هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المتشككين والمنكرين وإثارة الخوف في أنفسهم، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم، ويدفعهم الخوف إلى التأمل، عساهم يهتدون.

قالت أخرى(٢): ومن أنواع الجدل القرآن الكريم [التقسيم والسبر]، بأن يقسم ما هو محل الجدل إلى منتهى أقسامه، ويسبر كل قسم بأن ينفى عنه ما يريد الخصم إثباته له، كقوله تعالى يرد على المشركين تحريمهم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهَّ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهَّ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهَّ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢-

(١) من بلاغة القرآن الكريم، البدوي (ص٢٨١)، وانظر: الإتقان ج ٢ ص ١٣٧.

(٢) من بلاغة القرآن الكريم، البدوي (ص٢٨١)، وانظر: الإتقان ج ٢ ص ١٣٧.

١٤٤]، حيث رد الله تعالى عليهم تحريمهم بطريق السبر والتقسيم، فبين أنه قد خلق من كل زوج مما ذكر، ذكرا وأنثى، فما علة تحريم ما حرمتم؟.. لا يخلو أن يكون ذلك من جهة الذكورة أو الأنوثة أو إليهما معا، أو لا يدري له من علة بأن يكون تعبديا أخذ عن الله تعالى، والأخذ عنه سبحانه إما بوحي وإرسال رسول، أو سماع كلامه وتلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وتلك هي وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها، ويلزم على الأول أن يكون جميع الذكور حراما، وعلى الثاني أن يكون جميع الإناث حراما، وعلى الثالث تحريم الصنفين معا، وهم يحرمون البعض في حالة، والبعض في حالة أخرى، ولم يأتهم رسول قبل محمد ﷺ يحرم عليهم ما حرموه، ولم يدعوا الأخذ عن الله بلا واسطة، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعي وهو أن ما قالوه ضلال وكذب على الله.. ومثل هذا التقسيم والسبر لا يدع مجالا للشك، وتستريح النفس إلى ما تصل إليه من نتائج عن طريقه.

٥. المدح والذم:

قال الجد: بورك فيكم أبنائي وبناتي.. فأخبروني الآن عن أمثلة عما ورد في القرآن الكريم من مدح.. لكن بصيغة تشبه الذم.. أي أن ظاهر اللفظ ذم، لكن حقيقته وباطنه مدح؟

قال أحدهم: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].. فإن النقمة في الأصل لا تكون إلا على أمور مذمومة.. لكن الآيتين ذكرتا أمورا محمودة.. ولذلك كان الكلام

متضمنا تأكيد المدح بما يشبه الذم.

قال آخر[1]: ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن ظاهر الاستثناء أن ما بعده حق يقتضي الإخراج، فلما كان صفة مدح تقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم.

قالت أخرى: ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].. فقد استثنى ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ الذي هو ضد اللغو والتأثيم، فكان ذلك مؤكداً لانتفاء اللغو والتأثيم.

ثانيا. الالتفات والاعتراض:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين الجد وأبنائه وأحفاده، وتأثرت كثيرا للمودة التي تجمع بينهم، والتي كان القرآن الكريم سببها الأول والأكبر.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت جمعا من التلاميذ يلتفون حول معلمهم، وقد شدني كثيرا ذكاؤهم على الرغم من صغر سنهم.

قال معلمهم: هل لي أن أختبركم في مدى حفظكم لكتاب ربكم، وتدبركم له؟

قال التلاميذ: يسرنا ذلك.. وما اجتمعنا بك إلا لأجل ذلك.

قال المعلم: لكن الموضوع الذي اخترته لكم اليوم صعب جدا.. بل ربما يبدو أنه أكبر من سنكم.

قال أحدهم: وذلك ما يجعلنا نسعد أكثر.. فبفضل صحبتنا للقرآن الكريم استنارت بصائرنا، ونلنا بعض بركات قوله تعالى عن يحي عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ

(١) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٧) وغيره.

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].. فقد قرن الله تعالى بين أخذ الكتاب بقوة، وبين إيتائه الحكم والحكمة وهو صبي صغير.

قال المعلم: بورك فيك.. وبما أنك قلت ذلك.. فسأبدأ بسؤالك.

قال التلميذ: ستجدني إن شاء الله عندي ما تقر به عينك، وتشعر بأن جهدك في تعليمي لم يذهب هدرا.

قال المعلم: فأخبرني عن الأسلوب المستعمل في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].. وكيف قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾، ولم لم يقل (جرين بكم)

قال التلميذ[١]: هذا يسمى عند علماء البيان [التفات]، وهو مشتق من قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، فاللفت هو الصرف.. وسُمي بذلك لأن حقيقته (مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله؛ فهو يقبل بوجهه تارة هكذا، وتارة هكذا.. وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه يتنقل فيه من صيغة إلى صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر)[٢]

١. أغراض الالتفات:

قال المعلم: فما فائدته؟

---

(١) استفدنا المادة العلمية في هذا المبحث من كتاب: أسلوب الالتفات وأقسامه في القرآن الكريم، غالب محمد أبو القاسم حامضي.

(٢) المثل السائر ٢/ ٣.

قال التلميذ[1]: للالتفات فوائد كثيرة.. منها التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما في ذلك من تنشيط السامع.. ومنها تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد.. بالإضافة إلى أن لكل موضع فائدته الخاصة به، ولهذا يتفنن المتدبرون للقرآن الكريم في اكتشاف تلك الأغراض.

قال المعلم: فأخبرني عن سر الالتفات الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]

قال التلميذ: التأدب في الغيبة دون الخطاب أعظم.. ولذلك قال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١-٤]، ثم قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]

قال المعلم: بورك فيك.. والآن جاء دوركم.. ليخبرني كل واحد منكم بغرض من أغرض الالتفات، من خلال آية أو آيات يذكرها.

قال بعض التلاميذ: من أغراضه التنبيه على ما حق الكلام أن يكون وارداً عليه، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، فأصل الكلام (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم)، ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه.

قال آخر: ومن أغراضه التتميم لمعنى مقصود للمتكلم، فيأتي به محافظة على تتميم ما قصد إليه من المعنى المطلوب له كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٤-٦]، فأصل الكلام (إنا

---

(١) البرهان ٣/ ٣١٤.

مرسلون رحمة منا)، ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر للإنذار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم.. أو لتخصيص النبي ﷺ بالذكر.. أو الإشارة إلى أن الكتاب إنما هو إليه دون غيره، ثم التفت بإعادة الضمير إلى الرب الموضوع موضع المضمر للمعنى المقصود من تتميم المعنى.

قال آخر: ومن أغراضه الدلالة على الاختصاص كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، فإنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالاً على القدرة الباهرة التي لا يقدر عليها غيره، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل فيه الاختصاص وأدل عليه.

قال آخر: ومن أغراضه الاهتمام كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]، فعدل عن الغيبة في (قضاهن) و(أوحى)، إلى التكلم في (وزينا السماء) للاهتمام بالإخبار عن نفسه، فإنه تعالى جعل الكواكب في سماء الدنيا للزينة والحفظ، وذلك لأن طائفة اعتقدت في النجوم أنها ليست في سماء الدنيا وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً فعدل إلى التكلم والإخبار عن ذلك لكونه مهماً من مهمات الاعتقاد ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه.

قال آخر: ومن أغراضه التوبيخ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٨٩]، حيث عدل عن الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أن القائل مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخاً ومنكراً عليه، ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور فقال:

(لقد جئتم) لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له.

٢. صيغ الالتفات:

قال المعلم: بورك فيكم.. والآن أخبروني عن صيغ الالتفات في القرآن الكريم.

قال أحد التلاميذ[١]: لقد تتبع العلماء ذلك.. فذكروا أنها سبعة، وهي: الالتفات من التكلم إلى الخطاب.. ومن التكلم إلى الغيبة.. ومن الخطاب إلى التكلم.. ومن الخطاب إلى الغيبة.. ومن الغيبة إلى التكلم.. ومن الغيبة إلى الخطاب.. وبناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه.

قال آخر[٢]: وذكروا أن من الالتفات الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر ستة أقسام، وهي: الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين.. ومن خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.. ومن الاثنين إلى الواحد.. ومن الاثنين إلى الجمع.. ومن الجمع إلى الواحد.. ومن الجمع إلى التثنية.

قال آخر[٣]: وذكروا أن مما يقرب من الالتفات الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر، من الماضي إلى الأمر، ومن المستقبل إلى الأمر، ومن الماضي إلى المستقبل، ومن المستقبل إلى الماضي.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن كل صنف من الأصناف التي ذكرتم.. ولنبدأ **بالالتفات من التكلم إلى الخطاب**.

قال بعض التلاميذ[٤]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]؛ فقد أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه وهو يريد

---

(١) البرهان ٣/ ٣١٥ - ٣٢٥.

(٢) البرهان ٣/ ٣٣٤ - ٣٣٥، والإتقان ٢/ ٢٣٣.

(٣) انظر البرهان ٣/ ٣٣٦ - ٣٣٧، والإتقان ٢/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٤) فتح القدير ٤/ ٣٦٥.

مناصحة قومه فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولم يقل وإليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد.

قال آخر[1]: ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ففي الآية التفات في قوله ﴿يتوفاكم﴾ بصيغة الخطاب وذلك بعد صيغة التكلم في قوله ﴿ولكن أعبد﴾ وكان المقتضى الاستمرار ليكون المقطع (ولكن أعبد الله الذي يتوفاني)

والحكمة من ذلك أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً ثم يتوفاكم ثانياً ثم يعيدكم ثالثاً، وهذه المراتب الثلاثة قد قررها في القرآن الكريم مراراً وأطواراً، فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبهاً على البواقي.. ومنها أن الموت أشد الأشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.. ومنها أنهم لما استعجلوا نزول العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].. فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]وهو إشارة إلى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول: (أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وإبقائي).. وفائدة هذا الالتفات إلى الخطاب لما فيه من التهديد والوعيد للمشركين.

---

(١) التفسير الكبير ١٧/ ١٣٨.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من التكلم إلى الغيبة.**

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].. ففي قوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص رسول الله ﷺ.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].. فالالتفات في هذه الآية في تغير الأسلوب من صيغة التكلم في قوله ﴿مما نزلنا﴾ وكذا في ﴿عبدنا﴾ إلى صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ فالآية بدأت بضمير المتكلم ليوثق نسبة هذا المنزل ويوضح مصدره الحقيقي رغم أنف المعارضين ثم تأتي كلمة ﴿عبدنا﴾ لتبين صلة النبي ﷺ بالله وتؤكد عبوديته وخضوعه التام لربه، ثم تلتفت الآية إلى أسلوب الغيبة في لفظ الجلالة لتزيد الأمر شرفاً، وتعلي قدره وتوضح أمراً دقيقاً، وهو أن صاحب هذا الضمير السابق هو الله ذو الألوهية والعبودية على الخلق أجمعين.. ففي هذا الالتفات ثلاث فوائد: الأولى: إدخال الروعة وتربية المهابة.. والثانية: الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث أثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة مالا أحقر منه.. والثالثة: تربية المهابة وترسيخ ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به في كل مرام.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٦٥٧.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٧٩ - ٨٠ بتصرف.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الخطاب إلى التكلم**.

قال بعض التلاميذ[(١)]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].. فالالتفات في قوله تعالى: ﴿إن ربي﴾ بصيغة التكلم وذلك بعد مخاطبتهم بقوله: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا﴾ وكان حق الظاهر أن يقول: (إن ربكم) تمشياً مع ما سبقه، حتى يكون على صيغة واحدة وهي صيغة الخطاب، ولكنه التفت من الخطاب إلى التكلم، ولما كان الاستفسار والتوبة تخصهم وحدهم أضاف كلمة رب إلى ضمير خطابهم ليهز نفوسهم ويقربهم من الله زلفى، وعندما أراد أن يخبرهم ـ أي شعيب عليه السلام ـ بما يعهده في ربه أسند هذه الكلمة إلى نفسه فقال: (إن ربي) لتكون دليلاً على اليقين بها في نفسه المؤمنة وشاهداً على صدق كلامه، فهو عليه السلام التفت عن الخطاب إلى التكلم ليوضح ما في نفسه ويفصح عما بها.

قال آخر[(٢)]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].. ففي هذه الآية التفات إلى التكلم في قوله: ﴿رسلنا﴾، وذلك بعد أسلوب الخطاب في قوله: ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فالله عز وجل خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿قل الله﴾ أي قل لهم يا محمد وعظهم بأن الله أسرع مكراً أي منكم؛ فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الخطاب إلى**

(١) انظر المعاني في ضوء أساليب القرآن. د/ عبد الفتاح لاشين، ص ٢٦١.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٧٩ - ٨٠ بتصرف.

الغيبة.

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨]، فالالتفات في قوله: ﴿وقالوا﴾ بصيغة الغيبة عنهم وذلك بعد مخاطبتهم فيما سبق.. وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وإبعاد لهم عن مقام الحضور.. فهو من الالتفات الذي تكمن أهميته في أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية.. وقد حسن الالتفات لأنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد؛ فإنه لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم من أنبيائهم وجه الخطاب إليهم، ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي ﷺ صار الخطاب جارياً مع المؤمنين، وأجرى على اليهود ضمير الغيبة.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٣-٤]؛ فالالتفات من الخطاب في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ إلى الغيبة في قوله ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾، ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم تنصيصاً على ذلك وإعراضاً عن خطابهم وتمحيصاً للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات لأن الالتفات يحسنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤٦.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الغيبة إلى التكلم**.

قال بعض التلاميذ[1]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]، ففي هذه الآية التفات إلى التكلم في قوله: ﴿فأخرجنا﴾ وذلك بعد أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وأنزل﴾، وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم يدل على تعظيم شأنه إنبات النبات لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً، فهو يدل على عظمته جل وعلا وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له جل وعلا.

قال آخر[2]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فالالتفات في قوله تعالى ﴿فأخرجنا﴾ بضمير المتكلم، وذلك بعد صيغة الغيبة الموجودة في أول الآية في قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقول (أخرج) باستمرار صيغة الغيبة.. والفائدة من هذا الالتفات إظهار كمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله، أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته ﴿نبات كل شيء﴾ من الأشياء التي من شأنها النمو عن أصناف النجم والشجر وأنواعها المختلفة في الكم والكيف والخواص والآثار اختلافاً متفاوتاً في مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ

(١) أضواء البيان ٤/ ٢٢.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٦٦. وانظر روح المعاني ٧/ ٢٣٨، وفتح القدير ٢/ ١٤٤.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].. بالإضافة إلى ذلك، فإنه سبحانه لما ذكر فيما مضى ما ينبه على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجّه إليه حتى يخاطب.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.**

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى في أول سورة من القرآن الكريم، وهي سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١-٤]، فهذه الآيات فيها أسلوب الغيبة، ثم التفت عنه بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] إلى أسلوب الخطاب.. وفي ذلك التفات بديع؛ فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها، فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال.. ومما يزيد الالتفات وقعاً في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء، ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله: ﴿إياك نعبد﴾ تخلصاً يجيء بعده ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.. بالإضافة إلى أن فائدة خطاب الغيبة في الآية الدلالة على الصدق والإخلاص، وأما الانتقال إلى الخطاب فإنه دليل على الخضوع والضراعة، وشدة الرغبة كما يقول الشخص في خطاب الملك (أنا شاكر للملك المعظم الجواد، بك أيها الملك المتصف بهذه الصفات استعين على أموري، وإليك ألجأ).. وكذلك فإن أسلوب الخطاب أخص من أسلوب الغيبة، فاستعمل الأسلوب الأخص في ذكر الفعل الأخص.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٨٩]، ففيها التفات من الغيبة في قوله ﴿وقالوا اتخذ﴾ إلى الخطاب في

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٢، الاكسير في علم التفسير، ص ١٤١.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٨٢، وانظر روح المعاني ١٦/ ١٣٩.

قوله: ﴿لقد جئتم﴾، وفائدته قصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد.. وفيه رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، ففيها التفات في قوله ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ بصيغة الخطاب، وذلك بعد ورود ذكرهم بطريق الغيبة في أول الآية الكريمة عند قوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ وقوله: ﴿إن الله برئ من المشركين﴾وكان مقتضى السياق استمرار طبيعة الغيبة فتكون (فإن تابوا فهو خير لهم)، وفيه زيادة التهديد والتشديد.

قال المعلم: بورك فيكم..والآن أخبروني عن أمثلة عن **بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه.**

قال بعض التلاميذ[2]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] بعد ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإن المعنى (غير الذين غضبت عليهم).. وإنما أسند النعمة إليه تعالى تقرباً، والمقصود طلب الهداية إلى صراط من ثبت إنعام الله تعالى عليه وتحقق ولذلك أتى بالفعل ماضياً، وانحرف عن ذلك عند ذكر الغضب إلى الغيبة تأدباً، ولأن من طلب منه الهداية، ونسب الأنعام إليه، لا يناسب نسبة

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٧٢، وانظر فتح القدير ٢/ ٣٣٤، وروح المعاني ١٠/ ٤٨.

(٢) روح المعاني، جـ ١، ص ١٣١.

الغضب إليه لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان، فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين**.

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، ففيها التفات من خطاب الواحد في قوله ﴿أجئتنا لتلفتنا﴾ إلى خطاب التثنية في قوله ﴿وتكون لكما﴾ و﴿وما نحن لكما﴾.. وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده.. باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر.. وإنما لم يفردوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدم لأنه المشافه لهم بالتوبيخ والإنكار تعظيماً لأمر ما هو أحد سببي الإعراض معنى، ومبالغة في إغاظة موسى عليه السلام وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.

قال بعض التلاميذ(٢): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، ففي الآية التفات من خطاب الواحد ﴿يا أيها النبي﴾ إلى خطاب الجمع في قوله ﴿طلقتم﴾، وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ أسلوب من أساليب آيات التشريع المهتم به؛ فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يذكر بعده النبي ﷺ مثل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله:

(١) روح المعاني ١١/ ١٦٥ – ١٦٦.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٤٤٥٠، إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٦٠.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩] لأن النبي ﷺ الذي يتولى تنفيذ الشريعة في أمته وتبيين أحوالها، فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملاً على ما يفيد ذلك مثل صيغة الجمع في قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وتوجيه الخطاب إليه ﷺ لأنه المبلغ للناس وإمام أمته وقدوتهم والمنفذ لأحكام الله فيهم فيما بينهم من المعاملات.. بالإضافة إلى ذلك، ففي تخصيص النداء به ﷺ مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتشريفه وإظهار جلالة منصبه، وتحقيق أنه المخاطب حقيقة ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه ﷺ إياهم وتغليبه عليهم.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن الالتفات من الاثنين إلى الواحد:

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩]، ففيها التفات من خطاب الاثنين في ﴿ربكما﴾ إلى خطاب الواحد في قوله ﴿يا موسى﴾.. وفي تخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لما ظهر له من أنه الأصل في الرسالة وهارون وزيره وتابعه أو لأنه عرف ـ أي فرعون ـ أن لموسى عليه السلام رتَّة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الاثنين إلى الجمع.**

قال بعض التلاميذ(٢): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٦/ ٢٠، وتفسير البيضاوي ٤/ ٥٣، والكشاف ٣/ ٦٨، وتفسير النسفي ٣/ ٥٧، وروح المعاين ١٦/ ٢٠٠.

(٢) البرهان ٣/ ٣٣٥.

٨٧]، ففي هذه الآية عدل عن المثنى وهو ﴿تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا﴾ إلى الجمع بقوله ﴿واجعلوا﴾، لأن موسى وهارون عليهما السلام هما اللذان يقرران قواعد النبوة ويحكمان في الشريعة؛ فخصهما بذلك، ثم خاطب الجميع باتخاذ البيوت قبلة للعبادة إذ الجميع مأمورون بها، ثم قال لموسى عليه السلام وحده ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الجمع إلى الواحد**.

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].. ففيها التفات لأنه انتقل من الضمير الموضوع للجمع أو المعظم نفسه في قوله ﴿قلنا﴾ إلى الضمير الخاص بالمتكلم المفرد في قوله: ﴿مني﴾، وذلك لأن الهدى لا يكون إلا منه وحده تعالى؛ فناسب الضمير الخاص كونه لا هادي إلا هو تعالى، فأعطى الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره الضمير الخاص الذي لا يحتمل غيره تعالى.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن **الالتفات من الجمع إلى التثنية**.

قال بعض التلاميذ(٢): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٥]، فالالتفات في قوله ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ و﴿فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ بصيغة الجمع إلى التثنية في قوله ﴿عليكما﴾ ﴿فلا تنتصران﴾.. فثنى على اللفظ وجمع في قوله ﴿إن استطعتم﴾ على المعنى.. وقال: ﴿إن استطعتم﴾ لبيان عجزهم وعظمة ملك الله، فقال: إن

(١) البحر المحيط ١/ ٣٢١، وانظر البرهان ٣/ ٣٣٥.

(٢) زاد المسير، جـ٨، ص ١١٦.

استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا ولا تستطيعون لعجزكم، فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض، فهو عند افتراقكم أظهر، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان.

وقال: ﴿يرسل عليكما﴾ لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما، لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله، ولا يخرج أحد من الأقطار أصلاً، وهذا يتأيد بما ذكر أنه لا فرار لكم قبل الوقوع ولا خلاص لكم عند الوقوع، لكن عدم الفرار وعدم الخلاص ليس بعام.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن الالتفات من الماضي إلى الأمر.

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فالالتفات في قوله: ﴿وأقيموا﴾ بصيغة الأمر وذلك بعد قوله: ﴿أمر﴾ بالفعل الماضي وكان تقدير الكلام (أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد)، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم؛ فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن الالتفات من المضارع إلى الأمر.

قال بعض التلاميذ(٢): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]، فالالتفات في قوله:

---

(١) المثل السائر ٢/ ١٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٢.

﴿واشهدوا﴾ بصيغة الأمر، وذلك بعد قوله: ﴿أشهد الله﴾ بصيغة المضارع، ولم يقل (وأشهدكم) ليكون موازناً له، وبمعناه، لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه (أشهد علي أني أحبك) تهكماً به واستهانة بحاله.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن الالتفات من الماضي إلى المضارع.

قال بعض التلاميذ(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ففي الآية لون جميل من الالتفات وهو التعبير عن الحديث الذي قد مضى بصيغة المضارع.. ذلك أن التعبير بالمضارع أوكد وأشد، لأن فيه استحضار الفعل حتى كأن السامع ينظر إلى الفاعل في حال وجود الفعل، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه.

قال المعلم: بورك فيك..والآن أخبروني عن أمثلة عن الالتفات من المضارع إلى الماضي.

قال بعض التلاميذ(٢): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، فقد عبر عن المستقبل بصيغة الماضي فقال: ﴿ففزع﴾ بلفظ الماضي بعد قوله ﴿ينفخ﴾ وهو

---

(١) الكشاف ١/ ١٨٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٩١، المثل السائر ٢/ ١٥.

مضارع، للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به، ذلك أن الفعل الماضي إذا أخذ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها.

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَّ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]، فقد عدل عن لفظ الماضي إلى المضارع فقال: ﴿فتصبح﴾، ولم يقل فأصبحت عطفاً على ﴿أنزل﴾ وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له، ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

ثالثا. الإيجاز والاختصار:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين المعلم وتلاميذه، سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت أستاذا طاعنا في السن، يجتمع مع طلبته الكهول، والذين يبدو أنهم قد تخرجوا على يديه قبل فترة طويلة.

قال الأستاذ: الحمد لله.. ها قد شاء الله أن نجتمع من جديد في هذه الحديقة التي طالما اجتمعنا فيها.. وأنا لا أحب أن أضيع ما بقي لي من وقت في حياتي في أي حديث غير تلك الأحاديث الجميلة التي كنا نجتمع عليها.

قال أحد الطلبة: ونحن ـ سيدنا ـ ما اجتمعنا بك إلا لذلك.. فنحن نعلم عشقك للقرآن الكريم.. والذي ربيتنا وعلمتنا عليه.. ونحن بحمد الله نعيش في فيض بركاته.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٠٧.

قال الأستاذ: ما دمنا في هذه الحديقة.. ولسنا في مدرجات الجامعة؛ فاسمحوا لي أن أمتحنكم مثل ما كنت أفعل عند تدريسي لكم.

قالوا جميعا: هذا جميل جدا.. أنت تذكرنا بهذا بشبابنا الباكر.

قال الأستاذ: ما رأيكم في أن يكون امتحاني لكم مرتبطا بالإيجاز في القرآن الكريم؟

قال أحدهم: أجل.. هذا من أهم المواضيع التي لا ينبغي لقارئ القرآن الكريم أن يجهلها.. ولذلك نسعد كثيرا بأن تكون أحاديثنا عنها.

قال الأستاذ: أول اختباري لكم عن مفهوم الايجاز والغاية منه.

قال أحدهم: الايجاز هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل، مع وفائها بالغرض المقصود ورعاية الإبانة والإفصاح فيها.. أو هو التعبير عن المراد بلفظ غير زائد، ويقابله الإطناب؛ وهو التعبير عن المراد بلفظ أزيد من الأول.. وعلماء البيان يقسمونه إلى قسمين: إيجاز قصر، وإيجاز حذف.. والأول هو تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف.. والثاني إسقاط كلمة للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام..

١ ـ إيجاز القصر:

قال الأستاذ: فهلا ضربتم لي أمثلة على النوع الأول.

قال أحدهم: من الأمثلة على ذلك تلك الآيات الكثيرة التي أصبحت، وكأنها قوانين أو شعارات لحملها المعاني الكثير في طيات ألفاظها.

قال الأستاذ: فهلا ذكرتم لي أمثلة عنها من غير شرح.

قال أحدهم: من أمثلتها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].. وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].. وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]..

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].. وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].. وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٨].. وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ [المزمل: ٢٠].. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].. وقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].. وقوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].. وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].. وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].. وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].. وقوله: ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨].. وقوله: ﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ [البقرة:٢٢].. وقوله: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].. وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [غافر: ١٤]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].. وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].. وقوله: ﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]..

وقوله: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١:٢١].. وقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦].. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَّ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].. وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهَّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].. وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].. وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].. وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ٢].. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].. وقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١].. وقوله: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].. وقوله: الآية، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهَّ﴾ [الشورى:٤٠]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦].. وقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ [مريم: ٧٦]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهَّ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].. وقوله: ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ

إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].. وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].. وقوله: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾ [الطلاق: ٧]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].. وقوله: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].. وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [الحشر: ٧]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣].. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨].. وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].. وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:١٩].. وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِّ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ﴿وما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].. وقوله: ﴿وَللهِّ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾ [الأعراف:١٨٠].. وقوله: ﴿إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩].. وقوله: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].. وقوله: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة:٨٣].. وقوله: ﴿قُلْ

إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهَّ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٧٣].. وقوله: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهَّ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].. وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهَّ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَاللهَّ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَكَفَى بِاللهَّ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهَّ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥].. وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهَّ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ وَكِيلا﴾ [الأحزاب:٣].. وقوله: ﴿وَكَفى بِاللهَّ حَسِيباً﴾ [النساء:٦].. وقوله: ﴿وَكَفى بِاللهَّ شَهِيداً﴾ [الفتح:٢٨].. وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللهَّ عَلِيمًا﴾ [النساء:٧٠].. وقوله: ﴿وَكَفى بِاللهَّ وَلِيًّا وَكَفى بِاللهَّ نَصِيراً﴾ [النساء:٤٥]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].. وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].. وقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهَّ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٧٧].. وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].. وقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [٩:٩١]

قال آخر: ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣].. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].. وقوله: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠].. وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]

قال المعلم: بورك فيكم.. فكل هذه الآيات الكريمة وما أشبهها قاعدة كلية تحتوي على المعاني الكثيرة.. والآن أخبروني عن تجاربكم في تطبيق هذه القواعد القرآنية الكلية.

قال أحدهم: أنا عند إصلاح كل خلاف وخصومة أذكر بقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وعند ظهور الظلم والطغيان وعلو الفساد أقول لهم: ﴿إِنَّ اللهَّ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]

قال آخر: وأنا عندما أجد الكدورات في معاملات الناس، مما يتنافى مع ما دعا إليه القرآن الكريم من العدل والسماحة في المعاملة وعدم الغش فيه، أقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣]

قال آخر: وأنا عندما أجد الكدورات في العلاقات بين الناس بظهور خشونة القول بينهم، أقرأ لهم قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]

قال آخر: وأنا عندما أجد القرآن الكريم يهجر سماعه أوالإصغاء إليه، أو العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، أو هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، أو هجر تدبره وتفهمه، أقرأ لهم بحزن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

قال آخر: وأنا عندما أجد الأعداء يتسلطون علينا، وأدعو إلى العوة إلى الله، والتوكل عليه لمواجهتهم أقرأ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥]، فأجد في ذلك أعظم تسلية لنا وتقوية لعزائمنا، وتهديد لأعدائنا؛ لأن الله إذا كان أعلم بأعدائنا وأنه ناصر لنا وولي لنا فسوف يقينا شرهم وفي المقابل إن تولينا عن الله سلط علينا هؤلاء الأعداء.

قال المعلم: والآن دعوني أسألكم عن بعض الآيات الكريمة التي وردت معانيها موجزة مختصرة.. وأبدأ بقوله تعالى في وصف خمر الجنة، والفرق بينها وبين خمر الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]

قال أحدهم: في هذه الآية الكريمة جمع الله تعالى جميع عيوب خمر الدنيا من الصداع،

وعدم العقل، وذهاب المال، ونفاد الشراب.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؟

قال أحدهم: هذه الجملة مع قصرها تشير إلى قانون كلي، وهو أن الذي يخلق هو الذي يحق له أن يشرع، فالتكوين والتشريع متلازمان، ولذلك كان من الحق والعدل أن يكون النظام الذي يشمل الخلق جميعا نظام واحد.. وهذا النظام هو المعبر عنه بـ ﴿الأمر﴾، وبهذا قامت السموات والأرض، وبه خلق الإنسان ليعمر الأرض، وبه جاءت الرسل والأنبياء عليهم السلام جميعا، وبه سعدت الإنسانية عندما اتبعته، وشقيت عندما ابتعدت عنه.. وقد ذكر الله تعالى ذلك في مواضع، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؟

قال أحدهم: هذه الآية الكريمة جمعت جميع مكارم الأخلاق، لأنّ في العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الرّحم، وصون اللسان عن الكذب، وغضّ الطّرف عن الحرمات، والتبرّؤ من كل قبيح لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئا من المنكر وفي الإعراض عن الجاهلين

الصّبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه.

قال المعلم: وكلمة ﴿اسْتَقَامُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؟

قال أحدهم[1]: هي كلمة واحدة، لكنها تفصح عن الطاعات كلها في الائتمار والانزجار.. ذلك لو أن إنساناً أطاع الله سبحانه مئة سنة، ثم سرق حبة واحدة، لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة.

قال المعلم[2]: وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]؟

قال أحدهم: بقد أدرج الله تعالى في الآية الكريمة ذكر إقبال كل محبوب عليهم، وزوال كل مكروه عنهم، ولا شيء أضر بالإنسان من الحزن والخوف، لأن الحزن يتولّد من مكروه ماض أو حاضر، والخوف يتولد من مكروه مستقبل، فإذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بعيشه، بل يتبرم بحياته.. والحزن والخوف، أقوى أسباب مرض النفس، كما أن السرور والأمن أقوى أسباب صحتها، ولهذا كان الحزن والخوف موضوعان بإزاء كل محنة وبليّة، والسرور والأمن موضوعان بإزاء كل صحة ونعمة هنيّة.

قال المعلم[3]: وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]؟

قال أحدهم: الأمن كلمة واحدة، لكنها تنبئ عن أشياء كثيرة، منها خلوص سرائرهم من الشوائب كلها، لأن الأمن: إنما هو السلامة من الخوف، والحزن، المكروه

---

(١) الإعجاز والإيجاز (ص: ١٥)

(٢) الإعجاز والإيجاز (ص: ١٥)

(٣) الإعجاز والإيجاز (ص: ١٦)

الأعظم.. فإذا نالوا الأمن بالإطلاق، ارتفع الخوف عنهم، وارتفع بارتفاعه المكروه، وحصل السرور المحبوب.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]؟

قال أحدهم: هما كلمتان جمعتا ما عقده الله على خلقه لنفسه، وتعاقده الناس فيما بينهم.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]؟

قال أحدهم: لم يبق مقترح لأحد إلا قد تضمنته هاتان الكلمتان، مع ما فيهما من القرب، وشرف اللفظ، وحسن الرونق.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؟

قال أحدهم: هذه الكلمات الثلاث تجمع من أصناف التجارات، وأنواع المرافق في ركوب السفن ما لا يبلغه الإحصاء.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]؟

قال أحدهم: ثلاث كلمات اشتملت على شرائط الرسالة، وشرائعها، وأحكامها، وحلالها، وحرامها.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]؟

قال أحدهم: هو كلام يجمع جميع ما يأكله الناس، مما تنبته الأرض.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؟

قال أحدهم: هو كلام يتضمن جميع ما يجب على الرجال من حسن معاشرة النساء، وصيانتهن، وإزاحة عللهن، وبلوغ كل مبلغ فيما يؤدي إلى مصالحهن، ومناجحهن، وجميع

ما يجب على النساء من طاعة الأزواج، وحسن مشاركتهم، وطلب مرضاتهم، وحفظ غيبتهم، وصيانتهم عن خيانتهم.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].. وما الفرق بينها وبين (القتل أنفى للقتل)؟

قال أحدهم[١]: في كلام الله تعالى كل ما في ذلك الكلام وزيادة معان حسنه، فمنها: أنَّ الآية الكريمة تتميم لآية قبلها؛ لأنها بيان للحكمة والمصلحة الكاملة في القصاص؛ ليقدموا عليه غير نافرين؛ لأنه اتقاء لشر مستطير، وإذا كان القصاص في ذاته أمرًا لا تقبل عليه النفوس؛ لأنه قتل أو قطع، فالمصلحة أعظم من المضرة، ولا شك أن الألفاظ قصيرة، والمعاني التي تنطوي تحتها كثيرة، وخصوصًا أنَّ تنكير كلمة ﴿حياة﴾ يدل على تعظيم هذه الحياة التي تترتب على تنفيذ القصاص؛ لأنها تكون حياة آمنة سعيدة لا مزعجات فيها، وخصوصًا إذا كان مع حق القصاص حق العفوِ من المجنيّ عليه، فإنه يربِّي التواد، ويحلّ المحبة والمودة محل البغض والعداوة.

قال المعلم: وقوله تعالى في إخوة يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]؟

قال أحدهم: هذه صفة اعتزالهم لجميع الناس، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]؟

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٢.

قال أحدهم: أي إن كان بينكم وبين قوم هدنة، وعهد، فخفت منهم خيانة، أو نقضاً، فاعلمهم أنك نقضت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؟

قال أحدهم[١]: في هذه الآية الكريمة معان كثيرة شاملة يطبق في كل أمر يحبه الإنسان وعاقبته وبيئة، أو لا يدري عاقبته، ولا ما يترتب عليه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]؟

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]؟

قال أحدهم[٢]: في هذه الآية الكريمة يشير الله تعالى إلى المعركة الدائمة بين الخير والشر، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، وأنّ سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد في الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد، وفيه إشارة إلى أنَّ مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار إلى الرذيلة رحمة بالناس، فدفع الشر رحمة ورد الاعتداء، وفي هذه الآية إشارة إلى نظرية الحرب الفاضلة والسلم الفاضلة.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]؟

قال أحدهم[٣]: في هذه الآية الكريمة دعوة لوحدة الأمة الإسلامية بأوجز عبارة،

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

فتشمل الوحدة الأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، والبادي والحضري، وسكان الوبر، وسكان المدن، لا تفرقهم الألوان ولا الألسنة، وأنَّ التقوى يجب أن تكون لباسهم وشعارهم، وهي التي تعلى، ومثل ذلك قوله تعالى في إيجاز: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]؟

قال أحدهم(١): في هذه الكلمات القليلة الموجزة تصوير لحال المشركين الذين ألزمتهم الحجة، ولكن لم يذعنوا عصبية وعنادًا، ومحافظة على سيطرتهم الغاشمة.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]؟

قال أحدهم(٢): في هذه الكلمات القليلة الموجزة تصوير لمقدار جرائم المشركين في الاستهزاء بالنبي ﷺ وأصحابه، ومضايقتهم في العبادة.. فمعنى كفيناك المستهزئين: عاقبناهم على ما فعلوا في الماضي، وخضدنا شوكتهم في الحاضر، وشغلناهم في القابل، وسلط الله الحق على باطلهم إلى آخر ما نالهم في الدنيا من خزي وما نالهم في الآخرة من عذاب.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]؟

قال أحدهم(٣): في هذه الكلمات القليلة الموجزة يشير الله تعالى إلى أن هلاك الأمم إنما يكون إذا شاع الفساد بين آحادها، وإنما يشيع الفساد ممن غلبت أهواؤهم وسيطرت عليهم شهواتهم، وأن ذلك من الذين نشئوا مترفين لا يرون حق الحياة خالصًا إلا لهم، فيعمّ

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

الفساد في الأرض، وتنقطع الأمة وتتنابز، وكل ذلك من سيطرة المترفين.

قال المعلم: وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]؟

قال أحدهم(١): في هذه الكلمات القليلة الموجزة إشارة إلى أن كل إنسان مجزي بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠] وقوله: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]

قال المعلم: بورك فيكم جميعا.. والآن أخبروني عن سريان هذا النوع من الإيجاز في السور القرآنية.. وهل هناك سور معينة تتميز به؟

قال أحدهم(٢): مع أن الإيجاز هو الأصل، وهو موجود في أكثر سور القرآن الكريم إلا أن قصار السور تتميز به أكثر.. ذلك أن نظمها كله يكاد يكون على نسق واحد مؤتلف النغم متآخي الألفاظ متلائم في نظمه، ففي قوله تعالى مثلا: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهَّ نَاقَةَ اللهَّ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١-١٥] نجد النغم متحدًا، والفواصل متحدة، والتلاؤم بين ألفاظها منهاجه واحد، وكأنها لقصرها لا تتغير فيها الأنغام ولا مقاطع الكلام.

قال آخر(٣): ولهذا نجد القصة من قصص القرآن الكريم تُذكر في السور القصار في كلمات جامعة، ويُبعد فيها عن الإطناب مثلما هو الحال في السور الطوال، وكلها معجز ببيانه

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٤.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٨.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٣٩.

وبلاغته.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١-١٤]، فقد أشارت هذه الآيات الكريمة إلى قصة عاد وثمود وفرعون، ووصف طغيانهم وقوتهم في صنائعم، وصلابة أرضهم، وكل ذلك في إيجاز شديد.

قال آخر: وقد كان من حكمة الترتيب المصحفي للقرآن الكريم أنَّ خصص الجزء الأخير لقصار السور، والذي يسهل حفظه على أكثر الناس ممن لا يطيقون حفظ القرآن الكريم جميعا، قد اشتمل على بيان العقيدة الإسلامية، وعلى معاندة قريش، وعلى جهود النبي ﷺ، وما لاقاه من عنت في قومه، وعلى المبادئ الاجتماعية، وفيه إجمال كامل لقصص القرآن الكريم.. وهذا شأن قصار السور، وهي جزء من ثلاثين من القرآن الكريم، أمَّا الطوال والمتوسط والأقرب إلى الطول والأقرب إلى القصر فهو يشمل نحو تسعة وعشرين جزءًا من ثلاثين جزءًا من القرآن الكريم.

قال آخر: وقد شاء الله بحكمته أن يكون أكثر السور المدنية من الطوال، لاشتمالها على الأحكام التفصيلية للتكاليف الشرعية، فسورة البقرة والنساء والمائدة فيها كثير من الأحكام الفقهية سواء أكانت في الأسرة أم في المعاملات المالية، أم في الزواجر الاجتماعية، أم في العلامات الدولية، وأحكام الجهاد، وفيها كل ما يتَّصل بالسلوك الإنساني الذي فرضه القرآن الكريم، وبعض التكليفات المتعلقة بالأسرة، أو المعاملات المالية.

٢ ـ إيجاز الحذف:

قال المعلم: بورك فيكم جميعا.. حدثتمونا عن إيجاز القصر؛ فحدثونا الآن عن إيجاز

الحذف.

قال أحدهم:

قال أحدهم[1]: الحذف فن عظيم من فنون القول، ومسلك دقيق في التعبير وتأدية المعاني، ترى به الترك أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة.. وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتَم بياناً إذا لم تبن.. ولهذا أشاد به علماء البيان، وأفصحوا عن ملامحه الجمالية فقعَّدوا له القواعد ووضعوا الشروط وأظهروا المزايا.

قال المعلم: بورك فيك.. فما شروط الحذف؟

قال أحدهم[2]: لا يصار إلى الحذف إلا إذا بقيت في الكلام قرينة تدل على المحذوف، حتى لا يصبح البيان ضرباً من التعمية والغموض، لأن شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة.. وهذا الشرط ضروري لا يُحمد إغفاله، لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحذوف ـ ويعينه أحياناً ـ جار على اللفظ والمعنى؛ فالألفاظ ـ كما قالوا ـ أوعية المعاني فلا بدَّ من ملاحظتها مذكورة أو محذوفة دل عليها دليل.

قال المعلم: بورك فيك.. فما مظاهر الحذف في القرآن الكريم؟

قال أحدهم[3]: مظاهر الحذف في القرآن الكريم كثيرة جداً، وقد صنفها بعضهم إلى ثلاثة أصناف: حذف حرف.. أو حذف كلمة مفردة.. أو حذف جملة أو أكثر.

أ ـ حذف الحروف:

قال المعلم: بورك فيك.. فحدثونا عن حذف الحروف في القرآن الكريم وأسبابه وأسراره.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥)

قال أحدهم[1]: لحذف الحروف في القرآن الكريم ضابطان.. أولهما: دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء هذا المعنى بعد الحذف.. والثاني: اعتبار الحرف محذوفاً بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه الحرف دون حذف.

قال المعلم: فحدثوني عن الضابط الأول.. وأمثلته وأسراره.

قال أحدهم[2]: من الأمثلة على ذلك حذف حرف النداء [الياء]، وهو كثير في القرآن الكريم، حيث لم يأت في القرآن أداة نداء سواه.. فقد التزم القرآن الكريم حذف أداة النداء [الياء] مع كلمة ﴿رب﴾ خاصة في كل موضع وردت فيه[3].. وسر الحذف فيه المبالغة في تصوير قُرب المنادَى ﴿رب﴾ حيث إن معناه: المربي والسيد والمالك، وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط.

قال آخر[4]: ومن الأمثلة على ذلك حذف [لا] مع [تفتأ]، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].. والتقدير: لا تفتأ تذكر يوسف.. وعلته لأَمنِ اللبس، بالإضافة إلى الدلالة على ضيق المقام لأن الأزمات النفسية عند إخوة يوسف قد بلغت ذروتها في هذا الموضع، ولهذا كان من الجميل أن يكون في التعبير نفسه ما يشير إلى تلك الحالات أبلغ وأوجز إشارة.

قال المعلم: فحدثوني عن الضابط الثاني.. وأمثلته وأسراره.

قال أحدهم[5]: من الأمثلة على ذلك حذف الواو كما في قوله تعالى في شأن أهل النار: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦)

(٣) إلا في موضعين، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨]

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٨)

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١١)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].. ففي هذه الآية الكريمة حذف حرف الواو قبل ﴿فُتِحَتْ﴾.. مع أنها أثبتت في شأن أهل الجنة، كما قال تعالى بعدها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].. والحذف في الأولى يدل على أن أبواب جهنم فتحت حين جاءوها، لأن ﴿إذا﴾ ظرف لما يُستقبل من الزمان، و﴿فتحت﴾ جوابها، والذكر في الثانية دل على أن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل أن يأتوها.. وسر ذلك هو أن أبواب جهنم كانت مغلقة ثم فتحت حين جاءوها، لأن جهنم سجن، والسجن ذلك شأنه: حُراس شداد، وأبواب محكمة الإيصاد، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ٢٠].. بينما الجنة دار كرامة وتشريف، فللترحيب بهم استعدت لهم قبل وصولهم، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]

قال آخر[١]: ومن الأمثلة على ذلك حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].. ففي هذه الآية الكريمة حذف حرف الواو قبل ﴿يُذَبِّحُونَ﴾.. مع أنها أثبتت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].. وتوجيه التعبير في الموضعين يسير، لأنهما ـ وأن اتحدا في الغرض العام ـ فبينهما فرق واضح هو مكمن السر في الذكر والهدف.. فالآية الأولى تذكير من الله ـ مجرد تذكير ـ بما حدث لبني إسرائيل من بطش فرعون وآله.. وفي الآية

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٢)

الثانية يعمد موسى عليه السلام إلى تذكير بني اسرائيل بنعَم الله.. ويعدد عليهم تلك النعَم؛ فلم يكتف بذكر الإنجاء. بل مهد له من أَول الأمر للتذكير فناسب ذلك تَعداد النعَم، والفصل بين آحادها، فكأنه جعل سومهم العذاب محنة مستقلة نجاهم الله منها، وعطف عليها غيرها، لذلك جيء بالواو بين النوعين، ومعروف أن العطف بالواو يقتضي المغايرة، فلو ترك هذا العطف لصار السوم والتذبيح نوعاً واحداً، ويكون الثاني تفسيراً للأول كما هو في الآية الأولى.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك حذف الواو في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد جاء ﴿رابعهم﴾ و﴿سادسهم﴾ بعد ﴿ثلاثة﴾ و﴿خمسة﴾ بدون واو.. ثم خولف في ﴿سبعة﴾ حيث عطف عليها ﴿ثامنهم﴾ بالواو، والمواضع الثلاثة متماثلة.. وقد وجه بعضهم هذا بقوله: (إن هذه الواو هي التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة، وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، وأن اتصافه بها أمر ثابت مستقر.. وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: ﴿سَبعَة وَثَامِنُهُمْ كَلبُهُمْ﴾ قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَجْماً بالغَيْب﴾، وأتبع القول الثالث قوله: ﴿مَا يَعْلمُهُمْ إلا قَلِيلٌ﴾)

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] مع إثباتها في قوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٣)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٦)

مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]، وسر ذلك هو أن الصفة المراد إثباتها في الثانية كون القرية ذات كتاب سابق قد أنزل على رسولها لا الكتاب المحفوظ المقدر فيه أجلها، وذلك لأن الآية تهدف إلى أنهم أنذروا ولم يؤخذوا ظلماً.. والصفة المراد إثباتها في الأولى كون القرية ذات منذرين.. وفرق بين الكتاب والمنذرين، لأن الكتاب ليس له من قوة الظهور ما للرسل، لذلك كان المقام في الثانية مقام تأكيد، وفي الأولى ـ أعنى ظهور المنذرين ـ لأنهم جماعة من الناس فهم في غنى عن التأكيد الذي احتاجت إليه الثانية، فكان الذكر والحذف من أجلهما.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك حذف حرف الجر [الباء]، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، مع أنها أثبتت في قوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].. فهذان موضعان متماثلان تمام التماثل. وقد خولف بينهما. فجاء التعبير في الأولى بعطف (الزُّبُرِ) و(الْكِتَابِ الْمُنِيرِ) على (الْبَيِّنَاتِ) محذوفاً منهما حرف الجر [الباء] الداخلَة علىَ المَعطوف عليه، ثم جاء التعبير في الثانية مذكوراً فيه حرف الجر [الباء] في المعطوفين: (بِالزُّبُرِ) و(وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ).. وسر ذلك أن ذكر الحرف في المواضع الثلاثة ـ المعطوف عليه، والمعطوفين ـ جاء في سورة فاطر وهي مكية النزول، فهى إذن أسبق وجوداً بهذا الاعتبار فهى مؤسسة للمعنى الوارد فيها بخلاف ما في آل عمران، لأنهامدنية النزول.. بالإضافة إلى أن القوم في مكة يختلف حالهم عن القوم في المدينة من حيث الاستجابة إلى الدعوة والإسراع إلى الإيمان، فأهل مكة أهل عناد وتحد، وأهل المدينة أهل إسلام وطاعه.. وهذان الاعتباران يفيدان أن المقام في مكة كان يقتضي التأكيد في المعاني لتقريرها ورسوخها لتتناسب مع حالة الإنكار التي كانوا عليها، وعلى هذا جاء

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٧)

التعبير في سورة فاطر المكية، لأن تكرار حرف الجر في المواضع الثلاثة يشعر بتكرار التعلق، فكأنه قال: جاءوا بالبينات.. وجاءوا بالزبر.. وجاءوا بالكتاب المنير.. وخلا التعبير المدني من هذا التكرار لعدم الحاجة إليه لإسلام أهل المدينة وطاعتهم.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك حذف حرف من بِنية الكلمة؛ فتأتي في موضع آخر على صورة أخرى، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].. ففي الأولى جاءت الكلمة ﴿تَبِعَ﴾، وفي الثانية ﴿اتَّبَعَ﴾.. وسر ذلك يعود إلى أن المقام في سورة طه مقام تحذير ونسيان فشدد الفعل، حثاً على النشاط والجد، وقد سبقه مباشرة قوله تعالى: ﴿بَعَضُكُمْ لبَعْضٍ عَدُو﴾، والمقام يتطلب أدنى اتباع وأقله.. وقد جاء جواب الشرط في المَوضعين مناسباً لدلالة الفعل فهو في طه: ﴿فَلاَ يَضِلُ وَلاَ يَشْقَى﴾، وفي البقرة: ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَليْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بنفى الضلال والشقاء في الأول، والخوف والحزن في الثاني.. أو أن القصة في طه بنيت من أولها على القوة والمبالغة والتوكيد فناسب آخرها أولها.. أو أن التشديد في طه للتصريح بمعصية آدم وقد سبقه الاتباع مشدداً في نفس السورة.. أو أن صيغة التخفيف في سورة البقرة حيث لم يتقدم في حكاية إغواء إبليس لآدم عليه السلام ذكر وسوسة الشيطان والاحتيال عليه، وصيغة التشديد في طه حيث تقدمت وسوسة اللعين صريحة وسعة مكره واحتياله، فكان المخفف بجوار ما لا تعمل فيه، والمشدد بجوار ما فيه ذلك.

ب ـ حذف الكلمات:

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٨)

قال المعلم: بورك فيكم جميعا.. فحدثونا عن حذف الكلمات في القرآن الكريم وأسبابه وأسراره.

قال أحدهم[1]: لقد ورد في القرآن الكريم حذف الكلمة على وجوه متعددة، منها حذف الفعل.. ومنها حذف الفاعل.. ومنها حذف المبتدأ.. ومنها حذف الخبر.. ومنها حذف الموصوف.. ومنها حذف الصفة.. ومنها حذف المضاف.. ومنها حذف المضاف إليه.

قال المعلم: فحدثونا عن **حذف الفعل**.

قال أحدهم[2]: يأتي حذف الفعل في القرآن الكريم على ضربين: ضرب يُحذف فيه الفعل دون تعويض، ويبقى عمله من رفع ونصب.. وضرب يُحذف فيه الفعل مع إقامة شيء مقامه.. ويكون الشيء المقام مقامه [العوض] على جهة الإبانة أو التفسير له.. وكل من هذه الأنواع لا يُصار إليها إلا لغرض بياني.

قال المعلم: فهلا ضربتم لنا أمثلة عن ذلك.

قال أحدهم[3]: من ذلك حذف الفعل إذا وقع اسم مرفوع على الفاعلية بعد أدوات الشرط: (إن) و(إذا)، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في مطالع سور التكوير والانفطار والانشقاق.. ففي التكوير حذف الفعل بعد أداة الشرط ﴿إذا﴾ في اثني عشر موضعاً.. وولي الاسم مرفوعاً أداة الشرط، ثم فسَّر ذلك الفعل المحذوف بإعادته بعينه بعد الاسم المرفوع، والفعل المحذوف في هذه المواضع هو فعل الشرط، ويجب تقديره في مثل هذه الاستعمالات لأن أدوات الشرط مختصة بالدخول على الأفعال دون الأسماء.. وفي الانفطار

(1) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٠)

(2) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٠)

(3) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢١)

حذف الفعل بعد أربع أدوات للشرط، وفعل فيه ما فعل في سابقه.. وفي الانشقاق حذف في موضعين كذلك.. وفي كل بقى الفاعل مرفوعاً.. وسبب الحذف إرادة التأكيد المستفاد من تكرار الإسناد؛ فالفعل في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] قد أُسند إلى الفاعل مرتين. مرة محذوفاً إلى الظاهر ﴿الشمس﴾ ومرة ـ مذكوراً ـ ضمير الفاعل (هي)، فكأنه قال: إذا كُوِّرَتْ الشمس كُوِّرَتْ الشمس.. والمقام في كُل يقتضي التوكيد لغرابة الأفعال والظواهر المدلول عليها، لأن الناس لم يشهدوا مثلها من قبل، ولن يشهدوا ذلك إلا مرة واحدة يوم البعث، وفضلاً عن غرابتها في نفسها ومخالفتها للسنن المعهود ـ فإنها تتصل بقضية البعث اتصالاً مباشراً، والبعث كان مثار جدل ومبعث إنكار والمناسب له التوكيد والتقرير، وكان ذلك هو ما فعله القرآن.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].. فقد اقتضى المقام هنا التوكيد لأن إستجارة المشرك بعدوه المسلم مما يُنكر ويُستغرب، فخرج الكلام مخرج التوكيد.. والمعنى: (إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين ما بعثت له فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلَّع على حقيقة الأمر، ثم أبلغه بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم)

قال آخر(٢): ومثل ذلك أن يُحذف الفعل، ويُعوَّض عنه مصدره للدلالة على التأكيد، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، فقد حذف الفعل، وأقام

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٢)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٣)

مصدره مقامه، والمعنى: فاضربوا الرقاب ضرباً، وفي هذا توكيد ومبالغة واختصار.. وقد ناب المصدر عن فعله في موضعين أخريين في هذه الآية: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، إذ التقدير: فإما تمنُّون مَناً، وإما تفدون فداءً.

قال آخر(1): ومثل ذلك أن يُحذف الفعل، ويُعوَّض عنه مصدره للدلالة على الاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١]، فقد حذف الفعل في الآيتين في فواصلهما: ﴿إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ و﴿إِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ والمعنى: (إياى فارهبوا فارهبون.. وإياى فاتقوا فاتقون)

قال آخر(2): ومثل ذلك أن يُحذف الفعل، اكتفاءً بآخر، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، فالتقدير: فأجمعوا أمركم، وادعوا شركاءكم.. والسبب في ذلك الإيجاز مع تكثير المعنى، ولإخراج المعمولين المختلفى العامل مخرج المعمولين لمعمول واحد لسبق إجماع الرأي على دعوة الشركاء.. ولأن كِلاَ الأمرين مطلوبان لموقف واحد، وهو أن يتحدوا ما استطاعوا ضد نبي الله نوح عليه السلام، ولينظروا بعد حشد كل ما يمكنهم من عوامل الانتصار مَن هو المنتصر.. والواو ليست عاطفة مفرداً على مفرد، بل جملة على جملة، ومنه قول الشاعر: (علفتها تبناً وماءً بارداً) أي: وسقيتها ماءً بارداً.. ومثله: (وزججن الحواجب والعيونا) أي: وكحلن العيون.. لأن العُرف اللغوي يمنع من تشريك ما بعد الواو مع ما قبله في حكمه، لأن لكل منهما متعلقاً خاصاً لا يصح تعليق الآخر به، وجعل الفعل المذكور ـ في الظاهر ـ للمعمولين ـ وهو في الواقع لأحدهما ضرب من التعبير

---

(1) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٣)

(2) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٥)

فيه خلابة وسحر.. ولذلك، فإن الواو في الآية الكريمة ليست للعطف، بل هي بمعنى مع، وفي مجيء الشركاء على هذا الموضع فيه معنى التهكم.

قال آخر[1]: ومثل ذلك أن يُحذف الفعل لإرادة التحذير، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣].. أي: احذروا، فحذف الفعل للتحذير، وللاختصار مع كثرة المعنى.

قال آخر[2]: ومثل ذلك أن يُحذف الفعل لإرادة الإغراء، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فحذف الفعل والتقدير: الزموا، وعوض عنه اسم الفعل ﴿عليكم﴾.. والسر البلاغي فيه ضيق المقام لئلا يصيبه مكروه.

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿انتَهُواْ خَيْراً لَكُمْ﴾، أي: انتهوا واصنعوا خيراً لكم، فحذف الفعل دون تعويض، وبقي معموله منصوباً على الإغراء.. والسر البلاغي فيه ضيق المقام لئلا يفوته الخير.

قال آخر[4]: ومثل ذلك أن يُحذف الفعل إذا وقع جواب سؤال ـ أي ضمنه ـ لقيام القرينة على تعيينه.. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].. وتقدير المحذوف فعلاً في الموضعين أولى

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٦)
(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٦)
(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٧)
(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٦)

من تقديره خبراً، ليتطابق السؤال مع الجواب، ولأن الكثير الغالب في جواب الاستفهام حذف المبتدأ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠-١١]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]، والقول بأن الفعل المحذوف خبر جائز وتقدير الجواب على الوجهين: (ليقولن خلقهن الله) و(ليقولن الله خلقهن).. والسبب البلاغي لهذا الحذف هو توفير العناية باسم الجلالة الذي هو المقصود الأهم، ولتكثير الفائدة لاختلاف التقدير.. وقد جاء في سورة الزخرف مصرحاً بالفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]

قال آخر(١): هناك مواضع كثيرة في القرآن الكريم حُذف فيها الفعل للدلالة على التأكيد والتقرير والاختصاص.. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].. وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف الفعل.. فحدثونا عن **حذف الفاعل**.

قال أحدهم(٢): الفاعل ركن أساسي في الجملة الفعلية، ولذلك يُمنع حذفه لغير عِلَّة، ذلك أن الذِكر هو الأصل فيه.. ولذلك لا يحذف إلا إذا كان الفاعل [واو جماعة]، وقد أكَد فعله بـ [نون التوكيد] أو [ياء مخاطبة] وقد أكد مثل سابقه.. والحذف في هذين الموضعين واجب.. ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٩)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٢٩)

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فقد حذف الفاعل وهو [واو جماعة] في: ﴿تَمُوتُنَّ﴾ و﴿لَتَسْمَعُنَّ﴾ لأنه التقى ساكناً مع نون التوكيد الساكنة الأولى، فحذف للتخلص من التقاء الساكنين. وبقي الضم دليلاً عليه.. ومثاله مع ياء المخاطبة قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]

قال آخر[1]: وقد حذف الفاعل في القرآن الكريم في غير ذلك، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، ففاعل ﴿بلغت﴾ هو النفس ولمَ يجر لها ذكر قبل حتى يُقَال إنها مضمرة.. ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٦-٢٧].. إذ لا يبلغ التراقي عند الموت إلا النفس.. ومثلهما قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].. ففاعل: ﴿توارت﴾ محذوف، وهو الشمس لوضوحها.. والسر البلاغي لهذا الحذف هو ضيق المقام، إذ المقام في الأولين وصف ما يعتري المحتضر من عوارض الموت، وفي الثالث المقام مقام شكوى وندم.. وقد سوَّغت قوة القرينة الحذف في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨]، ففاعل ﴿ظن﴾ هو المحتضر إذ المقام يعنيه دون سواه، وقد عبر عن شعور المحتضر بالظن دون اليقين، لأنه لا يعلم مجيء الأجل إلا الله وإن قويت علامات الموت عند الناس، فقد يتخلف ظنهم.

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف الفاعل.. فحدثونا عن **حذف المبتدأ، وحذف الخبر**.

قال أحدهم[2]: حذف أحد ركني الجملة الاسمية ـ المبتدأ أو الخبر ـ كثير شائع في

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣١)

الكلام إذا دلت عليه قرينة، واقتضاه داع بلاغي أو صناعي.. وحذفهما قد يكون واجباً، وقد يكون جائزاً.. وفي القرآن الكريم مواضع متعددة وكثيرة جدا لحذف المبتدأ أو الخبر أو هما معاً.. وفي كل موضع حدث فيه حذف من هذا النوع فالحذف فيه سواء أكان واجباً أو جائزاً، فهو أحسن من الذكر.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، فقد جاء فيه المبتدأ محذوفاً قبل قوله ﴿هدى﴾ والتقدير: (هو هدى)، وسر الحذف ـ هنا ـ الإشعار بالاتصال المباشر بين ﴿الكتاب﴾ و﴿هدى﴾ بعد جملة الاعتراض، ولو ذكر فقيل: هو هدى. لزال هذا الاتصال؛ لأنه مع الذِكر يكون ﴿هدى﴾ خبراً عن ضميراً لكتاب، ومع الحذف فإن أول ما يقع في الذهن أنه صفة مباشرة له.. وكم بين هذا الكتاب وبين الهدى من اتصال، حتى أوثر إنه هو الهدى نفس الهدى، ولم يقل: (هادياً) مثلاً.. بالإضافة إلى أن ذكر المبتدأ ـ هنا ـ يؤدى إلى نوع من الثقل اللفظي حيث يصبح التركيب: (فيه هو هدى) لاجتماع ثلاثة هاءات لم يفصل بينها إلا حرف واحد، والهاء من حروف الحلق، وحروف الحلق معروفة بالثقل.. بالإضافة إلى أن إثبات الضمير هنا قد يبعث في النفس السآمة والملل لشدة وضوحه.

قال آخر(٢): وهكذا قد يحذف المبتدأ إذا وقع في سياق تقدم ذكره فيه، فتكون إعادته تكراراً لم تدع إليه حاجة، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٧-٩].. وقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦-٣٠].. وقوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩-١١]..

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣٢)

وقوله: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤-٦].. وتقدير النظم في الآية الأولى: (وهو رب الشرق).. وفي الثانية: (هي لا تبقي.. هي لواحة). وهكذا بقية الآيات الكريمة.

قال آخر(١): وهكذا قد يحذف الخبر عند ظهوره وسهولة تعيينه مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فقد حذف الخبر من قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ والتقدير: وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ كذلك أو مثلهن، فيكون الخبر محذوفاً وحده.. أو التقدير: فعدتهن كذلك، فيكون المبتدأ والخبر محذوفين.. والذي سوغ الحذف هنا هو العطف بالواو، لأن العطف يشرك المعطوف عليه فيما ثبت له من الإعراب والحكم، ولذلك صرَّح بالخبر بعده في قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ لاختلاف أجل الحامل عن أجل غيرها.

قال آخر(٢): وهكذا ورد حذف الخبر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].. والمعنى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن لم يشرح صدره؟)

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].. والمعنى: (أفمن هو قانت كغيره؟)

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣٧)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣٧)

[فاطر: ٨].. والمعنى: (أفمن زُيِّنَ له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يُزَينْ له؟).. أو: أفمن زُينَ له سوء عمله كمن هداه الله. فحذف لدلالة: ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي مَنْ يشاء عليه﴾

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، أي: حِل لكم، وقد أغنى عن ذكره التصريح به مرتين في صدر الآية، فكان في حذفه حُسن الدلالة مع الإيجاز وعدم التكرار.

قال آخر(٢): وهكذا قد يحذف الخبر بعد [لا النافية للجنس] مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، أي لا ضير علينا.. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، أي فلا فوت لهم..

قال آخر(٣): وهكذا قد يحذف المبتدأ أو الخبر بعد الفاء الواقعة في جواب شرط، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].. فالمعنى: الواجب: عِدةٌ من أيام أخر.. أو: فعِدة من أيام أخر واجب صيامها.

قال آخر: ومثل ذلك التقدير في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: ٤]، وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، فالمعنى: فأمري، أو شأني صبر جميل، أو: صبر جميل أمثل.

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف المبتدأ، وحذف الخبر.. فحدثونا عن **حذف الموصوف وحذف الصفة.**

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣٧)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣٩)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٣٩)

قال أحدهم(١): جاء حذف الموصوف في الكلام الفصيح كثيراً، وهو أكثر من حذف الصفة لأنه أقوى منها، وقد ورد في القرآن الكريم على صور متعددة، منها قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، أي حور قاصرات الطرف.. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، أي دروعاً سابغات.. وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢] أي ضحكاً قليلاً وبكاء كثيراً.. وقوله: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، أي المِلة القيمة.. وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] أي الحياة الآخرة.. والسر البلاغي في حذف هذه الموصوفات توفير العناية بالصفة لأنها المطلوبة؛ فقصر الطرف ـ في الآية الأولى ـ هو دليل العفة المطلوبة في كل امرأة.. والاهتمام ـ في الآية الثانية ـ بجودة الصنعة لأن المطلوب أن تكون الدرع سابغة لا مجرد درع، فأقيمت هذه الصفة التي هي محل العناية من كل درع مقام الموصوف.. والقِلة من الضحك والكثرة من البكاء ـ في الآية الثالثة ـ هما المطلوب إثباتهما دون مجرد الضحك أو مجرد البكاء.. و﴿القيِّمة﴾ ـ في الآية الرابعة ـ وصف حاز كل فضيلة فليس المراد كلمة ﴿مِلة﴾ لأنها تُطلق على كثير من العقائد الضالة وغيرها، إنما المطلوب الوصف ﴿القيِّمة﴾ وهو ما يفصل بين ما هو حق وما هو باطل، فهو بالعناية أولى.. وفي الآية الأخيرة كثيراً ما اجتزئ بالآخرة ـ وهي صفة ـ عن الحياة وهي موصوف في التعبير القرآني كما في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، وإذا كثر اتصاف الشيء بصفة واشتهر بها صلحت لأن تقوم مقامه، وهذا الوصف ﴿الآخرة﴾ هو الفاصل بين الحياتين: الأولى والآخرة، لأنهما جميعاً يشتركان في مطلق حياة، فكان لهذا الوصف الذي لا اشتراك فيه فضيلة ليست لغيره، لذلك نرى القرآن الكريم يُفرق بينهما حتى فيما هما مشتركتان فيه من

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٠)

لفظ ﴿الحياة﴾، إذ يقول: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فزاد في بِنية الكلمة زيادة تفيد المبالغة في إثبات المعنى، فكاد يسلب عن الحياة الأولى معنى الحياة، ويفيد ـ في نفس الوقت ـ أن الحياة الحقيقية إنما هي الآخرة.. وهكذا تجد في كل موضع حُذِف فيه الموصوف وأقيمت الصفة مقامه لم يكن الحذف اعتباطاً ولا قسراً، وإنما هو لسر يبدو فيه توفير العناية بالصفة لأمر يقتضي ذلك.

قال آخر[1]: أما حذف الصفة فدون حذف الموصوف، لأنها عرض لا تدل على نفسها إلا بذكرها.. ومن الأمثلة على حذف الصفة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، يقصد السفينة الصالحة.. فحذف صفة السفينة: (صالحة) فيه مبالغة في تصوير طمع الملك واستيلائه على كل سفينة حتى ولو كانت غير صالحة.. فغير الصالح داخل في مأخوذ الملك، هكذا يخيل الحذف، ولو ذكر الوصف لزال هذا التخييل.

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف الموصوف وحذف الصفة.. فحدثونا عن حذف **المتضايفين**.

قال أحدهم[2]: يحذف المضاف كثيراً كضرب من التوسع في اللغة، ولإيراد المعنى في قليل من اللفظ لأن المضاف إذا حُذِف سهل تصوره، ومن الأمثلة القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].. فالجائي: أمر ربك لا ربك، لاستحالة ذلك عقلا وعقيدة.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فالآتي البنيان من القواعد: أمر الله لا الله نفسه.. ومثله قوله تعالى:

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٣)

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخر الآية الكريمة، فالمحرم: الزواج بهن لا ذواتهن.. ومثله قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخر الآية الكريمة، فالمحرم: أكلهن لا ذواتهن.. ومثله قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، فالمحرم: التمتع بالطيبات لا ذواتهن.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، وقوله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]، وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].. فالمراد بالقرية أهلها.. لا جدرانها.. وسر الحذف فيه بلاغياً هو إظهارَ المعنى في صورة أتم وأوضح، وعلى وجه أقوى وأشمل.

قال آخر(١): اسمحوا لي أن أذكر إشارة خطرت لي في سر حذف المضاف في قوله تعالى حكاية على إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢].. فهذه المقولة كانت من إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم عندما أرادوا أن ينبئوه نبأ سرقة أخيهم صواع الملك، وسبق أن نبأوه نبأ فقد يوسف عليه السلام بأن الذئب أكله فحصل عند أبيهم شك فيما قالوا، لكنهم في هذه الحالة الأخيرة صادقون، وهم يعلمون أن هذا الخبر سيفجر في نفس أبيهم كثيراً من هواجس الريب والظن؛ فالمقام مقام اتهام لهم وإنكار لما يقولون؛ فأرادوا أن يُعبروا عن صدقهم وأنهم في هذا الخبر صادقون؛ فبالغوا في تصوير صدقهم وادعوا أن أمر السرقة شاع حتى إن القرية كادت تعلم به ولو سألتها لأجابت فما بالك بأهلها؟.. وحتى إن العير ـ التي هي حيوان

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤)

أعجم ـ كادت تفقه أمر هذه السرقة لكثرة ما ترددت على الألسنة، فلو سألتها لأجابت بها نقول، فما بالك براكبيها!.. فالسر ـ إذن ـ وراء هذا الحذف هو قصد المبالغة واشتهار أمر السرقة بدرجة لم يستقم معها شك أو تكذيب.

قال آخر(١): ومثل ذلك خطر لي في سر حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] فالمراد: أهل قرية.. وقد حذف المضاف لأن الله تعالى ينذر الناس بأن المخالفين منهم سيحل بهم سوء المصير، وضرب لهم من قصص السابقين مثلاً ليكون لهم فيها عظة.. ومقام الإنذار يتطلب التهويل والتعظيم في عرض ما حدث أو ما سيحدث، لأن الإنذار مراد به التخويف ليرتدع المخالفون، ولما كان الأمر كذلك، فقد صور الله في هذه الآية ما نزل بأهل القرى السابقين تصويراً فيه شدة وهول؛ فجعل الهلاك واقعاً على القرية نفسها بما فيها من زروع وأنهار وجبال ومنازل وكل ما يتصل بها.. وإذا كان الهلاك بالغاً هذا الحد فما بالك بأهل تلك القرى التي هلكت في أنفسها، إنهم ـ لا شك ـ أكثر هلاكاً وأكثر بوراً.. والدليل على أن هدف الآية ما ذكرته من التهويل والتعظيم في تصوير ما حدث أنها صُدِّرت بـ ﴿كم﴾ الخبرية التي معناها الكثرة في العدد.. وجاء حذف المضاف مفيداً للتهويل في الكيف، وهو على نمط قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]) في إفادة المبالغة والشمول.

قال آخر(٢): ومثل ذلك يمكن اعتبار هذه العلة في كل الآيات الكريمة التي فيها حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ففي قوله تعالى مثلا: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] يحمل سر الحذف على إرادة العموم في المفعول؛ فيكون المحرم كل ما لا يليق بهن من عقوق وحرمان وإساءة في قول أو عمل.. وهذه الأمور وإن حرمت بطرق أُخرى فإن

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٥)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٦)

احتمال المقام لها على أنها داخلة في جملة المحرم هدف من أهداف الأسلوب الحكيم.

قال المعلم: لقد ذكرتم الأمثلة عن حذف المضاف.. فأين أمثلة المضاف إليه؟

قال أحدهم[1]: حذف المضاف إليه دونه في الورود، ولكنه مثله من حيث إنه دال على معان بلاغية.. وهو يكثر إذا كان ياء المتكلم والمضاف منادى، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [نوح: ٢٨]، فقد حذف المضاف إليه، وهو [الياء]، والمضاف وهو ﴿رب﴾ منادى، وقد اجتزئ عنه بالكسرة.

قال آخر[2]: ومثل ذلك حذف في قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٤]، وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٩].. والسر في ذلك أن كلمة ﴿رب﴾ لا تحتاج في نسبتها إلى المتكلم إلى تلك العلامة اللفظية [الياء] فهو رب كل شيء سواء أضيف أو لم يضف.. ولهذا حرص القرآن الكريم على أن يستعمل هذه الكلمة محذوفاً منها ضمير المتكلم المضاف إليه في أغلب مواضعها.. هذا من حيث المعنى.. أما من حيث اللفظ، فإنه لما كانت هذه الكلمة ﴿رب﴾ تستعمل كثيراً في النداء روعي فيها وجه الخفة بحذف ما تضاف إليه إلا أن يكون ما تضاف إليه اسماً ظاهراً غير ضمير المتكلم، فإن الإضافة لا تكمل إلا بذكر المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].. ولأن قوة القرينة مع الإضافة إلى ياء المتكلم ساعدت على أمر الحذف، بخلاف غيره.

قال آخر[3]: ومثل ذلك يكثر حذف المضاف إليه في القرآن الكريم بعد الظروف

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٦)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٧)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٧)

والغايات مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].. وبعد [كل] و[بعض] مثل قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].. وبعد [أي] مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].. وكل ذلك من التوسع في اللغة، بالإضافة إلى فضيلة الإيجاز مع وفاء الدلالة.

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف المتضايفين.. فحدثونا عن **حذف الحال وحذف التمييز**.

قال أحدهم(١): هاتان فضلتان الأصل فيهما عدم الحذف، لأن الفضلة ضعيفة لا تكاد تتصور إذا حذفت.. لكنها مع ذلك حذفت في القرآن الكريم في بعض المواضع، لأن الدليل عليهما في تلك المواضع من القوة بحيث أجاز ذلك الحذف.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى حكاية عن أهل الكهف: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]؛ فالتمييز في هذه الآية محذوف تقديره: كم يوماً لبثتم؟ ودليل الحذف: كون السائل مستفهماً عن مدة لبثهم نائمين، وإنما كان التقدير بـ [اليوم] دون ظروف الزمان الأخرى، لأن السؤال منصب عن مدة النوم، والنومة الواحدة لا تتجاوز ـ في العادة ـ اليوم أو بعضه.

قال آخر(٢): ومثل ذلك حذف التمييز في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] والتقدير: ثلاثة فتيان أو أشخاص، والمعدود معلوم الحقيقة والجنس فلذلك سُوغَ حذف تمييزه.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٨)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٩)

[الأعراف: ١٦٠]، فالتمييز محذوف تقديره: قطعة، والذي دَلَّ على الحذف أن كُلا من ﴿أسباطاً﴾ و﴿أمماً﴾ لا يجوز إعرابه تمييزاً لـ ﴿اثنتى عشرة﴾ لأنهما جمع. وتمييز العدد المذكور لا يكون مفرداً منصوباً.. ولأن تأنيث جزئي العدد يدل على أن التمييز مؤنث.

قال آخر(١): لكن إن كان في حذف التمييز ما يؤدي إلى لبس في المعنى وجب ذكره، ومثاله من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وذلك لأن العدد المذكور لم يدخل في حساب أحد منهم، وعلمه إنما إلى الله وحده فكان لا بدَّ من ذكره.. ولهذا حينما عطف قوله: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ عاد إلى حذف التمييز، عندما سهل تصوره.

قال المعلم: هذا عن حذف التمييز؛ فماذا عن حذف الحال؟

قال أحدهم(٢): ورد حذف الحال في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].. والمعنى: قائلين لهم: سلام.. فالمحذوف حال من الفاعل الذي هو الواو في ﴿يدخلون﴾ وهي ـ أي الحال ـ هنا اسم فاعل له معمول هو: (سلام عليكم).. وهو مقول القول المحذوف الواقع حالاً، فبقاء المعمول يتطلب تقدير العامل ضرورة.. ولذلك صح الحذف لقوة القرينة وللإسراع إلى تعجيل المسرَّة التي يوحى بها المعمول: (سلام)، وذلك فضل الله يتلقى به أهل رضوانه.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي قائلين: ربَّنا.

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف الحال وحذف التمييز.. فحدثونا عن حذف

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٩)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٠)

المفعول به، فقد علمت أنه من المحال التي لقيت عناية خاصة من علماء البيان.

قال أحدهم: أجل.. فقد أولوه عناية خاصة لم يولوها لغيره من المحذوفات.

قال المعلم: فحدثونا عن أغراضه، مع ضرب الأمثلة القرآنية عنه.

قال أحدهم[١]: من الأغراض البلاغية لحذف المفعول به البيان بعد الإبهام، كما في فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا لم يكن في تعلقه بمفعوله غرابة، ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، فإذا كان في التعلق غرابة امتنع الحذف.

قال آخر[٢]: ومن أغراضه قصد التعميم في المفعول مع الاختصار، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، أي: يدعو كل أحد.

قال آخر[٣]: ومن أغراضه التعبير عن الأحوال النفسية، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].. فالذي قال ذلك هم المنكرون لكون محمد ﷺ مبعوثاً رسولاً من عند الله، لذلك صدروا مقولتهم بالاستفهام الإنكارى؛ فإثبات الرسالة له أمر لا تساعدهم عليه أنفسهم ولذلك جاء التعبير مصوراً للقلق النفسي الذي كان يساورهم من أمر الرسالة، حيث حذف المفعول لأنهم يكرهون وقوع بعثه رسولاً في الواقع، لذلك لم يوقعوا الفعل ﴿بعث﴾ على ضميره ليطابق اللفظ حالتهم النفسية.. فكراهة نسبة الرسالة إلى محمد ﷺ في الواقع وفي اللفظ هي التي أوحت بحذف المفعول، وهذا الحذف يُصور لنا ما وراء اللفظ من خفايا نفوسهم

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٢)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٢)

وظواهرها.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن السبب نفسي كذلك، وهو الرهبة والإجلال والطمع في مطمع.

قال آخر[2]: ومن أغراضه كون الغرض هو الفعل لا المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]، فقد حُذِفَ المفعول في أربعة مواضع وهي: ﴿يسقون﴾ ـ ﴿تذودان﴾ ـ ﴿نسقى﴾ ـ ﴿فسقى﴾

قال المعلم: بورك فيك.. والآن أخبروني.. ما رأيكم فيمن يعتبر الاختصار أو رعاية الفاصلة غرضا من الأغراض؟

قال أحدهم[3]: مجرد الاختصار أو رعاية الفاصلة وحدهما ليسا من الأغراض الأساسية، فجمال القرآن الكريم ليس خاليا من المعاني العميقة..زيادة على أن اعتبار الفواصل وحدها مظنة للسجع المتكلف.

قال آخر[4]: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣].. والتي ذكر بعضهم أن المفعول حُذِفَ فيها لرعاية الفواصل.. لكن ذلك لا يكفي وحده، ولهذا فإن الأحسن منه أن يكون السبب في الحذف ـ هنا ـ كراهة مواجهة الرسول ﷺ بأنه موضع قلى من الله، ولو وقع ذلك في سياق النفي فإن الذوق البلاغي يقتضيه.. ولهذا نظير في القرآن الكريم من اللطف في الخطاب مع رسول الله

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٧)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٤)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٦)

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٥٨)

ﷺ حتى في أشد مواضع العتاب كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، فقدم العفو على سبب العتاب.

ج ـ حذف الجمل:

قال المعلم: حدثتمونا عن حذف المفعول به، فحدثونا عن حذف جملة فأكثر.

قال أحدهم(١): لقد حفل القرآن الكريم بكثير من هذا النوع، ومن أمثلتها حذف السؤال المقدَّر ويسمى [الاستئناف]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥]، فالاستئناف وارد قبل ﴿أُولئك﴾، وكأن سائلاً سأل: فما بال المتصفين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب: إن الذين اتصفوا بهذه الصفات غير مستبعد أن يفوزوا ـ دون الناس ـ بالهدى عاجلاً والفلاح آجلاً.

قال آخر(٢): ومثل ذلك الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٢-٢٧] وتقدير السؤال المحذوف: كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه؟ فقيل: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾.. ويمكن تقدير سؤال آخر قبل قوله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، وتقديره: فماذا قال حين قيل له ادخل الجنة؟ فأجيب: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٠)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٠)

قال آخر(١): ومثل ذلك الاكتفاء بالسبب عن المسبب، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٥]، فقد ذكر سبب الوحي، وهو تطاول العمر، ودلَّ به على المسبب الذي هو الوحي.

قال آخر(٢): ومثل ذلك الاكتفاء بالمسبب عن السبب، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، والتقدير: إذا أردت قراءة القرآن، فاكتفى بالمسبب الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الإرادة.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، والتقدير: فضرب فانفجرت.

قال آخر(٣): ومثل ذلك الإضمار على شريطة التفسير، وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره، فيكون الآخر دليلا عليه، ومن مظاهره أن يأتي على طريقة الاستفهام، فتُذكر الجملة الأولى دون الثانية، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، والتقدير: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه، ودليل الحذف قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾

قال آخر(٤): ومن مظاهره أن يأتي على حدي النفي والإثبات، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦١)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٢)

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٢)

أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، والتقدير: لا يستوي منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقاتَلَ، ومَنْ أنفق من بعده وقاتَلَ، ودليل الحذف: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾

قال آخر[١]: ومن مظاهره أن يأتي على غير هذين فلا يكون استفهاماً، ولا على حدي النفي والإثبات، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، فالتقدير: وجعلنا ابن مريم آية، ثم حُذفَت الأولى لدلالة الثانية عليها.. والحذف من الأول لدلالة الثاني عليه كثير.

قال آخر[٢]: ومن مظاهره أن يأتي بدون سبب ولا مسبب ولا إضمار ـ على شريطة التفسير ولا استئناف ـ وهو كثير جداً في القرآن الكريم وخاصة في القصص، ولا حد لمقدار ما يُحذف فيه.. ومن أمثلته قوله تعالى يحكي طرفاً من قضية يوسف عليه السلام في السجن: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٤٥-٥١]، ففي هذه الآيات الكريمة نجد الحذف في أربعة مواضع.. والمحذوف ليس حرفاً ولا كلمة مفردة

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٣)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٤)

بل كلام كثير.. وأولها عندما طلب الذي نجا من الفتيين أن يرسلوه إلى يوسف.. وتقدير المحذوف فيه: إلى يوسف فاستجابوا له فأرسلوه فلما مثل أمامه قال له.. وثانيها: بعد أن نبأه يوسف بحقيقة الرؤيا، والتقدير: فرجع إليهم فقص لهم ما قاله يوسف.. وثالثها: بعد أن طلب الملك أن يأتوه بيوسف، والتقدير: فأرسلوا ليوسف رسولاً ليأتي به إلى الملك فلما وصل إليه أعلمه بأمره قال.. ورابعها: حين عاد الرسول وأبلغ الملك رغبة يوسف، والتقدير: فلما رجع الرسول إلى الملك وأبلغه رغبة يوسف أرسل الملك إلى النسوة اللاتي قطعن أيديهن وسألهن قائلا.

قال آخر(١): بوركت.. والمحذوف في المواضع الأربعة ظاهر موضعه سهل تصوره.. إذ لا يستقيم الكلام إلا بملاحظة المحذوف، ودليل الحذف فيها أو قرينته أن هذه الأحداث يحكمها أمران هما: الترتيب الزمني بينها.. ثم التلازم الطبيعي.. أما الترتيب الزمني؛ فأمره واضح، إذ تجري أحداث هذه القصة على نسق وقوعها: السابق سابق، واللاحق لاحق، فلم يتداخل حدثان في زمن واحد.. وأما التلازم الطبيعي، فمن حيث أن هذه الأحداث ما طوي ذكره منها، وما ذكِر ولم يُطو.. بينها صلات وثيقة فبعضها مقدمة طبيعية لبعض، أو لازم له.

قال آخر(٢): بوركت.. ففي الموضع الأول لا يُتصور سؤال الرسول ليوسف عليه السلام إلا بعد تصور استجابة طلبه والإذن له بالذهاب إلى يوسف ثم الوصول إليه ومثوله أمامه.. وهذه الفجوات متروكة بلا إشارة، لأنها واقعة بين طرفين هي واسطتهما على طريقة قص المناظر في الأدب المسرحي والتمثيلي الحديث.. وما دام الفكر يهتدي إليها في يُسر وسهولة، فإن ذكرها ـ والحالة هذه ـ ليس بمستساغ.. ذلك سر الحذف.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٥)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٥)

قال آخر[1]: بوركت.. ويُضاف إلى ذلك أن أولى فنون التعبير بالإيجاز والحذف والإجمال هو القصص لأنه يعالج كثيراً من المواقف ويسرد كثيراً من الأحداث؛ فمن خصائصه أنه يحتاج إلى كثير من البيان حتى يكمل بناء القصة، وتؤدي غرضها الجمالي والأخلاقي، لذلك كانت القصة ميداناً للاختصار والحذف، وفي حاجة ماسة إلى التركيز والإجمال.. وكذلك جاء القصص القرآني.

قال المعلم: بورك فيكم.. فهل هناك مظاهر أخرى لحذف الجمل في القرآن الكريم؟

قال أحدهم[2]: أجل.. فمن ذلك حذف أداة الشرط وفعله، ويكثر هذا بعد الطلب، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، أي: إن اتبعتموني ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، أي: أن تقول لهم: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]، أي إن اتخذتم عند الله عهداً.. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] أي: إن كنتم آمنتم بما أنزل الله إليكم فلم تقتلون؟

قال آخر[3]: ومن ذلك حذف جواب الشرط، وهو كثير في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٥)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٦)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٧)

أي ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ فافعل.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥]، أي: أعرضوا.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أي: لرأيتَ أمراً عظيماً.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] أي: لعذبكم.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، فحذف جواب الشرط عام فيما كانت الأداة فيه جازمة أو غير جازمة.

قال آخر(١): ومن ذلك حذف جواب القَسَم، وهو كثير في القرآن الكريم، وقد جاء في مطالع السور خصوصا مثل قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١] و﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، و﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢].. فتقدير الجواب في الأول: لتبعثن.. وفي الثاني: إنه لمعجز ـ يعني القرآن ... وفي الثالث: ليس الأمر كما زعموا.. وفي الرابع: ليعذبن.

رابعا. الإطناب والتفصيل:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين التلاميذ الكهول ومعلمهم الشيخ، وتأثرت للمودة التي كانت تجمع بينهم.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت جمعا من عمال النظافة في الحديقة يجتمعون إلى رئيسهم، بعد أن وضعوا الأكياس التي جمعوها في محل خاص.

قال رئيسهم: أظن أن الحديقة اليوم لا تحتاج إلى تنظيف كثير؛ فالحمد لله كل

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٦٨)

الحاضرين قد تشبعوا بالمعاني القرآنية، ولذلك لا نرى أحدا منهم يرمي قمامة، أو يتسبب في أي أذى.

قال أحدهم: أجل.. ولذلك دعنا نستغل الفرصة، لنكمل أحاديثنا عن القرآن الكريم، فهي سلوانا وسعادتنا وراحتنا.

قال الرئيس: لا بأس.. فما الذي تريدون أن نتحدث فيه؟

قال أحدهم: لقد تحدثنا في مجالس سابقة عن الإيجاز والاختصار، وما يتعلق بهما، والآن نريد أن نتحدث في الإطناب والتفصيل.. فما رأيكم؟

قال الرئيس[1]: أنا أوافق على ذلك.. فهو موضوع مهم جدا.. ذلك أنه قد يكون لبعضهم شبهة، يتوهم من خلالها أن الألفاظ فيه زائدة على المعاني، وذلك غير صحيح؛ فالإطناب تكون فيه المعاني كثيرة، والألفاظ على قدرها لا زيادة فيها، بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضها، بل إنه لو أراد أحد حذف كلمة، بل حرف من كلمة لأحس بأنه قطع جزءًا من الصورة البيانية، فلا تكون الصورة كاملة بدونها.

قال أحدهم: إذا كان الإطناب مع كثرة الألفاظ على قدر المعاني؛ بحيث لا يُسْتَغْنَى بكلمة عن كلمة، والإيجاز كذلك، فما الفرق إذن بينهما، ولم يكن ثمة حاجة لأن يقسم بيان القرآن الكريم إلى إيجاز وإطناب؟

قال الرئيس: الفرق بينهما بسيط، وهو أنَّ الإيجاز يكون بحذف كلمة دلَّت القرائن عليها مع الوفاء في حذفها، كالوفاء في ذكرها، والبلاغة تكون في الحذف في مقام البيان إن كانت الدلالة قائمة، والقرائن مثبتة، ويكون في الحذف فائدة لا توجد مع ذكر المحذوف؛ كقول الله تعالى عن قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٢٣.

أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢].. فالقرية وهي مجموع المساكن والطرقات لا تسأل إنما يسأل من فيها، بل يسأل بعض من فيها، وذلك دليل على أنَّ المسئول هو البعض، فهنا إيجاز بالحذف، ولا نقص بذلك الحذف، بل فيه زيادة معنى، وهو أنَّ الأمر شائع عام للجميع، وكأن كل من في القرية يعرف حتى البنيان، والمساكن والأسواق، أي: ذلك أمر معروف، لا موضع للكذب فيه.

قال أحد العمال: عرفنا ذلك سابقا.. فما الفرق في هذا بين الإيجاز والإطناب؟

قال الرئيس[1]: حقيقة الإطناب أنَّ المعاني تكون والألفاظ على قدر واحد في الكثرة، والألفاظ بناء متكامل لا ينقص منه لبنة، ولكن الإطناب يكون متجهًا إلى تفصيل الألفاظ في الدلالة، فلا يستغني بلازم عن ملزوم، ولا بملزوم عن لازم، ولا بعامٍّ عن خاص، ولا بخاصٍّ عن عام، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ، ولا بالإشارة عن العبارة، بل كل ما يقتضيه المقام يجيء في وضوح كامل، لا يكتفي فيه بالتضمن، ولا بالإشارة ولا بالالتزام.

قال أحد العمال: هلا ضربت لنا مثالا على ذلك.

قال الرئيس: مثال ذلك في الحسيات، وإن كان لكلام الله تعالى المثل الأعلى، أن تطلب من شخص وصف قصر، فيصف أبعاده، وطوله وعرضه، وارتفاعه وزيناته، ثم يصف الغرفات غرفة غرفة، ودعائم بناء القصر، ويسترسل في وصف كأنك تراه، وهذا إطناب يكون له مقامه إذا كان لمن يريد شرائه أو سكناه.. وقد يقول في وصفه أحيانًا أنه على أكمل صورة لتصور المترفين طلاء وحلية.. ولا شك أن الأول إطناب لا زيادة فيه ما دام غير قاصد إلا لبيان ما فيه، والثاني إيجاز لا قصور فيه.

قال أحد العمال: هلا ضربت لنا مثالا على ذلك من القرآن الكريم.

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٢٦.

قال الرئيس[1]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٧-١٨]، حيث نرى هنا إطنابًا حلوًا تترطب به الألسنة والأسماع، وكان الإيجاز أن يقول هي عصاي، وبقية المعاني تفهم، ولكن محبَّة موسى عليه السلام لربه، ورغبته في أن يطيل المحادثة، صرَّح بما يفهم ضمنًا، وبما يعلمه الله تعالى من غير بيان.

ومثل ذلك ما قاله موسى عليه السلام عندما كلفه ربه أن يقوم بحق الرسالة، فقد قال راغبًا في حديثه مع ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٥-٣٥]، وهنا نجد في هذا الكلام إطنابًا في خطاب موسى عليه السلام لربه، فهو لا يكتفي بالملزوم حتى ينطق باللازم؛ لأن الخطاب محبَّب إلى نفسه؛ لأنه يخاطب ربه فيسهب في القول من غير تزيد.

وهكذا نرى أن أكثر آيات الأحكام فيها ذلك الإطناب الذي لا تزيد فيه الألفاظ عن المعاني، لأنَّها تتعرض لما يكلف الله تعالى عباده، ولا بُدَّ أن يكون ذلك واضحًا للمكلف كل الوضوح حتى لا يكون في ذلك موضع إبهام تكون فيه معذرة للمكلف، بل إنه بيان الله تعالى الشامل الذي لا إيهام فيه، ولا مظنَّة لإبهام، كما في قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٢٧.

الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩٣]

وهكذا نجد الإطناب في القصص، باعتبارها مواضع للعبرة، ولتسلية النبي ﷺ ببيان ما نزل بالأنبياء السابقين، وما لاقوا من أقوامهم، فإن الإطناب في ذلك يزيد قلب النبي ﷺ تثبيتًا وأنسًا.. بالإضافة إلى اشتمال القصص على مناقشة الأنبياء السابقين لأقوامهم، وأدلة التوحيد التي جاءت على ألسنتهم، وفيه بيان أحوال السابقين، وما كان يسيطر عليهم وعلى بيئاتهم.. ومن مواضع الإطناب مناقشة أهل الكتاب، وبيان إنكارهم، وإثبات ماضيهم الذي امتد في حاضرهم.

قال أحد العمال: بورك فيك.. والآن جاء دورك لتسألنا وتختبرنا.

١. الاعتراض:

قال الرئيس: بورك فيكم..والآن أخبروني عن لون من ألوان التعبير القرآني يمكن اعتباره نوعا من أنواع الإطناب، يطلق عليه لقب [الاعتراض]

قال أحد العمال[1]: هو من الأساليب القرآنية الجميلة.. وهو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى، بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه، ولا يفوت بفواته، ليكون فاصلا بين الكلام والكلامين، لفائدة خاصة.. أو هو إرادة وصف شيئين: الأول منهما قصدا، والثاني بطريق الانجرار، وله تعليق بالأول بضرب من التأكيد.. أو هو ـ كما يذكر النحاة ـ جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد.

قال الرئيس: فهلا ذكرت لنا مثالا يوضح ذلك.

قال العامل: من أمثلته قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٣٥)

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة اعتراضية.

قال الرئيس: فاذكروا لي الآن أسباب الاعتراض وفوائده.

قال أحد العمال: من أسبابه تقرير الكلام، كقولنا: فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل.. ورأى من الرأي كذا وكان صوابا.. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، فـ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ اعتراض يفيد تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، فـ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ اعتراض له فائدته الواضحة.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] فقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ اعتراض يفيد تقرير كلامها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، فقوله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اعتراض.

قال آخر[١]: من أسبابه قصد التنزيه، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، فاعتراض ﴿سُبْحَانَهُ﴾ لغرض التنزيه والتعظيم، وفيه الشناعة على من جعل البنات لله.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٣٦)

قال آخر: ومنها قصد التبرك، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، فاعتراض ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ للتبرك.

قال آخر: ومنها قصد التأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]، ففيها اعتراضان.. اعترض بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ بين القسم وجوابه، واعترض بقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الصفة والموصوف، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم، وتأكيد إجلاله في النفوس، لا سيما بقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: ٢٩-٣١] فـ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ اعتراض.

قال آخر: ومنها تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد على أمر علق بهما، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فاعترض بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وفائدة ذلك إذكار الولد بما كابدته أمه من المشقة في حمله وفصاله، فذكر الحمل والفصال يفيد زيادة التوصية بالأم، لتحمّلها من المشاق والمتاعب في حمل الولد ما لا يتكلفه الوالد، ولهذا جاء في الحديث التوصية بالأم ثلاثا، وبالأب مرة.

قال آخر(١): ومنها زيادة الردّ على الخصم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٣٧)

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣]، فقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وفائدته أن يقرّر في أنفس المخاطبين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك الأنفس لم يكن نافعا لهم في إخفائه وكتمانه، لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]، فاعترض بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم فجعل الجواب اعتراضا.

قال آخر[١]: ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فإذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٥-٤٩]، فقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ اعتراض في أثناء الكلام، وذلك لأن قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا﴾ سبب عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ على معنى أنهم يشمئزّون من توحيد الله تعالى، ويستبشرون بالشرك الذي هو ذكر الآلهة؛ فإذا مسّ أحدهم ضرّ أو أصابته شدّة تناقض في دعواه، فدعا من اشمأز من ذكره وانقبض من توحيده ولجأ إليه دون الآلهة، فهو اعتراض بين السبب والمسبب، فقيّد القول بما فيه من دعاء النبي ﷺ بأمره بذلك، وبقوله ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ ثم عقبه من الوعيد العظيم أشدّ التأكيد

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٣٧)

وأعظمه وأبلغه، ولذلك كان اتصال قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] للسبب الواقع فيها.

قال آخر[١]: ومنها الإدلاء بالحجة كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، فاعترض بقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إظهارا لقوة الحجة عليهم.

٢. الاحتراس:

قال الرئيس: بورك فيكم..والآن أخبروني عن لون من ألوان التعبير القرآني الكريم يمكن اعتباره نوعا من أنواع الإطناب، يعبر به لدفع الأوهام التي قد تنجر عما قبله من كلام.

قال أحد العمال[٢]: تقصد [الاحتراس]، ويعبر به عندما يكون الكلام محتملا لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال كقوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص: ٣٢]، فاحترس سبحانه بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عن إمكان أن يدخل في ذلك البهق والبرص.

ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة وهو السهولة لتوهّم أن ذلك لضعفهم، فلما قيل: أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ علم أنها منهم تواضع ولهذا عدّى الذل بعلى لتضمنه معنى العطف.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٣٩)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٣)

رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]

قال آخر[١]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ احتراس بيّن أنّ من عدل سليمان عليه السلام وفضله وفضل جنوده أنّهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألّا يشعروا بها.. وقد قيل: إنما كان تبسم سليمان سرورا بهذه الكلمة منها ولذلك أكّد التبسم بالضحك لأنهم يقولون: تبسّم كتبسم الغضبان، لينبه على أن تبسمه تبسم سرور.

قال آخر[٢]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فقوله: ﴿تُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ التفات إلى أنهم لا يقصدون ضرر مسلم.

قال آخر[٣]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فإنه سبحانه لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان، عقّبهم بالدعاء عليهم، ووصفهم بالظلم، ليعلم أن جميعهم كان مستحقّا للعذاب، وهو احتراس من ضعف يوهم أنّ الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب فلما دعا على الهالكين، ووصفهم بالظلم علم استحقاقهم لما نزل بهم وحل بساحتهم، مع قوله أولا: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٣)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٣)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٣)

[هود: ٣٧]

قال آخر[١]: ومثل ذلك قوله تعالى مخاطبا نبيّه ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، فلما نفى سبحانه عن رسوله ﷺ أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى عليه السلام فيه الأمر عرّف المكان بالغربيّ، ولم يقل في هذا الموضع ﴿الْأَيْمَنِ﴾ كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] أدبا مع النبي ﷺ أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن، أو يسلب عنه لفظا مشتقّا من اليمن، أو مشاركا لمادته، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفا لموسى عليه السلام فراعى في المقامين حسن الأدب معهما، تعليما للأمة، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب.

قال آخر[٢]: ومثل ذلك قوله تعالى مخاطبا نبيّه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فإنه لو اختصر لترك: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ لأن سياق الآية لتكذيبهم في دعوى الإخلاص في الشهادة، لكن حسن ذكره لرفع توهم أن التكذيب للمشهود به في نفس الأمر.

قال آخر[٣]: ومثل ذلك قوله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يذكر الجبّ مع

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٣)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٤)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٤)

أن النعمة فيه أعظم من السجن، لئلا يستحيي إخوته، والكريم يغضي ولا سيّما في وقت الصفاء.. ولأن السجن كان باختياره، فكان الخروج منه أعظم، بخلاف الجب.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، والسقف لا يكون إلا من فوق، لأنه سبحانه رفع الاحتمال الذي يتوهم من أن السقف قد يكون من تحت بالنسبة، فإن كثيرا من السقوف يكون أرضا لقوم وسقفا لآخرين، فرفع تعالى هذا الاحتمال بقوله: ﴿عَلَيْهِمُ﴾، ولفظة ﴿فَخَرَّ﴾ لأنها لا تستعمل إلا فيما هبط أو سقط من العلوّ إلى سفل.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] لأنه لمّا كان يحتمل معنى (كيف) و(أين) احترس بقوله: ﴿حَرْثَكُمْ﴾ لأن الحرث لا يكون إلا حيث تنبت البذور، وينبت الزرع، وهو المحل المخصوص.

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وذلك لأن الاشتراك في المصيبة يخفف منها، ويسلي عنها فأعلم سبحانه أنه لا ينفعهم ذلك.

٣. التذييل:

قال الرئيس[4]: بورك فيكم..والآن أخبروني عن لون من ألوان التعبير القرآني يمكن اعتباره نوعا من أنواع الإطناب، يؤتى به بعد تمام الكلام، ويكون بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقا لدلالة منطوقه أو مفهومه ليكون معه كالدليل، ليظهر المعنى عند من لا

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٤)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٥)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٥)

(٤) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٦)

يفهم، ويكمل عند من فهمه.

قال أحد العمال[1]: تقصد [التذييل]، فهو الذي ينطبق عليه ما ذكرت.

قال الرئيس: أجل.. ولو أني أحب أن أطلق عليه لقب [التعقيب]، فهل لكم أن تذكروا لي أمثلة عنه، وعن غاياتها وأثرها في جمال التعبير وكماله.

قال أحد التلاميذ: أجل.. فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]، فقوله: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ تذييل، أي هل يجازي ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلا الكفور؛ فإن جعلنا الجزاء عاما كان الثاني مفيدا فائدة زائدة.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].. فقوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تذييل.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ تذييل.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، فقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تذييل.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٦)

[القصص: ٤]، وقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨] تذييل، ويصح أن يكون تعليلا.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، فقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ تذييل، أي فذلك شأن الأمم مع الرسل.

٤. التتميم:

قال الرئيس: بورك فيكم..والآن أخبروني عن لون من ألوان التعبير القرآني يمكن اعتباره نوعا من أنواع الإطناب، يؤتى به بعد أن يتم الكلام؛ فيلحق به ليكمّله، إما مبالغة، أو احترازا، أو احتياطا.. أو هو أن يأخذ في معنى، فيذكره غير مشروح وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلّم إليه شارحا.

قال أحد العمال: إنه ما يطلق عليه [التتميم]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، فالتتميم في قوله: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾، فقد جعل الهاء كناية عن الطعام مع اشتهائه.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].. وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميم في غاية الحسن.

٥. التعليل:

قال الرئيس: بورك فيكم..والآن أخبروني عن لون من ألوان التعبير القرآني يمكن اعتباره نوعا من أنواع الإطناب، يطلق عليه لقب [التعليل]

قال أحد العمال: التعليل هو بيان الحكمة الإلهية من وراء ما ورد في الآية الكريمة، ذلك أن كل ما ورد في القرآن الكريم معلل بما ينسجم مع العقول والفطر السليمة، ولهذا أخبر الله تعالى عن سؤال الملائكة عليهم السلام عن الحكمة من جعل الخليفة، ولم ينكر عليهم سؤالهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].. ولو كان فعله سبحانه مجردا عن الحكم والغايات لم يسأل الملائكة عن حكمته، ولم يصحّ الجواب بكونه يعلم ما لا يعلمون من الحكمة والمصالح.

قال آخر: وقد أخبر الله تعالى عن كون كتابه الكريم يهدف إلى تحقيق المصالح المختلفة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]

قال آخر: وقد صرحت بذلك آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]

قال الرئيس: فما هي المسالك التي اعتمدها القرآن الكريم للتعليل؟

قال أحد العمال[١]: هي كثيرة، فقد جاء التعليل في القرآن الكريم بالباء تارة، وباللام تارة، وبأن تارة، وبمجموعها تارة، وبكي تارة، ومن أجل تارة.. وبترتيب الجزاء على الشرط تارة، وبالفاء المؤذنة بالسببية تارة، وبترتيب الحكم على الوصف المقتضي له تارة، وبلمَّا تارة، وبأنَّ المشددة تارة، وبلعلَّ تارة، وبالمفعول له تارة.

قال الرئيس: فهلا ضربتم لي أمثلة على ذلك؟

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٣٣٣)

قال أحد العمال[1]: من الأمثلة على ذلك أنه قد يذكر الحكم الكونيّ أو الشرعيّ عقب الوصف المناسب له، فتارة يذكر بأن، وتارة بالفاء، وتارة يجرّد.. فالأول كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٦].. والثاني، كقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]؛ فإذا تحققت جريمة الزنى تعيَّن العقاب، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].. والثالث كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]

قال آخر[2]: ومثل ذلك قد يرد تعليل عدم الحكم بوجود المانع منه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي آيات الاقتراح، لا الآيات الدالّة على صدق الرسل التي تأتي منه سبحانه ابتداء.. وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٧٢)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٧٢)

وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].. وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، فأخبر سبحانه عمّا يمنع من إنزال الملك عيانا بحيث يشاهدونه، وإنّ عنايته وحكمته بخلقه اقتضت منع ذلك بأنه لو أنزل عليه الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا به لعوجلوا بالعقوبة، وجعل الرسول بشرا ليمكنهم التّلقّي عنه والرجوع إليه، ولو جعله ملكا فإمّا أن يدعه على هيئته الملكية، أو يجعله على هيئة البشر والأول يمنعهم من التلقّي عنه، والثاني لا يحصل مقصوده إذا كانوا يقولون: هو بشر لا ملك.

قال آخر[1]: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بذكر الحكم والغايات التي جعلها في خلقه وأمره، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦-٧]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠-٨١]

قال آخر: ومثل ذلك قد يذكر مع الحكم سبباً مقروناً بحرف السببية، كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]؛ فإن الآية الكريمة صرحت بسبب

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٧٣)

العقوبة، وما يترتب عنها من حفظ الدماء، ورد الاعتداء.

قال آخر(١): ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بكي، كما في قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، فعلّل سبحانه قسمة الفيء بين هذه الأصناف كيلا يتداوله الأغنياء دون الفقراء.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، فقد أخبر أنه قدّر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن تبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه وأنّه هين عليه، وحكمته البالغة التي منها ألّا يحزن عباده على ما فاتهم، ولا يفرحوا بما آتاهم، فإنهم إذا علموا أنّ المصيبة فيه مقدّرة كائنة، ولا بدّ قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه ولم يفرحوا.

قال آخر(٢): ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بذكر المفعول له، فهو علة للفعل المعلّل به، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]

قال آخر(٣): ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بذكر اللام في المفعول

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٨)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٨)

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٩)

له، والتي تقوم مقامه الباء، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].. أو تقوم مقامه (من)،، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].. أو الكاف، نحو قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

قال آخر[١]: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بإنّ، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].. وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].. وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].. وقوله: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].. وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦]، فليس هذا من قولهم، لأنه لو كان قولهم لما حزن الرسول ﷺ، وإنما جيء بالجملة لبيان العلة والسبب في أنه لا يحزنه قولهم.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، ولهذا؛ فإن الوقف على القول في هاتين الآيتين والابتداء بإنّ لازم.

قال آخر[٢]: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بـ ﴿من أجل﴾، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، فإنه لتعليل الكتب.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٩)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٩)

قال آخر[1]: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بلعلّ، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وهو تعليل لقوله: ﴿اعْبُدُوا﴾ أو لقوله:﴿خَلَقَكُمْ﴾.. ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وحيث لمح فيها معنى الرجاء رجعت إلى المخاطبين.

قال آخر: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التعليل بلام العلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].. وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].. وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]

قال آخر[2]: وقد ذكر المفسرون أنه حيث دخلت واو العاطف على لام التعليل، فهو إما أن يكون تعليلا معلّله محذوف، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]، فالمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ذلك.. أو أن يكون معطوفا على علة أخرى مضمرة، ليظهر صحة العطف، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]، والتقدير في الآية: ليستدلّ بها

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٩)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٦٨)

المكلف على قدرته تعالى ولتجزى، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].. والفرق بين الوجهين أنه في الأول عطف جملة على جملة، وفي الثاني عطف مفرد على مفرد.. وقد يحتمل الكلام كلا العلتين، كقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فالتقدير على الأول، ولنجعله آية فعلنا ذلك، وعلى الثاني: ولنبين للناس قدرتنا ولنجعله آية.. وفائدة هذا الأسلوب هو أن يجاء بالعلّة بالواو للاهتمام بشأن العلة المذكورة، لأنه إمّا أن يقدّر علة أخرى ليعطف عليها، فيكون اختصاص ذكرها لكونها أهمّ، وإما أن يكون على تقدير معلل فيجب أن يكون مؤخرا ليشعر تقديمه بالاهتمام.

قال الرئيس: بورك فيكم.. فما الفرق بين لام العاقبة ولام التعليل والحكمة؟

قال العامل: لام العاقبة ترد في حق من يجهل العاقبة، كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]، وأما من هو بكل شيء عليم فمستحيلة في حقه، وإنما اللام الواردة في أحكامه وأفعاله لام الحكمة والغاية المطلوبة من الحكمة.. ولهذا فإن قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]} (القصص: ٨) هو تعليل لقضاء الله بالتقاطه وتقديره لهم، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم وحسرة عليهم.

خامسا ـ التكرار والتثبيت:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين عمال النظافة في الحديقة ورئيسهم، وتأثرت لتلك المعارف الكثيرة التي كانت تخزنها عقول وقلوب أولئك العمال البسطاء الطيبين، والتي غرسها فيهم حبهم للقرآن الكريم.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت جمعا من الفتيات الصغيرات متفرقات بين الزهور، كل فتاة تكرر مقاطع من

القرآن الكريم، ويبدو أن ذلك كان لأجل حفظه.

ما هي إلا فترة وجيزة حتى اجتمعن إلى صديقة لهن، كانت تشبه الأزهار في جمالها وصفاء نفسها، وكان الفتيات ينادونها زهراء.. وقد ذكرتني رؤيتها واسمها ببضعة رسول الله ﷺ تلك التي توفيت في عمر الزهور، بعد أن ملأت الدنيا بعبيق عطرها.. ولذلك رغبت في أن أجمع بين رؤيتها وسماع حديثها.

بعد أن اجتمع الفتيات، قالت إحداهن: نحن نعجب كثيرا من ذاكرتك العجيبة يا زهراء.. وقد حاولنا أن نطبق كل ما تذكرين لنا من نصائح لحفظ كلام ربنا لكنا لم نفلح، فنحن نحتاج إلى التكرار الكثير لتثبيت ما نحفظه.

قالت زهراء: لا بأس.. ستتمرن ذاكرتكن بمرور الأيام.. وسيصير حفظكن لكلام الله أيسر وأسهل.. لكن فقط تذكروا جيدا الجمع بين الحفظ والتدبر.. فما أنزل القرآن الكريم لنحفظه فقط، وإنما لنتدبره ونعيش معانيه.. ولا تنسين كذلك أن ترتلن آياته بحب وعشق وهيام.. فهي كلمات الله العظيم.. وليست كأي كلمات.

قالت إحداهن: بورك فيك يا صديقتنا العزيزة.. فأنت من أنقذتنا من تلك الغفلة التي كنا نعيش فيها، والتي جعلتنا نبتعد عن هذا العالم الجميل الذي صرنا إليه.

قالت أخرى: بعد أن استمعنا لكل أحاديثك الجميلة عن القرآن الكريم، نريد منك هذه المرة أن تختبرينا فيها.. وفي اجتهادنا في فهمها واستيعابها.

قالت زهراء: ذلك جميل جدا.. ما رأيكن في أن يكون موضوع حديثنا عن التكرار في القرآن الكريم، فهو متناسب تماما مع ما كنتن تقمن به.

قلن جميعا: أجل.. نحن موافقات على ذلك.

قالت زهراء: ما رأيكن فيمن يذكر بأن التكرار لغو، وأنه لا فائدة فيه، وأنه مجرد

حشو؟

قالت إحداهن: هو كلام صحيح جدا.. فالتكرار الذي لا يفيد فائدة جديدة لغو وحشو وتضييع للوقت.. ولكن الذي يفيد فائدة جديدة، لا يمكن اعتباره كذلك، بل يمكننا ألا نعتبره تكرارا..

قالت زهراء: كيف ذلك؟

قالت الفتاة: مثلا هذه الزهور التي نراها، قد تتفق في كثير من الألوان والأشكال، لكنها مع ذلك ليست مكررة، لأن لكل زهرة شكلها الخاص بها.

قالت أخرى: وهكذا الألوان التي نراها هي مكررة في الكثير من المشاهد.. لكنها تعطي لكل مشهد صورته الخاصة التي يختلف بها عن غيره.

قالت أخرى: وهكذا نحن نستعمل حروفا معدودة ونكررها.. لكن كل حرف يشكل مع إخوانه من الحروف معاني خاصة في كل موضع يكون فيه.

قالت زهراء: هذا عن الإجمال.. فماذا عن التفصيل.

قالت إحداهن[1]: عندما نتدبر ظاهرة التكرار في القرآن الكريم نجدها تقع على وجوه، فمرة يكون المكرر أداة تؤدى وظيفة في الجملة بعد أن تستوفى ركنيه الأساسيين.. وأخرى تتكرر كلمة مع أختها لداع، بحيث تفيد معنى لا يمكن الحصول عليه بدونها.. أو فاصلة تكرر في سورة واحدة على نمط واحد، أو قصة تتكرر في مواضع متعددة مع اختلاف في طرق الصياغة وعرض الفكرة، أو بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصح مما يقرر حكماً شرعيا أو يحث على فضيلة أو ينهى عن رذيلة أو يرغب في خير أو ينفر من شر.

١. تكرار الألفاظ:

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢١)

قالت زهراء: فحدثوني عن تكرار الكلمة.

قالت إحداهن: من أنواع تكرار الألفاظ في القرآن الكريم تكرار اللفظ بما يقربه ويؤكده ويثبته مثل قوله تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]

قالت أخرى: ومنها تكرار الكلمة عينها، إما في الاسم كقوله تعالى: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].. أو في الفعل، كقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].. أو في اسم الفعل، كقوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦].. أو في الحرف، كقوله: ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨].. أو في الجملة، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥،٦].. ومن هذا النوع تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل، كقوله: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، والمنفصل بمثله، كقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

قالت أخرى(١): ومنها تكرار الأداة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، ففي الآيتين الكريمتين تكرار ﴿إنّ﴾، والظاهر يقتضي الاكتفاء ب ﴿إنّ﴾ الأولى، لكن هذا الظاهر خولف وأعيدت ﴿إنّ﴾ مرة أخرى.. والسبب هو طول الفصل بين ﴿إنّ﴾ الأولى وخبرها.. لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما حقها أن تكون عليه من التوكيد.

بالإضافة إلى ذلك؛ فإننا لو قرأنا هاتين الآيتين دون أن نكرر فيهما ﴿إنّ﴾ ثم تلوناهما بتكرارها مرة أخرى لظهر الفرق بين الحالتين: ضعف في الأولى، وتناسق وقوة في الثانية.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٢)

قالت أخرى: ومثل ذلك ما ورد من التكرار في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]

قالت أخرى: وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

قالت أخرى: وقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

قالت أخرى: وقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]

قالت أخرى: وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]

قالت أخرى[1]: ومثل ذلك تكرار الكلمة مع أختها، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥]، فقد تكررت ﴿هم﴾ مرتين، الأولى مبتدأ خبرها: ﴿الأخسرون﴾، والثانية ضمير فصل جيء به لتأكيد النسبة بين الطرفين.

قالت أخرى[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٣)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٣)

الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، فقد تكررت ـ هنا ـ ﴿أولئك﴾ ثلاث مرات، ولم تجد لهذه الكلمة المكررة مع ما جاورها إلا حسناً وروعة.. فالأولى والثانية: تسجلان حكماً عاماً على منكري البعث: كفرهم بربهم وكون الأغلال في أعناقهم.. والثالثة: بيان لمصيرهم المهين، ودخولهم النار، ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يعقبه خروج منها.. ولو أسقطت ﴿أُولئكَ﴾ من الموضعين الثاني والثالث لرك المعنى واضطرب، فتصبح الواو الداخلة على: ﴿الأغْلَالُ في أَعْنَاقِهِمْ﴾ واو حال، وتصبح الواو الداخلة على: ﴿أَصْحَابُ النارِ هُمْ فَيهَا خَالِدُونَ﴾ عاطفة عطفاً يرك معه المعنى.. لذلك حسن موضع التكرار في الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته، وتأكيد النسبة في المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم.

قالت أخرى: ومثل ذلك تأكيد الفعل بمصدره، وهو عوض عن تكرار الفعل مرتين، وفائدته دفع توهم المجاز في الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقوله: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠]

قالت أخرى: والأصل في هذا النوع أن ينعت الوصف المُراد؛ كقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقد يضاف وصفه إليه، كقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقد يؤكد بمصدر فعل آخر، كقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، أو اسم عين نيابة المصدر، كقوله: ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]؛ أي: إنباتًا؛ إذ النبات اسم عين، والحال المُؤكدة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]

قالت زهراء: بورك فيكن؛ والآن حدثوني عن الفواصل القرآنية التي وردت مكررة في القرآن الكريم من أمثال التكرار الوارد في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:

قالت إحداهن[١]: نلاحظ أن هذه العبارة المكررة في سورة القمر ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قد صاحبت في كل موضع من مواضع تكرارها قصة عجيبة الشأن؛ فأول موضع لها عقب قصة قوم نوح عليه السلام، فبعد أن صوَّرت السورة مظاهر الصراع بينهم وبين نوح عليه السلام ثم انتصار الله له عليهم.. ولكي تبقى هذه القصة موضع عظة وادكار، ولتلفت إليها الأنظار، وللتهويل من شأنها، جاء قوله تعالى عقبها: ﴿فَكَيْف كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مُصدراً باسم الاستفهام ﴿كيف﴾ للتعجيب مما كان، وقد مهَّد لهذا التعجيب بالآية السابقة عليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]

قالت أخرى: والموضع الثاني لذكرها حين قصَّت علينا السورة قصة عاد وعتوها عن أمر ربها، وفي عاد هذه نجد العبارة اكتنفت القصة بدءاً ونهاية، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨-٢١]، وتكرار العبارة ـ هكذا ـ في البداية والنهاية مخرج لها مخرج الاهتمام..

قالت أخرى: والموضع الثالث الذي ذكِرت فيه هذه العبارة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِ وَنُذُرِ﴾ في قصة ثمود، وقد جاءت فيها كذلك مهيئة لتلقي صورة العقاب بعد التشويق إليها عند السامع، ولفت نظره إليها: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣٠-٣١]

قالت أخرى: ومن هنا ندرك شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار، فليست إحدى العبارات في موضع بمغنية عن أختها في الموضع الآخر، إنما هو اتساق عجيب تطلبه المقام

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٥)

من كل النواحي.

قالت أخرى: وقد مهَّد القرآن الكريم لهذا التكرار حيث لم يأت إلا بعد خمس عشرة آية تنته كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحرف [الراء] مع التزام تحريك ما قبلها، وذلك هو نهج فواصل السورة كلها، وقد أشاع هذا النسق الشاجي نوعاً من الموسيقى الصاخبة العنيفة التي تتلاءم مع جو الإنذار أيما تناسب.

قالت أخرى: بالإضافة إلى هذا، فقد ورد تكرار آخر في سورة القمر، هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، حيث ورد في السورة أربع مرات، وهي دعوة صَالحة للتأمل فيما يسوقه الله من قصص.

قالت زهراء: بورك فيكن؛ والآن حدثوني عن أسرار التكرار الوارد في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، حيث ذُكر فيها إحدى وثلاثين مرة.

قالت إحداهن[1]: التكرار الوارد في سورة الرحمن هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن الكريم على الإطلاق، وقد مُهِّدَ له في كل موضع تمهيداً رائعاً.. حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية متحدة الفواصل، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة ﴿الميزان﴾ ثلاث مرات متتابعة دونما نبو أو ملل: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]، وهذا التمهيد قد أشاع لحناً موسيقياً عذباً كان بمثابة مقدم طبيعية لتلاؤم صور التكرار ولتألفها النفس وتأنس بها فلا تهجم عليها هجوما، لأن القرآن الكريم قد راعى في فواصل المقدمة التمهيدية ما انبنت عليه فواصل الآي المكررة.

قالت أخرى[2]: الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النعَم على الثَقَلين

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٨)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٩)

من الإنس والجن، وبعد كل نعمة أو نعَم يعددها الله تأتي هذه العَبارة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وعلى هذا الأساس يمكن بيسر فهم عِلَّة التكرار الذي حفلت به سورة الرحمن، فهو تذكير وتقرير لنعمه، وأنها من الظهور بمكان فلا يمكن إنكارها أو التكذيب بها، فتكرار الفاصلة يفيد تعداد النِعَم، والفصل بين كل نعمة وأخرى لأن الله سبحانه عدد في السورة نعماءه وذكر عباده بآلائه، ونبههم على قدرها وقدرته عليها ولطفه فيها، وجعلها فاصلة بين كل نعمة لتعرف موضع ما أسداه إليهم منها.

قالت أخرى[1]: بالإضافة إلى ذلك، فإن فيها إلى ذلك معنى التبكيت والتقريع والتوبيخ، لأن تعداد النِعَم والآلاء من الرحمن تبكيت لمن أنكرها كما يبكت منكر أياد النعَم عليه من الناس بتعديدها.

قالت زهراء: ولكن هذه الفاصلة مع ذلك قد تكررت بعد ما هو ليس بنعمة من وعيد وتهديد، فكيف يستقيم ما ذكرتن بعد هذه الآيات: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإذا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥-٤٥]، فظاهر هذه الآيات بلاء وانتقام، وليس بنِعَم؟

قالت إحداهن[2]: لكن المتأمل يدرك أن في الإنذار والوعيد وبيان مآل الضالين عصمة للإنسان من الوقوع فيما وقعوا فيه فيكون مصيره مصيرهم، ومن هذا الاعتبار يتبين أن هذه المواضع مندرجة تحت النعَم، لأن النعم نوعان: إيصال الخير، ثم دفع الشر،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٢٩)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٣٠)

والسورة اشتملت عَلى كلا النوعين؛ فلذلك كررت الفاصلة.

قالت زهراء: بورك فيك؛ والآن حدثوني عن أسرار التكرار الوارد في سورة المرسلات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، والتي وردت في إحدى عشر موضعا.

قالت إحداهن(١): لقد مُهد لتلك الفاصلة بما يتناسب معها مثلما هو الحال في سورة القمر وسورة الرحمن، بَيْدَ أن التمهيد يختلف هنا، حيث اشتمل على مجموعتين من الآيات أولاهما لها فاصلة تختلف عن ثانيتهما وهي: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ١-٦]، وختمت هذه المجموعة بقفلة هي سر الجمال كله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]، فما قبلها مُقْسَم به، وهي جواب القَسَم.. والمقْسَم به متعدد كأجزاء الشرط إذا بدئت بها السور.

قالت أخرى(٢): وبجواب القَسَم تنتهى المجموعة الأولى، ثم تبدأ المجموعة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٨-١٥].. وهذه المجموعة تتكون من شرط يتكرر أربع مرات محذوف الجواب، وكله حديث عن أهوال القيامة ومقدمات البعث.. ومن استفهام يعتبر مدخلاً لحقيقة هامة تقودنا إلى الهدف المنشود، وهو التوصل إلى مصير المكذبين يوم الدين.. ومن جواب هذا الاستفهام الذي اشتمل على كلمة: ﴿يوم الفصل﴾، وهذه الكلمة هي الشعاع الذي يقود إلى الساحة الكبرى: ساحة القضاء العادل والقصاص الحكيم: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٢-١٥].. فهذا التمهيد

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٣١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٣١)

الحكيم هو الذي مهّد لهذه العبارة، حتى لكأنها هي المقصودة.

قالت أخرى: ثم تكررت هذه الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات بعد هذه المرة، وهي في كل مواضعها تتلو مشهداً من مشَاهد القيامَة، وصورة من صور الحشر، أو مشاهد القُدرة الإلهية.

قالت أخرى: أما السبب العام الذي اقتضى هذا التكرار، فإن الآية أعقبت ما من شأنه أن يكون أكبر داع من دواعي الإيمان والتصديق، بحيث يكون الخارج عن هذا السلوك والمكذب به صائراً ـ لا محالة ـ إلى الويل، والعذاب الأليم.. فويل للمكذبين بيوم الفصل.. وويل للمكذبين بهلاك المجرمين.. وويل للمكذبين بقُدرة الله وتقديره أرزاق الخلق.. وعلى هذا المنهج يمضي التكرار في السورة كلها.

قالت زهراء: بورك فيكن؛ والآن حدثوني عن أغراض التكرار التي وردت في الآيات التي ذكرتموها وغيرها.

قالت إحداهن: عندما نتدبر التكرار الوارد في القرآن الكريم نجد أن غرضه الأكبر ليس التأكيد؛ لأنه وقع في تكرار التأسيس، وهو أبلغ من التأكيد؛ فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز؛ ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤] بعد ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣] تأسيسٌ لا تأكيدٌ؛ لأنه أبلغ في الإنشاء، وفي ﴿ثم﴾ تنبيهٌ على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨].. وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩-٢٠].. وقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].. وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَّ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]

قالت أخرى: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن غرض التكرار زيادة التنبيه على ما ينفي التهمةَ؛ ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩]، فإنه كرر فيه النداء لذلك.

قالت أخرى: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن التكرار يأتي في مقام التعظيم والتهويل؛ كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣]، وقوله: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] وقوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]

قالت أخرى: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن التكرار يأتي في مقام الوعيد والتهديد؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، فذكر ﴿ثم﴾ في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغُ من الأول، وفيه تنبيهٌ على تكرر ذلك مرةً بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغييرٌ، بل هو مستمر دائمًا.

قالت أخرى: بالإضافة إلى ذلك؛ قد يأتي للتعجُّب؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨-٢٠]

قالت أخرى: بالإضافة إلى ذلك؛ قد يرد لتعدُّد المتعلق؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] فإنها وإن تعددت فكل واحدٍ منها متعلقٌ بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثَّقَلينِ من الإنس والجن، وعدَّد عليهم نِعَمَه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلًا من فصول النِّعم، طلب إقرارَهم، واقتضاهم الشكر عليه، وهي أنواعٌ مختلفةٌ، وصورٌ

شتَّى.

قالت أخرى: بالإضافة إلى ذلك؛ فإن اللغة العربية ـ ومثلها سائر اللغات ـ لا تستنكر التكرار الذي قد يساق لفائدة التأكيد والتنبيه ونحوها، ومن أمثلة ذلك قول الخنساء وهي ترثى أخاها صخرا[١]:

وإن صخرا لوالينا وسيدنا ... وإن صخرا إذا نشتو لنحار

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

قالت زهراء: بورك فيكن جميعا.. وأحب أن أضيف إلى ما ذكرتن شيئا آخر قد يستحسن ذكره مع مثيري الشبهات..

قالت الفتيات: هذا ما نحتاجه..

قالت زهراء[٢]: لعلكم سمعتم بما يطلق عليه (علم صناعة العادات)

قالت إحداهن: أجل.. فثمة أطروحات كثيرة بشأنه، ذلك أنه يبحث في كيفية التحكم في سلوك الناس وصنع عاداتهم.

قالت زهراء: فهذا العلم يعتمد لتحقيق ذلك وسيلة التكرار.. تكرار الطلب، وتكرار المعلومة، وصناعة النموذج والمثل والقدوة وتكرار عرضه.

قالت إحداهن: بالفعل.. فبفعل التكرار تم التأثير في أكثر الشعوب المعاصرة.. فقد تم التحكم فيما تأكل، وتشرب، وتلبس، وتسمع، وتشاهد، وتتحدث فيه من موضوعات، بل وما تفكر فيه وتكتب فيه.. وبسبب امتلاك الناس لوسائل التواصل التكنولوجية الحديثة سَهُلَ صنع العادات حتى أصبح كثير من البشر بلا عقل.. ولهذا نرى إصرار الشركات

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ٤/ ١٥٥.

(٢) انظر مقالا بعنوان: لماذا تتكرر القصص والأفكار في القرآن الكريم بأكثر من موضع؟ محمد جلال القصاص.

العابرة للقوميات على التكرار في الإعلانات وفي تصميم المطاعم، ذلك أن هدف التكرار تثبيت عادة من العادات، أو صنع عادة جديدة.

قالت زهراء: ولهذا؛ فإن التكرار في القرآن الكريم وفي الشعائر التعبدية مقصود لصنع عادات الإنسان.. ففي القرآن الكريم عدد محدود من القصص تمثل كل قصة نموذجًا محددًا، ويتم التكرار غير المخل، وتكرار فيه إضافة باعتبار السياق، أو فيه تأكيد على معنى محدد، وفيه إظهار لبيانٍ بهيٍ عطرٍ عالٍ منفردٍ آخاذ، وتكون المحصلة أن الذي يقرأ كتاب الله كاملا يمر عشرات المرات على عدد محدود من المفاهيم والقيم المركزية والقصص الهادفة التي تثبت هذه المفاهيم، والنماذج المثالية، وهم الأنبياء عليهم السلام وتابعيهم من ناحية، والشياطين ومن تبعه من ناحية أخرى، والتي تمثل هذه القيم في أوضح صورها؛ ومن ثم يحدث تنميط للشخصية.

قالت إحداهن: بورك فيك.. وما ذكرته أحسن جواب للذين يسيئون فهم غرض التكرار في القرآن الكريم لتوهمهم أنه كسائر الكتب هدفه إيصال المعلومات والمعارف وحشو الذهن بها، لا التأثير في الإنسان وتربيته وتزكيته وهدايته.

٢. تكرار المعاني:

قالت زهراء: بورك فيكن؛ حدثتموني عن تكرار الألفاظ والعبارات؛ فحدثوني الآن عن تكرار المعاني.. وخاصة ما يرتبط بالقصص القرآني.

قالت إحداهن[١]: القصص القرآني في جملته مسوق لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين السائرين على نهجه في كل الأجيال، وتثبيت أفئدتهم، وذلك ما يقتضي تثبيت تلك المعاني وتأكيدها، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٣٢)

هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].. بالإضافة إلى تهديد وزجر المخالفين، وبيان مصير أمثالهم، علهم يرتدعون ويقلعون عن غيهم.. بالإضافة إلى المعاني الإيمانية والتربوية الكثيرة الأخرى.. وكل ذلك يستدعي التكرار والتثبيت، لأن الغرض ليس المعلومات، وإنما المعاني النفسية المنجرة عنها.

قالت أخرى(١): ومع هذا المقتضى المنطقي؛ فإن تكرار القصة في القرآن لم يكن على نمط واحد، فهناك فروق بين مواضع التكرار، فلم تكرر قصة واحدة على وجه واحد في الصياغة أو الفكرة أو فيهما معاً.. فهناك اختلاف في الصياغة، وهناك اختلاف في الطول والقصر، وهناك اختلاف في الأحداث التي تتناولها، وطريقة عرض تلك الأحداث.. وهي بهذا جديدة متجددة دائماً، ولا مدعاة فيها للسآمة والملل، بل فيها روح وطرافة.

قالت أخرى(٢): بالإضافة إلى ذلك؛ فإن المعاني التي تتحدث عنها القصة القرآنية لم تكن لمجرد التسلية، ولكنها حقائق يُراد إثباتها لتؤدي دورها في كل عصر، متى توافرت دواعيها، كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله: (يُحولَ المكرر إلى معتقد).. ولذلك كان التكرار وسيلة من أهم وسائل التربية والتثقيف.

قالت أخرى(٣):قصص القرآن الكريم حديث عن أمور واقعة تساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، وبيان ما يقاوم به النبيون، ووراءهم كل الدعاة للحق، فهو قصص للعبرة بين الواقعات، لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة، ولذلك قال الله تعالى في آخر قصة نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٣٢)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٣٣)

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٠.

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]

قالت زهراء: بورك فيكن، فهلا ذكرتن لي أمثلة على ذلك من القصص القرآني.

قالت إحداهن[(١)]: من الأمثلة على ذلك قصة إبراهيم عليه السلام، فقد ذكرت في القرآن الكريم عدة مرات؛ لتعدُّد العبر فيها.. فأول ما ذكر منها ـ بحسب الترتيب المصحفي ـ بناء الكعبة، فقد ذُكر هذا البناء الذي قام به، وعاونه فيه ابنه إسماعيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٨]

قالت أخرى: ثم بَيَّنَ الله تعالى بعد ذلك بعث النبي ﷺ، وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبذلك تتبين الصلة بين الإسلام ودعوة إبراهيم عليه السلام؛ فإذا كان العرب يفتخرون بإبراهيم عليه السلام، فهذه دعوته قد استجيبت في محمد ﷺ، ولهذا عقب الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢١.

الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١]

قالت أخرى: ونجد بعد هذه القصة طلبه زيادة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

قالت أخرى(١): ومن قبل ذلك كانت قصته مع الملك عندما ناقشه في إثبات وجود الله وكيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يفحمه؛ إذ هو لا يؤمن إلا بالمحسوس؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وفي هذه القصة نجد إبراهيم عليه السلام يأخذ بالطريق الذي يحسم الخلاف دون الطريق الذي يحدث لجاجة من غير إفحام؛ إذ أن الملك فهم أن القتل إماتة وتركه إحياء، فلم يسترسل إبراهيم عليه السلام الفطن الأريب في تعريف للموت والحياة، بل عمد إلى ما يفحمه حسيًّا، فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين.. ومن هذا نرى أنَّه ليس ثمَّة تكرار في المعاني والعبر والعظات، وإن كان الموضوع في الأحوال الثلاث يتعلق بإبراهيم عليه السلام.

قالت أخرى(٢): ثم وردت بعد ذلك قصة أخرى لإبراهيم عليه السلام تصور تدرُّج النفس الإنسانية في الاتجاه إلى طلب الحقيقة الإلهية، والإيمان بالوحدانية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢١.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٢.

إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٤-٨٣]

ونرى من القصة أنَّها مغايرة تمام المغايرة لما سبق، وإنْ كانت غير معارضة لها، بل هي متمِّمة، ولا تكرار في القصص، إنما الموضوع وهو إبراهيم عليه السلام هو المتكرر، ونرى أنه ابتدأ بنفي عبادة الأصنام على أساس أنَّ البديهة تدعو إلى ذلك، وأنَّ ضلال العقل هو الذي يؤدي إلى عبادتها، ثم أخذ يبين أنَّ طريق اليقين يبتدئ بالشك في صدق ما تضل فيه الأفهام، فأخذ يعرض على العقول ما يتصور أن يكون فيه نفع، فاتَّجه إلى الكوكب الساري، ثم إلى القمر المنير، ثم إلى الشمس السراج، وأنَّ كل ذلك يأفل، ويجري عليه تغيُّر، فدعا إلى الاتجاه إلى خالق ذلك كله.

قالت أخرى[1]: وبعد كل تلك القصص التي عمقت الإيمان، وأظهرت حججه واجتهاد إبراهيم عليه السلام في الدعوة له.. وردت قصة موقفه من الأصنام، وتحطيمه لها،

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٣.

ليستعمل ذلك حجة في التعريف بالله والدعوة إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠]

وهذه قصة جديدة تؤكد ما ورد في القصص السابقة، ولا نرى تكرارًا فيها، وإذا كان قد ذكر في قصة تتبع الكواكب والقمر والشمس الحكم على أبيه وقومه بالضلال، فقد ذكر ذلك مجملًا في الأول، أما هنا فقد ذكر المناقشة التي جرت بينهم في ذلك، ثم ذكر تدبيره في تحطيم الأصنام، وإثبات عجز الأصنام بالدليل القاطع، ثم نجاته من النار، فكان بهذا مثبتًا بالعمل أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولما سألوه عمَّا فعل بالأصنام قال متهكمًا: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، فأنطقهم بضلالهم؛ إذ نكسوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، وقد أثبت الواقع أيضًا أنَّ الله وحده هو الذي يضر وينفع؛ إذ جعل سبحانه وتعالى النار ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.. وهنا لا نجد تكرارًا مطلقًا، فالموضوع واحد، فهذه قصة

إبراهيم، ولكن فرقت في أبواب شتَّى؛ لأن النسق القرآني المعجز اقتضى ذلك إذ يكون كل جزء مكونًا لقصة ذات عبرة مستقلة في ذاتها، فهي قصة واحدة الموضوع، في قصص متعددة العبر.

قالت أخرى(١): وبعد كل تلك القصص وردت قصة إبراهيم عليه السلام مع قريبه، وكيف كان حريصًا عليه مع رفق الدعوة، وطرق الهداية الرشيدة، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٥٠]

قالت أخرى(٢): فهذه قصص إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، ومن خلال ذلك ظهر أنه لا تكرار قط فيها، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع؛ لتكون كل عبرة بجوار خبرها في القصة، ولو اجتمعت في مكان واحد لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية، وما تميزت كل عبرة تميزًا يجعلها كونًا مستقلًّا مقصودًا بالذات.

قالت زهراء: بورك فيكن، فهلا ذكرتن لي أمثلة أخرى على قصة موسى عليه السلام

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٤.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٤.

تلك التي كثر ورودها في القرآن الكريم.

قالت إحداهن[1]: ذكرت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم كثيرًا؛ لأنه هو الذي نزلت عليه التوراة، وفيها المبادئ المقررة في الشرائع السماوية، ولأنها تبيِّن أحوال اليهود؛ ولأنَّ فيها أوصافهم الحقيقية من الشكِّ والتردد في الحق وخذلانه، وما وسموا به من خنوع وخضوع، إلى آخر ما ذكره القرآن الكريم عنهم، بالإضافة إلى ما فيها من العبر لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقعوا فيه.

قالت أخرى[2]: المتتبع لقصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم يجدها متعددة العبر، في جهاده وفي قومه، وفيما لقيه وهو من أولي العزم من الرسل الذين جاهدوا في الله حق جهاده، ففي كل واقعة من وقائع حياته عبرة.

قالت أخرى: وقد بدأت سيرته في القرآن الكريم من ميلاده؛ وما أحيط به من خوارق العادات، فقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٧-١٣].. وفي هذه القصة نجد عِدَّة خوارق للعادات اقترنت بنبيّ الله موسى عليه السلام في

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٥.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٥.

نشأته، وحفظ الله له، وفيها الكثير من المعاني المرتبطة بالإيمان بالله وتعميقه ونصرته لعباده الصالحين.

قالت أخرى[1]: ثم ذكر الله تعالى نشأته وإدراكه لما عليه فرعون من الطغيان، وظلمه لبني مصر عامة، وتخصيصه بني إسرائيل بظلم خاص، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤-١٧]

قالت أخرى[2]: ثم يخبر الله تعالى كيف حماه من كيد فرعون، فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١]

قالت أخرى: ثم ذكر الله تعالى كيف خرج إلى المدائن إلى حيث الأمن والاستقرار، ثم كيف ارتبط بالشيخ الصالح، وكيف عاد بعد ذلك العقد من السنين، بعد أن تلقى كل ما يحتاجه من تأهيل، ليسمع خطاب الله له بالنبوة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٦.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٢٧.

فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٠-٣٥]

قالت أخرى: وبنهاية هذه المرحلة المهمة من حياة موسى عليه السلام، والمملوءة بالمعاني والعبر، يرد الحديث عن المرحلة الأخرى، والمرتبطة بالنبوة، والتي تكررت في مواضع مختلفة من القرآن الكريم لكونها محل عبر كثيرة، ولها في كل محل تذكر فيه عبرتها الخاصة بها.

قالت زهراء: بورك فيكن.. أظن أن وقت الراحة قد انتهى.. فعدن إلى ما كنتن فيه.. وسنعود لهذه الأحاديث مرة أخرى[1].

سادسا ـ التناسب والانسجام:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين زهراء وصديقاتها.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت بعض الشباب يمارسون بعض الحركات الرياضية، ثم يجلسون للاستراحة مع مدربهم؛ فاقتربت منهم لأسمع ما يقولون وقت لهوهم وراحتهم.

قال المدرب: والآن بعد أن أجريتم هذه التدريبات الشاقة.. هلم لنرتاح قليلا.. ونرجو أن تختاروا الموضوع المناسب الذي تريدون أن نتحدث فيه.

قال أحدهم: أنت تعلم أن موضوعنا المفضل هو القرآن الكريم وتدبره.. ونريد منك ـ كما عودتنا ـ أن تمتحننا في ذلك.. حتى نجمع بين خدمة الروح وخدمة الجسد.

قال المدرب: بورك فيك.. وأنا اليوم أريد أن أختبركم في الجمال الحسي للألفاظ والجمل القرآنية.. أو ذلك الذي يسمونه قديما [المحسنات اللفظية].. وأول سؤال لي عن

---

(١) اكتفينا هنا بذكر ما يورده العلماء عادة عند ذكر التكرار في القصص القرآني، وسنورد التفاصيل في محلها من كتاب [القرآن وأنبياء الله]

سرها وغايتها والحكمة منها؟

قال أحدهم: السر واضح.. فالله جميل ولا يصدر منه إلا الجميل.. والله بديع ولا يصدر منه إلا الإبداع.. فلذلك لا عجب أن يكون الكلام الإلهي جميلا.. بل من أدلة كونه كلاما إلهيا كونه جميلا.. جميلا بكل المقاييس الحسية والمعنوية.

قال آخر: والغاية واضحة.. فالحجة البالغة تقتضي توفر الدليل على كل أركانه.. ومن أركانه الصياغة الجميلة له.. فكلما كان أكثر جمالا كان أكثر تأثيرا.. لأنه حينها لا يخاطب العقول فقط.. بل يخاطب العقول والقلوب، والحس والمعنى.

قال آخر: ولهذا منّ الله تعالى على عباده بتيسير كلامه لهم، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].. وذكر حسنه وتأثيره، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

قال آخر: ولهذا وُجد في التاريخ والواقع من جذب إلى المعاني القرآنية بحبال جماله الحسي.. فقد تأثر لنظمه وبلاغته في البداية، لكنه ـ وبعد تدبره ـ دخل في أعماق القرآن، ولم يخرج منها.

١. التناسب والتلاؤم:

قال المدرب: ما دمتم ذكرتم هذا.. فأخبروني عن التناسب والتلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم.. لأنه أول أدلة كل جمال حسي ومعنوي.

قال أحدهم[1]: كل نغمات حروف القرآن الكريم متلائمة بعضها مع بعض في

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٠.

الكلمة.. والكلمات يتألف نغمها بعضها مع بعض في الجمل.. والجمل يتألف بعضها مع بعض في القول كله.. ولذلك نرى أن الآيات الكريمة تتضافر ألفاظها في نغم هادئ إن كانت في معرض تبشير.. أو داعية إلى التأمل والتفكير إن كانت في عظة.. وتتلاءم نغماتها قوية إذا كانت في إنذار، أو في وصف عذاب.

اسمعوا إلى قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ١-١٠].. فهذه الآيات الكريمة، وهي إنذار بما يكون يوم القيامة، وما يستقبل الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، من عذاب شديد يترقبهم.. ولهذا نرى في النغم قوة شديدة قارعة لأسماع الذين يشركون، ويكفرون بالله تعالى، ويفسدون ويعتدون، ويظلمون، ويشترك في نغمة الترهيب الألفاظ بحروفها، والجمل بكلماتها، والخواتم بشدة جرسها، وقرع الأسماع بها.

بينما نجد في سورة الضحى نغمات الرحمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١-١١]

بينما نجد في الآيات الداعية إلى التأمّل في الكون، وما فيه من أمور هادية النغمات الهادئة اللافتة الموجّهة من غير قرع للأسماع، بل بتوجيه للأفهام.. اسمعوا إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى

الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٦].. فهذه الآيات الكريمة قد اجتمع فيها التأمل ذو النغمة الهادئة الموجهة من غير عنف، في جرس يسترعي الأسماع ويصرف الأنظار، واجتمع الإنذار الشديد القوي، ولم يكن ثمة تنافر بين الإنذار الشديد، والتأمل السديد، بل كان الانتقال من مقام إلى مقام لا يبدو فيه التباين، وإن كان المقام الثاني إنذارًا؛ ذلك لأن الإنذار كالثمرة للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات، وتوجهه النظرات إلى الكون وما فيه.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك أنه لما أراد الله تعالى أن يصف حالة يعقوب عليه السلام وهو يتأسف على يوسف عليه السلام، وكانت هذه الحالة غريبة في نظر أبنائه لأنهم لم يسدوا مكان يوسف، عبر عن هذه الحالة بكلمات غريبة كلها، حيث قال على لسانهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].. حيث أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها، فإن التاء أقل استعمالاً وأبعد عن أفهام العامة، والباء والواو أعرف عند الكافة وهي أكثر دوراناً على الألسنة وأكثر استعمالاً في الكلام.. ثم أتى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها فإنّ (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من تفتأ، وأكثر استعمالاً منها.. وكذلك لفظ ﴿حرضاً﴾ أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك.. فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ

---

(١) مقال بعنوان: النظم القرآني.. جزالته وتناسقه، مصطفى مسلم.

(٢) مقال بعنوان: النظم القرآني.. جزالته وتناسقه، مصطفى مسلم.

لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]، وقد وردت في سياق بيان الضعف البشري أمام جبروت الخالق تبارك وتعالى؛ فأراد بيان ضعفهم أمام العذاب الخفيف القليل فأتى بـ (إن) التي تفيد التشكيك في وقوعه، وأتى بكلمة (المسّ) بدل الإصابة أو الحرق فهو دونها في المرتبة ودون الدخول، وكذلك كلمة (نفحة) مع تنوينها المشعر بضعف العذاب وحقارته و(من) المفيدة للبعضية؛ فلم يأتهم كل العذاب، وإنما هي نفحة عابرة يسيرة من جزء صغير من العذاب.. ثم العذاب لم يُضف إلى اسم دال على القهر والجبروت بل أضيف إلى أرق اسم دال على الشفقة وهو (رب) ثم أضيف الرب إلى مقرّب محبوب وهو ضمير خطاب رسول الله ﷺ.. فالكلمات كلها مسوقة إلى هدف واحد وهو وصف هذا العذاب بالقلة والضآلة والحقارة ليبيّن بالتالي أن المذنبين يندمون ويتأسفون على ما عملوا عند تعرضهم لنفحةٍ بسيطة من عذاب الله.

قال آخر[١]: ومن الأمثلة على تناسب ألفاظ القرآن الكريم مع المعاني التي تطرحها، أننا نراها عنيفة قوية في مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك.. ورقيقة عذبة في الترغيب والتبشير وما أشبههما.. وهادئة ثرية في مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما.. فمن أمثلة التهديد والوعيد، قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ١١-٣٠].. انظروا إلى عنف هذه الألفاظ ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾.. ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.. وقد بدأ هذه الآيات الكريمة بأعنف كلمة،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٦٦)

وهي قوله ﴿ذَرْنِي﴾.. ويا ويل مَن كان هذا تهديداً له.. إنهن كلمات قاتلات أوقع في النفس من أَمضى سلاح.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١١-١٩].. انظروا إلى هذه التعبيرات: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾.. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾.. ﴿أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾.. ﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.. ﴿تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجبالُ﴾.. ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾.. ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾.. ﴿مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.. فهي تشمل التهديدات بأبعد معانيها وأقواها.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وِفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٣٠].. فموجة العنف تبدأ من أول كلمة في الآيات الكريمة.. وتنتهي بآخر كلمة فيها.. فقد اشتملت الآية الأخيرة على الفعل المضارع الواقع في حيز النفي ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ﴾، وهنا ربما وهم الواهمون أن جزاء هؤلاء مقصور على ما ذكرَ فيما مضى من الآية، لكن هذا الوهم مدفوع بالاستثناء ﴿إلا عَذَاباً﴾.. فالزيادة المنفية هي الزيادة التي من جنس الرحمة.. أما الزيادة التي من جنس العذاب فلاحقة بهم ما دامت السموات والأرض، وفي هذا من

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٦٧)

تبكيتهم وحسرتهم ما لا يخفى.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ١-٩].. فهذه السّورة الكريمة تهدد بقوة أناسا كرسوا كلّ همهم لجمع المال، وحصروا كلّ قيم الإنسان الوجودية في هذا الجمع، ثمّ هم يسخرون من الذين لا يملكون المال وبهم يستهزئون.. فهؤلاء الأثرياء المستكبرون والمغرورون المحتالون أسكرهم الطغيان فراحوا يستهينون بالآخرين ويعيبونهم، ويتلذذون بما يفعلون من غيبة واستهزاء.. والسّورة تتحدث في النهاية عن المصير المؤلم الذي ينتظر هؤلاء، وكيف أنّهم يلقون في جهنّم صاغرين، وأنّ نار جهنّم تتجه بلظاها أوّلاً إلى قلوبهم المليئة بالكبر والغرور، وتحرقها بنار مستمرة مغلقة عليهم لا ينفكون منها.

قال آخر[2]: ومثل ذلك في الوعيد والتهديد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٠-١٦].. فالآيات الكريمة تبدأ بالنهي عن طاعة من تتوفر فيه هذه الصفات الشنيعة.. وأولها أنه حلاف.. كثير الحلف.. ولا يكثر الحلف إلا إنسان غير صادق، يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به، فيحلف ويكثر من الحلف ليداري كذبه، ويستجلب ثقة الناس.

وثانيها أنه مهين.. لا يحترم نفسه، ولا يحترم الناس قوله، وآية مهانته حاجته إلى الحلف، وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به، ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه؛ فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء، ولو كان سلطانا طاغية جبارا، والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس

---

(١) تفسير الأمثل (٢٠/ ٤٤٣)

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٦٢)

الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا.

وثالثها أنه هماز.. يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم.. وهو خلق يخالف المروءة، وأدب النفس، ويخالف الأدب في معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا.

ورابعها أنه مشاء بنميم.. يمشي بين الناس بما يفسد قلوبهم، ويقطع صلاتهم، ويذهب بموداتهم.. وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين، لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو لنفسه احتراما عند الآخرين.

وخامسها أنه معتد.. متجاوز للحق والعدل إطلاقا. ثم هو معتد على النبي ﷺ وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين.

وسادسها أنه أثيم.. يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت ﴿أَثِيمٍ﴾.. بدون تحديد لنوع الآثام التي يرتكبها، فاتجاه التعبير إلى إثبات الصفة، وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم.

وسابعها أنه ﴿عُتُلٍّ﴾.. وهي لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات، حيث يُقال: إن العتل هو الغليظ الجافي.. وإنه الأكول الشروب.. وإنه الشره المنوع.. وإنه الفظ في طبعه، اللئيم في نفسه، السيّء في معاملته.. وإنه كل رغيب الجوف، وثيق الخلق، أكول شروب، جموع للمال، منوع له..

وثامنها أنه ﴿زنيم﴾.. ومن معانيها الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره.

وتاسعها موقفه من آيات اللهّ تعالى وتكذيبه لها، ﴿أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، مع التشنيع بهذا الموقف الذي يجزي به نعمة اللهّ عليه بالمال

والبنين.. وما أقبح ما يجزي إنسان نعمة اللهّ عليه بالمال والبنين استهزاء بآياته، وسخرية من رسوله، واعتداء على دينه.. وهذه وحدها تعدل كل ما مر من وصف ذميم.

ولذلك يجيء في حقه هذا التهديد الشديد ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.. ومن معاني الخرطوم طرف أنف الخنزير البري.. ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه.. والأنف في لغة العرب يكنى به عن العزة، فيقال: أنف أشم للعزيز. وأنف في الرغام للذليل.. أي في التراب.. ويقال ورم أنفه وحمي أنفه، إذا غضب معتزا. ومنه الأنفة..

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير.. الأول الوسم كما يوسم العبد.. والثاني جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير.. وما من شك أن وقع هذه الآيات على نفس أصحابها كان قاصما شديدا، وخاصة في البيئة التي كانت تعد هجاء شاعر ـ ولو بالباطل ـ مذمة يتوقاها الكريم؛ فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض، وبهذا الأسلوب الذي لا يبارى.

قال المدرب: بورك فيك.. وفي فهمك وتدبرك.. والآن اذكروا لي نماذج عن التحدي القرآني، والصياغة المناسبة له.

قال أحدهم[1]: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، فالآية الكريمة تخاطب من يفقد ثقته في نصر اللهّ في الدنيا والآخرة، ويقنط من عون اللهّ له في المحنة حين تشتد به بأن يفعل بنفسه ما يشاء، وليذهب بها كل مذهب.. فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء.. وهذا التحدي القرآني متحرك لغيظ النفس، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ، وهو يجسم هذه الحالة التي يبلغ فيها الضيق بالنفس

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٣)

أقصاه، عند ما ينزل بها الضر وهي على غير اتصال بالله.. والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء.. فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق، ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق.. ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه.

قال آخر(١): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].. ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال، وهي وصف رسول الله ﷺ بالعبودية لله.. ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات منوعة متكاملة.. فهو أولا تشريف للنبي ﷺ وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك.. وهو ثانيا تقرير لمعنى العبودية، في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده، واطراح الأنداد كلها من دونه. فها هو ذا النبي في مقام الوحي - وهو أعلى مقام - يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام.. أما التحدي فمنظور فيه إلى مطلع السورة.. فهذا الكتاب المنزل مصوغ من تلك الحروف التي في أيديهم، فإن كانوا يرتابون في تنزيله، فدونهم فليأتوا بسورة من مثله وليدعوا من يشهد لهم بهذا من دون الله فالله قد شهد لعبده بالصدق في دعواه.. وهذا التحدي ظل قائما في حياة رسول الله ﷺ وبعدها، وما يزال قائما إلى يومنا هذا وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٨)

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٣٣)

لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].. ففي هذه الآيات الكريمة تحد قوي لأولئك الذين يعترضون على البعث، بحجة عدم قدرة عقولهم على تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام.. ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلا ثم كانوا، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى، وأنه لا شيء أما القدرة الإلهية أعسر من شي ء، وأداة الخلق واحدة في كل شي ء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فيستوي إذن أن يكون الشيء سهلا وأن يكون صعبا في نظر الناس، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه.. وكان الرد على هؤلاء وتحديثهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١].. فالعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة والحديد والحجارة أبعد عن الحياة. فيقال لهم: كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر أو غل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة؛ فسيبعثكم اللهّ.. وطبعا هم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدي.. وفيه كذلك توبيخ وتقريع لهم؛ فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر.

٢. الانسجام والتناسق:

قال المدرب: بورك فيكم جميعا.. والآن حدثوني عن الانسجام، ومعناه، وأمثلته.

قال أحدهم[١]: الانسجام هو أن يكون الكلام ـ بسبب خلوه من التعقيد ـ منحدرًا

---

(١) الزيادة والإحسان في علوم القرآن (٦/ ٢٠٥)

كتحدر الماء المنسجم، يكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة.. والقرآن الكريم كله كذلك.. من أوله لآخره، ولهذا سهل ترتيله، وتيسرت قراءته، وعذب سماعه.

قال المدرب: فهو كالشعر إذن في انسجامه وسهولته.. أو كالسجع في حسن تلقي السمع له؟

قال أحدهم: وأين منه الشعر والسجع.. وكلاهما مليئان بالتكلف الممقوت.

قال آخر: وكيف يكون كالشعر، وقد نزه الله تعالى رسوله وكلامه عنه، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]..وقال عن الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].. وهكذا نزهه عن سجع الكهان، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢]

قال المدرب: ولكن الله تعالى ذكر أن قوم رسول الله ﷺ وصفوه بكونه شاعرا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]

قال آخر: وقد كذبهم الله تعالى في قولهم ذلك، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١]

قال آخر[1]: وهو يدل على أن ما حكاه عنهم من قولهم: إنه شاعر، وإن هذا شعر، لابد من أن يكون محمولاً على أنهم نسبوه إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة.. أو يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم في وجوه الكلام

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٥١)

وطرق لهم في المنطق، وإن كان خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة.. أو يكون محمولا على أنه أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر، وهذا أبعد الاحتمالات.

قال المدرب: ولكن.. ألا ترون في القرآن الكريم ما هو من موزون كوزن الشعر؟

قال أحدهم: أجل.. ففي القرآن الكريم من بحر الطويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]

ومن المديد قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]

ومن البسيط قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]

ومن الوافر قوله: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]

ومن الكامل قوله: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]

ومن الهزج قوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]

ومن الرجز قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]

ومن الرمل قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣]

ومن السريع قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

ومن المنسرح قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢]

ومن الخفيف قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]

ومن المضارع قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣]

ومن المقتضب قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]

ومن المجتث قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]

ومن المتقارب قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

قال المدرب: فما تجيبون من يطرح عليكم هذا الإشكال بسبب أمثال هذه الآيات الكريمة التي تشبه أوزان الشعر؟

قال أحدهم[1]: ما أسهل الرد على ذلك.. سنذكر له أن الفصحاء من المشركين حين قرئت عليهم تلك الآيات وغيرها لم يعتقدوا كونها شعراً، ولو اعتقدوا أنها كذلك لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخر لهم، مسهل عليهم، ولهم فيه التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف.. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عولوا عليه عُلم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة.

قال آخر[2]: وسنذكر له أن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا، فأقل الشعر ـ كما يذكر الشعراء ـ بيتان فصاعدا.. بل ويشترطون لذلك ألا أنه يختلف وزنهما أو قافيتهما.. بل إن منهم من يذكر أن الرجز ليس بشعر أصلاً، لا سيما إذا كان مشطوراً أو منهوكا.. وكذلك ما كان يقاربه في قلة الأجزاء.

قال آخر[3]: وسنذكر له أن الشعر إنما يطلق ـ متى قصد القاصد إليه ـ على الطريق الذي يُعتمد ويُسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض في جملة كلام كثير يقوله، ما قد يتزن بوزن الشعر، وينتظم انتظامه.

قال آخر[4]: وسنذكر له أن العامي قد يقول لصاحبه: (أغلق الباب وائتني

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٥٣)

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٥٤)

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٥٤)

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٥٤)

بالطعام)، وهو على أوزان الشعر.. ومثله قول الرجل لأصحابه: (أكرموا من لقيتم من تميم).. وهكذا متى تتبعنا هذا وجدنا في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه.

قال آخر: وسنذكر له جواب الجاحظ على هذا، فقد رد على من طعن في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] بحجة كون الآية الكريمة على أوزان الشعر لأنها في تقدير مستفعلن مفاعلن، بقوله: (اعلم أنك لو اعترضت الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيرا، ومستفعلن مفاعلن.. وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا.. ولو أن رجلا من الباعة صاح: من يشترى باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات! وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟.. ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام.. وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالاوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا.. وسمعت غلاما لصديق لي، وكان قد سقى بطنه، يقول لغلمان مولاه: اذهبوا إلى الطبيب وقولوا: قد اكتوى.. وهذا الكلام يخرج وزنه على خروج فاعلاتن مفاعلن فاعلاتن مفاعلن.. مرتين.. وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول بيت شعر أبدا.. ومثل هذا كثير، ولو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته)(١)

قال المدرب: بورك فيكم جميعا.. والآن كيف تردون على من يذكر بأن في القرآن الكريم سجعا كسجع الكهان؟.. ثم يستدل على ذلك بأمثال قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٨٨.

لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١-١٤]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ١-٨]

قال أحدهم(١): يمككنا أن نقول له: جميع ما في القرآن الكريم مما يجري على التسجيع مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة لما يجري مجراه من كلام الخلق.. فقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١-٥] قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى، من مثل قول الكاهن: والسماء والأرض، والقرض والفرض، والغمر والبرض.. ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف.. ولهذا ما قال النبى ﷺ لرجل، قال له: أندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح، فاستهل، فمثل ذلك يطل: أسجعا كسجع الكهان!.. لأن التكلف في سجعهم فاش، ولو كرهه ﷺ لكونه سجعا لقال: أسجعا؛ ثم سكت، وكيف يذمه ويكرهه، وإذا سلم من التكلف، وبرىء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه.. وقد جرى عليه كثير من كلامه ﷺ؛ كقوله: (أيها الناس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).. ومثله ما ورد في القرآن الكريم.

قال آخر(٢): ويمكننا أن نقول له: ليس كل السجع مذموما، بل منه المذموم الذي يظهر فيه التكلف، ويرهق الألفاظ والمعاني، حتى يحاول القائل أن يكون كلامه رضًا غير

(١) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٢٦٠)

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٦.

متماسك بملاط من المعاني.. ولذلك لا مانع من أن يوصف القرآن الكريم بأن فيه سجعًا، ولكنه سجع في أعلى مراتب الكلام، بحيث لا يمكن أن يجاريه أحد، ولا يصل إلى علوه أحد من الخلق.

قال آخر[1]: ويمكننا أن نقول له: إن القرآن الكريم أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعًا لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، ولا سيما فيما يطول من الكلام، فلم يرد مسجوعًا جريًا على عرفهم في الطبقة العالية من الكلام، ولم يخل من السجع؛ لأنه يحسن في بعض الكلام.. وعليها ورد في فصيح كلامهم، فلم يجز أن يكون عاليًا في الفصاحة، وقد أخلَّ فيه شرط من شروطها، وهذا هو السبب، في ورود القرآن الكريم مسجوعًا وغير مسجوع.

قال آخر[2]: ويمكننا أن نقول له: إذا أردنا أن نلتمس حكمة لذلك، فهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القرآن الكريم لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤] فتصريف القول في القرآن الكريم كان من جماله الذي يعلو على كل البشر بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحيانًا إن ارتضينا مذهب السجع، أو الفواصل المتقاربة حروفها في المقاطع أحيانًا أو إطلاق الألفاظ في القرآن الكريم من غير مقاطع، مع ملاحظة أنَّ ذلك كله في أعلى درجات البلاغة التي لا يصل إليها أحد من البشر.

قال آخر[3]: ويمكننا أن نقول له ما قلناه في رد كونه شعرا، وإن ورد فيه بعض الجمل الموزونة.. ذلك أن الذي يقدرونه أنه سجع واهمون، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض.. لأن

---

(١) ابن سنان في كتابه سر البلاغة، نقلا عن: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٧.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٧.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٧٣)

السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع، لأن اللفظ يقع فيه تاليا للمعنى.

قال آخر[1]: ويمكننا أن نقول له: لو كان الذي في القرآن الكريم على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرذولاً، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام.. وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم وقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة.

قال آخر[2]: ويمكننا أن نقول له: لو رأى أعداء رسول الله ﷺ الحريصون على إجابة تحديه أن ما تُلِيَ عليهم من القرآن من السجع لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حده في البراعة والحسن.. ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه، ولكانت الطباع تدعوا إلى المعارضة، لأن السجع ممتنع عليهم، بل هو في عادتهم، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة، وهو غير خارج عنها ولا متميز منها؟

قال آخر[3]: ويمكننا أن نقول له: إن السجع المذموم مثل الشعر المذموم.. فالشعر تقصد فيه القوافي والمقاطع المتحدة في الألفاظ ثم تكيف المعاني على الألفاظ ليستقيم المقطع، كما تستقيم القافية، وإذا كان الشعر منفيًّا في القرآن الكريم بالاتفاق، فكذلك السجع الذي ينهج منهجه، ويتبع طريقته، وتجيء المعاني تابعة للألفاظ مكيفة بكيفها، مأخوذة بطريقها.. ولهذا، فإنَّ الله تعالى عندما استنكر أن يكون قول شاعر ولا كاهن، أدخل السجع في النفي، وهو السجع الذي يكون فيه المقصد الأول للفظ.. وإنه إذا كانت الفكرة نفيًا أو إثباتًا قائمة

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٧٣)

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٧٣)

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٩.

على الاختلاف في الاصطلاح فإنه قد زال الخلاف؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح.

قال آخر(١): ويمكننا أن نقول له: إنَّ القرآن الكريم فيه فواصل تتحد فيها المقاطع ولعلوها وسموها في البلاغة كانت المعاني هي المقصد الأول، وجاءت الألفاظ بجمالها وإشراقها وحسن نغمها، ورنة موسيقاها، تابعة لذلك، وقد يكون اتحاد المقاطع في الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم، وانسجام الموسيقي، وفي ذلك قوة التأثير، بما لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.. وعلى ذلك فإنَّ من يفسِّر السجع بأن الاتحاد في حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعًا للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع فوق قدرة البشر أن يأتوا بمثله، ومن يقول: إنّ السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعًا للقافية والأوزان يكون القرآن الكريم منزَّهًا عنه.. وأنا أميل إلى أن اتحاد المقاطع في القرآن الكريم لا يعد سجعًا؛ لأننا نرى السجاعين يتجهون إلى الألفاظ أولًا، وقد يكون سهلًا وحلوًا، ولكن الاتجاه فيه أولًا إلى الألفاظ، وذلك غير لائق بالنسبة للقرآن.

قال المدرب(٢): بورك فيكم وفي إجاباتكم جميعا.. وهي وإن اختلفت في بعض الأمور، تتفق على تقديس القرآن الكريم، وتنزيهه عن أن يكون مشابهًا لكلام الناس، وإن كان من جنسه، ومكونًا من حروفه.

قال أحدهم: لقد ذكرني كلامك هذا أستاذنا بما عبر عنه بعض علماء البيان بقوله: (إن القرآن الكريم سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريبًا إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويساوق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قريبه في نفسه، ولا موهم مع دونوه في موضعه أن يقدر عليه، أو أن يظفر به، فأمَّا الانحطاط عن

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٩.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٢٠.

هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف فلا يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه، ولكنه أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابهًا متماثلًا، وبين مع ذلك إعجازه فيهم)[1]

سابعا ـ الجناس والطباق:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين الرياضيين ومدربهم.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت بعض الشباب يعتنون بالأشجار، ويشذبون أغصانها، ويزيلون ما تراكم حولها من أوراق.. وبعضهم يرش عليها بعض الأدوية.. ثم جلسوا للاستراحة إلى كبير لهم، كنت أراه يوجههم، ويعلمهم، وقد عرفت من خلال حديثهم أنه أستاذهم في الجامعة، وأنه مهندس فلاحي، يقوم بتدريبات لهم ترتبط بتخصصهم؛ فاقتربت منهم لأسمع ما يقولون وقت فراغهم وراحتهم.

قال المهندس: ما رأيكم أن نخصص هذه الجلسة، وبين هذه الأشجار والأزهار في الحديث عن القرآن الكريم، كما تعودنا ذلك سابقا.

قال أحدهم: ما أجمل ذلك.. فتلك الأحاديث لا نتعلم منها فقط، وإنما نتأدب ونتهذب ونكتسب إيمانا وقربا من الله.. وهو ما يزيدنا تعلقا بالعوالم الجميلة التي أبدعها الله، والتي تشرفنا بأن نتخصص في بعض تفاصيلها.

قال المهندس: لاشك أنكم تعرفون ما يطلق عليه الطباق والجناس.. وتتذوقون الجمال المرتبط بهما.

قال أحدهم: أجل.. فكل أصحاب الأذواق السليمة يشعرون بهما، وبجمالهما.

١. الجناس:

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٤٦)

قال المهندس: ما دمت قد ذكرت ذلك.. فإني أريد منكم أن تخبروني عن الجناس، وحقيقته.

قال أحدهم[1]: الجناس هو اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما.. أو هو أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها.. أو هو أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض وإن كان معناهما واحداً، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً.. ولاشك في أن ذلك يعطي جمالا كبيرا للكلمات المتجانسة يتذوقها أي قارئ أو سامع.

قال المهندس: فاذكروا لي أمثلة قرآنية عنه وعن أشكاله وأقسامه.

قال أحدهم: من أشكاله ما يسمى الجناس التام الماثل، ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].. فالساعة الأولى يراد منها: القيامة، والثانية: المراد بها اللحظة من الزمن.

قال آخر[2]: ومنه الجناس المحرف، وهو أن يقع الاختلاف في الحركات.. ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٠].. فالجناس بين: يسقين ويشفين.. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢-٧٣].. فالجناس بين مُنذِرين ومُنذَرين.. وقد اجتمع المحرف والمصحف في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]

قال آخر[3]: ومنه الجناس الناقص، وهو أن يكون الاختلاف في عدد الحروف، ومن

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٣٥)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٣٦)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٣٦)

الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ٦٩].. فالجناس بين الساق والساق، وكلي وكل..

قال آخر: ومنه الجناس المذيل، وهو الذي تكون الزيادة فيه بأكثر من حرف كقوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ [طه: ٩٧].. وقوله: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥].. وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ [البقرة: ٦٢].. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ﴾ [العاديات: ١١]

قال آخر: ومنه الجناس المضارع.. وهو أن يختلفا بحرف مقارب في المخرج كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].. فإن اختلفا بحرف غير مقارب فهو الجناس اللاحق، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]

قال آخر: ومنه الجناس المرفق، وهو ما تركب من كلمة وبعض كلمة كقوله تعالى: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ﴾ [التوبة: ١٠٩]

قال آخر: ومنه الجناس اللفظي، بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية كالضاد والظاء في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]

قال آخر: ومنه القلب، بأن يختلفا في ترتيب الحروف كقوله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]

قال آخر: ومنه الاشتقاق، وهو أن يجتمعا في الأصل الاشتقاقي، كقوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩]

قال آخر: ومنه تجنيس الإطلاق، وذلك بأن يتفقا من حيث الظاهر مع اختلاف المادة المشتق منها، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، وقوله: ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي﴾ [المائدة: ٣١]

قال آخر: ومنه جناس المزاوجة، ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وسبب هذه التسمية أن الله تعالى سمى جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء ليكون في الكلام مزاوجة، واشتراط المثلية في الاعتداء توخياً للعدالة.

قال آخر: ومنه جناس المناسبة، ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]

قال آخر: ومنه جناس الاشتقاق، ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]

قال آخر[1]: ومنه جناس الترديد، وهو إيراد الكلمة بعينها مرتين، ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وهذه الآية جمعت بين ثلاثة فنون من فنون البديع في موضع واحد باعتبارات مختلفة.. الطباق حيث وقع العلم منفياً مرة ومثبتاً أخرى، فهو من طباق السلب.. و الجناس لتماثل اللفظين ﴿يعلمون﴾، ﴿يعلمون﴾ فهو من جناس الاشتقاق.. والترديد حيث تكرراللفظان وكل منهما متعلق بمعنى مختلف.

قال آخر[2]: وقد يجتمع الجناس مع التعطف، وهو إعادة اللفظة بعينها غير مشروط

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٠)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٠)

اجتماعهما، ومن الأمثلة عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، فقد أعيدت الكلمة هنا أربع مرات: ﴿تربصون بنا﴾، و﴿ونحن نتربص بكم﴾، و﴿فتربصوا﴾، و﴿إنَّا معكم متربصون﴾، ولا شك أن بين هذه المواضع الأربعة جناس اشتقاق.

قال آخر[1]: وقد يجتمع الجناس مع التصدير، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]

قال المهندس: بورك فيكم.. فحدثوني الآن عن سر جماله.

قال أحدهم[2]: لقد عبر عنها بعضهم بقوله: (وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه.. وحتى لا تبغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً.. ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه، وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه.. وذلك كما يُمثلون به أبداً من قول الشافعي ـ وقد سئل عن النبيذ ـ فقال: (قد أجمع أهل الحرمين على تحريمه) [3]

وقال: (واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس، وجعلتها العلة في استيجابه الفضيلة، هي: حُسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة)، وهذا يعني أن الكلمة المكررة في التجنيس مع أن الصورة توهم السامع في أول أمرها أنها لم تأت بجديد، بل هي مكررة لمعنى سابقتها، فإذا حصل للسامع منها المعنى الجديد جاءه ذلك من غير مظانه ومن حيث لم يتوقعه، وفي ذلك متعة للنفس، وربح من غير انتظار.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٠)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٢)

(٣) أسرار البلاغة فى علم البيان (ص: ١٨)

قال آخر[1]: وذكر بعض الأدباء أهميته وقيمته، فقال: (هوعظيم الموقع في البلاغة، جليل القدر في الفصاحة).. وقال آخر: (وكفى التجنيس فخراً قوله ﷺ: (غِفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله، وعصية عصت الله)، ويرى بعضَهم أنه أشرف الأنواع اللفظية)

قال آخر[2]: وذكر بعض الأدباء وظيفته من حيث اللفظ، وحمل السامع على الإصغاء، فقال: (لم أر مَن ذكر فائدة الجناس وخطر لي أنها الميل إلى الإصغاء إليه؛ فإن مناسبة الألفاظ تُحدث ميلاً وإصغاءً إليه، ولأن اللفظ المشترك إذا حُمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه)

قال المهندس: بورك فيكم.. إن ما ذكرتموه يستدعي تحليلا أعمق يبحث عن مقومات الجمال في الجناس.

قال أحدهم[3]: لعل أول أسباب ذلك يعود إلى تناسب الألفاظ في الصورة كلها أو بعضها، ومما لا شك فيه أن التوافق في الصورة واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة، وتأنس به وتغتبط ويطمئن إليه الذوق لأنه نظام وانسجام وائتلاف.. ولهذا نراه يخلع على النفوس راحة وبشاشة، وهدوءاً وقراراً.

قال آخر[4]: ولعل من أسباب ذلك التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً تاماً أوناقصاً فيطرب الأذن، ويهز أوتار القلوب..

قال آخر[5]: ولعل من الأسباب العميقة لذلك ما عبر عنه بعض القدماء بقوله: (وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها.. ويوهمك كأنه لم يزدك شيئاً، وقد أحسن الزيادة ووفاها).. ولهذا فإن الجناس من مقتضيات الأحوال وموجبات

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٢)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٢)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٢)

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٢)

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٢)

البلاغة، بشرط ألا يكون متكلفاً.

قال آخر[1]: ولهذا الجناس في القرآن الكريم على أحسن صورة وأجمل موقع لا تكلف فيه، ولا تصنع، ولا جور على المعنى لحساب اللفظ.. ولا اقتسار للفظ بدون دلالة حسنة، سواء في ذلك التام منه أوالناقص. وسواء ما كان جناساً خالصاً.. أواختلط بغيره من ألوان البديع، فليس فيه موضع نازل في معناه، أومستكره في لفظه بل هوكله ـ جار مع طبيعة الأسلوب القرآني في قوته وجزالته وبلاغته وفصاحته.

قال آخر[2]: انظروا إلى قوله تعالى ـ مثلا ـ: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وقوله: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].. وكم فيها من روعة المعنى وسحر الجرس.. وانظروا إلى المناسبة بين ركني الجناس، فلو لم يكن للجناس وظيفة سواها لكانت كفيلة بأصالته وحسنه: ﴿انصرفوا ـ صرف﴾ ـ ﴿تتقلب ـ القلوب﴾ ـ ﴿الربا ـ يربي﴾.. وهكذا في كل جناس نجد خلابة وسحراً وأسراً للسمع والفكر معاً.

٢. الطباق:

قال المهندس: حدثتمونا عن الجناس، وحقيقته وأسراره وأشكاله في القرآن الكريم.. فحدثونا عن الطباق؛ فإن العادة جرت ألا يذكر الطباق إلا مع الجناس.

قال أحدهم: أجل.. فأولهما يمثل الجمال الحسي في أروع أشكاله، والثاني يمثل الجمال المعنوي في أروعها.. لأنه يجمع بين المتضادين في المعنى، كما يجمع الآخر بين المتجانسين في الشكل.

قال المهندس: فحدثونا عن الصيغ التي يرد بها في القرآن الكريم.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٣)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤٤٣)

قال أحدهم: منها الطباق الحقيقي.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢].. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣-٤٤].. وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].. وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]

قال آخر: ومنها الطباق المجازي.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢])، أي ضالاً فهديناه.

قال آخر: ومنها طباق السلب.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].. وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]

قال آخر: ومنها الطباق المعنوي.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥-١٦].. معناه إن ربنا يعلم إنا لصادقون.. ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، فإنه لما كان البناء رافعاً للمبنيّ قوبل بالفراش الذي هو خلاف البناء.

قال آخر[1]: ومنها الطباق الخفيّ.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، لأن الغرق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار، ومثله أو قريب منه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، لأن معنى القصاص القتل، فصار القتل سبب الحياة.

قال آخر: ومنها الطباق المسمى [ترصيع الكلام]، وهو اقتران الشيء بما يجتمع معه في قَدْر مشترك.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٥)

فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، فقد جاء بالجوع مع العري، وبابه أن يكون مع الظمأ، وبالضحَى مع الظمأ، وبابه أن يكون مع العري، لكن الجوع والعري اشتركا في الخلو، فالجوع خُلو البطن من الطعام، والعري خلو الظاهر من اللباس.. والضحى والظمأ اشتركا في الاحتراق، فالظمأ احتراق الباطن من العطش.. والضَّحى احتراق الظاهر من حر الشمس.

قال آخر(١): ومنها الطباق المسمى [المقابلة]، وهو أن يُذكر لفظان فأكثر ثم أضدادها على الترتيب.. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٤-١٠].. فقد قابل بين الإعطاء والبخْل، والاتقاء والاستغناء، والتصديق والتكذيب، واليسرى والعسرى، ولا جعل التيسير في الأول مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده ـ وهو التعسير ـ مشتركاً بين أضدادها.

قال آخر(٢): والمقابلة إما أن تكون لواحد بواحد، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].. أواثنين باثنين كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢].. أوثلاثة بثلاثة كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. أوأربعة بأربعة كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].. أوخمسة بخمسة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٥)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٦)

فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].. قابل بين بعوضة، فما فوقها، وبين الذين آمَنُوا والذين كفروا، وبين يضل ويهدي، وبين ينقضون وميثاقه، وبين يقطعون وأن يوصل.. أوستة بستة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثم قال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، فقابل بين الجنّات، والأنهار، والخلد، والأزواج، والتطهير، والرضوان، بإزاء النساء، والبنين، والذهب، والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث.

قال آخر: وقد تكون المقابلة لنظير، كمقابلة السنَة بالنوم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإنهما جميعاً من باب الرقاد المقابَل باليقظة.

قال آخر: وقد تكون المقابلة لنقيض، كمقابلة اليقظة للرقاد في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]، فإنهما نقيضان.

قال آخر(١): وقد تكون المقابلة لمخالف، كمقابلة الشر بالرشد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].. فإنهما خلافان لا نقيضان، فإن نقيض الشر الخير، والرشد الغي.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٦)

قال آخر[1]: ومنها الطباق المرتبط بالتشبيه السلبي، وهو كثير الورود في القرآن الكريم، ذلك أنه كثيراً ما يتحدث عن الإيمان والكفر في سياق واحد، أو ما يشبه السياق الواحد.. ومثلها حديثه عن الطاعات والمعاصي، والظلمات والنور، والنفع والضر، والرشد والغي، والجنة والنار، والسماء والأرض، والحسناتِ والسيئاتِ، والحياة والموت.. وغيرها من المعاني المتقابلة، ولذلك كان أسلوب الطباق أصيلاً فيه لم يجتلب تكلفاً أو ترفاً في الأسلوب، بل هو من مقتضيات الأحوال.

قال آخر: ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].. وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].. وقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣].. وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].. وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].. وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]

قال آخر: ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤١٦)

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].. وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].. وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الرعد: ١١].. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]

قال المهندس: بورك فيكم.. فحدثوني الآن عن أغراضه وسر جماله.

قال أحدهم(١): القرآن الكريم يستخدم أسلوب الطباق كثيراً، وهي كثرة قد تفوق كل ألوان البديع، ومن أهم أغراضه في ذلك العظة والاعتبار، وخاصة عند ما يقص أنباء الأمم الماضية، كقوله تعالى ـ مثلا ـ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].. أو عند بيان قُدرة الله، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]

قال آخر: وهو يأتي في أحيان كثيرة للتمييز بين نوعين مختلفين، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]

قال آخر: وقد يأتي لتمثيل الحقائق تمثيلاً يتضمن المدح في جهة، والذم في أخرى، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

قال آخر: وقد يأتي للكشف عن سلوك قوم ضلُّوا عن الحق، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].. وغير ذلك كثير.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤١٧)

قال آخر[1]: وقد يستخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في معان أساسية داخلة ضمن مقتضيات الأحوال، وهو بهذا يسمو به ـ أي بالطباق ـ كما يسمو بغيره من ألوان البديع ـ فوق ما يعتبره البلاغيون من الحسن الإضافي إلى الدلالة الذاتية.. وذلك عندما يُجري مقارنة بين حقيقتين مختلفتين فيكون التقابل بينهما ـ حينئذ ـ واجباً في حكم البلاغة.. وإلا فكيف يمكن إجراء تلك المقارنة في غياب طرفيها؟

قال آخر[2]: بالإضافة إلى ذلك كله، فإن هذا الأسلوب ـ ومثله كل فنون البديع ـ مظهر مهم من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وهو سمة عظيمة من سمات أسلوبه، فهو قد سلم ـ مع كثرته ـ من التكلف، بل هو آية الحسن ومصدر العجب، بينما نرى كل مسرف فيه يسير ثم يكبو ويصيب ثم يخطئ.

قال آخر[3]: ومن شاء أن يتأكد من ذلك، فليوازن بين قوله تعالى، وقد طابق فيه بين أربعة وأربعة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠]، وبين قول الشاعر وقد طابق فيه بين خمسة وخمسة:

أَزُورُهم وَسَوادُ الليْلِ يَشْفَعُ لِي   وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُبْحِ يُغْرِي بِي

حيث نرى الفَرق من حيث نزاهة الألفاظ وجزالتها في القرآن الكريم ثم دقة التعبير وشرف المعنى، بالإضافة للمؤاخذات الكثيرة الواردة في البيت، ومنها ما عبر عنه بعض النقاد بقوله: (فهذا البيت مع ما به من التكلف كل لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها عن طريق المعنى بمنزلة الضد: فأزورهم وأنثني، وسواد وبياض، والليل والصبح، ويشفع

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤١٨)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤١٨)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ٤١٨)

ويغري، ولي وبي.. وأصحاب صناعة الشعر لا يجعلون الليل والصبح ضدين، بل يجعلون ضد الليل النهار، لأنهم يراعون في المضادة استعمال الألفاظ، وأكثر ما يقال: الليل والنهار، ولا يقال: الليل والصبح)

ثامنا ـ النظم المعجز:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين المهندس الفلاحي وطلبته.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت جمعا من المشايخ الكبار الذين عليهم عمائم العلماء من المدارس المختلفة.. وكانوا يطلقون على كبيرهم لقب [الأستاذ].. وقد اجتمعوا أمام رفوف مكتبة كانت بتلك الحديقة.. وكان كل واحد منهم يحمل كتابا، أو بعض كتب، ويقرأ فيها باهتمام شديد.. إلى أن خاطبهم الأستاذ بقوله: إن كنتم قد انتهيتم من البحث في الموضوع؛ فهيا نبدأ الحديث عنه.. فالوقت أصبح يداهمنا.

قال أحدهم: أجل.. وأظن أن بعض تلاميذ القرآن الكريم قد وصل إلى هذا المحل، وهم يحتاجون منا أن نزودهم بما وصلنا إليه من حقائق وشواهد حول النظم المعجز للقرآن الكريم.

قال الأستاذ: أجل.. فحدثونا بإيجاز عن مفهوم النظم وأركانه وعناصره، قبل أن نذكر الشواهد عنه.

قال أحدهم: لقد وجدت من خلال تتبعي في البحث في كلمة [النظم] لغة واصطلاحا عند المتقدمين والمتأخرين أنها تدور حول معنى الاتساق والائتلاف والتناسب بين الأجزاء.. فإن نظم اللؤلؤ في الخيط يستوجب التناسب في أحكام الصنعة ليبدوالعقد سليما في مظهره.. وكذلك نظم الكلام يتطلب دقة الأحكام ووضع كل لفظة بجانب أختها صنيع ناظم اللؤلؤ وحائك الخيوط.

قال آخر: لقد عبر بعض علماء البيان عن هذا بقوله في تعريف النظم: (هوحسن الرصف، بأن توضع الألفاظ في موضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها.. وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها)

قال آخر: وقد أضاف بعض المتقدمين إلى هذا ما أطلق عليه لقب (التعليق)، حيث قال: (وليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى)[1]

قال الأستاذ[2]: فحدثونا عن نظم القرآن الكريم، وسر اختصاصه.

قال أحدهم: إن هذا مما يشترك في التعرف عليه، بل تذوقه، كل من يقرأ القرآن الكريم أو يسمعه، ذلك أن من يفعل ذلك يحسّ بأنه ليس من الكلام العادي، فله نظم يعلو عن كلام البشر، وله نغم أعلى من أن نسميه موسيقى، يذوقه كل فاهم، وإن كان لا يستطيع وصفه ولا تعريفه، ولا بيان سره، كما يذوق الذائق طعامًا طيبًا، ولا يعرف اسمه ولا أرضه ولا سر طيبه، ولكنه يحكم بطيبه وإن كان تفصيل السبب لا يعرف.

قال الأستاذ: هل تعني بقولك هذا ما سمِّي بالصرفة، لأن أصحابها يذكرون أن العجز عن محكاة القرآن الكريم بصرف الله تعالى، لا بما فيه من إعجاز؟

قال: لا.. ومعاذ الله أن أقول ذلك.. ذلك قول الكسالى المقعدين.. بل إننا بالبحث ندرك الكثير من نواحي الإعجاز، ولكنا لا نستطيع أن نحيط بها.. ومن تلك النواحي نظمه.. وهو ما عبر عنه ذلك المشرك بقوله: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه

---

(١) انظر الصناعتين أبي هلال ص ١٦٧.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٤.

لثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر)

قال آخر[١]: ولهذا، فإن نظم القرآن الكريم ليس من أي نوع من أنواع من النظم الذي عند أهل البيان، فليس نثرًا مرسلًا، وليس نثرًا مصنوعًا، وليس نثرًا فيه ازدواج، كما أنه ليس نثرًا مسجوعًا، وليس فيه فواصل تشبه السجع، ولكنه شيء غير هذا، وغير ذلك.

قال آخر: لقد ذكر بعض علماء البيان المتقدمين هذا، فقال عن بديع نظمه: (إنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدِّ الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة)[٢]

قال آخر: وذكر تفاصيل وجوهه، فقال: (ذلك أنَّ نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أنَّ الطرق التي يتقيّد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفَّى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالًا، فنطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه، ولا يتصنَّع له، وقد علمنا أنَّ القرآن الكريم خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق.. فهذا إذا تأمّله المتأمل تبيّن له بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصيات ترجع إلى القرآن الكريم وتميز حاصل في جميعه)[٣]

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٥.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٦٩)

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٥)

قال آخر: وذكر منها ما عبر عنه بقوله: (ومنها أنه ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات محدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ـ قليلة أو كثيرة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من اختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلُّف والتجوّز والتعسُّف، وقد كان القرآن الكريم على طوله متناسبًا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال ـ عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتدَّ وقع التفاوت، وبان الاختلال) (١)

قال آخر: وذكر معنى آخر، وهو أنَّ (عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم، وأخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، وتجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور) (٢)

قال آخر: وذكر معنى آخر، عبر عنه بقوله: (وقد تأمَّلنا نظم القرآن الكريم فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما تنصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٦)

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٦)

فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتًا بينًا، ويختلف اختلافًا كبيرًا، ونظرنا القرآن الكريم فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه) [١]

قال آخر[٢]: وما ذكره لا يعني الإحاطة والإدراك التام الكامل الشامل، وإنما هي أمور تقريبية تقرِّب معنى الإعجاز ولا تحدُّه، وتذكر بعض الأسباب ولا تتقصاها، إنه ككل الأمور التي نحسّ بها ولا نستطيع تعرف دقائق أسراراها، فهو كتاب الله الذي يعلم السرّ وأخفى، ولكنَّا نقر بالعجز عن الإتيان بمثله لأننا ندرك علوه، ولا نعرف الأسباب التي علت به، وليس هذا من الصرفة، إنما الصرفة أن نعرف قدره وقدرتنا على مثله، ولكن ننصرف عن ذلك.

قال آخر[٣]: بالإضافة إلى هذا؛ فإن النظم القرآني في تأليفه كله له رنين الموسيقى، لقد جرى العرب كتابًا وشعراء وخطباء على أن يجدوا النغم في فاصلة سجع أو قافية شعر، لكن نظم القرآن الكريم ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه، فحروفه متآخية في كلماته، لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر، وتسكن عندها، وتطمئن النفوس، والكلمات في تآخيها في العبارات تنتج موسيقى ونغمًا يختص به القرآن الكريم وحده، وإنّ أيَّ كلام مهما يكن علو صاحبه في البيان لا بُدّ أن يكون متخلفًا عن القرآن الكريم، لا يمكن أن يلحق به؛ لأنَّه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر.

قال آخر[٤]: أجل.. فقد كان العرب يترسَّلون في منطقهم كما اتفق لهم، لا يراعون

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٧)

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢٠٧.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٢١٠.

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٤٨)

أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت إلى أن يتَّفق من هذا قطع في كلامهم تفي بطبيعة الغرض الذي تكون فيه، أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقي إن لم يكن في الغاية، ففيه قرب من هذه الغاية.. فلما قرئ عليهم القرآن الكريم رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانًا لغوية رائعة، كأنَّها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قِبَل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إنَّ من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظمًا موسيقيًّا، وطوى عمَّا وراء ذلك من التصرُّف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنما فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنًا من الشعر أو السجع.

١. الألفاظ المختارة:

قال الأستاذ: بورك فيكم.. حدثتمونا عن النظم القرآني عموما؛ فحدثونا عن أول ركن من أركانه، وهو [الألفاظ المختارة]، وما أهميتها؟

قال أحدهم: أهميتها تكمن في سلامة الكل تتبع لسلامة الجزء؛ فرب لفظة غريبة أووحشية كدرت عبارة طويلة، وذهب سمات الحسن والجمال الذي اجتمع في كثرتها.. وقد عبر بعض المتقدمين على هذا بقوله: (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة وزن الكلمة، وتميز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك)[(١)]

قال آخر[(٢)]: ولهذا نرى القرآن الكريم يتأنق في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من

(١) انظر الحيوان للجاحظ ص ٤٤٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥١.

فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفا، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا.

قال آخر(١): وذكر آخر أن اللفظة المفردة الجيدة ثمانية تتميز بثمانية أوصاف هي: أن يكون تأليفها من حروف متناسبة المخارج.. وأن يكون لتأليفها في السمع حسن ومزية.. وأن تكون غير متوعرة ولا وحشية.. وأن تكون غير ساقطة عامية.. وأن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة.. وأن لا تكون قد غير بها عن أمر آخر يكره ذكره.. وأن تكون معتدلة الحروف.. وأن تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أوخفي أوقليل، أوما يجري مجري ذلك.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، فقد اختار الفعل ﴿ذبح﴾، مصورا به ما حدث، وضعّف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل في أبناء إسرائيل يومئذ، ولا تجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها كلمة ﴿يقتلون﴾

قال آخر(٣): ومنها تنكير كلمة ﴿حياة﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، فهي تعبر تعبيرا دقيقا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها، مهما كانت حقيرة القدر، ضئيلة القيمة، وعندما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء

---

(١) البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص ١٩٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥١.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥١.

المتكلم في قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣-٢٤] عبرت بأدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ، وقد أدرك في جلاء ووضوح أن تلك الحياة الدنيا لم تكن إلا وهما باطلا، وسرابا خادعا، أما الحياة الحقة الباقية، فهى تلك التي بعد البعث؛ لأنها دائمة لا انقطاع لها، فلا جرم أن سماها حياته، وندم على أنه لم يقدم عملا صالحا، ينفعه في تلك الحياة.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١٠-١١]، فكلمة العبوس قد استعملت أدق استعمال؛ لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، فإنهم يجدونه عابسا مكفهرّا، وما أشد اسوداد اليوم، يفقد فيه المرء الأمل والرجاء، وكلمة ﴿قَمْطَرِيراً﴾ بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم، وفي كلمتي ﴿النضرة والسرور﴾ تعبير دقيق عن المظهر الحسي لهؤلاء المؤمنين، وما يبدو على وجوههم من الإشراق، وعما يملأ قلوبهم من البهجة.

قال آخر(٢): ومن دقة التمييز بين معاني الكلمات، ما تجده من التفرقة في الاستعمال بين: ﴿يعلمون، ويشعرون﴾، ففي الأمور التي يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها، تجد كلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صاحبة الحق في التعبير عنها، أما الأمور التي يكون للحواس مدخل في شأنها، فكلمة ﴿يَشْعُرُونَ﴾ أولى بها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل.. ومثل ذلك قوله ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥١.

وعلى خلاف ذلك جاءت كلمة ﴿يَشْعُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فمن الممكن أن يرى الأحياء وأن يحس بهم.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، فالعذاب مما يشعر به ويحس.. ومثل ذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]، وقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠٢].. وغير ذلك كثير.

قال آخر[١]: ومثل ذلك استخدم القرآن الكريم كلمة التراب، ولكنه حين أراد هذا التراب الدقيق الذي لا يقوى على عصف الريح استخدم الكلمة الدقيقة وهي الرماد، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٢.

مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].. كما أنه آثر عليها كلمة الثرى، عند ما قال: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٤-٦].. لأنه يريد ـ على ما يبدو من سياق الآيات الكريمة ـ الأرض المكونة من التراب، وهي من معاني الثرى، فضلا عما في اختيار الكلمة من المحافظة على الموسيقى اللفظية في فواصل الآيات.

قال آخر[١]: ومثل ذلك عبر القرآن الكريم عن القوة العاقلة في الإنسان بألفاظ، منها ﴿الفؤاد واللب والقلب﴾، واستخدم كلا في مكانه المقسوم له، فـ ﴿الفؤاد﴾ في الاستخدام القرآنى يراد به تلك الآلة التي منحها الله الإنسان، ليفكر بها، ولذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة، كالسمع، والبصر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ونجد هذا واضحا فيما وردت فيه تلك الكلمة من الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].. وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].. وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].. وقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٦-٧].. وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]

قال آخر[٢]: وهكذا نجد القرآن الكريم لا يستخدم اللب إلا مجموعا، فيراد به التفكير الذي هو من عمل تلك الآلة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٣.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، وغيرها من الآيات الكريمة.

قال آخر(١): وهكذا نجد القرآن الكريم يستعمل القلب بمعنى أداة التفكير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].. وهو يعتبره أداة الوجدان، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقوله:﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٨].. ويعتبره أداة الإرادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، وقوله:

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٣.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].. فالقرآن يستخدم القلب فيما نطلق عليه اليوم كلمة العقل، وجعله في الجوف حينا في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، وفي الصدر حينا، كما في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهو تعبير عما يشعر به الإنسان عند ما يلم به وجدان، أو تملؤه همة وإرادة.

قال آخر(١): وهكذا نجد من الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ أنه لا يكاد يذكر المشركين، إلا بأنهم أصحاب النار، لكنا نجده يقول سورة (ص): ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٢-٦٤]، حيث نراه قد استخدم كلمة ﴿أَهْلِ﴾ وهي هنا أولى بهذا المكان من كلمة (أصحاب)، لما تدل عليه تلك من الإقامة في النار والسكنى بها.

قال آخر(٢): ومثل ذلك كلمة ﴿ميراث﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فهي واقعة موقعها، وهي أدق من كلمة (ملك) في هذا الموضع، لما أن المال يرى في أيدي مالكيه من الناس، ولكنه سوف يصبح ميراثا لله.

قال آخر(٣): وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر، ليدرك السر في إيثار كلمة على أخرى، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآني، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٤.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٤.

ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٣-٦٥]، فقد يبدو للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال: إما أن تلقى وإما أن نلقى، وربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم الموسيقى فحسب، حتى تتفق الفواصل في هذا النغم، وذلك ما يبدو بادئ الرأي.. أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف عن رغبة القرآن الكريم في تصوير نفسية هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم، خائفين، أو شاكين في نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم، في نصر مؤزر عاجل، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عند ما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالنصر سواء أألقى موسى أولا، أم كانوا هم أول من ألقى.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، فقد يتراءى أن وصف الشقاق، وهو الخلاف، بالقوة أولى من وصفه بالبعد، ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذي اختاره القرآن.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، فربما كانت الموسيقى، والفاصلة في الآية السابقة دالية تجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد، فيقال: فج بعيد، ولكن إيثار الوصف بالعمق، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين، فصار كأن له طولا، وعرضا، وعمقا.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٤.

قال آخر[1]: ومثل ذلك إيثار كلمة ﴿مَسْكُوبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣١] على كلمة (غزيرة)، فهي أدق في بيان غزارته، فهو ماء لا يُقتصد في استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاده، بل ربما أوحت تلك الكلمة بمعنى الإسراف في هذا الاستخدام.

قال آخر[2]: ومثل ذلك استخدام كلمة ﴿يَظُنُّونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، فهي قوية في دلالتها على مدح هؤلاء الناس، الذين يكفي ـ لبعث الخشوع في نفوسهم، وأداء الصلاة، والاتصاف بالصبر ـ أن يظنوا لقاء ربهم، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا؟

قال آخر: ومن دقة أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ما أشار إليه بعض القدماء بقوله: (وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع، إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر، وذكر الغيث)[3]

قال آخر[4]: ولاختيار القرآن للكلمة الدقيقة المعبرة، يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير، ليشعرك به أتم شعور وأقواه، ومن الأمثلة على ذلك كلمة

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٥.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٥.

﴿يُسْكِنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].. وكلمة ﴿تَسَوَّرُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١].. وكلمة ﴿يطوقون﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].. وكلمة ﴿يَسْفِكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].. وكلمة ﴿انفجر﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].. وكلمة ﴿يَخِرُّونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].. وكلمة ﴿مُكِبًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].. وكلمة ﴿تَفِيضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].. وكلمة ﴿يُصَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].. وكلمة ﴿يدس﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].. وكلمة ﴿قاصِراتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢]..

وكلمة ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].. وكلمة ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].. وغيرها من الآيات الكريمة الكثيرة التي وضعت في مكانها المقسوم من الجملة، فجعلتها تصور المعنى تصويرا تكاد تراه بعينك، وتلمسه بيدك.

قال آخر(١): ولهذا الميل القرآنى إلى تصوير الحقائق والقيم، نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات، ولذلك تأثيره الكبير في النفس، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكنا من النفس، وتأثيرا فيها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].. فكلمة ﴿خَتَمَ﴾، تصور امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس.. وقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فكلمتا ﴿الظلمات والنور﴾ تثير العاطفة وتصور الحق والباطل.. وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، تذكر هذه الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر.. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فكلمات ﴿ينقضون ويقطعون ويوصل﴾، تصور الأمور المعنوية في صور المحس الملموس.. وغير ذلك كثير.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٦.

قال آخر[1]: وهكذا نجد في القرآن الكريم كثيرا من الألفاظ، تشع منها قوى توحي إلى النفس بالمعنى وحيا، فتشعر به شعورا عميقا، وتحس نحو الفكرة إحساسا قويّا، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨]، فكلمة ﴿تَنَفَّسَ﴾ تصور اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل، فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة، لا تحس فيها حركة ولا حياة، وكأنما الأنفاس قد خفتت حتى لا يكاد يحس بها ولا يشعر، فلما أقبل الصبح صحا الكون، ودبت الحياة في أرجائه.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨]، فكلمة ﴿ضاق﴾ في ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ توحي بما ألم بهؤلاء الثلاثة من الألم والندم، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاء، فأصبحوا لا يجدون في أنفسهم مكانا، يلتمسون فيه الراحة والهدوء، فأصبح القلق يؤرق جفنهم، والحيرة تستبد بهم، وكأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم.

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، فكلمة ﴿تتجافى﴾ تشير إلى الرغبة الملحة التي تملك على المتقين نفوسهم، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة، وكأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

حتى تجفوها، وتنبو عنها.

قال آخر(١): ومثل ذلك كلمة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في قوله تعالى: اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (البقرة ١٥). فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى في الحروف كفيل بالإيحاء إلى النفس، بما فيه هؤلاء القوم من حيرة واضطراب نفسى، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فكلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ توحي بالقلق، الذي يملأ صدور الناس في ذلك اليوم، لشدة اقترابهم من جهنم، وكأنما هم يبعدون أنفسهم عنها في مشقة وخوف وذعر.

قال آخر(٣): ومثل ذلك كلمة ﴿طمس﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧]، فهي توحي بانمحاء معالم هذه العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل في هذا الوجه وجود.

قال آخر(٤): ومثل ذلك كلمة ﴿الراسخون﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، فهي توحي بالثبات المطمئن، الذي يملأ قلب هؤلاء العلماء، لما ظفروا به من معرفة الحق والإيمان به.

قال آخر(٥): ومثل ذلك كلمة ﴿شَنَآنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، فهي توحي بهذا الجوى، الذي يملأ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٧.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٨.

الصدر، حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه، ولا تستسيغ نفسه الاقتراب منه.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، فالتعبير بالتطهير، يوحي بما يشعر به المؤمن بالله نحو قوم مشركين، اضطر إلى أن يعيش بينهم، فكأنهم يمسونه برجسهم، وكأنه يصاب بشيء من هذا الرجس، فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم.

قال آخر(٢): ومثل ذلك كلمة ﴿سُكِّرَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، فقد عبر بها الكافرون عما يريدون أن يوهموا به، عما حدث لأبصارهم من الزيغ، فكانت كلمة ﴿سُكِّرَتْ﴾، وهي مأخوذة من السكر دالة أشد دلالة على هذا الاضطراب في الرؤية، ولا سيما أن هذا السكر قد أصاب العين واستقل بها، ومعلوم أن الخلط من خصائص السكر، فلا يتبين السكران ما أمامه، ولا يميزه على الوجه الحق.

قال آخر(٣): وقد اختار القرآن الكريم عند عد المحرمات كلمة ﴿أُمَّهاتُ﴾، إذ قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].. وآثر كلمة ﴿الْوالِداتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ذلك أن كلمة ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ تبعث في النفس إحساسا بالقداسة، وتصور شخصا محاطا بهالة من الإجلال، حتى لتشمئز النفس وتنفر أن يمس بما يشين هذه القداسة، وذلك الإجلال، وتنفر من ذلك أشد النفور، فكانت أنسب كلمة تذكر عند ذكر المحرمات، وكذلك تجد كل كلمة في هذه المحرمات مثيرة معنى يؤيد التحريم، ويدفع إليه، أما كلمة

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٨.

﴿الْوَالِدَاتُ﴾ فتوحى إلى النفس بأن من الظلم أن ينزع من الوالدة ما ولدته، وأن يصبح فؤادها فارغا، ومن هنا كانت كل كلمة منهما موحية في موضعها، آخذة خير مكان تستطيع أن تحتله.

قال آخر[1]: وقد تكون الكلمة في موضعها مثيرة معنى لا يراد إثارته، فيعدل عنها إلى غيرها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فقد آثر كلمة ﴿صاحِبَةً﴾ على زوج وامرأة، لما تثيره كلاهما من معان، لا تثيرهما في عنف مثلهما كلمة ﴿صاحبة﴾

قال آخر[2]: وقد يكون الجمع بين كلمتين هو سر الإيحاء ومصدره، كالجمع بين ﴿النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].. فهذا الجمع يوحى إلى النفس بالمشاكلة بينهما والتشابه.

قال آخر[3]: وقد تكون العبارة بجملتها هي الموحية كما في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] فهذه الثياب من النار، توحي بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم، فقد خلقت الثياب يتقي بها اللابس الحر والقر، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران.

قال آخر[4]: ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٩.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٩.

وهج الشمس، فكيف إذا كان الظلة نفسها من النيران؟

قال آخر[1]: وهكذا نجد عددا كبيرا من ألفاظ القرآن الكريم، تصور الحقائق بحروفها، كما في (الظاء والشين) في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥].. و (الشين والهاء) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٦-٧].. و(الظاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤].. و(الفاء) في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١١-١٢]، فهي حروف تنقل صوت النار مغتاظة غاضبة.. و(الصاد) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، وهي حروف تنقل صوت الريح العاصفة، كما تحمل (الخاء) في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] صوت الفلك، تشق عباب الماء.

قال آخر[2]: وهكذا نجده في كل محل ينتقي الكلمات المناسبة من كل الزوايا والجهات.. فقوله تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، لو قال مكانه: (وثمر الجنتين قريب) لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل.

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فهو أحسن من التعبير بـ (تقرأ) لثقله بالهمزة.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] أحسن من (لا شك فيه) لثقل

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٥٩.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فهو أحسن من (ولا تضعفوا) لخفته.. ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، فهو أحسن من (ضعف)؛ لأن الفتحة أخف من الضمة.

قال آخر[2]: ومثل ذلك كلمة ﴿آمن﴾ أخف من (صدق)، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]

قال آخر[3]: ومثل ذلك كلمة ﴿آثَرَكَ اللَّهُ﴾ أخف من (فضّلك).. و﴿آتى﴾ أخف من (أعطى).. و﴿أنذر﴾ أخف من (خوّف).. و﴿خير لكم) أخف من (أفضل لكم).. والمصدر في نحو قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]، و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أخف من (مخلوق) و(الغائب)

قال آخر[4]: ومثل ذلك كلمة ﴿نكح﴾، فإنها أخف من (تزوج)؛ لأن فعل أخف من تفعّل، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر.. ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الغضب والمقت، في أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة؛ لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام، كأن يقال: (يعامله معاملة الغضبان، والماقت)، فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة، لخفته، واختصاره، وابتنائه على التشبيه البليغ، فإن قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] أحسن من (فلما عاملونا معاملة المغضب) أو (فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب)

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

(٤) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

قال آخر[1]: وهكذا نرى القرآن الكريم يهجر الألفاظ الثقيلة، ومن الأمثلة على ذلك هجره لكلمتي (الآجر) و(الأرضين).. أما الأولى فقد أعرض عنها في سورة القصص، فبدل أن يقول على لسان فرعون: (فهيئ لى يا هامان آجرا، فاجعل لى صرحا، لعلى أطلع إلى إله موسى)، قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].. وأما الثانية فقد تركها في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]

قال آخر[2]: بل إننا عندما نوازن بين الكلمات التي استخدمها القرآن الكريم وجاء مثلها في الشعر، نجد البون شاسعا، حيث تأتي في القرآن الكريم جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].. فلو وازنا بقول المتنبي ـ وهو أمير الشعراء وأكبرهم ـ:

تلذ له المروءة، وهي تؤذى   ومن يعشق يلذ له الغرام

فهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلا أن لفظة [تؤذى] قد جاءت فيه وفي آية القرآن، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، وحسن موقعها في تركيب الآية.. ذلك أنها إذا جاءت في الكلام، ينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها، متعلقة به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾، وقد جاءت في قول المتنبى منقطعة..

قال آخر[3]: ومثل ذلك عندما نوازن بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥.

(٢) المثل السائر: ص ٥٧.

(٣) المثل السائر: ص ٥٨.

نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، فلفظة (لي) مثل لفظة يؤذى، وقد جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة، كقول المتنبي أيضا:

تمسى الأمانى صرعى دون مبلغه   فما يقول لشيء: ليت ذلك لى.

قال آخر(١): ومثل ذلك عندما نوازن بين لفظة أخرى، وردت في القرآن الكريم، وفي بيت من شعر الفرزدق، حيث جاءت في القرآن الكريم حسنة، وفي بيت الشعر غير حسنة، وتلك اللفظة هي لفظة ﴿القمل﴾، أما الآية فقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].. وأما بيت الشعر فقول الفرزدق:

من عزه احتجرت كليب عنده   زريا، كأنهم لديه القمّل

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون هذا بيت الشعر؛ لأنها جاءت في الآية مندرجة في ضمن كلام، ولم ينقطع الكلام عندها، وجاءت في الشعر قافية، أي آخرا، انقطع الكلام عندها

قال آخر(٢):وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم، نجد غصنا في بحر عميق لا قرار له، فمن ذلك ما ذكرته من قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].. فهذه الآية قد تضمنت خمسة ألفاظ، هى: ﴿الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم﴾، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هى: ﴿الطوفان، والجراد، والدم﴾، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا الطوفان، والجراد، وأخرت لفظة الدم آخرا،

---

(١) المثل السائر: ص ٥٨.   (٢) المثل السائر: ص ٥٨.

وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط؛ ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة، وينتهى إليه آخرا، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان، والجراد، وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخرا، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية.

قال آخر[1]: ومثل ذلك استخدام كلمة شيء، حيث نجدها في القرآن الكريم جميلة في مكانها المقسوم لها على خلاف ما ترد عليه في الشعر.. ففي القرآن الكريم نرى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]،وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرها من عشرات الآيات التي وردت فيها تلك اللفظة، وكانت متمكنة في مكانها أفضل تمكن وأقواه.. فإذا قارناها مع قول المتنبى يمدح كافورا:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه   لعوقه شيء عن الدوران

فإننا نحس بقلقها في بيت المتنبى، ذلك أنها لم توح إلى الذهن بفكرة واضحة، تستقر النفس عندها وتطمئن، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشيء، الذي يعوق الفلك عن الدوران، فكأن هذه اللفظة لم تقم بنصيبها في منح النفس الهدوء الذي يغمرها، عند ما تدرك المعنى وتطمئن إليه.

قال آخر[2]: وهكذا نرى القرآن الكريم يؤثر أحيانا كثيرة الكلمة الغريبة التي يزدان بها الأسلوب ويجمل على الكلمة الشائعة العامية، ولهذا نراه يستخدم ﴿إِلْحَافاً﴾ بدل (إلحاحا) في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾

____

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.

[البقرة: ٢٧٣]، وربما كان لتكرير الحاءين في الكلمة أثر في الإعراض عنها، وليس ذلك بعجيب على كتاب نزل، ليتحدى أبلغ البلغاء، مستخدما أجمل وأرقى ما يعرفونه من الألفاظ.

قال آخر[1]: وهذا أكبر رد على أولئك الذين يستغربون [غريب القرآن]، مع أنه قد برئ من الثقل على اللسان، والكراهة على السمع، ومع أن القرآن الكريم لا يستخدم هذا النوع من الألفاظ إلا قليلا.

قال آخر[2]: أجل.. فليس كل ما ذكره المؤلفون في القرآن الكريم مما يندرج في هذا النوع، بل يضعون فيه كل ما يرتفع قليلا عن مستوى العام الشائع، فتجد السجستانى مثلا يعد منه كلمات ﴿انفصام، وإسرافا، وادرءوا، وإعصار﴾[3]، وليس ذلك بغريب.

قال آخر[4]: أما ما نعده اليوم غريبا فعدد محدود من الكلمات، مثل ﴿قَضْباً، وأبا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٥-٣١].. والقضب: القث، والأب ما ترعاه الأنعام، ويقال: الأب للبهائم كالفاكهة للناس.. وقد جاءت الكلمتان فاصلتين محافظتين أقوى محافظة على النغم الموسيقى، كما أن الكلمة الثانية استخدمت في معناها الدقيق.

قال آخر[5]: وعلى هذا الوجه جاءت إِدًّا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩].. بمعنى الأمر العظيم.

قال آخر[6]: وقد يكون ما يحيط بالكلمة دالا على معناها، كما نجد ذلك في ﴿أركس﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.
(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.
(٣) غريب القرآن ص ٣٦ و٣٧.
(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.
(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.
(٦) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.

رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١].. وفي ﴿أَكِنَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].. وفي ﴿أَمْتاً﴾ بمعنى ارتفاعا وهبوطا، من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].. و﴿ألتنا﴾ بمعنى نقصنا، من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]

قال آخر[(١)]: وقد يتولى القرآن الكريم نفسه تفسير ما يرد من تلك الألفاظ، ويكون ذلك في موضع الترهيب والزجر، أو الوعد بالخير، فيكون النطق بهذه الكلمة الغريبة، مثيرا في نفس سامعها السؤال عنها، والتنبه القوى لمعناها، حتى إذا جاء هذا المعنى استقر في النفس، فملأها خوفا، أو غمرها بالبهجة والحبور.. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٢٦-٣١].. وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٧-٢١]

قال آخر[(٢)]: ولعل من وجوه بلاغة استخدام هذه الألفاظ الأدبية التي لم تشع على الألسنة إلّا قليلا، ما نراه من اختيار ما حسن وقعه على الأذن، وجريه على اللسان منها، ثم

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٤.

في وضعه حيث لا يغني غيره من الألفاظ غناءه، لتناسب موسيقاه، أو لأنه يؤدى المعنى الدقيق دون سواه، وفي ذلك من براعة الاستعمال ما لا نجده في الألفاظ المستعملة الشائعة.

قال آخر(١): وهكذا نرى القرآن الكريم يستخدم ألفاظا تكلمت بها العرب، وأدخلتها في لغتها، وإن كانت في أصلها ليست من اللغة العربية، وقد صقلتها العرب بألسنتها، وشذبتها، وربما تكون قد غيرت بعض حروفها، أو أسقطت بعضها، وإذا أدخلت العرب هذه الألفاظ، استغنت بها غالبا عن أن تضع ألفاظا في معناها.. ومن هذه الكلمات التي استخدمها القرآن الكريم كلمة ﴿إبريق﴾ في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].. وكلمات ﴿إِسْتَبْرَقٍ، وزَنْجَبِيلًا، وسُنْدُسٍ، وسلسبيل﴾(٢)، في قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ١٦-٢١]

قال آخر(٣): ومثلها كلمة ﴿كافور﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].. و﴿الْفِرْدَوْسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].. و﴿التَّنُّورُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].. و﴿دِينارٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٦.

(٢) المعرب للجواليقى ص ٢٣، ص ١٥ و١٧٤ و١٧٧ و١٨٩ على التوالى.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٦.

أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].. ودَراهِمَ في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].. و﴿سِجِّيلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٣-٤].. و﴿سرادق﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].. و﴿القسطاس﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]، وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].. و﴿الْمَجُوسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].. وغيرها.. مع العلم أن هناك الكثير من الكلمات العربية والمدرجة ضمن المعربة[1]، مثل كلمات ﴿سيد، وابلعى، وأواب، وتحت﴾، وغيرها.. وربما اتفقت العربية وغيرها من اللغات فيها.

قال آخر[2]: وليس استخدام هذه الألفاظ المعربة بمخرج القرآن عن أن يكون بلسان عربى مبين، فقد ارتضى العرب هذه الألفاظ، واستخدموها في لغتهم، وارتضوها بين كلماتهم، وقد نزل القرآن بها ألف العرب استعماله، ليدركوا معناه، فليس غريبا أن يتخذ من تلك الأدوات المعربة، أدوات له يؤدى بها أغراضه، ومعانيه.

---

(١) انظر الإتقان ج ١ ص ١٣٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٧.

قال آخر[1]: بل إن في استخدامها وجوها من البلاغة، ذلك أنها تؤدى معانيها الدقيقة في عبارة موجزة، لأن العرب لم تضع لفظا تدل به على معنى ما عربته، فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه، سوى اختيار اللفظ المعرب، أو الإتيان بأكثر من كلمة لأداء معناه، فإذا أريد مثلا الاستغناء عن كلمة ﴿استبرق﴾، احتيج إلى كلمتين أو أكثر، فقيل (الديباج الثخين)، وما دامت الكلمة المعربة خفيفة على اللسان، فهى أولى من الكلمتين، وهي متعينة حين لم يضع العرب بدلا منها.

٢. الآيات المحكمة:

قال الأستاذ: حدثتمونا عن الركن الأول من أركان النظم القرآني، وهو [الألفاظ المختارة].. فحدثونا عن الركن الثاني [الآيات المحكمة]

قال أحدهم[2]: لقد وصف الله تعالى آيات القرآن الكريم، فقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].. وذلك خير ما توصف به الجمل القرآنية المترابطة، فهى بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تتوافق مع أخواتها، حتى صار من العسير، بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئا، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، وهي بحر خضم، ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن الكريم لهذا الأداء.

قال آخر[3]: ولهذا نرى الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٤.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٤.

في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهرا فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار.

قال آخر(١): أحسنت.. ومن الأمثلة التي تدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].. حيث نجد ﴿إسماعيل﴾ معطوفا على ﴿إبراهيم﴾، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر، يوحي بأن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم عليه السلام.. فنزلت الآية، وكأنما كانت ستُغفل دور إسماعيل عليه السلام لثانويته، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكونها.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].. فإننا نرى تقديم المفعول هنا؛ لأنه موضع عناية العابد ورجاء المستعين، فلا جرم وهو مناط الاهتمام أن يتقدم كما يتقدم كل ما يُهتم به ويُعنى.

قال آخر(٣): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].. حيث نجد المستعان عليه في الآية غير مذكور، لا تخففا من ذكره، ولكن ليوحي هذا الحذف إلى النفس أن كل ما يقوم أمام المرء من مشقة، وما يعترضه من صعوبات، يستعان على التغلب عليه، بالصبر والصلاة.

قال آخر(٤): وهكذا تمضي الجملة القرآنية، وقد كُونت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق،

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٥.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٥.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٥.

ودقة ترتيب، وإحكام في تلاؤم.

قال آخر(١): أحسنت.. ومن الأمثلة التي تدل على ذلك قوله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].. حيث نرى الآيات قد التحم نسجها، وارتبط بناء بعضها ببعض، تسلم الجملة إلى أختها، في التئام واتساق.. فالجملة الأولى قد وصفت القرآن الكريم بالكمال.. ووصفته الثانية، بأنه لا يعلق به الريب، لا في أخباره، ولا في نسبته إلى الله.. وفي التالية لها وصفته بكونه هاديا لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه.. ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن الكريم؛ فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها، ويقومون بواجبهم لله، فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدي، وواجبهم للمجتمع، فيقدمون من أموالهم ما يساعدون به البائس والمعتر، ولا يتعصبون لرسول دون رسول، بل يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل من قبله، ورأس الإيمان وأساسه هو إيمانهم باليوم الآخر، لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، وينهى عن المنكر والبغى، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين.

قال آخر(٢): وهكذا نجد الجمل في القرآن الكريم توحي ألفاظها بمعان لا يستطيع لفظ أن يحدها، بل يترك للنفس أمر إدراكها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤].. فجملة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ﴾ توحي بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه، وما هم حقيقة عليه، فأى خيبة أمل تملأ النفس منهم.. فهذه الجملة القصيرة تدل على سخط

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٥.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٥.

شديد، وتعجب لأمور ما كان ينتظر حدوثها، ونتائج كانت المقدمات تمهد لغيرها.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، حيث نحس في قوله: ﴿تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ﴾ التهكم اللاذع بهم، وأن تلك الأمانى التي تجول في صدورهم، لن تجد لها سبيلا إلى التحقق في غير أحلامهم.

قال آخر(٢): وهكذا تُستخدم الجملة الفعلية في القرآن الكريم للدلالة على التجدد والحدوث، والاسمية للثبوت والاستمرار.. والمراد بالتجدد في الماضي حصوله، وفي المضارع تكراره..، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، حيث أتى في الخلق بالماضي لحصوله مرة واحدة.. وفيما عداه بالمضارع لتكرره طول الحياة.

قال آخر(٣): ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]، حيث نجد الفعل المضارع هنا دالا على ما يتجدد من فعل الله سبحانه في كل حين..

قال آخر(٤): وهكذا نجده يستخدم الجملة الاسمية للثبوت والاستمرار في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٦.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٦.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٦.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٦.

أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]

قال آخر(١): وقد يتغير اتجاه الجملة تبعا لتغيّر الاتجاه النفسي؛ ففاتحة الكتاب ـ مثلا ـ قد تلون فيها الحديث، وتغير اتجاه الجملة، فكان حديثا عن الله المستحق للحمد، وكان التصريح باسمه وصفاته مؤذنا بأنه أهل للحمد والثناء.. فإذا كان المقام مقام العبادة والاستعانة، تحولت الجملة إلى الخطاب إيذانا بقربك ممن تحمد قربا قلبيا، ويسمح لك الشعور بهذا القرب أن تطلب منه العون والمساعدة.. ويستمر الخطاب في الجمل إلى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] حتى إذا جاء دور ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿الضَّالِّينَ﴾ تحول الأسلوب مرة أخرى، فمن تعظيم الله ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه والإضلال.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٨٩].. فالانتقال من الحديث عنهم، إلى الحديث إليهم زيادة في تهديد من قالوا، ومواجهة لهم بالسخط عليهم، والتأنيب لهم.

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فقد يكون ظاهر السياق أن يقال: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي بارك حوله، ليريه من آياته، إنه هو السميع البصير)، ولكنه عدل عن الغيبة إلى الحضور في وسط الآية، تعظيما من شأن المسجد الأقصى، ومن شأن ما يرى الله من آياته.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٦.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٦.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٧.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، فقد يتراءى أن اتجاه الآية يقضي بأن تنتهي بقوله: (وإليه أرجع)، ولكنه عدل عن ذلك؛ لأن المقام مقام نقاش بين من آمن ومن كفروا؛ فهو ينتهز كل فرصة ليقنعهم فيها بوجود الإيمان بالله واليوم الآخر.. وهذه الخاتمة على أن كمال الأدب هو الذي صاغ العبارة هذا الصوغ، وأنه يخفي وراءها قوله: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم)؛ وقد يكون في تعبيره هذا موحيا لهم بأنه لا يريد لهم غير ما يريد لنفسه؛ وذلك أسرع إلى قبول النصح، وأشد إظهارا للإخلاص.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، فقد كان السياق يقضى أن تسير الآية على الخطاب، ولكنه انتقل ليقص قصة هؤلاء الذين لا يذكرون الله إلا عند شدة تنزل بهم، حتى إذا انقضت المحنة بغوا في الأرض، وفي ذلك تعجيب من أمر هؤلاء القوم، وإنكار عليهم كفرهم بأنعم الله، ونسيانهم التخلص من المآزق متى ابتعدوا عنها، وفي الحديث عن غائبين إيحاء للمخاطبين بألا يفعلوا هذا الفعل المستنكر.

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٧.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٧.

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢-٩٣].. وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد يكون ظاهر السياق يقضي أن يقول: (فآمنوا بالله وبي)، ولكنه عدل عن ذلك ليبين الدوافع التي تدعو إلى الإيمان به واتباعه.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]، فعند ما جاء الحديث عن زينة السماء الدنيا، نسب ذلك إلى نفسه صراحة، لما فيها من الجمال الذي يبهر نفس رائيه، والنفع الملموس لهم، فذكرهم الله بأنه خالق هذا الجمال، ومبدع هذه الزينة.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]، فربما ظن أن وجه العبارة أن تسند الأفعال كلها إلى ضمير الاثنين: (موسى وهارون)، لكنه أسند الفعل مرتين إلى واو الجماعة إشارة إلى أن هذا التكليف لا يخصهما فحسب، بل هما وقومهما جميعا، ثم أفرد الفعل في آخر الآية يشير بذلك إلى أن المخاطب أولا وبالذات إنما هو أحدهما، وهو الرسول موسى عليه السلام.

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٨.

آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]، فلم يقل: (وأشهدكم)، لما يشعر به هذا التعبير من العناية بأمرهم، لجعلهم قرناء لله، في الشهادة عليه؛ أما التعبير بفعل الأمر ففيه تنبيه لهم، وإيقاظ، حتى يتلقوا ما سيلقيه عليهم، مؤذنا إياهم بمباينتهم فيما يعبدون.

قال آخر[١]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فقد أبرز هذا التلوين العناية بكل واحد مما أمروا به على حدة، فاتجه أمر الرب إلى القسط وحده، ثم أمروا أمرا جديدا، بأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، وأمرا جديدا آخر بأن يدعوه مخلصين له الدين، وفي ذلك من العناية بتوكيد كل أمر ما فيه، ولم يجعل أحد هذه الأمور ملحقا بصاحبه.

قال آخر[٢]: ومثل ذلك تفخيم أمر النبي ﷺ بذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، إذ لم يقل: واستغفرت لهم.

قال آخر[٣]: ومثل ذلك استعمال أحد الفعلين الماضي والمضارع، موضع صاحبه، فيأتي بالمضارع مكان الماضي؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع، حتى لكأنه يشاهده؛ وليس ذلك مما يثيره الفعل الماضي، لأن سامعه قد يكتفي بأن يتخيل فعلا قد مضى، وربما لا يستحضر صورته أو تكرره.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، حيث نجد الفعل

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٨.

المضارع قد صور جريمتهم كأنهم يرتكبونها؛ وفي ذلك من التشنيع عليهم ما فيه.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].. ففي ﴿تثير﴾ ما يحضر تلك الصورة الطبيعية، الدالة على القدرة الباهرة.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ففي ذكر المضارع استحضار صورة خطف الطير له، وهويّ الريح به.

قال آخر(٣): وهكذا يستخدم القرآن الكريم الماضي مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل، حتى كأنه قد وقع، وذلك يكون فيما يستعظم من الأمور، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].. وقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]

قال آخر(٤): ومثله قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، ففي الإتيان بالماضي هنا من إيقاع الرهبة في النفوس ما فيه لأن الفعل كأنه قد تم، والقرآن الكريم يتحدث عنه.

قال آخر(٥): ومثله استخدام الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٩.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٩.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٩.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٩.

الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، وفي ذلك إشارة إلى ما اتسم به هؤلاء التائبون من مبادرة، وإسراع إلى التوبة.

قال آخر(١): ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧]، ففي ذلك تأكيد لما سيحدث في المستقبل حتى كأنه حدث.

٣. الفواصل الجميلة:

قال الأستاذ: حدثتمونا عن الركن الثاني من أركان النظم القرآني، وهو [الآيات المحكمة].. فحدثونا عن الركن الثالث [الفواصل الجميلة]

قال أحدهم(٢): الفواصل القرآنية هي تلك الكلمة أو الكلمات التي تُختم بها الآيات القرآنية، وهي بذلك تابعة للآيات المحكمة، وسر من أسرار إحكامها، ولكنها خُصت بالحديث، لما فيه من المعاني والجمال.. ولعل اسمها مقتبس من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].. وربما سميت بذلك؛ لأن بها يتم بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة، وهذا لأن التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٨٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٣.

بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]

قال آخر[١]: ولهذا؛ فإن مكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميزة في بناء هيكل السورة، وتنزل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، ويتم بها النغم الموسيقى للآية.

قال آخر[٢]: ولهذا نرى الفاصلة في القرآن الكريم مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهى تؤدى في مكانها جزءا من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها.

قال آخر[٣]: وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها، حتى لتوحى الآيات بها، قبل نطقها، وحتى ليأبى قبولها، والاطمئنان إليها، من له ذوق سليم، إذا غيرت وأبدل بها سواها، كما حكى أن أعرابيّا سمع قارئا يقرأ: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] بإبدال الفاصلة بـ (فاعلموا أن الله غفور رحيم)، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه، والآية إنما ختمت بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وسواء أصح ذلك أم لم يصح، فإنا نشعر هنا بما بين الفاصلة والآية، من ارتباط لا ينفصم.

قال آخر[٤]: ومن الأمثلة على ذلك تلك الآيات التي تنتهي بوصفه سبحانه بالحكمة، حيث نجد فيها ما يناسب تلك الحكمة ويرتبط بها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهَّ يَعْلَمُ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٤.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٤.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٥.

الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فالمقام مقام تشريع وتحذير يستدعي عزة المحذر، وحكمة المشرع.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].. فالمقام هنا مقام للتعليم، ووضع هذا التعليم في موضع دون سواه، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم والحكمة.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].. فالتفرد بالألوهية، والتصرف المطلق في اختيار ما يشاء، ثم تصوير الجنين على صورة خاصة، كل ذلك يناسب وصفه تعالى بالعزة والحكمة.

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٥-١٢٦].. فإمداد المؤمنين بالملائكة لتطمئن قلوبهم من نعم حكيم، يمهد للمسببات بأسبابها، والنصر لا يكون إلا من عزيز يهبه لمن يشاء.

قال آخر(٤): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠-٧١] فهو عليم بخيانتهم، حكيم في التمكين منهم.

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٥.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٥.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٥.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٥.

قال آخر[1]: وربما يحتاج الأمر إلى إمعان وتدبر، لمعرفة سر اختتام الآية بهذا الوصف، ويبدو أن ختمها بسواه أولى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فقد يبدو بادئ الرأي أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، يحتم أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم)، ولكن تأملا هادئا يهدي إلى أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد، يرد عليه حكمه، فهو عزيز غالب، وحكيم يضع الشيء في موضعه، وقد يخفى وجه الحكمة على الناس فيما يفعل، فيتوهم أنه خارج عن الحكمة، وليس كذلك، فكان الوصف بالحكيم احتراسا حسنا، أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب، فلا اعتراض لأحد عليك في ذلك، والحكمة فيما فعلته.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].. وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].. وقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨]

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] فقد يبدو من المناسب بادئ الرأي أن يوصف سبحانه هنا بتواب رحيم؛ لأن الرحمة مناسبة للتوبة، لكن التعبير بالحكمة هنا، إشارة إلى حكمته سبحانه في مشروعية اللعان، الذي سن أحكامه، في سورة النور.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٥.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٦.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٦.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى في الآيات التي تنتهى بوصفه تعالى بالعلم، أو بالقدرة، أو بالحلم، أو بالغفران، حيث نجد المناسبة في ذلك الختم واضحة جلية، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] أي ﴿إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ولذلك هو يعلم بما يجري في المشرق والمغرب.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].. أي السميع لنجوانا، والعليم بما تضمره أفئدتنا من الإخلاص لك.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨١].. فهو سميع بما تم من وصية وعليم بمن يبدلها.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].. فالمجيء بالساعة في مثل لمح البصر أو أقرب، يستدعي القدرة الفائقة.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].. فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة.

قال آخر[2]:وربما خفي الأمر في الختم بأحد هذين الوصفين، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٦.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٠٣.

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، فإن المتبادر إلى الذهن في الآية الأولى الختم بالقدرة، وفي الثانية الختم بالعلم، ولكن لما كانت الأولى عن خلق الأرض وما فيها، على حسب مصلحة أهلها ومنافعهم، وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، والخالق على هذا النسق يجب أن يكون عالما بما فعله، كليّا وجزئيّا، مجملا ومفصلا، ناسب ذلك ختمها بصفة العلم، ولما كانت آية آل عمران مسوقة للوعيد، وكان التعبير بالعلم فيها، يراد به الجزاء بالعقاب والثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة القادرة على هذا الجزاء.

قال آخر[١]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، حيث نجد مناسبة الغفران والحلم لعدم المؤاخذة على اللغو في الإيمان، واضحة قوية.

قال آخر[٢]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].. فالله غنى عن هذه الصدقة المتبوعة بالأذى، وحليم لا يعجل العقوبة، فربما ارتدع هذا المتصدق المؤذي.

قال آخر[٣]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].. فالعفو عن هؤلاء الذين استزلهم الشيطان، يناسبه وصف الله بالغفور الحليم أتم مناسبة.

قال آخر[٤]: وقد يخفى وجه الوصف بذلك في بعض الآيات، كما في قوله تعالى:

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٧.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٧.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٧.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فختم الآية بالحلم والمغفرة عقب تسبيح الأشياء غير ظاهر في بادئ الرأي، ولكن لما كان كل شيء في السموات والأرض يسبح بحمد الله، ويشير إليه، ويدل عليه، كان من الغفلة التي تستحق العقوبة ألا نفقه دلالة هذه المخلوقات على الخالق، فناسب ذلك وصفه بالحلم والغفران، حين لم يعاجل هؤلاء الغافلين بالعقاب.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، حيث وصفوه بالحلم أي العقل، الذي لا يتناسب في زعمهم مع دعوته إياهم إلى ترك عبادة ما كان آباؤهم يعبدون، ووصفوه بالرشد الذي يتنافى في زعمهم كذلك، مع دعوته إياهم إلى ترك تصرفهم في أموالهم، كما كانوا يتصرفون، فقد ناسبت الفاصلة معنى الآية تماما.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٥-٢٧]، حيث ختمت الآية الأولى بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾، لأن الموعظة فيها مسموعة، وهي أخبار من قبلهم من القرون، وختمت الثانية بـ ﴿يُبْصِرُونَ﴾؛ لأن الموعظة فيها مرئية من سوق الماء إلى الأرض الجرز، وإخراج الزرع وأكل النبات.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٧.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٠١.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، حيث ختمت الآية باللطيف، وهو يناسب ما لا يدرك بالبصر، وبالخبير، وهو يناسب ما يدرك الأبصار.

قال آخر(٢): وقد تجتمع فواصل متنوعة، بعد ما يكاد يتشابه، لحكمة في هذا التنوع، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٠-١٢].. حيث ختمت الأولى بـ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، لما أن الاستدلال بإنبات الزرع، والثمر، على وجود الله وقدرته، يحتاج إلى فضل تأمل، يرشد إلى أن حدوث هذه الأنواع، يحتاج إلى إله قادر، يحدثه، فناسب ذلك ختم الآية بها ختمت به.. وانتهت الثانية بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان، فيرتاح ليلا ويعمل نهارا، وتسخير الشمس، والقمر، والنجوم، فتشرق وتغرب في دقة ونظام تامين، يحتاج إلى عقل يهدي إلى أن ذلك لا بدّ أن يكون بيد خالق مدبر.. وختمت الثالثة بـ ﴿يَذْكُرُونَ﴾؛ لأن الموقف فيها يستدعي تذكر ألوان مختلفة بثها الله في الأرض، للموازنة بين أنواعها، بل الموازنة بين أصناف نوع منها، فلا يلهيهم صنف عن سواه، ولا يشغلهم نوع عن غيره، وهذه الموازنة تفضي إلى الإيمان بقدرة الله، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة.

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٠١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٨.

(٣) الإتقان: ٢/ ١٠٢.

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، حيث ختمت الأولى بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والثانية بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، والثالثة بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لأن الوصايا التي في الآية الأولى، إنما يحمل على تركها عدم العقل، الغالب على الهوى؛ لأن الإشراك لعدم استكمال العقل، الدال على توحيده، وعظمته، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل، لسبق إحسانهما، إلى الولد بكل طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق، مع وجود الرازق الحي الكريم، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل، فحسن بعد ذلك يعقلون.. وأما الثانية فتعلقها بالحقوق المالية، والقولية، فإن من علم أن له أيتاما، قد يخلفه عليهم غيره من بعده، لا يليق به أن يعامل أيتام غيره، إلا بما يحب أن يعامل به أيتامه، ومن يكيل، أو يزين، أو يشهد لغيره، لو كان ذلك الأمر له، لم يحب أن يكون فيه خيانة، وكذا من وعد لو وعد، لم يحب أن يخلف، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبره وتأمله، فلذلك ناسب الختم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.. وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه، وإلى عقابه، فحسن الختم بـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي عقاب الله.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧-٩٩]، حيث ختمت الآية الأولى بالعلم، لأن الاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر مما يختص به العلماء، فكان إدراك هذا الفضل آية يستدلون بها على وجود الله وقدرته.. وختمت الآية الثانية بالفقه؛ لأن إدراك إنشاء الخلائق من نفس واحدة، وتنقلهم في الأصلاب والأرحام، مما يحتاج إلى تدبر وتفكر، ناسبه ختم الآية بيفقهون، إذ الفقه فهم الأشياء الدقيقة.. وتحدثت الآية الثالثة عن النعم التي أنعم الله بها على عباده: من إخراج النبات والثمار، وألوان الفواكه، فناسب ختمها بالإيمان، الداعي إلى شكره تعالى على نعمه.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢]، حيث ختم الأولى بـ ﴿تؤمنون﴾؛ لأن مخالفة القرآن الكريم لنظم الشعر ظاهرة واضحة، فمن قال إنه شعر كان كافرا ومعاندا عنادا محضا، فكان من المناسب ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ﴾؛ أما مخالفة القرآن الكريم لنظم الكهان فمما يحتاج إلى تدبر وروية، لأن كلا منها نثر، فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، ولكنها تظهر بتدبر ما في القرآن الكريم من بلاغة رائعة ومعان أنيقة، فحسن لذلك ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ﴾

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٦٩.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ٢٠٢.

قال آخر(١): وقد تختلف الفاصلتان في موضعين، والمتحدث عنه واحد فيهما، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله في موضع آخر: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٧-١٨]، فسر هذا الاختلاف، أن القرآن الكريم راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله، فهو ظلوم كفار، وأخرى مقابلة الله سبحانه نكران الجميل والظلم والكفر بالنعم، بالغفران والرحمة، وكان ختام الآية الأولى بما ختمت به، لأنها كانت في معرض صلة الإنسان بالله، وكانت الثانية في معرض الحديث عن الله، فناسب ختم الآية بذكر صفاته.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٤-١٥]، حيث كررت هذه الآية في موضع آخر، وختمت بفاصلة أخرى، إذ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].. ولعل سر ذلك أن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكرى البعث، فناسب ختم الآية بالحديث عنه.. أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها، من جزاء كل بما يستحق.

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وقال مرة أخرى في السورة نفسها: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، لأن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٠.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٠.

الله الكذب، مما ناسب أن تختم الآية بالافتراء، الذي اعتاده اليهود، وهم أهل الكتاب.. أما الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون، ولكنهم ضالون ضلالا بعيدا.

قال آخر(١): وقد تكون المخالفة لتعديد الأوصاف وإثباتها، حتى تستقر في النفس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وذلك لأن من لم يحكم بما أنزل الله ساتر لما أنزله الله، ظالم لنفسه، فاسق بهذا الستر.

قال آخر(٢): وقد يتشابه المقامان في الهدف والغاية فتتحد الفاصلة فيهما كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨-٥٩]، فالآيتان في الاستئذان، وقد ختمتا بفاصلة متحدة.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧١.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١-٨٢]، للموازنة بين خلودين، أحدهما في الجنة، والآخر في السعير.

قال آخر[2]: ومما تتميز به الفواصل القرآنية من جمال ما يطلق عليه لقب [التصدير]، وذلك بأن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها في الآية، مثل قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].. وقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].. وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].. وقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].. وقوله:﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١].. وقوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].. وفي ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاما تاما، يستقر في النفس وتتقبله أعظم قبول.

قال آخر[3]: ومما تتميز به الفواصل القرآنية من جمال ما يطلق عليه لقب [التوشيح]، وهو أن يكون معنى الآية مشيرا إلى هذه الفاصلة، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فإن الاصطفاء يكون من الجنس، وجنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فإذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧١.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧١.

قال آخر[1]: وأحيانا يظن القارئ أن الآية تهيئ لفاصلة بعينها، ولكن القرآن الكريم يأتي بغيرها، إيثارا لما هو ألصق بالمعنى، وأشد وفاء بالمراد، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فربما وقع في النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء، وتتصل به، ولكنها جاءت تبرأ من الجهل، وفي ذلك إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه، لا يليق أن يصدر من عاقل ذى خلق.

قال آخر[2]: ويتنوع نظام الفواصل القرآنية في السور المختلفة، وقد يتنوع في السورة الواحدة.. فأما تنوعه في السور فيختلف بالقياس إلى الفواصل بين الطول والتوسط والقصر، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر في الديوان الواحد.

قال آخر[3]: أجل.. فالفواصل تقصر غالبًا في السور القصار، وتتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطوال.. وبالقياس إلى حرف القافية، يشتد التماثل والتشابه في السور القصيرة، ويقل غالبًا في السور الطويلة.. وتغلب قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو على جميع القوافي في سور القرآن.. وذلك مع تعدد الأساليب الموسيقية ولو تشابهت القوافي في السور المختلفة)

قال آخر[4]: ويتنوع نظام الفواصل في السورة الواحدة بحسب معانيها، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة مريم.. فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحي؛ وتليها قصة مريم وعيسى، وتسير الفاصلة والقافية هكذا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧١.

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٧)

(٣) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٧)

(٤) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٧)

٢-٤].. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦-١٩].. إلى أن تنتهي القصتان على روي واحد.. وفجأة يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة في قصة عيسى على النحو التالي: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٠-٣٧].. وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول، ويتغير نظام القافية فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلهما مد طويل.. وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكمًا بعد نهاية القصة، مستمدًّا منها.. ولهجة الحكم تقتضي أسلوبًا موسيقيًّا غير أسلوب الاستعراض.. وتقتضي إيقاعًا قويًّا رصينًا، بدل إيقاع القصة الرضي المسترسل، وكأنما لهذا السبب كان التغيير.. ويدل لهذا أنه بمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك القرار، عاد إلى النظام الأول في القافية والفاصلة؛ لأنه عاد إلى قصص جديد، على النحو التالي: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ

الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٧-٤٨]

قال آخر(١): ومثل ذلك ما ورد في سورة النبأ، حيث بدأت السورة بقافية النون والميم: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ١-٥].. فلما انتهى من هذا التقرير، وبدأ نسقًا معنويًّا جديدًا ـ نسق الجدل بدل التقرير ـ تغير النظام هكذا: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٤-١٦]

قال آخر(٢): ومثل ذلك ما ورد في سورة آل عمران، حيث سارت السورة على القافية الغالبة حتى قرب النهاية، فلما بدأ دعاء من طائفة من المؤمنين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، تغيرت الفاصلة هكذا: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٣]

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٩)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٩)

قال آخر(١): وقد يشتد التقارب الموسيقى في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢-١٤].. وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].. وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].. وقد تختلفان في الوزن، ولكنهما تتقاربان في حروف السجع، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].. وقد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥-١٦].. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧-١١٨]

قال آخر(٢): وقد تختلفان وزنا وقافية، ولكنهما تتقاربان، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣-٤].. وقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١-٢].. ويُطلق على الفواصل المتفقة في الحرف الأخير [متماثلة]، وما عداها متقاربة، ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبدا.

قال آخر(٣): وقد تنتهى السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير، كقوله تعالى في ختام سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩-١١]

قال آخر(٤): وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب، ولكن في حرف قبله، أو أكثر، من غير أن يكون في ذلك كلفة ولا قلق، بل سلاسة ولين وجمال، مثال التزام حرف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٢.
(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٢.
(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٣.
(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٣.

لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤].. وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩-١٠].. وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥-١٦].. وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧-١٨]

قال آخر[1]: ومثال ما اتفقا في حرفين، قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢].. وقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٢-٣].. وقوله: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٢٨]

قال آخر[2]: ومثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢]

٤. السور الشريفة:

قال الأستاذ: حدثتمونا عن الركن الثالث من أركان النظم القرآني، وهو [الفواصل الجميلة].. فحدثونا عن الركن الرابع [السور الشريفة]

قال أحدهم[3]: هي مثل من سبقها نظام خاص انفرد به القرآن الكريم، فقد قُسمت آياته سورا، سمّي كل منها باسم خاص، أُخذ من بعض ما ذكرته السورة من المعاني.. أو مما تحدثت عنه من إنسان وحيوان أو غيرهما.. أو من بعض كلماتها.

قال آخر[4]: أما من حيث موضوعها؛ فهناك سور قرآنية تكتفي بموضوع واحد تتحدث عنه، ولا تتجاوزه إلى سواه، مثل كثير من قصار السور، وكسورة النبأ والنازعات والانشقاق، فكلها تتحدث عن اليوم الآخر، والهمزة والفيل وقريش، وهي تتحدث عن

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٧٣.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٤.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٤.

عقاب من يعيب الناس، وما حدث لأصحاب الفيل، وما أنعم الله به على قريش من نعمة الألفة.. وقد تتناول السورة أغراضا شتى، مثل معظم سور القرآن، ومع ذلك لا تخلو من الوحدة الموضوعية بين معانيها.

قال الأستاذ(١): فما تجيبون على إشكال من يعتب على الأغراض المختلفة في السورة الواحدة.. ولم لم تختص كل سورة بموضوع معين لا تتجاوزه.. فتكون سورة للأحكام.. وأخرى للتاريخ.. وثالثة للقصص.. ورابعة للابتهال، وهكذا.. بدل أن تتناثر أحكامه وقصصه ووعده ووعيده على النحو الذي انتهجه، والذي يبدو بادئ ذى بدء أن السلك الذي يربط بين آياته ضعيف الربط أو واهى التماسك؟

قال أحدهم: إن القرآن الكريم مثل الأغذية والأدوية.. فكما أن نجد الطعام الواحد يحمل الكثير مما يحتاجه الإنسان من عناصر تفيد صحته؛ فكذلك كل سورة قرآنية تحمل عناصرها الخاصة التي تحمي حياته وروحه، وترفعها إلى آفاق الكمال.

قال آخر(٢): ولذلك فإن هدف القرآن الكريم هو غرس عقيدة التوحيد في النفس، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير، والدعوة إلى العمل الصالح المكوّن للإنسان المهذب الكامل، بسن القوانين المهذّبة للفرد، الناهضة بالجماعة.. وهذا يقتضي أن يتبع هذا المنهج؛ فهو الذي يحقق هذا الهدف في أكمل صوره، وأقوى مظاهره، ذلك أنه لكى يحمل على اتّباع ما يدعو إليه يمزج دعوته بالحث على اتباعها، ويضرب المثل بمن اتبع فنجح، أو ضل فخاب، ويتبع الحديث عن المؤمنين بذكر بعض الأحكام التي يجب أن يتبعها هؤلاء المؤمنون، ويعقب ذلك بالترغيب والترهيب، ثم يولي ذلك بوصف اليوم الآخر وما فيه من جنة أو نار، وهو في كل ذلك يتكئ على الغريزة الإنسانية التي تجعل المرء خاضعا بالترغيب

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٤.

حينا، والترهيب حينا آخر.

قال آخر[1]: والقرآن الكريم حين يستمد شواهده من حوادث التاريخ لا يستدعيه ذلك أن ينهج منهج المؤرخين، فيتتبع الحادث من مبدئه إلى منتهاه، وينعم النظر في الأسباب والنتائج، ويقف عند كل خطوة من خطواته، ولكنه يقف من هذا الحادث عند الفكرة التي تؤيد غرض الآية، والجزء الذي يؤيد الهدف الذي ورد في الآيات.

قال آخر[2]: ومثل ذلك في القصة عند ما يوردها، فإنها تساق للهدف الذي سيقت من أجله.. وهو من أجل ذلك ينظر إليها من زاوية بعينها، ولا يرمي غالبا إلى قص القصّة برمتها.

قال آخر[3]: وهكذا يتنقل القرآن الكريم بين الأغراض المختلفة، لا اعتباطا وبلا هدف، ولكن لصلات وثيقة تربط بين هذه الأغراض، بحيث تتضافر جميعها في الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها.

قال آخر[4]: ومن الأمثلة على ذلك أنه فقد تقع الآية الثانية صفة لكلمة في الآية الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُّ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهَّ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]

قال آخر[5]: وقد تكون الآية الثانية توكيدا لفكرة الآية الأولى، كما في قوله تعالى:

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٤.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٥.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٥.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٥.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦]

قال آخر(١): وقد تكون الآية الثانية ردّا على ما في الآية الأولى كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١]

قال آخر(٢): وقد تحمل الآية الثانية فكرة مضادة لفكرة سابقتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥].. ولا ريب أن الجمع بين حكم المتضادين في الذهن يزيده جلاء ووضوحا.

قال آخر(٣): وقد تعلل الآية الثانية ما يرد في الآية الأولى من المعاني، مثل هذه الصلة القوية بين الحكم وحكمته في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٥.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٥.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٦.

فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩]

قال آخر[١]: وهكذا نرى الآيات الكريمة تصف القرآن الكريم، ثمّ تعقبها بها يحبّب في اتباعه، وبيان صورة منكريه، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢-٧]

قال آخر[٢]: ومثل ذلك قد يعقب توحيد الله بما يدل عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤]

قال آخر[٣]: وإدراك الصلة بين الآيات في السورة الواحدة يتطلب في بعض الأحيان تريثا وتدبرا خاص، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٤-٥]، فقد لا يظهر موضع الكاف ولا مكان الصلة بين الآية الثانية وما قبلها من الآيات، ولكن التأمل يهدي إلى أن القرآن الكريم يربط بين أمرين: أولهما ما بدا من بعض المسلمين من عدم الرضا بما فعله رسول الله ﷺ في قسمة الغنائم،

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٦.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٦.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٦.

وثانيهما ما كان قد ظهر من بعض المؤمنين من كراهية أن يخرج رسول الله ﷺ من منزله إلى الغزو، وقد تمّ في هذا الغزو النصر والغنيمة، فكأنه يقول إن الخير فيما فعله رسول الله ﷺ في قسمة الغنائم، كما كان الخير فيما قام به من خروجه إلى الغزو، وبذلك تبدو الصلة قوية واضحة بين الخبرين.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهَّ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهَّ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَللهَّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهَّ إِنَّ اللهَّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٢-١١٥]، فقد تبدو الصلة منفصمة بين هذه الآيات، ولكنك إذا تأملت الآية الأولى وجدت فيها حديثا عن الذين لا يعلمون ولا يتلون الكتاب، وهؤلاء لا يعترفون بشيء مما أنزل الله، فهم يسعون في تقويض أسس الأديان جميعا، لا فرق عندهم بين دين ودين، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله، ويسعون في تخريب بيوت عبادته، ومن هنا صحّ هذا الاستفهام الذي يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون.. وارتباط الآية الثالثة بما قبلها لدلالتها على أن عبادة الله ليست في حاجة إلى مسجد يقام، بل لله المشرق والمغرب، فحيثما كنتم ففي استطاعتكم عبادة الله؛ لأن ثمة وجه الله.

قال آخر(٢): أجل.. فالأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٧.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١١٠.

الكريم هو أن ننظر للغرض الذي سيقت له السورة، وننظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وننظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وننظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلّي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلناه تبين لنا وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة.

قال آخر(١): ولذلك؛ فإن لكل سورة في القرآن الكريم هدف ترمي إليه.. حيث نجد سورة الأنعام مثلا تتجه إلى إثبات توحيد الله ونبوّة رسوله ﷺ، وإبطال مذاهب المبطلين وما ابتدعوه من تحليل حرام أو تحريم حلال.. ونجد سورة الأعراف تتجه إلى الإنذار والاتّعاظ بقصص الأولين وأخبارهم.. ونجد سورة التوبة تحدد علاقة المسلمين بأعدائهم من مشركين وأهل كتاب ومنافقين.. ونجد سورة الحجر ترمي إلى إثبات تنزيل القرآن الكريم وترهيب المكذبين به، بقصّ أخبار المكذبين قبلهم.. وهكذا نجد هدفا عامّا تدور حوله السورة، وتتبعه معان أخرى تؤكده ويستتبعها، ويخلص الإنسان في السورة من معنى إلى آخر خلوصا طبيعيّا لا عسر فيه ولا اقتسار.

قال آخر(٢): ومن الأمثلة على ذلك أننا نجد الهدف من سورة المزمل تهيئة رسول الله ﷺ للدعوة، وإعداده لما سيلقاه في سبيلها من متاعب ومشاق، ولذلك بدئت السورة بنداء الرسول ﷺ، وتكليفه بما يعده لحمل أعباء الرسالة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٨.

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ١-٩].. فهذه الرّياضة الروحية الشاقة إعداد لرسول الله ﷺ لتحمل أعباء الرسالة المضنية، لذلك أمر بأن يمضي الليل أو جزءا منه في التهجد وقراءة القرآن، استعدادا لما سيلقي عليه من تكاليف شاقة ثقيلة.. وإنما أمر الرسول بالتهجّد في الليل؛ لأن السهر فيه أشق على النفس، ولكنها تخلص فيه لله، وتفرغ من مشاغل النهار وصوارفه، وأمر بذكر الله، والإخلاص له تمام الإخلاص، فهو رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو.

قال آخر(١): وبعد هذا الإعداد بالرياضة أراد أن يوطنه على تحمل الأذى في سبيل هذه الدعوة والصبر عليه، وينذر هؤلاء المكذبين بما سيجدونه يوم القيامة من عذاب شديد، وهنا يجد المجال فسيحا لوصف هذا اليوم وصفا يبعث الرهبة في النفس، والخوف في القلب، عساها تكف عن العناد، وتنصاع إلى الصواب والحق، ولا ينسى أن يضرب المثل من التاريخ لمن كذّب وعصى، كي يكون عظة وذكرى، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٠-١٨]، حيث نلاحظ الانتقال طبيعيّا من توطين رسول الله ﷺ على الأذى، ثم بعث الطمأنينة إلى نفسه بأن الله سيتكفل عنه بتأديب المكذبين، بما أعده الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة.. والآيات الكريمة تصور هذا اليوم الذي ترتجف فيه الأرض، وتنهار الجبال فيه منهالة.. ثم تنتقل إلى الحديث عن عاقبة من كذب بالرسل عليهم السلام

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٨.

من أسلافهم.. ثم تتجه إليهم، موجّهة لهم الخطاب تسألهم عما أعدوه من وقاية لأنفسهم يصونونها بها من هول يوم يشيب الطفل فيه من شدته.. حيث تفقد السماء التي أحكم بناؤها، توازنها ويتصدّع بناؤها.

قال آخر(١): ويختم هذا الإنذار بجملة تدفع النفس إلى التفكير العميق، وتفتح أمامها باب الأمل والنجاة لمن أراد أن يظفر وينجو، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].. ففي هذه الجملة نرى معنى إلقاء المغبة على عاتق هؤلاء المنذرين، وأنهم المسئولون عما سوف يحيق بهم من ألم وشقاء، وفي ذلك ما يحفزهم إلى التفكير الهادئ المتزن، عساهم يتخذون إلى ربهم سبيلا.

قال آخر(٢): وينتقل القرآن الكريم من إنذاره لهؤلاء المكذبين إلى خطابه للمطيعين، وهم الرسول ﷺ وطائفة ممن معه، فيشكر لهم طاعتهم، ولا يرهقهم من أمرهم عسرا، ويطلب إليهم القيام ببعض الفروض، ويحببها إليهم، فهم عند ما يؤتون الزكاة يقرضون الله، ومن أوفى بأداء الحقوق منه سبحانه، ويختم خطابه لهم بوصفه بالغفران والرحمة، فيقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].. ففي هذه الآية الكريمة نرى مدى الرفق في خطاب المطيعين، وما أعد لهم من رحمة وغفران، في مقابل ما لدى الله من أنكال وجحيم لهؤلاء المكذبين.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٩.

قال آخر[1]: وبهذا نرى مدى الترابط بين الأغراض المختلفة، واتساق كل غرض مع صاحبه، وحسن التخلص وطبيعة الانتقال من غرض إلى آخر.

قال آخر[2]: بورك فيكم.. وقد رأيت أننا في بعض السور، أو بعض آيات، قد يشكل علينا معرفة وجه اتساقها في غرض السورة، لكن بعد البحث والتأمل نراه حاضرا قويا مؤثرا.. ومن الأمثلة على ذلك ـ ولعلها من أبعد الآيات تعلقا بسورتها في الظاهر ـ قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] لأن السورة كلها حديث عن يوم القيامة وأحواله.. لكني بعد البحث والتأمل وجدت أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، حيث يعرض عليه كتابه، فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفا، فأسرع في القراءة، فيقال له: لا تحرك به لسانك، لتعجل به، إن علينا أن نجمع عملك، وأن نقرأ عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان، وما يتعلق بعقوبته[3].. أو يقال: ينبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر، وذلك كما أخبر القرآن الكريم في كتاب مسطور، وفي تلك الآيات يصف القرآن الكريم موقف المرء من هذا الكتاب فهو يتلوه في عجل كى يعرف نتيجته، فيقال له: لا تحرك بالقراءة لسانك لتتعجل النتيجة، إن علينا أن نجمع ما فيه من أعمال في قلبك، وأن نجعلك تقرؤه في تدبر وإمعان، فإذا قرأته فاتجه الاتجاه الذي يهديك إليه، وإن علينا بيان هذا الاتجاه وإرشادك إليه إما إلى الجنة، وإما إلى السعير.. وبذلك يتضح أن لا خروج في الآيات على نظم السورة وهدفها.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٧٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٠.

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٠٨.

قال الأستاذ: بورك فيكم.. والآن حدثوني عن بدايات السور وفواتحها وعلاقتها بموضوعاتها.

قال أحدهم(1): تبدأ سور القرآن الكريم مثيرة في النفس الإجلال، وباعثة فيها الشوق، والرغبة في تتبع القراءة، والاستزادة منها، فهى حينا ثناء عليه تعالى بتعداد ما له من صفات العظمة والجلال كما في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ١-٣].. وحينا بتعظيم شأن الكتاب وتقديره تقديرا يبعث على الإصغاء إليه وتدبّر آياته، كما في قوله تعالى: ﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤]

قال آخر(2): وهي تبدأ في أحيان كثيرة بالتشويق لما فيها، كقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ١-٣]، وكأنما هي تنبيه للسامع كى يستجمع كل ما يملك من قوة، ليستمع إلى ما سيلقى إليه.

قال آخر(3): وكذلك يثور الشوق لدى سماع كل فاتحة فيها ثناء على الكتاب وتعظيم لأمره.. وهو شوق يدعو إلى معرفة ما يحويه هذا الكتاب، الذي يصفه حينا بأنه يخرج من الظلمات إلى النور، كما في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وبأنه لا ريب فيه، كما في قوله

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]

قال آخر(١): وقد تبدأ بعض السور بالقسم، وهو بطبيعته يدفع إلى التطلع لمعرفة المقسم عليه، لأنه لا يلجأ إلى القسم إلا في الأمور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد وإثبات، وقد يطول القسم فيطول الشوق، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ١-٤]

قال آخر(٢): وقد تبدأ بعض السور بالاستفهام والشرط، لأن في الاستفهام تتجمع النفس لمعرفة الجواب، وفي الشرط تتطلع لمعرفة الجزاء، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].. وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٥].. وقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١-١٣]

قال آخر(٣): وقد تبدأ بعض السور بنداء الرسول ﷺ أو المؤمنين، للأمر بشيء ذي بال، أو النهي عن أمر شديد النكر، أو تبدأ بخبر يثير الشوق، أو تدخل السورة مباشرة في الحديث عن الغرض الذي نزلت لأجله، كما في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].. وكأن في ضخامة الغرض وقوته ما يشغل عن التمهيد له، بل كأن في التمهيد إضاعة لوقت يحرص القرآن الكريم على ألا يضيع.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

قال آخر[1]: وقد يكون مفتتح السورة موحيا بفكرتها، ومتصلا بها شديد الاتصال، ومتناسبا معها شديد التناسب، فمن ذلك سورة آل عمران التي افتتحت بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].. وقد عالجت السورة أمر عيسى عليه السلام، ونزهت الله عن الولد، ولذلك كان البدء بذلك مناسبا لهذا التنزيه.

قال آخر[2]: ومثله افتتاح سورة النساء التي تحدثت عن كثير من أحكامهن في الزواج والميراث، فهو من أجمل براعات الاستهلال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ففي الآية الكريمة ما يوحى بالرفق والحنان الذي يجب أن تعامل به المرأة فلا يبخس حقها زوجة أو أما أو بنتا، وفي الحديث عن تقوى الأرحام هنا إشارة إلى أن السورة ستعالج بعض أمورهم أيضا ورثة ويتامى.

قال آخر[3]: ومثله افتتاح سورة الأنعام التي تهدف إلى إثبات توحيد الله، إذ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فليس غير السموات والأرض شيء يبقى خلقه لغير الله.

قال الأستاذ: بورك فيكم.. والآن حدثوني عن خواتم السور ونهاياتها وعلاقتها بموضوعاتها.

قال أحدهم[4]: لخاتمة السورة أثرها الباقي في النفس، لأنه آخر ما يبقى في الذهن، وربما حفظ دون باقي الكلام، ومن أجل هذا كانت خواتم سور القرآن الكريم مع تنوعها

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٣.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٤.

تحمل أسمى المعاني وأنبلها، فهى حينا دعاء وابتهال يحمل النفس الإنسانية إلى عالم روحي سام، يعترف فيه الإنسان بعجزه أمام قدرة الله، ويطلب من هذه القوة القاهرة أن تعينه وأن تنصره، أو لا يشعر المرء حين يلتجئ إلى هذه القوة بأنه ألقى ثقله، وتخفف من عبئه، كما نجد ذلك في ختام سورة البقرة، إذ جاء فيها قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].. فهذا الدعاء ـ بعد سورة اشتملت على كثير من الجدل والنقاش، وجملة كبيرة من الأحكام ـ يؤذن بأن السعادة الحقة إنما هي في هذا الالتجاء إلى الله، واستمداد القوة من قدرته، وبذا كان هذا الدعاء مؤذنا بالانتهاء، باعثا برد الراحة في الفؤاد، بعد معركة طال فيها بيان الحق، ومناقشة الباطل وهدمه.

قال آخر(١): وتأتي خاتمة السورة حينا حديثا عن الله بإجلاله وتقديسه، أو بتعداد صفاته الباعثة على حبه وإجلاله معا، ففي ختام سورة المائدة يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].. وفي ختام سورة الإسراء يقول: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].. وكأن في هذا الختام خلاصة الدعوة التي تهدف السورة إليها، فكان ذكره مؤذنا بانتهائها، كما تذكر خلاصة الكتاب في نهايته.

قال آخر(٢): وتأتي خاتمة السورة في أحيان كثيرة بما يشعر بأن رسول الله ﷺ قد أدى رسالته، فعلى السامع أن يتدبر الأمر، ليرى أي الطريقين يختار، والختم بذلك يبعث في نفس القارئ التفكير أيؤثر الهدى أم يختار الضلال، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في نهاية سورة

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٤.

التوبة، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩]

قال آخر(١): وقد تأتي خاتمة السورة بإنذار أو وعد أو أمر بركن من أركان الحياة الرفيعة الصالحة، كما في خاتمة سورة آل عمران، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

قال آخر(٢): وقل أن تختم السورة بحكم تشريعى جديد، كما في سورة النساء، قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].. ولعله اكتفي في ذلك بـ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لعلاقتها بكل ما في السورة من عقائد وأحكام.

قال آخر(٣): وهكذا يجد القارئ في كل ختام سورة بأن المعاني التي تناولتها السورة قد استوفت تمامها، ووجدت النفس عندها سكونها وطمأنينتها، حتى إن السورة التي ختمت باستفهام لم يشعر المرء عنده بنقص يحتاج إلى إتمام، بل كان جوابه مغروسا في القلب، مستقرا في الضمير، فتم بالاستفهام معنى السورة، وأثار في النفس ما أثار من إقرار لا تستطيع تحولا عنه ولا إخفاء له.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٤.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٤.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٨٤.

تاسعا ـ النغم والموسيقى:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين العلماء وأستاذهم، والذين جمعهم حب القرآن الكريم على الرغم من اختلاف مدارسهم ومذاهبهم وطوائفهم وتخصصاتهم.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت نفرا من الشباب والكهول يحملون آلات موسيقية يعزفون عليها.. وكانت موسيقاهم في غاية العذوبة والجمال، وقد جعلتني مع تلك المناظر الجميلة التي تزدان بها الحديقة أشعر بروحانية عجيبة..

لكني ولورعي البارد، رحت أصيح فيهم بكل قوة: ويلكم أيها الغافلون.. انظروا إلى من حولكم من المتنزهين ـ حتى الصبيان والفتيات منهم ـ ينزهون قلوبهم عن الأغيار، ويملؤونها بحب الواحد القهار، وفي صحبة كلماته المقدسة بحثا عن جمالها وعجائبها.. وأنتم لا تزالون في غيكم، ومع الآلات التي لا تزيد قلوبكم إلا قسوة، وعقولكم إلا كثافة.

لكنهم لم يسمعوني، ولم ينتبهوا لي.. لكنهم ومن تلقاء أنفسهم جلسوا إلى الأرض، ووضعوا آلاتهم.. وقال أحدهم يخاطبهم: شكرا جزيلا على هذه السيمفونية الروحانية الرائعة.. وأحسب أنكم الآن قد تدربتم بما فيه الكفاية لعرضها في ذلك الحفل الذي سيحضره الجميع.

قال أحدهم: أجل.. فأنت الموسيقار المبدع الذي استطاع أن يخترق الحجب، ويملأ الروح بتلك النغمات العذبة التي تشرئب لها الأرواح.

قال الموسيقار: شكرا جزيلا.. وأنا مدين بذلك الذوق الرفيع لكلمات ربي المقدسة.. فكلما قرأت سورة أو آية أشعر بأنغامها تتحرك في كل وجداني.. وبعدها أحاول أن أسجل بعض آثار تلك الروحانية فيما تسمعونه من موسيقى.

قال أحدهم: نعلم ذلك سيدنا.. ونحن قد تعلمنا منك حبك للقرآن الكريم، بل عشقك وهيامك به.. ولذلك ربما وفد إلى قلوبنا من المشاعر ما وفد إلى قلبك.

قال آخر: لكن ـ سيدنا ـ هناك من ينكر علينا حديثنا عن موسيقى القرآن الكريم.

قال الموسيقار: لا بأس.. دعهم ينكرون.. فـ ﴿لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨].. فالله الذي رحم العلماء فضمن كلماته أعظم الإشارات العلمية، ورحم الأدباء؛ فجعل كلماته في قمة قمم البلاغة.. رحمنا كذلك؛ فجعل كلماته متناسبة مع أذواقنا الفنية.. فكلمات الله أعظم وأكرم وأعدل من أن تتوجه لجهة دون أخرى.

١. شهادات:

قال أحدهم: الحمد لله.. فكبار العلماء والمفكرين والمصلحين من الذين امتلأت قلوبهم تعظيما للقرآن الكريم يشاركوننا في هذه المعاني.. فكلهم يذكر موسيقى القرآن، ويشيد بها[(١)].

مصطفى محمود:

قال آخر: أجل.. ومنهم أستاذي العلامة الأديب مصطفى محمود الذي ذكر شعوره بالموسيقى القرآنية، وأن ذلك كان من صغره الباكر، فقال: (لقد اكتشفت منذ الطفولة دون أن أدري، حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية.. وهذا سر من أعمق الأسرار في التركيب القرآني.. إنه ليس بالشعر وبالنثر ولا بالكلام المسجوع.. وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقي الباطنة فيها.. وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة)[(٢)]

---

(١) لم أراع في هذه الشهادات الترتيب التاريخي، وإنما راعيت اليسر والبساطة في التعبير عن المعاني، ليسهل فهم ما بعدها.

(٢) القرآن محاولة لفهم عصري، ص١٦.

قال آخر: وقد ذكر الفرق بين القرآن الكريم والشعر في ذلك، فذكر بيتا لشاعر اشتهر بالموسيقي في شعره، وهو: (قال لي صاحبي ليعلم ما بي.. أتحب القتول أخت الرباب؟)، ثم علق عليه بقوله: (أنت تسمع وتطرب وتهتز على الموسيقي.. ولكن الموسيقي هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في أشطار متساوية ثم تقفيل كل عبارة تقفيلاً واحداً على الباء الممدودة.. الموسيقي تصل إلى أذنك من خارج العبارة وليس من داخلها، من التقفيلات (القافية) ومن البحر والوزن.. أما حين تتلو: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١-٢] فأنت أمام شطرة واحدة.. وهي بالتالي تخلو من التقفية والوزن والتشطير، ومع ذلك فالموسيقي تقطر من كل حرف فيها، من أين، وكيف؟.. هذه هي الموسيقى الداخلية، والموسيقى الباطنة، سر من أسرار المعمار القرآني، لا يشاركه فيه أي تركيب أدبي)[1]

قال آخر: ومثل ذلك ذكر شواهد من الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].. وغيرها، ثم علق عليها بقوله: (كل عبارة بنيان موسيقي قائم بذاته ينبع فيه الموسيقي من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها، بطريقة محيرة لا تدري كيف تتم؟!)[2]

قال آخر[3]: ومثل ذلك، ذكر ما يروي القرآن الكريم من حكاية موسى عليه السلام بذلك الأسلوب السيمفوني المذهل: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٧-٧٩].. ثم علق عليها بقوله: (كلمات في غاية

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، ١٦.

(٢) القرآن محاولة لفهم عصري، ١٧.

(٣) القرآن محاولة لفهم عصري، ١٧.

الرقة مثل ﴿يبسا﴾ أو لا تخاف ﴿دركاً﴾ ـ بمعنى لا تخاف إدراكاً ـ إن الكلمات لتذوب وتصطف وتتراص في معمار ورصف موسيقي فريد، هو نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقاً ولاحقاً لا شبيه بينه وبين الشعر الجاهلي، ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ، برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن.. في كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير، سوى أن لها مصدراً آخر غير ما نعرف.

قال آخر[1]: وبعد إيراده للكثير من الشواهد الدالة على ذلك، قال: (لكن الموسيقى الباطنية ليست هي كل ما انفردت به العبارة القرآنية، وإنما مع الموسيقي صفة أخرى هي الجلال!.. وفي العبارة البسيطة المقتضبة التي روى بها الله نهاية قصة الطوفان، تستطيع أن تلمس ذلك الشيء (الهائل) (الجليل) في الألفاظ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].. تلك اللمسات الهائلة.. كل لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود.. تنزل فإذا كل شيء صمت.. سكون، هدوء، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.. إنك لتشعر بشيء غير بشري تماماً في هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل الألب.. لا يمكنك أن تغير حرفاً أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلف جملة مكان جملة، تعطي نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة.. وحاول وجرب لنفسك في هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر، أن تغير حرفاً أو تستبدل كلمة بكلمة!)[2]

قال آخر: ثم بين تأثير ذلك في السامعين، فقال: (ولهذا وقعت العبارة القرآنية على

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، ١٨.

(٢) القرآن محاولة لفهم عصري، ١٩.

آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة، ولم يكن مستغرباً من جاهلي مثل الوليد بن المغيرة، عاش ومات على كفره، أن يذهل، وأن لا يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن، برغم كفره فيقول، وقد اعتبره من كلام محمد: (والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه)، ولما طلبوا منه أن يسبه قال: (قولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته).. إنه السحر حتى على لسان العدو الذي يبحث عن كلمة يسبه بها)[1]

قال آخر: ثم ذكر السبب في عدم الشعور بتلك الموسيقى العميقة، فقال: (وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول، فالسبب هو التعود والألفة والمعايشة منذ الطفولة والبلادة والإغراق في عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا، ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذي نسمعه من مرتلين محترفين يكررون السور من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشري من موقف العبرة، نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح العبارات.. وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شيء في قلبه.. ثم المناسبات الكثيرة التي يقرأ القرآن فيها روتينياً.. ثم الحياة العصرية التي تعددت فيها المشاغل وتوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وصدئت الأرواح.. وبرغم هذا كله فإن لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة، ويرتد فيها طفلاً بكراً وترتد له نفسه على شفافيتها، كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل في القرآن.. وكفيلة بأن توقفه مذهولاً من جديد بعد قرابة ألف

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، ١٩.

وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوّها)[1]

قال آخر: ثم ذكر نماذج قرآنية عن ذلك، فقال: (وألفاظ أخرى تقرؤها في القرآن فتترك في السمع رنيناً وأصداء وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٦-١٨].. هذه الحروف الأربعة ﴿عسعس﴾ هي الليل مصوراً بكل ما فيه.. و﴿الصبح إذا تنفس﴾ أن ضوء الفجر هنا مرئي ومسموع.. إنك تكاد تسمع زقزقة العصفور وصيحة الديك.. فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنك تسمع الألفاظ تتفجر.. وترى المعمار القرآني كله له جلجلة.. اسمع ما يقول الله عن قوم عاد: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧].. إن الآيات كلها تصر فيها الرياح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوي وصورة الأرض الخراب)[2]

قال آخر: وبعد أن ذكر تلك الشواهد وغيرها، قال: (والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والألفاظ التي لها جرس وصوت وصورة.. ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتاباً لا يترجم.. إنه قرآن في لغته، أما في اللغات الأخرى فهو شيء آخر غير القرآن.. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].. وفي هذا تحديد فاصل.. وكيف يمكن أن تترجم آية مثل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].. إننا لسنا أمام معنى فقط، وإنما نحن بالدرجة الأولى أمام معمار.. أمام تكوين وبناء تنبع فيه الموسيقي من داخل الكلمات، من قلبها لا من حواشيها، من خصائص

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، ٢٠.

(٢) القرآن محاولة لفهم عصري، ٢٠.

اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها) (١)

قال آخر: ثم ذكر علاقة الموسيقى القرآنية باللغة العربية، وسر اختيار الله تعالى لها، فقال: (ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة.. إنها تحدث الخشوع في النفس بمجرد أن تلامس الأذن وقبل أن يتأمل العقل معانيها.. لأنها تركيب موسيقي يؤثر في الوجدان والقلب لتوه ومن قبل أن يبدأ العقل في العمل، فإذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فإنه سوف يكتشف أشياء جديدة وسوف يزداد خشوعاً.. ولكنها مرحلة ثانية.. قد تحدث وقد لا تحدث وقد تكشف لك الآية عن سرها وقد لا تكشفه.. وقد تؤتى البصيرة التي تفسر بها معاني القرآن وقد لا تؤتى هذه البصيرة.. ولكنك دائماً خاشع، لأن القرآن يخاطبنا أولاً كمعمار فريد من الكلام.. بنيان.. فورم.. طراز من الرصف يبهر القلب.. ألقاه عليك الذي خلق اللغة ويعرف سرها) (٢)

سيد قطب:

قال آخر: أجل.. ومنهم أستاذي الأديب سيد قطب، فقد تحدث في كتابه [التصوير الفني في القرآن]، وغيرها من الكتب عن هذه المعاني، وذكر تذوقه لها، ومما قاله في ذلك: (إن في القرآن إيقاعًا موسيقيًّا متعدد الأنواع، يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان.. وهي إشعاع للنظم الخاص في كل موضع، وتابعة لقصر الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة) (٣)

قال آخر: ثم ذكر اختلاف القرآن الكريم عن الشعر، فقال: (جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].. وجاء فيه حكاية

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، ٢١.

(٢) القرآن محاولة لفهم عصري، ٢٢.

(٣) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠١)

عن كفار العرب: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].. وصدق القرآن الكريم، فليس هذا النسق شعرًا.. ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين، ولا جاهلين بخصائص الشعر، يوم قالوا عن هذا النسق العالي: إنه شعر.. لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع؛ وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر؛ وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل.. وتلك خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل.. على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعًا.. فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة؛ فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة.. وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقي الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل؛ والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي؛ وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا، فنشأ النثر والنظم جميعًا)[١]

قال آخر: وذكر إمكانية شعور كل إنسان بذلك، فقال: (وحيثما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه؛ يبرز بروزًا واضحًا في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة؛ ويتوارى قليلًا أو كثيرًا في السور الطوال، حتى تنفرد الدقة في آيات التشريع.. ولكنه ـ على كل حال ـ ملحوظ دائمًا في بناء النظم القرآني)[٢]

قال آخر: ثم أورد الآيات الأولى من سورة النجم، وعلق عليها بقوله: (هذه فواصل متساوية في الوزن تقريبًا ـ على نظام غير نظام الشعر العربي ـ متحدة في حرف التقفية تمامًا، ذات إيقاع موسيقي متحد تبعا لهذا وذلك، وتبعًا لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية؛ لأنه ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل؛ ومرده إلى الحس الداخلي والإدراك الموسيقي، الذي يفرق بين إيقاع موسيقي وإيقاع، ولو اتحدت الفواصل

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٢)
(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٢)

والأوزان.. والإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تبعًا لتوسط الجملة الموسيقية في الطول، متحد تبعًا لتوحد الأسلوب الموسيقي، مسترسل الروي كجو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي.. وهذا كله ملحوظ.. وفي بعض الفواصل يبدو ذلك جليًّا مثل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩-٢٠].. فلو أنك قلت: أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة، لا ختلت القافية، ولتأثر الإيقاع.. وكذلك في قوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١-٢٢] لو قلت: ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك قسمة ضيزي، لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة ﴿إِذًا﴾..ولا يعني هذا أن كلمة ﴿الأخرى﴾ وكلمة ﴿إِذًا﴾ زائدتان لمجرد القافية أو الوزن، فهما ضروريتان في السياق لنكت معنوية خاصة.. وتلك ميزة فنية أخرى: أن تأتي اللفظة لتؤدي معنى السياق، وتؤدي تناسبًا في الإيقاع، دون أن يطغى هذا على ذاك، أو يخضع النظم للضروريات)(١)

قال آخر: ثم ذكر بعض الأمثلة والأدلة على ذلك، فقال: (ملاحظة اتزان الإيقاع في الآيات والفواصل تبدو واضحة في كل موضع على نحو ما ذكرنا، أو قريبًا من هذه الدقة الكبرى.. ودليل ذلك أن يعدل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة، أو أن يبني النسق على نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه، أو عدلت في النظم أي تعديل)(٢)

قال آخر(٣): ثم ذكر مثالا عن الحالة الأولى ـ وهي العدول في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة ـ وهو ما ورد في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٣)
(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٤)
(٣) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٤)

يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].. فقد خطفت ياء المتكلم في ﴿يهدين ويسقين ويشفين ويحيين﴾ محافظة على حرف القافية مع ﴿تعبدون، والأقدمون، والدين﴾.. ومثله خطف الياء الأصلية في الكلمة، نحو: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥].. فياء ﴿يسري﴾ حذفت قصدًا للانسجام مع ﴿الفجر، وعشر، والوتر، وحجر﴾

قال آخر[١]: وذكر مثالا آخر عنها، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].. وقال: فإذا أنت لم تخطف الياء في ﴿الداع﴾ أحسست ما يشبه الكسر في وزن الشعر.

قال آخر[٢]: وذكر مثالا آخر عنها، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].. وقال: فلو مددت ياء نبغي كما هو القياس لاختل الوزن نوعًا من الاختلال..

قال آخر[٣]: وذكر مثالا آخر عنها، وهو زيادة هاء السكت على ياء الكلمة أو ياء المتكلم في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-١١].. وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]

قال آخر[٤]: ثم ذكر مثالا عن الحالة الثانية ـ وهي التي لا يقع فيها العدول عن

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٤)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٥)

(٣) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٥)

(٤) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٥)

الصيغة القياسية، ومع ذلك تظهر الموسيقى الكامنة في التركيب، والتي تختل لو غير نظامه ـ وهو قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٢-٤].. ثم علق عليه بقوله: (فلو حاولت مثلا أن تغير فقط وضع كلمة ﴿منِّي﴾ فتجعلها سابقة لكلمة ﴿العظم﴾، فتقول: قال رب إني وهن مني العظم.. لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر؛ ذلك أنها تتوازن مع ﴿إني﴾ في صدر الفقرة هكذا: ﴿قال رب إني﴾ ﴿وهن العظم مني﴾

قال آخر(١): ثم تحدث عن الموسيقى الداخلية التي تُلحظ ولا يشرح، وهي كامنة في نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة الواحدة.. وهي تدرك بحاسة خفية، وهبة لدنية.. وقال عنها: (وهكذا تتبدي تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني، موزونة بميزان شديد الحساسية، تمليه أخف الحركات والاهتزازات، ولو لم يكن شعرًا، ولو لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة، التي تحد من الحرية الكاملة في التعبير الدقيق عن القصد المطلوب.. يتنوع نظام الفواصل والقوافي، كما تتعدد ألوان الإيقاع الموسيقي، فهل يجري ذلك على سنن خاصة، ويؤدي إلى أهداف مقصودة؟.. ننظر في هذا الأفق الخاص من آفاق التناسق الموسيقي، بعد أن ثبت وجود هذه الموسيقى)

قال آخر(٢): ثم أشار إلى ناحية أخرى مهمة، وهي تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تطلق فيها؛ فقال: (لدينا ما نعتمد عليه في الجزم بأنه يتبع نظامًا خاصًّا، وينسجم مع الجو العام باطراد لا يستثني.. وقد نحتاج في ضبط هذه الفروق وتوضيحها إلى قواعد موسيقية خاصة، وإلى اصطلاحات في الموسيقى لا يتهيأ العلم بها لكل قارئ، ولا

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١٠٦)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١١٠)

لنا نحن أيضًا.. ولكننا نحسب المسألة أيسر من ذلك إذا نحن اخترنا ألوانًا متباعدة، وأساليب متباينة من هذه الموسيقى)

ثم ذكر مثالا على ذلك، فقال: (في سورة النازعات أسلوبان موسيقيان، وإيقاعان ينسجمان مع جوين فيهما تمام الانسجام.. أولهما يظهر في هذه المقطوعة، السريعة الحركة، القصيرة الموجة، القوية المبنى، تنسجم مع جو مكهرب، سريع النبض، شديد الارتجاف، على النحو التالي: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١-١٤].. والثاني يظهر في هذه المقطوعة، الوانية الحركة، الرخية الموجة، المتوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي الذي يلي مباشرة في السورة حديث الكرة الخاسرة، والزجرة الواحدة، وحديث الساهرة، على النحو التالي: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٥-١٩].. أظن أننا لسنا في حاجة إلى قواعد موسيقية، ولا إلى اصطلاحات فنية، لندرك الفرق بين الأسلوبين والإيقاعين، فهو واضح لا يخفي، وهو كذلك منسجم في كل حالة مع الجو الذي تطلق فيه الموسيقى.. ولهذه الموسيقى وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض، في المرتين الأولى والأخرى)

قال آخر[١]: وأشار إلى نوع آخر من هذه الموسيقى.. وهي موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة، مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١١١)

لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٢-١٩٤].. أو دعاء آخر: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٨-٤١].. ثم علق عليها بقوله: (ولسنا كذلك في حاجة إلى قواعد واصطلاحات لنحس أن هذا أسلوب غير الأسلوبين السابقين.. منسجم مع الدعاء كل الانسجام، بالتطريب والتموج والاسترسال)

قال آخر[١]: وأشار إلى نوع آخر من هذه الموسيقى.. وهي الموسيقى المتموجة الطويلة الموجة.. وهي التي سماها [موسيقى الطوفان]، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].. ثم علق على الآيات الكريمة بقوله: (إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولا وعرضًا في عمق وارتفاع، ليشترك في رسم الهول العريض العميق.. والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع، وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق)

قال آخر[٢]: وأشار إلى نوع آخر من هذه الموسيقى.. وهي موسيقى تختلف في تموجها واتجاهها عما سبقها، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].. وعلق عليها بقوله: (فليرتل القارئ هذه الآيات بصوت مسموع، ليدرك تلك الموسيقى الرخية المتماوجة.. إنها

---

(١) التصور الفني في القرآن، (ص ١١٢)

(٢) التصور الفني في القرآن، (ص ١١٣)

تشبه الموجة الرخية في ارتفاعها لقمتها وانبساطها إلى نهايتها؛ في هدوء واطمئنان، يتفقان مع جو الطمأنينة في المشهد كله.. ولعل لتوازن المد إلى أعلى بالألف، وإلى أسفل بالياء على التوالي، شأنًا في هذا التموج، ولكنه ليس كل الشأن، فهو يفسر الأوزان لا الألحان.. يفسر الاتزان الخارجي في النغمة لا الروح الداخلي فيها.. ذلك الروح مرده إلى خصائص غامضة في جرس الحروف والكلمات، يدركه من يقرأ التعبير القرآني في حساسية وإرهاف)

مصطفى صادق الرافعي:

قال آخر: أجل.. ومنهم أستاذي الأديب مصطفى صادق الرافعي، فقد تحدث في كتابه [إعجاز القرآن والبلاغة النبوية] عن الموسيقى القرآنية، واعتبرها من مظاهر إعجازه، وأن الآداب العربية لم تكتسب جمالها إلا من اللغة القرآنية، فقال: (إن هذه المخارجَ وهذه الصفاتِ إنما أُخذ أكثرها من ألفاظ القرآن لا من كلام العرب وفصاحتهم، لأن ههنا موضعَ القول فيه، فإن طريقة النظم التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت لها حروف هذه الألفاظ، إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أولَ شيء على لسان النبي ﷺ؛ فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدٌّ من الاسترسال إليه والتوفر على الاصغاء، لا يستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستَنسئه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة؛ فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مَقطَعاً مَقطَعاً ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة.. وهذا نوع من التأليف لم يكن منه في منطق أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء إلا الجمل القليلة التي إنما تكون روعتُها وصيغتُها وأوزانُ توقيعها من اضطراب النفس فيها إذ تضطرب في بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو

نحوها فتنتزي بكلام المتكلم من أبعد موضع في قلبه حتى تنتهي به إلى الحلق ثم ترسله من هناك وكأنه ألفاظه عواطفُ تتغنى)(١)

قال آخر: ثم ذكر الواقع الذي نزل فيه القرآن الكريم، وكيف أثر فيهم، فقال: (وقد كان منطقُ القوم يجري على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها من ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحنُ الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضاً على نِسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده.. فكان العرب يترسلون ويحذمون في منطقهم كيفما اتفق لهم، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت؛ دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت، إلى أن يتفق من هذه قِطَع في كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذي تكون فيه، على نمط من النظم الموسيقي، إن لم يكن في الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية.. فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمله، ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمرٌ لا قِبل لهم به، وكان ذلك أبينَ في عجزهم؛ حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة، جَنَحَ في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنَّما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها؛ وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع)(٢)

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٤٧)

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٤٨)

قال آخر[1]: ثم دعا ـ للتثبت من ذلك ـ إلى ترتيل نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تراعي فيه أحكامَ القراءة وطرق الأداء، ليكتشف القارئ النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل يرى أنه بهذا التحسين قد أفسد الكلام وغيَّره، وأخرجه من صفة الفصاحة، وجرده من زينة الأسلوب، لأنه وزنه على أوزانٍ لم يتسق عليها في كل جهاته.

قال آخر[2]: وقد عقب على هذا بقوله: (وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبةِ بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق؛ والتفشي والتكرير، وغيرها من صفات الحروف.. ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباعَ البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم ـ مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف ـ ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، وحتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسُّل على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف في نظمهما آثار الوزن والتلحين، على ما يكون من تفاوتهم في صفة ذلك ومقداره، ومبلغهم من العلم به، وتقدمهم في صنعته.. ولولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب، لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقي من بعد هؤلاء في العامية، بل لما بقيت اللغة نفسها)

قال آخر: ثم ذكر دور ذلك في التأثير النفسي، فقال: (وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٤٨)

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٤٩)

يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.. فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان؛ وعلى هذا وحده يؤوَّل الأثر الوارد أن في الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يُعدُّ نقصاً منه إذا لم تجتمع أسباب الأداء في أصوات الحروف ومخارجها، وإنما التمامُ الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت، وتنوع طبقته، واستقامة وزنه على كل حرف)(١)

قال آخر: ثم ذكر دور الفواصل القرآنية في جمال موسيقاه، فقال: (وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صوَر تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٥٠)

كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي) (١)

محمد بن عبد الله دراز:

قال آخر: أجل.. ومنهم أستاذي العلامة الكبير محمد بن عبد الله دراز، صاحب كتاب [النبأ العظيم] الذي أبرز فيه إعجاز القرآن الكريم وجمال وكماله بأحسن عبارة، وأرق إشارة.. لقد سمعته ـ عند حديثه عما سماه [الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته، ومداته وغُنَّاته]، يقول: (دع القارئ المجود يقرأ القرآن، ويرتله حق ترتيله نازلًا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلًا بالقرآن على هوى نفسه.. ثم انتبذ منه مكانًا قصيًّا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدًا وأرسلت ساذجة في الهواء؛ فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد.. وستجد اتساقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئًا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر.. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا؛ فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٥٠)

سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد) [1]

قال آخر[2]: بورك فيك.. وقد ذكر أن هذا النوع من الجمال القرآني لم يكن خافيا على العرب الذين نزل فيهم.. بل لا يخفى هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن على أحد ممن يسمعه، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

قال آخر[3]: وذكر أن أول ما تحسه كل أذن في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير، فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

قال آخر[4]: وذكر أنه لا عجب لهذا أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئًا منها إلا في الشعر، ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيرًا إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله

---

(١) النبأ العظيم (ص: ١٣٣)
(٢) النبأ العظيم (ص: ١٣٤)
(٣) النبأ العظيم (ص: ١٣٤)
(٤) النبأ العظيم (ص: ١٣٥)

ومتعته.

قال آخر: وذكر الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة، فقال: (فإذا ما اقتربت بأذنك قليلًا قليلًا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يخمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفس.. وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة.. لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر.. وهكذا ترى كلامًا ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيها الأمر تقديرًا لا يبغي بعضهما على بعض؛ فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم) [١]

قال آخر[٢]: وذكر أن هذه الخصوصية والتي قبلها هي التي تؤلف القشرة السطحية للجمال القرآني.. وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها.

علماء قدامى:

قال آخر: لا يقتصر الأمر على الأدباء والعلماء المحدثين، بل إن من القدامى من أشار إلى ذلك، ولو أنه استعمل مصطلحات تتناسب مع العصور التي تواجدوا فيها.

---

(١) النبأ العظيم (ص: ١٣٥)

(٢) النبأ العظيم (ص: ١٣٥)

قال آخر[1]: ومن الأمثلة على ذلك العلامة الزركشي الشافعي، صاحب كتاب [البرهان في علوم القرآن]، فهو من الذين تنبهوا إلى الأثر الموسيقى للفواتح.. وقد لمس العلاقة بينها وبين الفواصل، إذ تقوم هذه الفواتح مقام الافتتاحيات التمهيدية في المقطوعات الموسيقية، ذلك عند ما تمهّد لتماثل الرّوي، كما في سورة آل عمران: ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوالْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]، أوتقارب الرّوي، كما في سورة البقرة: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، وذلك لتقارب مخرجي النون والميم، وهذا وارد في سور أخرى، مثل: العنكبوت والشعراء والقصص، وهناك تمهيد لتناغم المدود كما في سورة (صاد) [2]

قال آخر: وهو يذكر كثرة ورود الحروف المقطعة ضمن كل سورة تبتدئ بها فيقول: (وقد عدّ بعضهم القافات التي وردت في سورة (ق)، فوجدها سبعا وخمسين، مع أن آيات السورة خمس وأربعون، وفي سورة (ن) تكرر هذا الحرف أربع عشرة ومائة مرة، وآياتها اثنتان وخمسون، وجميع فواصل السورة تنتهي بهذا الحرف (ن) إلا عشر آيات تنتهي بالحرف ميم)[3].. والميم والنون متقاربان إذ يخرجان من الخيشوم مع الغنّة.

قال آخر[4]: لم يكتف القدامى بالمعاني الإشارية لهذه الحروف، فقد أكّد كثير منهم أنها وسائل تنبيه، إلا أن الغاية الموسيقية لم تعط حقّها في نظرتهم، على الرغم من دراستهم لطبيعة هذه الحروف، يقول السيوطي: (وقيل المقصود بها الإعلام بالحروف التي يتركب منها الكلام، فذكر منها أربعة عشر حرفا، وهي نصف جميع الحروف، وذكر من كل جنس نصفه، فمن حروف الحلق الحاء والعين والهاء، ومن التي فوقها الكاف والقاف، ومن

---

(١) جماليات المفردة القرآنية (ص: ٨٠)

(٢) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٢٢١ باختصار.

(٣) البرهان: ١/ ٢٢١.

(٤) جماليات المفردة القرآنية (ص: ٨٠)

الحرفين الشفويين الميم.. ومن المهموسة السين والحاء والكاف والصاد والهاء.. ومن الشديدة الهمزة والطاء والقاف والكاف.. ومن المطبقة الطاء والصاد.. ومن المجهورة الهمزة والميم واللام والعين والراء والطاء والقاف والياء والنون.. ومن المنفتحة الهمزة والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون.. ومن المستعلية القاف والصاد والطاء.. ومن المنخفضة الهمزة واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون.. ومن القلقلة القاف والطاء.. ثم إنه تعالى ذكر حروفا مفردة.. وحرفين حرفين.. وثلاثة ثلاثة.. وأربعة وخمسة، لأن تراكيب الكلام على هذا النمط ولا زيادة على الخمسة) (١)

قال آخر(٢): وهكذا نجد المصطلحات الموسيقية في الفن القولي أوضح لدى العلامة الأديب أبي الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، صاحب كتاب [المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر]، ومن تبعه وتأثر به، حيث كان لهم جهد كبير في تفسير الذوق، وتقديم معايير مستخلصة من النص، ومن المتعارف عليه في فن الأدب، بدلا من الارتياح الذاتي للمفردات الليّنة، مع أنه كان بإمكانهم الاستفادة من علم التجويد وفقه اللغة لسبر موسيقية الكلمات.. فلم تكن القيمة السمعية خافية عليهم.

قال آخر(٣): ولهذا اصطلحوا على عبارات تشمل كلّ جمال سمعي في المفردة، وربطوه بمقولة الكلام الفصيح، ولا شك أن الفصاحة ارتبطت بشكل الكلمة، وأنها جزء من البلاغة التي تشمل الشكل والمضمون.

قال آخر(٤): وكانوا يطلقون لدى إعجابهم كلمات بمنزلة تفريعات للفصاحة،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٢)

(٢) جماليات المفردة القرآنية (ص ٩٣)

(٣) جماليات المفردة القرآنية (ص ٩٣)

(٤) جماليات المفردة القرآنية (ص: ٩٣)

فقالوا: (عذب، رونق، رقيق، سلس، مليح، فخم)، إلى آخر هذه الكلمات التي تنفي الوحشية والوعورة.

قال آخر[1]: وقد جعلوا السلاسة والانسجام المحلّ الأول في كتب النقد، فسموا ذلك حلاوة النّغمة، وسمّوه فصاحة المفرد.. أي أن يكون اللفظ سمحا سهل مخارج الحروف، وفصاحة المركب، أي انسجام الألفاظ مجتمعة، وائتلافها وعدم وتنافرها.

قال آخر: بوركت في ذكرك لهذا.. وقد كان أول من اهتم بهذا الرماني الذي مهّد لابن سنان وابن الأثير بتوسيع مفهوم الانسجام في مخارج الحروف.. ولهذا ربطوا الأمر بالأذن، وأحسّوا جمال الوقع على الأذن، لكنهم للأسف لم يشيروا إلى علّة تنوع النّسق، واختلافه من سورة لسورة، ولم يتعمّقوا فيما تبثه الموسيقى من مشاعر ارتياح أوانقباض وتفاعل حي.

قال آخر[2]: بوركت.. ولهذا يمكن أن يقال بكل ثقة بأن المحدثين الذين تنبّهوا إلى تجسيد الأصوات للمعاني، ما استطاعوا الاستفاضة فيه لولا تعليق القدامى على جزالة الألفاظ ورقّتها، وبحوثهم في فقه اللغة والتجويد، حيث قسّموا المخارج، وبيّنوا صفات الحروف، فهي مطبقة وشديدة ورخوة وهامسة، بل أسهبوا في كيفية خروج الصوت حتى يصبح حرفا بدءا من الحلق حتى الشفاه، كما صنع ابن سنان وابن جني وغيرهما.

قال آخر[3]: وكل ما ذكرتموه ـ أصدقائي الأعزاء ـ يدل على أن جهود القدامى على إجمالها جديرة بالاهتمام، فنحن لا نطالبهم بما قدّمه عصرنا من فنون وثقافات، فلهم زمانهم ولنا زماننا.

٢. شواهد:

---

(١) غريب، روز، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، ص ١٣٢.

(٢) جماليات المفردة القرآنية (ص٩٤)

(٣) جماليات المفردة القرآنية (ص٩٤)

قال الموسيقار: بورك فيكم جميعا.. والآن نريد أن نستمع منكم شواهد تؤيد ما ذكرتم، وإن كنتم ذكرتم الكثير من ذلك عند ذكر الشهود الذين شهدوا لهذا، وتذوقوه.

قال أحدهم: الموسيقى القرآنية تشمل كل نواحيه.. ابتداء من حروفه، وكلماته، وانتهاء بجمله ومقاطعه.

أ ـ موسيقى الحروف القرآنية:

قال الموسيقار: فحدثونا عن موسيقى الحروف القرآنية، وكيفية مراعاتها في الكلمات والجمل.

قال أحدهم[1]: من المتفق عليه بين كل من قرأ القرآن الكريم أو سمعه ملاحظة الانسجام بين مخارج حروفه.. وهو ما يدل على الانتقاء الدقيق لها، وللكلمات والجمل المرتبطة بها.. ذلك من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه، كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ولذلك ذكر الأدباء أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج.. وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متّفقة لمسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة تشقّ على اللسان وتكدّه.

قال آخر: وهذا يعتمد على طبيعة حروف الكلمة التي تتّفق، أوتختلف مع حروف الكلمة المجاورة، كما عبر بعض الأدباء على ذلك بقوله: (فهذا في افتراق الألفاظ، فأما افتراق الحروف، فإنّ الجيم لا تقارن الظّاء، ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير، والزاي لا تقارن الظّاء ولا السّين ولا الضّاد ولا الذّال بتقديم ولا تأخير)[2]

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ٣٧ – ٣٨.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ٣٩.

قال آخر[1]: قد أرجع بعض القدامى أو الكثير منهم ذلك إلى أن الثّقل ناجم عن التنافر بين المخارج، وذلك لأن مخرج الجيم بين اللسان وبين الحنك الأعلى، ومخرج الظاء بين أطراف الثّنايا وبين طرف اللسان، ومخرج القاف أوّل الحلق، ومخرج الطاء طرف اللسان، وأصول الثّنايا، فالمخارج متقاربة.. ويبدوأنّ هذا الاستهجان للثقيل الوعر كانت له دواعيه الناتجة عن استيفاء علماء اللغة قديما لمفردات كلّ القبائل، مما جعلهم يقعون على رصيد لا بأس به من ألفاظ وعرة خشنة، فجاء الأدباء لينفّروا الناس منها.

قال آخر[2]: أجل.. وقد عبر بعض الأدباء عن ذلك بقوله: (والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤما، وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل بن أحمد من البعد الشديد أوالقرب الشديد.. والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى له في النفس، لما يرد عليها من حسن الصورة، وطريق الدّلالة)[3]

قال آخر[4]: بورك فيك.. وشكرا لذكرك للخليل وإشادتك به، فقد تعمّق في الثقافة الموسيقية، واكتشف البحور الشّعرية، ووضع معجمه على أساس صوتي.. ويبدوجليا أن هذه النظرة الحسّيّة في تلقّي الصورة الصّوتية يواكبها بيان واضح للأثر النفسي، فالنّفس لا تميل إلى المتنافر، وكأنه يغلق أبواب الفهم، فتصعب ترجمة الدّلالة.. وكل هذا كان وليد التدبّر العميق للقرآن، وتفهّم طبيعة اللغة العربية البليغة التي استعملها القرآن الكريم.

قال آخر[5]: بورك فيك..لكن ما ذكروه غير عام، ذلك أن بعض الحروف تتكرر أو تتقارب في القرآن الكريم ومع ذلك تظل على جمالها.. كما قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾

---

(١) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧١)

(٢) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧١)

(٣) الرمّاني، ثلاث رسائل في الإعجاز: ٨٨.

(٤) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧١)

(٥) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧١)

[المدثر: ٤٢]، حيث يوجد كافان، وقوله عن الحيوانات: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله على لسان مريم عليها السلام: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠] فقد تكررت السين.. ومثل ذلك في التقارب لقاء القاف والكاف في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]

قال آخر: أحسنت.. وقد أشار بعض القدامى إلى ذلك بقوله: (إن حاسّة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ، وقبح ما يقبح.. على أن هذه قاعدة شذّ عنها شواذّ كثيرة، لأنّه قد يجيء في المتقارب المخارج ما هوحسن رائق، ألا ترى أن الجيم والياء والشين مخارج متقاربة، وهي في وسط اللسان بينه وبين الحنك، وتسمّى ثلاثتها الشّجريّة، وإذا تركّب منها شيء من الألفاظ جاء حسنا رائقا، فإن قيل: جيش كانت لفظة محمودة) (١)

قال آخر: ومثل ذلك لفظة (بفم)، فهي مركبة من ثلاثة أحرف شفوية، ومثلها (استجيب، أجيبت، أجيبوا، وغيرها.. وكلمة ﴿جيدها﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، والجيم والياء مخرجها بين اللسان وبين الحنك الأعلى إلا أنّ حرف الياء حرف ليّن رخو، والجيم شديد، وكذلك حرف الشين مهموس والجيم مجهور(٢).

قال آخر(٣): وثمّة تلاؤم من جهة أخرى، مرتبط بصفات هذه الحروف من حيث الشّدة والرّخاوة، والجهر والهمس، ومن أمثلتها قوله تعالى على لسان الصالح من ابني آدم عليه السلام: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]

---

(١) ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ١٥٢.

(٢) ابن جني، سر صناعة الإعراب: ١/ ٥٠.

(٣) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧٦)

قال آخر(١): أجل.. ولذلك فإن الانسجام، ليس بين الحروف فقط، بل بين صفات هذه الحروف أيضا، فالعذوبة تحدث لترتيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشّدة والرّخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشّي والتّكرير.. ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، فالطّاء حرف إطباق شديد، واستعلاء وجهر، أمّا الشين فهوحرف همس ورخاوة وانفتاح، وهذا هو الانسجام بين الصّفات.

قال آخر(٢): وإذا كان حرفا النّون والرّاء متقاربين مخرجا لخروج النون من طرف اللسان والثّنايا، والرّاء كذلك مخرجه أول طرف اللسان والثنايا، فإنّ كليهما من حروف الذّلاقة، والتأليف بينهما أسهل من التأليف بين الحروف المصمتة، فليس من القبح أن نقرأ في البيان القرآني الأعلى مثل: ﴿نريك، نرى، لنريه، نريهم﴾ وكلا الحرفين بين الشّدة والرخاوة، فكثيرا ما ينفرد الراء ذلك الحرف المتكرر، فيصبح قويا عنيفا، وكذلك النّون، إلا أن النّسق الموسيقى في المفردات السابقة بوساطة الحركات يجعل للسمع وفي النطق لذة، كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧]

قال آخر(٣): إضافة إلى هذا؛ فإن المعوّل عليه طبيعة النّغمة الصوتية للحرف نفسه، فتفسير الأمر من جهة عضوية محضة لا يكون محقّا في تفسير الحالة الخارجية للصوت بعد خروجه من أعضاء النطق.. ولهذا يتبيّن لنا أنّ أساس الانسجام هوفي صفات الحروف، إذ تنقسم إلى صفات كثيرة مثل: شديدة ورخوة، ومجهورة ومهموسة، وحروف صفير

(١) مصطفى صادق، إعجاز القرآن، ص ٢١٥.
(٢) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧٧)
(٣) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧٧)

واستعلاء وقلقلة وغيرها.

قال آخر[1]: ولهذا يمكن أن نعطي للتنافر المنبوذ بعدا آخر غير عدم الانسجام، وهذا البعد يتمثّل في الجهد العضلي لجهاز النّطق عند لفظ أصوات بعينها متقاربة، ولا يحصل هذا في كلّ مقام، ولا يطّرد في كل كلمة، كما عبر عن هذا بعضهم بقوله: (يمكن تفسير تنافر حروف بعض الألفاظ، والإحساس بثقلها على اللسان، ونفور النفس منها، خصوصا إذا كانت متقاربة المخارج، بأن النّطق بحروف متقاربة المخارج، يعني الإلحاح على مجموعة معيّنة من العضلات دون سواها، لإخراج أصوات اللفظة المطلوبة، وهذا يؤدي إلى إحساسها بالتّعب)[2]

قال آخر[3]: إن القراءة الدقيقة لآيات القرآن الكريم تؤكد أنّ السهولة نابعة من الانسجام، ولا يقتصر هذا الانسجام على تباعد المخارج، بل هناك الحروف والحركات، وصفات الحروف هي المعوّل عليه هنا؛ فالانسجام يحصل بين تلاقي هذه الصفات، وليس بين مخارجها قبل النّطق بالحرف.

ب ـ موسيقى الكلمات القرآنية:

قال الموسيقار: حدثتمونا عن موسيقى الحروف القرآنية، فحدثونا عن موسيقى الكلمات القرآنية.

قال أحدهم: موسيقى الكلمات ترجع إلى موسيقى الحروف، فكلما كانت متلائمة منسجة كانت الكلمات كذلك.. ولذلك فإن ما ذكره بعضهم من اشتراط قصر الكلمة لتحقيق انسجامها غير صحيح، أو غير عام.. ومن الأمثلة على ذلك كلمة

---

(١) جماليات المفردة القرآنية (ص١٧٧)

(٢) مجيد عبد الحميد، الأسس النفسية للبلاغة، ص ٥٢.

(٣) جماليات المفردة القرآنية (ص١٨٠)

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وكلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوها﴾ في قوله تعالى عن عناد قوم نوح عليه السلام ورفضهم للإيمان: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، وكلمة ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ في قوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وكلمة ﴿أسقيناكموه﴾ في قوله تعالى عن المطر: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وكلمة ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ في قوله تعالى على لسان فرعون مهدّدا: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]

قال آخر: وقد عبر بعض الأدباء عن ذلك بقوله: (وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أوتركيبه.. إذ تراه قد هيّأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوّع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها، كقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف، وقد جاءت عذوبتها من تنوّع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها، فإنّها بذلك صارت في النّطق كأنّها أربع كلمات، إذ تنطق على أربعة مقاطع، وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكرّرت فيها الياء والكاف، وتوسّط بين الكافين هذا المدّ الذي هوسرّ الفصاحة في الكلمة كلّها)(١)

قال آخر(٢): ومما ينوّه به هنا أنّ المقطع الأول من كلمة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ طويل إلّا

---

(١) مصطفى صادق، إعجاز القرآن، ص ٢٢٩.

(٢) جماليات المفردة القرآنية (ص١٨٧)

أنّه يتمتّع بتوالي الفتحات، ومع الفتحة تنفرج الشّفتان مما جعل نطق الكلمة سهلا.

قال آخر[1]: ولهذا، فإن العبرة ليست في كثرة عدد حروف المفردة، بل في نوعية هذه الحروف.. وكذلك؛ فإن للمدود والحركات دور في طول المفردات إذ تقسّمها إلى مقاطع صغيرة سهلة في النّطق والسّمع.. وكذلك فإن سماع المفردات القرآنية لا يشعر بوطء الطول، فالتنسيق الزمني مترافق مع نوعية التّشكيل الصّوتي وكيفيّته.

قال آخر: بورك فيكم.. وأحب أن أذكر هنا أن للقرآن الكريم دورا في تهذيب اللغة العربية وإزالة التقعير والغريب والألفاظ الحوشية الثقيلةعلى السمع؛ فمن يتأمل النثر أو الشعر الجاهلي يرى كثيراً من الكلمات الحوشية، كـ (جحيش)، و(مسشزرات)، و(جحلنجح)، و(البخصات)، و(الملطاط)، وغير ذلك كثير.. ومما يحكى في ذلك عن بعض المتقعرين قوله في كتاب له إلى بعض الحذائين في نعل: (دنها، فإذا همت تأتدن، فلا تخلها تمرخد، وقبل أن تقفعل، فإذا ائتدنت فامسحها بخرقة غير وكيلة، ولا جشيّة، ثم امعسها معساً رقيقاً، ثم سن شفرتك، وأمهها فإذا رأيت عليها مثل الهبوة فسن رأس الأزميل)

قال آخر[2]:بورك فيكم.. وأحب أن أذكر هنا أن هناك ألفاظا حسنت في القرآن الكريم مع كونها عيبت في غيره، بسبب وضعها في المحل المناسب لها.. ومن الأمثلة على ذلك كلمة ﴿مقاعد﴾، فقد عابها النقاد في بعض القصائد، لكنها كانت في غاية الجمال في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].. فالمقاعد في الموضعين بمعنى المنازل، ولا يمكن أن يُفهم منها المعنى الذي من

---

(١) جماليات المفردة القرآنية (ص١٨٨)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٦)

أجله كره النقاد استعمال هذه الكلمة، لأنها لم تضف إلى ما يمكن أن يُفهم من إضافتها إليه ذلك المعنى المستكره.. وذلك سر الجمال في هذين الموضعين.

قال آخر(١): ومن ذلك كلمة ﴿تؤذي﴾ فقد جاءت في القرآن الكريم في مواضع كلها حسنة رائقة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣].. والحكم في ذلك للأذن الموسيقية، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم استعمل الكلمة واقعة على مفعول ﴿النبي﴾ فخفت ورشقت.

قال آخر(٢): ومن ذلك كلمة ﴿ضيزىَ﴾، وهي أغرب ما في اللغة من كلمات، ولقبح هذه الكلمة لم يستعملها عربي فيما وصل إلينا من أقوالهم وأشعارهم، ومع ذلك فإننا نجد لها من الحسن في القرآن أضعاف ما نرى لها من القبح والغرابة في غيرها، قال تعالى في سورة النجم موبخاً أهل الشرك: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١-٢٢].. ولحسن هذه الكلمات في هذا الموضع عدة اعتبارات، منها أن السورة التي وردت فيها فاصلة لإحدى آيها ألفية الفواصل، فجاءت الكلمة ذات نغم صوتي ملتئم مع فواصل الآي الأخرى.. ولو وضع موضعها [جائرة] وهي قسيمتها في الدلالة لجارت على الموضع وفاتت المناسبة وحسن الجوار. فجيء بها ـ أي ضيزى ـ لذلك الالتئام والتناسق الصوتي الذي لا يخفى أثره.

قال آخر(٣): بالإضافة إلى أنها جاءت معلقة على سلوك معيب حيث جعلوا لله الإناث ـ سبحانه ـ ولهم الذكور، مع الإصرار على قتلهم البنات.. بالإضافة إلى أن الآية الأولى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ [النجم: ٢١] اشتملت على استفهام إنكارى، والآية الثانية:

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٧)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٧)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٨)

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢٢]اشتملت خاتمتها على التهكم.. وهما معنيان متناسبانَ، أولهما كالمقدمة لثانيهما.

قال آخر[1]: بالإضافة إلى أن هذه الكلمة الغريبة ـ ضيزى ـ أليق ما تكون دلالة على التهكم.. لأنها وضعت حالة التهكم في إنكاره من إمالة الرأس واليد بهذين المدين منها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

قال آخر[2]: بالإضافة إلى نظم هذه الكلمة نفسها وائتلافها مع ما قبلها إذ هي مقطعان أحدهما مد ثقيل، والآخر مد خفيف. وقد جاءت عقب غنتين في ﴿إذن﴾ و﴿قسمة﴾ إحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية؛ فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقى.

قال آخر[3]: بالإضافة إلى ما ذكرتم، فإن من مظاهر تهذيب الألفاظ في القرآن الكريم أن الحركات النحوية والصرفية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف والكلمات فيما يثبت لها من الفصاحة، إذ يهيئ بعضها لبعض، ويمهد له، حتى إن الحركة الثقيلة لسبب من أسباب الثقل المعروفة تعذب وتستساغ في التركيب القرآني.. ومن الأمثلة على ذلك كلمة ﴿النُذُر﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]، فكلمة ﴿النُذر﴾ ثقيلة منفرة بما فيها من تشديد النون، وتوالى الضمات؛ فكان التمهيد في صدر الآية لذلك بالقلقلة في الدال من ﴿لقد﴾ والطاء من ﴿بطشتنا﴾ وبثلاث عشرة فتحة متناثرة على الحروف من واو ﴿ولقد﴾ إلى راء ﴿فتماروا﴾، وبالمد في ألف ﴿بطشتنا﴾ كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات، وترويض للسان عليه ليكون ثقل الضمة مستخفاً بعد،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٨)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٨)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٩)

ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة.

قال آخر[1]: ومثل ذلك جاءت راء ﴿تماروا﴾ مساندة لراء ﴿النُذر﴾ حتى إذا انتهى اللسان من هذه انتهى إلى مثلها؛ فتخف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه.. بالإضافة إلى تلك الغنة التي سبقت الطاء في نون ﴿أنذرهم﴾ وفي ميمها.. وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في ﴿النُذُر﴾

قال آخر[2]: وقد تمهد الحروف لإيثار كلمة على أخرى تشترك معها في أصل الدلالة.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].. حيث لم يقل ﴿في بطنه﴾، كما في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، وكان يمكن أن تقول: (في جوف)، وذلك لأن حرف الجيم تكرر في الآية الأولى مرتين، فناسب ذلك إيثار الكلمة التي تبدأ بالجيم (جوفه) على ما خلت منه (بطنه)

قال آخر[3]: ومن مظاهر التهذيب في ألفاظ القرآن أن ما يختل فيه شرط الفصاحة بالطول من الكلمات يأتي عذباً جميلا فيه لبناء تلك الكلمات في أسلوبه على نسق بديع يجنبها ثقل التطويل.. ففي القرآن الكريم كلمتان بلغت حروف إحداهما عشرة أحرف وهي: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ ومثلها ثقيل على اللسان ناب في السمع، أما هي فقد وقعت موقعًا عذبا لا ثقل فيه ولا نبو وذلك لأن مخارج حروفها فيما بينها متباعدة، ونظم حركاتها ساحر، إذ تتكون من أربعة مقاطع، ينتهي كل مقطع بسكون يسكن معه النفس فتخرج الكلمة متجزئة كأنها أربع كلمات لا كلمة واحدة.. والكلمة الأخرى بلغت حروفها تسعة أحرف،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٩)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٤٩)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٥٠)

وهي: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وجاءت ذات ثلاثة مقاطع.. وقد تكرر فيها الياء والكاف، وتوسط الكافين مد هو سر الفصاحة في الكلمة كلها، لأنه خفف من اجتماع المثلين، كما فصل بين اليائين بالكاف الأولى والفاء، وانتهى كل مقطع من مقاطعها الثلاثة بالسكون كذلك، فنزلت منزلة ثلاث كلمات وعذبت رغم طولها.

قال آخر(١): بورك فيكم لإشارتكم إلى سكون المقاطع.. ذلك أنه يمكن اعتباره سياسة لغوية مطلوبة في تهذيب بعض الألفاظ التي يُلمح فيها نوع من الثقل بسبب الطول، أو توالي الحركات، ولهذا نرى النحاة يلجأون إلى مثل هذا حينما يُسكّنون ما أصله التحريك فراراً من ذلك الثقل، وبذلك حكموا بتسكين آخر الماضي إذا اتصل به ضمير رفع متحرك مثل: (ذهبت)، وعِلتهم في ذلك كراهة توالي أربعة متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة.. ومن هذا الباب كلمتان أخريان جاءتا في القرآن الكريم إحداهما ذات عشرة أحرف ـ مثل الأولى ـ والثانية ذات سبعة أحرف.. أما الأولى فقوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، وأما الثانية فقوله حكاية عن إبليس يخاطب أولياءهَ يوم القيامة: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، حيث لا نجد أي ثقل أو نبو، بل إن اللسان ليكرهما كرًّا، وقد مُهِدَ السبيل له ليسهل عليه ذلك الكر.

ج ـ موسيقى الجمل والمقاطع القرآنية:

قال الموسيقار: حدثتمونا عن موسيقى الكلمات القرآنية، فحدثونا عن موسيقى الجمل والمقاطع القرآنية.

قال أحدهم(٢): من الأمثلة على بناء الجمل القرآنية بناءً موسيقياً شجياً من تقابل بين الكلمات، وتساوٍ بينها في الحروف قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٥١)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٩٧)

مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣].. فبين كل كلمة وأخرى تقابل موسيقى في عدد الكلمات والحروف والحركات.

قال آخر(١): ومثل ذلك العبارات، فهي تتألف من جُمل ليست مرسلة تماماً، ولا مسجوعة تماماً.. إذ ليس في آخرها قرائن ولا تخلو من التقسيم الذي يشبه جُمل السجع.. وهذا البناء الفريد لكلمات وجُمل القرآن وفقره وسوره، جعله يمتاز بخاصة سما بها فوق النثر الفني، والكلام المنظوم، فهو ليس هو بواحد منهما، فهو ليس شعراً لأنه ليس على مناهج الشعر من بحور وتفاعيل وعلل وزحاف.. وليس نثرا مما اعتاد الناس حذقه لأنه يباين طرقهم في التعبير وأخذهم في فنون القول.. والنثر وإن اشترك معه في بعض الظاهر كالسجع والإرسال فإنه دونه بمراحل.

قال آخر(٢): وقد عبر بعض الأدباء المعاصرين عن هذا، فقال: (إن القرآن ليس نثراً، كما إنه ليس شِعراً.. إنما هو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم.. ليس شِعراً، وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به. لا توجد في غيره وهي القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة؛ فهو ليس شعراً ولا نثراً، ولكنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

قال آخر(٣): بالإضافة إلى هذا؛ فإن هناك ملاحظة مهمة متعلقة بهذا الجانب وغيره، وهي أن الأدب ـ عموماً ـ متأثر بظروف البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التي قيل فيها. وعاش صاحبه أحداثها.. ولذلك نرى لأدب كل عصر خصائصه ومميزاته، وإذا

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٩٧)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٩٧)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٢٩٧)

عرف الباحث خصائص أدب كل عصر، استطاع أن يرجع كل ما يقع تحت بصره من نصوص مجهولة القائل والعصر إلى عصرها.. أما القرآن الكريم فإنه ـ بمادته وفكره، وألفاظه وأسلوبه ـ لا يمثل عصراً من عصور الأدب تأثر بها، واقتبس منها، ودار في فلكها، بل هو سام في كل عصر بما له من خصائص وسمات.. حيث يختص بأن له إيقاعاً صوتياً فريداً سواء المرسل منه والمسجوع، وقد يدق الوزن ـ أحياناً ـ حتى يشبه الشعر، وما هو بشِعر، في بعض أعاريضه وأضربه وفي بحوره المعروفة.

قال آخر[1]: بالإضافة إلى هذا؛ فإن هناك خاصتين صوتيتين بارزتين، هما: الإطلاق والتقييد.. أو الإرسال من القيود والتسجيع.. ففي القرآن الكريم إرسال، وفيه سجع.. ولا يتنافى هذا مع جلال القرآن وإعجازه، لأن إطلاقه فريد لم يأت إلا فيه، وسجعه ـ كذلك ـ فريد لم يحظ بشرفه غيره، فهما مخالفان لا يتناوله الناس من قول.

قال آخر[2]: ولهذا لا نجد القرآن الكريم يلتزم حرف السجع في أكثر من موضعين متجاورين ـ وهو أدنى حد للسجع ـ وقد يأتي بالسورة كلها مسجوعة على حرف واحد، مثل سورة القمر، التي وردت آياتها مسجوعة على حرف الراء من أول آية فيها حتى آخر آية: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ١-٥] إلى آخر السورة.

قال آخر[3]: ومثل ذلك سورة عبس، حيث جاءت عشر آيات مسجوعة فيها على حرف واحد هو [الألف] كما لازم حرف السجع فيها قصر الآيات وجزالة الألفاظ، لأن

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٢)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٢)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٣)

المقام مقام عتاب وتوجيه.

قال آخر[1]: وهكذا نرى ظاهرة الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم تزداد وضوحاً إذا قصرت الآيات وكان السجع ملحوظاً في فواصلها، وقد تفصل جمل السجع بجملة غير مسجوعة، أو جمل.

قال آخر[2]: ونلاحظ في الجملة غير المسجوعة التي توسطت جملاً مسجوعة معنى خاصاً أبرزها في ذلك المظهر الفريد بين أخوات لها وأشباه.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في سورة عبس: ﴿قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فإذا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ١٧-٤٢].. حيث نلاحظ في هذه الآيات الكريمة كيف جاءت كلمة ﴿طعامه﴾ فاصلة بين مجموعتين من الآيات.. الأولى مسجوعة على حرف واحد هو الهاء.. والأخرى مسجوعة على الألف.. وحرف السجع في النوعين قد يلتزم معه حرف آخر يزيد به الإيقاع وضوحاً.

قال آخر[3]: كذلك فإن كلمات السجع قد تتساوى في الوزن من حيث عدد الحروف والحركات والسكنات، ولعل السر في الفصل بين هاتين المجموعتين المسجوعتين بالفاصلة ﴿طعامه﴾ مع آيتها، لأن هذه الآية رأس موضوع جديد وإجمال مشوق أعقبه تفصيل

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٣)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٣)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٤)

حكيم: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، وهذه إثارة وتهيئة للشعور حتى يخلو من كل شاغل يلهيه عن تقرير واستيعاب شرح هذه الفكرة.

قال آخر(١): وقد صدرت هذه الإثارة بلام الأمر ولفت الأنظار لفتاً قوياً إلى الطعام الذي هو عند الإنسان قوام حياته وضمان أمنه وعدة مستقبله.. فهذا التباين في المعنى حمل ـ والله أعلم ـ على التباين في اللفظ.. ثم جاءت الآيات تترى واحدة إثر أخرى تبين مراحل إعداد الطعام، بادئة بالمرحلة الأم: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]، والتعبير ب ﴿صب﴾ موح بكثرة الماء النازل من السماء لتحيا به الأرض وتنبت من كل زوج بهيج.

قال آخر(٢): ثم ثنت بالمرحلة الثانية: ﴿ثُم شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقَاً﴾ والتعبير بحرف العطف ﴿ثم﴾ دون غيره من حروف العطف صنع حكيم؛ لأن انشقاق الأرض بالنبات لا يكون عقب صب الماء مباشرة، بل هناك زمن فاصل بين المرحلتين فجاءت ﴿ثم﴾ لإفادة الترتيب مع التراخي اللازم.

قال آخر(٣): ثم كانت المرحلة الثالثة: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَباً﴾ وبين هذه المراحل الثلاث ترتيب في الوجود كما رتبت في الأسلوب.

قال آخر(٤): ولما كان إنبات الحَب وما أشبه يُرى إثر انشقاق الأرض لأنها لا تنشق إلا به، وكان الفاصل بينهما دقيقاً إلى درجة التلازم في الوجود جاء حرف العطف [الفاء] المفيد للتعقيب مع الترتيب.

قال آخر(٥): وبهذا تنتهي مراحل إعداد الطعام الثلاث.. ولما كان العطف فيما بقي ليس عطف مرحلة على مرحلة، وإنما عطف جزء من المرحلة ـ الأخيرة ـ على جزء آخر

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٤)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٤)

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٤)

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٥)

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٥)

منها.. وهذه الأجزاء لا يتصور فيها سابق ولا لاحق بل قد تنبت متصاحبة أو متفرقة دون أن يكون لتفرقها في الإنبات دور وعظي تؤديه.. لهذه الاعتبارات كلها كان حرف العطف [الواو] إذ هي أليق بالمقام لأنها لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ولا تراخياً. بل هي ـ كما هو معلوم ـ لمجرد العطف.

قال آخر: وفي تقديم الحَب على النِعَم المذكورة معه، وجعله أصلاً صالحاً للعطف عليه سر دقيق، ذلك لأن الحَب يُصنع منه الخبز وهو أهم ما يعتمد عليه الإنسان في حياته وحفظها، أما الأخرى فهى نعم ـ وإن كان لها دور كبير في حياة الإنسان ـ فإنها دونه.. وكما خولف في فاصلة رأس الموضوع: ﴿فَليَنظر الإنسان إلى طعَامه﴾ خولف ـ كذلك ـ في نهايته: ﴿متَاعاً لكُمْ وَلأنْعَامَكُمْ﴾

قال آخر[1]: وانتهت مراحل إعداد الطعام عند هذا الحد، ولم يدخل فيها جمع الزرع وحصده ودرسه وتذريته ثم طحنه وخبزه.. لأن هذه خطوات سابقة ضرورة لانتفاع الإنسان بما يطعم، لكن القرآن الكريم طوى ذكرها ولم يتعرض لها، وذلك لأن هذه الخطوات إنما يقوم بها الإنسان نفسه، وليست من مراحل التكوين بل هي مراحل ثانوية مختصة بتهيئة الذوات بعد تكوينها وإيجادها وغرضها إدخال صفات عليها تجعلها قابلة للانتفاع بها فهى مراحلها النهائية.

قال الموسيقار: بورك فيكم على إيراد هذا المثال الرائع.. فاذكروا لي مثالا آخر.

قال أحدهم: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى في وصف الآخرة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٦)

الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢]، فقد وردت فاصلتها مخالفة لما سبق وما لحق.. ثم سلك القرآن الكريم في تفصيله وبيانه مثل ما سلك، فهى تفصيل وبيان رأس الموضوع السابق.. آيات كاشفة ذات وزن متحد ـ تقريباً ـ وفواصل متحدة موزونة زنة واحدة كذلك. وقد جاء هذا التفصيل في مجموعتين من الآيات. كل منهما تُصور جانباً خاصاً.. المجموعة الأولى: تتحدث عما ينتاب الناس ـ جميعاً ـ من أهوال تزول تحت وطأتها الروابط الوثيقة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا.. والمجموعة الثانية: تتحدث عن صفات الفريقين التي سيصير إليها الناس حسب ما قدموه من أعمال: صالحين، وطالحين.

قال آخر[1]: وقد اختصت كل من المجموعتين بفاصلة خاصة، الأولى كانت فاصلتها [هاء المفرد الغائب] تالية لحرف مد الياء، وهي: ﴿أخيه ـ أبيه ـ بنيه ـ يغنيه﴾، والثانية جاءت فاصلتها [التاء المربوطة] تالية للراء المفتوحة، وهي: ﴿مسفرة ـ مستبشرة ـ غبرة ـ قترة ـ الكفرة﴾، فانظر لهذه السياسة الحكيمة في بناء الأسلوب والملاءمة التامة بين ألفاظه ومعانيه وتوزيع الحركات والسكنات على نهج فريد، يُدرَك بالذوق والحس، ولا تحده الرسوم ولا الضوابط.

قال آخر: وكل هذا يبين أن مراعاة القرآن الكريم للموسيقى والجمال لا تتنافى مع مراعاته للمعاني.. بل هما متناسقان جميعا جمالا ومعاني، لا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يلغيه.. وليس ذلك إلا للقرآن الكريم.

عاشرا ـ الإبداع الشامل:

بعد أن سمعت تلك الحوارات العلمية الجميلة بين الموسيقار وفرقته.. سرت إلى محل آخر في الحديقة، حيث رأيت كهولا وشبابا يمارسون بعض الأعمال الفنية.. فبعضهم كان

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٧)

يضع أمامه لوحة يرسم فيها.. وآخر كان ينحت خشبة.. وآخر كان يعزف بعض المقطوعات الموسيقية.. وآخرون كانوا يمثلون بعض المشاهد.. وآخرون كانوا يتنغمون ببعض الألحان.. وهكذا كان الجميع مشغولون بأعمالهم الفنية إلى أن ناداهم أكبرهم، وكانوا يطلقون عليه لقب [المخرج] لكونه كان الموجه لهم جميعا، وقال: أظن أننا نحتاج إلى الجلوس مع بعضنا بعضا.. فنحن لم نأت هنا لننشغل بمواهبنا فقط، وإنما أتينا ليستفيد بعضنا من بعض، ويذكر بعضنا بعضا.. أنسيتم أخوتنا في الله.. نجتمع عليه، ونتفرق عليه.

قال أحدهم: بورك فيك.. وفي تذكيرك لنا.. وكم يسرنا أن نتحدث في الأحاديث التي جمعتنا أول مرة.

قال آخر: لا شك أنك تقصد القرآن الكريم.. فبه نجتمع، وبه نفترق.. وكيف لا يكون كذلك، وهو كلام ربنا الذي شرفنا به، وأهداه لنا.

قال آخر: ما رأيكم أن نتحدث اليوم عما له علاقة باهتماماتنا، فقد سمعت أن بعض تلاميذ القرآن الكريم يتجولون الآن بيننا.. نعم نحن لا نراهم، لكنهم يروننا.

قال آخر: فهلم نتحدث بما قد يسجلوه عنا؛ فننال بذلك الجزاء العظيم عند الله.

قال المخرج: ما دمتم قد ذكرتم ذلك.. فائذنوا لي أن أدير جلستكم.. فأنا ـ كما تعلمون ـ ممن يؤثرون السماع على الحديث.. والتوجيه على العمل.. كما يؤثرون طرح الإشكالات على الإجابة عنها.

قالوا جميعا: لك ذلك.

قال المخرج: ما دمتم قد اقترحتم أن يكون حديثنا عن مجالات اهتمامنا؛ فسيكون طبعا حول الإبداع الشامل؛ فنحن بفضل الله وتوجيهه وتوفيقه اهتممنا بالفنون جميعا، وأحببناها جميعا، وحاولنا استثمارها جميعا لتبليغ رسالة ربنا.

قالوا: لك ذلك.

قال: لقد رأيت من خلال تجربتي في الإخراج، أن الإبداع الشامل يتطلب ثلاثة أمور.. أولها: تذوق العمل الإبداعي، بسبب كونه صيغ صياغة تتناسب مع الذوق السليم.. والثاني: توفر الصياغة المناسبة التي تيسر شهوده والتعايش معه والحضور في كل تفاصيله وجزئياته.. والثالث: قدرته على التأثير، بسبب ما يحدثه من إثارة في الوجدان بجوانبه المختلفة.

قالوا: فهل تريد منا الحديث عنها؟

قال: أجل.. أريد منكم الحديث عنها من خلال تدبركم للقرآن الكريم.

قالوا: لك ذلك.. فسل ما شئت.

١. الإبداع والتذوق:

قال المخرج: فلنبدأ بالأول.. وهو الإبداع والتذوق.. وأول سؤال أريد منكم الإجابة عنه هو سر اهتمام القرآن الكريم بمراعاة الأذواق المرتبطة بالأساليب التي استعملها في التعبير عن أغراضه.

قال أحدهم: ذلك واضح.. فالله تعالى من أسمائه البديع والجميل والنور.. وكل أسمائه حسنى.. فلذلك لا يستغرب أن يكون كلامه كذلك.

قال آخر: والله تعالى الذي أودع في الأذواق حب الحلاوة، فوفر لها من الطعام ما يغنيها.. وأودع في الشم حب الروائح الطيبة؛ فوفر لها كل أصناف الزهور والعطور.. كذلك رأى في عباده حب سماع الكلمات بصيغ خاصة جميلة؛ فلذلك صاغ كلامه بما يتناسب مع تلك الأذواق.

قال آخر: وكما أن الله تعالى جعل في المطعومات الروائح والنكهات والألوان التي

تجذب إلى أكلها، ليستفيد الجسم منها.. فكذلك جمع القرآن الكريم بين الحس والمعنى، والجمال والحقيقة.

قال آخر: ولذلك؛ فإن ما ورد في القرآن الكريم مما نعده محسنات بديعية وردت الألفاظ التي كان بها هذا المحسن البديعي في مكانها، يتطلبها المعنى، ولا يغني غيرها غناءها.. وليس كما يفعله الأدباء الذين يهتمون بالشكل أكثر من المضمون، أو الجمال أكثر من المعنى.

قال آخر(١): من الأمثلة على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من [الجناس التام]، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣-٤٤]، حيث نجد كلمة ﴿الْأَبْصارِ﴾ الأولى مستقرة في مكانها فهى جمع بصر، ويراد به نور العين الذي تميز بين الأشياء وكلمة ﴿الْأَبْصارِ﴾ الثانية جمع بصر بمعنى العين، ولكن كلمة ﴿الْأَبْصارِ﴾ هنا أدل على المعنى المراد من كلمة (العيون)، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الإبصار، وهي التي بها العظة والاعتبار، وبذلك؛ فإن أداء المعنى كاملا، تطلب إيراد هذه الكلمة، وليس مجرد التناسق اللفظي.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، فكلمة ﴿الساعة﴾ الأولى جيء بها دالة على يوم القيامة، واختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا؛ للدلالة على معنى المفاجأة والسرعة، وكلمة ﴿ساعَةٍ﴾ الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين، فهم لا يحسون أنهم قضوا في حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جدّا، حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا، ولا بفترة طويلة، يعبرون عنها بيوم مثلا، فكانت كلمة (ساعة) خير معبر عن شعورهم بهذا

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

الوقت الوجيز.

قال آخر[1]: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من جناس ناقص، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وهي تصور موقف الكفار من القرآن الكريم، وأنهم يبعدون الناس عنه، كما يبعدون أنفسهم عنه، فعبر القرآن الكريم عن ذلك بكلمتين متقاربتين ليشعر قربهما بقرب معنييهما.

قال آخر[2]: ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من بعض ألوان من الجناس، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩-١٠] حيث نرى النهي عن القهر جاء إلى جانب اليتيم، بمعنى الغلبة عليه والاستيلاء على ماله، وأما السائل فقد نهي عن نهره وإذلاله، فكلتا الكلمتين جاءت في موضعها الدقيق.

قال آخر[3]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠]، حيث اختيرت كلمة ﴿المْساقُ﴾ في الآية الثانية لتصور الرحلة التي ينتقل فيها المرء من الدنيا إلى الآخرة، فكأنه سوق مسافر ينتهي به السفر إلى الله.

قال آخر[4]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢-٧٣]، ففي كلمة المنذرين ما يشير إلى الربط بينهم وبين المنذرين الذين أرسلوا إليهم.

قال آخر[5]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فكلمتا ﴿ناظرة وناضرة﴾ قد توازنتا في جملتيهما لما بينهما من صلة السبب بالمسبب.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٠.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، فإن شدة التشابه بين الكلمتين توحي بالقرابة بينهما، مما يجعل إحداهما مؤكدة للأخرى؛ فالهمزة المغتاب، واللمزة العياب، فالصلة بينهما وثقى، كالصلة بين الفرح والمرح في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]

قال آخر[2]: ومثل ذلك إيثار كلمة ﴿النبأ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، لما فيها من معنى القوة؛ لأن هذه المادة تدل على الارتفاع والنتوء والبروز والظهور، فناسب مجيئها هنا، ووصف النبأ تأكيدا لقوته باليقين.

قال المخرج: حدثتمونا عن انسجام الجناس الوارد في القرآن الكريم مع المعاني والسياقات التي ورد فيها.. فحدثونا عن [المشاكلة]؛ فهي من أنواع البديع.

قال أحدهم[3]: أجل.. وهم يعنون بها ذكر الشيء بغير لفظه، لوقوعه في صحبته، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].. فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة، والأصل وجزاء سيئة عقوبة مثلها.. لكن مع ذلك؛ فإن القرآن الكريم عدل إلى هذا اللفظ لا من باب كونه محسنا بديعيا فقط، وإنما لأن هذا التعبير يحمل معنى، وجيء به ليوحي إلى القارئ بما لا يستطيع أن يوحي به ولا أن يدل عليه ما يذكر إنه الأصل المعدول عنه، فتسمية جزاء السيئة سيئة؛ لأن العمل في نفسه سوء، وهو يوحي بأن مقابلة الشر بالشر، وإن كانت مباحة، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤١.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ومعناه أخذهم بمكرهم، أي أن يفعل بهم كما يفعل الماكر، يمدهم في طغيانهم يعمهون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال المخرج: حدثتمونا عن انسجام المشاكلة الواردة في القرآن الكريم مع المعاني والسياقات التي وردت فيها.. فحدثونا عن غيرها من أنواع البديع.

قال أحدهم[2]: من ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الاستثناء]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وفي هذا التعبير، فضلا عن إيجازه، إيحاء بطول المدة، وتهويل للأمر على السامعين، وفي ذلك تمهيد العذر لنوح عليه السلام في الدعاء على قومه، وذلك لأن أول ما يطرق السمع ذكر الألف، فتشعر بطول مدته، وتتصور جهاد نوح عليه السلام في ذلك الزمن المديد، ولن يقلل الاستثناء من شأن هذا التصور، ولا يتحقق هذا الإحساس إذا بدأت بغير الألف.

قال آخر[3]: ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [اللف والنشر] بذكر شيئين أو أكثر، ثم ذكر ما يقابلها، وفيه جمع للمتناسبات من غير فاصل بينها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، حيث نرى بين الليل والنهار مناسبة تجمع بينهما، وهو ما يثير تطلعا إلى معرفة السبب في أنهما من رحمته، وفي ذلك عنصر التشويق، وفي تقديم السكون على ابتغاء الفضل تقديم الاستعداد للجهاد في الحياة على الجهاد.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

قال آخر[1]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧]، ففي الإجمال الأول إعطاء صورة سريعة لهذا اليوم، ثم يعود بعدئذ إلى إكمال الصورة في تفصيل وإيضاح، وربما يكون قد بدأ عند ما فصل بذكر من اسودت وجوههم، ليكون الحديث منتهيا بذكر طريقة الخلاص من عذاب ذلك اليوم.

قال آخر[2]: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].. والسر في الجمع أولا ذكر النهي عنه جملة واحدة، ثم العود بعد ذلك لبيان سر هذا النهي.

قال آخر[3]: ومن ألوان البديع ما ورد في القرآن الكريم من طباق بالجمع بين المتضادين، حيث نجد الكلمة فيه مستقرة في مكانها تمام الاستقرار، سواء كان التضاد لفظا أو معنى، حقيقة أو مجازا، إيجابا أو سلبا.

قال آخر[4]: ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٠]، حيث نرى الموازنة بين هذين الضدين، ولا مفر من الجمع بينهما في الجملة لعقد هذه الموازنة التي تبين عدم استوائهما.. ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣-٤٤].. وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]

قال آخر[5]: ومن أمثلته ما ورد من الطباق السلبي في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.
(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.
(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.
(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.
(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].. وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]

قال آخر[١]: ومن أمثلته ما ورد من الطباق المعنوي في قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥-١٦]، أي إنا لصادقون، فإن الرسول يجب أن يكون صادقا.

قال آخر[٢]: ومن أمثلته ما ورد من طباق المقابلة، والذي يؤتى فيه بمعنيين أو أكثر ثمّ بما يقابل ذلك على الترتيب، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢].. وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، فهذه المقابلة بين المعاني تزيدها في الفكر وضوحا، وفي النفس رسوخا.. ولهذا؛ فإن المعنى جاء مصورا في هذه الألفاظ، التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه.

قال آخر[٣]: ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [العكس] بأن يقدم في الكلام جزء، ويؤخر آخر، ثم يقدم المؤخر ويؤخر المقدم، وجمال العكس في أنه يربط بين أمرين، ويعقد بينهما أوثق الصلات أو أشد ألوان النفور،ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١].. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].. وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].. وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٢.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٣.

مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]

قال آخر: ومن أجمل أنواعه **ائتلاف المعنى مع المعنى بذكر الأمور المتناسبة بعضها إلى جانب بعض،** كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]

قال آخر(١): وقد يخفى في بعض الأحيان وجه الجمع بين المعنيين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، فقد يبدو أن الوجه الجمع بين الجوع والظمأ، والعري والضحاء، ولكن التأمل الهادئ يدل على أن الجوع والعري يسببان الشعور بالبرد فجمعا معا، والظمأ والضحاء يسببان الشعور بالحر، إذ الأول يبعث التهاب الجوف، والثاني يلهب الجلد، فناسب ذلك الجمع بينهما.

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الإطراد]، وهو أن يذكر المتكلم أسماء آباء المدوح مرتبة على حكم ترتيبها في الولادة.. ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، وإنما لم يأت به على الترتيب المألوف، لأن العادة الابتداء بالأب ثم بالجد ثم الجد الأعلى، لأنه لم يُرد هنا مجرد ذكر الآباء، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي اتبعها، فبدأ بصاحب الملة، ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولاً على الترتيب.. ومثله قول أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]

قال آخر(٣): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الافتنان]، هو الإتيان في كلام بفتنين مختلفين، كالجمع بين الفخر والتعزية في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ١٤٣.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٢)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٣)

وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، فإنه تعالى عزَّى جميع المخلوقات من الإنس والجن والملائكة وسائر أصناف ما هو قابل للحياة، وتمدّح بالبقاء بعد فناء الموجودات في عشر لفظات، مع وصفه تعالى ذاتَه وانفراده بالبقاء بالجلال والإكرام سبحانه.. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]، حيث جمع فيها بين هناء وعزاء.

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الاقتدار]، وهو أن يُبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور، اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض، فتارة يأتي به في لفظ الاستعارة، وتارة في صورة الإرداف، وحينا في مخرج الإيجاز، ومرة في قالب الحقيقة.. والأمثلة والأدلة على هذا أكثر من أن تحصر؛ وجميع قصص القرآن أو أكثرها منه؛ فالقصة الواحدة التي لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة وقوالبَ من الألفاظ متعددة، حتى لا تكاد تشتبه في موضعين منه، ولا بد أن تجد الفرقَ بين صورها ظاهراً.

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [ائتلاف اللفظ مع اللفظ]، أي أن الألفاظ يلائم بعضها بعضاً، بأن يقرَن الغريب بمثله، والمتداوَل بمثله، ورعاية الفاصلة لحسن الجواب والمناسبة.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، حيث أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء، فإنها أقل استعمالاً، وأبعدُ من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو.. وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، فإن (تزال) أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالاً منها، وبأغرب

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٢)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

ألفاظ الهلاك وهو ﴿الحرض﴾، فاقتضى حسنُ الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة تَوَخيا لحسن الجوار، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم.. ولما أراد غير ذلك قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، فأتى بجميع الألفاظ متداولة لا غرابة فيها.

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [ائتلاف اللفظ مع المعنى].. أي أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلاً فجزلة، أو غريباً فغريبة، أو متداولة فمتداولة، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، ذلك أنه لما كان الركون إلى الظالم، وهو الميل إليه، والاعتماد عليه، دون مشاركته في الظلم، وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظالم، فأتى بالمَسّ الذي هو دون الإحراق والاصطلام.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، حيث أتى بلفظ ﴿الاكتساب﴾ المشْعِر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها..

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]؛ فإنه أبلغ من كبّوا للإشارة إلى أنهم يكبون كَبّاً عنيفاً فظيعاً.

قال آخر(٤): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فإنه أبلغ من (يصرخون) للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخا منكراً خارجاً عن الحدّ المعتاد.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، فإنه أبلغ من قادر، للإشارة إلى زيادة التمكن في القدرة، وأنه لا رادّ له ولا معقّب.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧])، فإنه أبلغ من اصبر.

قال آخر(١): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨]؛ فإن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أبلغ من الرحيم، لأنه مشعر باللطف والرفق، كما أن الرحمن مشعر بالفخامة والعظمة.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، لأنه سقي لما لا كُلْفة معه في السقيا، ولذا أورده تعالى في شراب الجنة.. وعندما ذكر شراب أهل الدنيا، قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، وقال: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، لأن ﴿أسقى﴾ تدل على الكلفة، والسقي في الدنيا لا يخلو من كلفة أبدًا.

قال آخر(٣): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الاستدراك]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ فإنه لو اقتصر على قوله: ﴿لم تُؤمنوا﴾ لكان منفِّراً لهم، لأنهم ظنوا الإقرار

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٤)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٥)

بالشهادتين من غير اعتقاد إيمانا، فأوجبت البلاغة ذكْرَ الاستدراك، ليعلم أن الإيمان موافقة القلب اللسان، وإن انفرد اللسان بذلك يسمى إسلاما، ولا يسمى إيماناً.. وزاد ذلك أيضاً بقوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾؛ فلما تضمّن الاستدراك إيضاح ما عليه ظاهر الكلام من الإشكلال عُدَّ من المحاسن.

قال آخر(1): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الاستثناء]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، فإن الإخبار عن هذه المدة بهذه الصيغة يمهد عذر نوح عليه السلام في دعائه على قومه بدعوةٍ أهلكتهم عن آخرهم، إذ لو قيل: فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً لم يكن فيه من التهويل ما في الأول، لأن لفظة الألف في الأول أولُ ما يطرق السمع فيشتغل بها عن سماع بقية الكلام.. وإذا جاء الاستثناء لم يبق له بعد ما تقدمه وَقْعٌ يزيل ما حصل عنده من ذكر الألف.

قال آخر(2): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الاقتناص]، وهو أن يكون كلامٌ في سورة مقتنصا من كلام في سورة أخرى أو تلك السورة، كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، والآخرةُ دار ثواب لا عمل فيها، فهذا مقتنصٌ من قوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥]

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي

---

(1) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٥)

(2) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٦)

الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨]

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، فهو مقتنص من آيات أخرى، منها ما ورد في شهادة الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، وشهادة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وشهادة الأعضاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].. وغيرها.

قال آخر[١]: ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الإبدال]، هو إقامة بعض الحروف مقام بعض، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي فانفرق، فالراء واللام يتعاقبان.. ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]، أي (حاسوا)، فقامت الجيم مقام الحاء.

قال آخر[٢]: ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التفويف]، وهو إتيان المتكلم بِمَعَان شتى، من المدح، والوصف، وغير ذلك من الفنون.. كلّ فن في جملة منفصلةٍ عن أختها.. مع تساوي الجمل في الزِّنَة.. ويكون في الجمل المتوسطة والطويلة.. فمن الطويلة قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨١].. ومن المتوسطة قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٦)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٨)

مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]

قال آخر[١]: ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التقسيم]، وهو استيفاء أقسام الشيء الموجودة، لا الممكنة عقلاً، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فإن العالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة، إما عاص ظالمَ لنفسه، وإما سابق مبادر للخيرات، وإما متوسط بينهما مقتصد فيهما.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧-١١]

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، فقد استوفى أقسام الزمان، ولا رابع.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، حيث استوفى أقسام الخَلْق في المشي.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٨)

[النساء: ١٠٣]، فإنه استوفى جميع هيئات الذاكرين.

قال آخر: ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، فقد استوفى جميع أحوال المتزوجين، ولا خامس لها.

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التدبيج]، هو أن يذكر المتكلمُ ألواناً يقصد التوريَة بها والكناية، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، فمن معاني ذلك الكنايةُ عن المشتبه والواضح من الطرق، لأن الجادة البيضاء هي الطريق التي كثر السلوك عليها جداً، وهي أوضح الطرق وأبْينُها، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء، كأنها في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في الوضوح والظهور.. ولما كانت هذه الألوانُ الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة، فالطرف الأعلى في الظهور والبياض، والطرف الأدنى في الخفاء والسواد، والأحمر بينهما على وَضْع الألوان في التركيب، وكانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة، والهداية بكل عَلَم نصب للهداية منقسماً هذه القسمة، أتت الآية الكريمة منقسمةً كذلك، فحصل فيها التدبيج وصحة التقسيم.

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التنكيت]، وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره، مما يسد مسدَّه، لأجل نكتة في المذكور ترجِّح مجيئه على سواه، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ [النجم: ٤٩]، فقد خص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم، مع أنه تعالى ربُّ كل شيء، لأن العربَ كان ظهر

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٩)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

فيهم رجل يعرف بابن أبي كَبْشَة عَبَد الشِّعْرَى، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ [النجم: ٤٩] التي ادَّعيتَ فيها الربوبية.

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التجريد]، وهو أن ينتزع من أمرٍ ذي صفة آخر مثله، مبالغة في كمالها فيه، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨]، فليس المعنى أن الجنة فيها غير دار الخلد، ودار الخلد، بل نفسها دار الخلد، فكأنه جرَّد من الدار داراً.

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فالمراد بالميت النطفة.

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التعديد]، وهو إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]

قال آخر(٣): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الترديد]، وهو أن يورد أوصافَ الموصوف على ترتيبها في الخلقة الطبيعية، ولا يُدْخل فيها وصفاً زائداً، ومن الأمثلة

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠١)

على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فإذا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [التضمين]، ومن معانيه إدراج الغير في أثناء الكلام لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

قال آخر: ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الجمع]، وهو أن يجمع بين شيئين أو أشياء متعددة في حكم، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، حيث جمع المال والبنون في الزينة.. ومثله قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]

قال آخر(٢): وقريب منه [الجمع والتفريق]، وهو أن يجمع بين شيئين في معنى واحد، ويفرق بين جهتي الإدخال، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، حيث جمع النفسين في حكم التوفي،

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٥)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٠)

ثم فرق بين جهتي التوفي بالحكم بالإمساك والإرسال، أي الله يتوفى بالإمساك والإرسال، أي الله يتوفى الأنفس التي تُقْبَض والتي لم تُقْبَض، ويمسك الأولى، ويرسل الأخرى.

قال آخر(١): وقريب منه [الجمع والتفريق والتقسيم]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٦].. فالجمع في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، لأنها متعددة معنى، إذ النكرة في سياق النفي تعم.. والتفريق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.. والتقسيم في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾

قال آخر(٢): وقريب منه [جمع المؤتلف والمختلف]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، حيث سوَّى بينهما في الحكم والعلم، وزاد في فَضْل سليمان عليه السلام بالفهم.

قال آخر(٣): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [حسن النسق]، وهو أن يتكلم المتكلم بكلمات متواليات معطوفات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا، بحيث إذا أفردت كل جملة منها قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فإنها جمل معطوف بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة من الابتداء بالأهم الذي هو انحسار الماء عن

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٦)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٦)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٥)

الأرض المتوقف عليه غاية مطلوبِ أهل السفينة، من الإطلاق من سِجنها.. ثم انقطاع مادة السماء المتوقف عليه تمام ذلك، من دَفْع أذاه بعد الخروج، ومنع إخلاف ما كان بالأرض.. ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقضاء المادتين الذي هو متأخر عنه قطعاً.. ثم بقضاء الأمر الذي هو هلاك مَنْ قدّر هلاكه ونجاة من سبق نجاته، وأخر عما قبله لأن علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم منها، وخروجهم موقوف على ما تقدم.. ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف، وحصول الأمن من الاضطراب.. ثم ختم بالدعاء على الظالمين، لإفادة أن الغرق لم يشمل إلا من استحق العذاب لظلمه.

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [عتاب المرء نفسه]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٦-٢٩]، وقوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨]

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [العكس]، وهو أن يُؤْتى بكلام يقدَّم فيه جزء ويؤخَّر آخر، ثم يقدم المؤخر ويؤخر المقدم، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٤-١٢٥]، فإن نظم الآية الثانية عكس نظم الأولى، لتقديم

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٧)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٨)

العمل في الأولى عن الإيمان، وتأخيره في الثانية عن الإسلام.

قال آخر(١): ومنه نوع يسمى [القلب] و[المقلوب المستوي]، و[ما لا يستحيل بالانعكاس]، وهو أن تُقرأ الكلمة من أولها إلى آخرها، كما تُقرأ من آخرها إلى أولها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].. ولا ثالث لهما في القرآن الكريم.

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الفرائد]، وهو الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من العقد، وهي الجوهرة التي لا نظير لها، ومن الأمثلة على ذلك كلمة ﴿حَصْحَصَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].. وكلمة ﴿الرَّفَثُ﴾ في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].. وكلمة ﴿فُزِّعَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].. وكلمة ﴿خائنة﴾ في قوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]

قال آخر(٣): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [القسم]، وهو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له، أوتعظيم، أو تنويه لقدره، أو ذمٌّ لغيره، أو جاريا مجرى الترقق، أو خارجاً مخرج الموعظة والزهد، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، حيث أقسم

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٨)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٩)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٩)

سبحانه بقسم يوجب الفخر، لتضمنه التمدح بأعظم قدرة وأجل عظمة.. ومثله قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، حيث أقسم بحياة نبيه ﷺ تعظيما لشأنه وتنويهاً بقدره.

قال آخر(١): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [اللف والنشر]، هو أن يُذكر شيئان أو أشياء إما تفصيلا بالنص على كل واحد أو إجمالاً، بأن يؤتى بلفظة تشتمل على متعدد، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من التقدم، ويفوّض إلى عقل السامع ردّ كل واحد إلى ما يليق به.. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى.. وإنما سوع الإجمال ثبوت العناد بين اليهود والنصارى، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة؛ فوثق بالعقل في أنه يرد كل قول إلى فريقه لأمن اللبس.

قال آخر(٢): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل.

قال آخر(٣): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار.

قال آخر(٤): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، فاللوم راجع إلى البخل، ومحسوراً راجع إلى

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٠٩)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)

الإسراف، لأن معناه منقطعا لا شيء عندك.

قال آخر(١): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٦-١١]، فإن قوله: ﴿فأمَّا اليتيمَ فلا تقْهَر﴾ راجع إلى قوله: ﴿ألم يجدْكَ يتيما فآوَى﴾.. وقوله: ﴿فأما السائل فلا تنهر﴾ راجع إلى: ﴿ووجدَك ضالاًّ﴾، لأن من معاني السائل من يسأل عن العلم.. وقوله: ﴿بنعمة ربك فحدِّث﴾ راجع إلى قوله: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾

قال آخر(٢): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

قال آخر(٣): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ فقول ﴿متى نَصْر الله﴾ قَوْلُ الذين آمنوا، وقول ﴿ألا إن نَصْرَ الله قريب﴾ قول رسول الله ﷺ.

قال آخر(٤): ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، وتقديره: ومن آياته منامكم، وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصَل بين منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار، لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء وقع مع إقامة اللف على الاتحاد.

قال آخر(٥): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [المبالغة]، وهي أن يذكر المتكلم وصفاً يزيد فيه حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده، ومن الأمثلة على ذلك قوله

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)
(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)
(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)
(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٠)
(٥) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٢)

تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]

قال آخر(١): ومنه كل ما ورد في أسماء الله الحسنى من صيغ المبالغة، كفَعْلان، كالرحمن.. وفَعِيل، كالرّحيم.. وفعَّال، كالتوّاب والغفّار والقهّار.. وفَعول، كغفور، وشَكور، ووَدود.

قال آخر(٢): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [المراجعة]، وهي أن يحكي المتكلم مراجعةً في القول جرت بينه وبين محاور له بأوجز عبارة، وأعدل سَبك، وأعذب ألفاظ، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، حيث جمعت هذه القطعة ـ وهي بعض آية ـ ثلاث مراجعات فيها معاني الكلام.. حيث جمعت الخبر والطلب، والإثبات والنفي، والتأكيد والحذف، والبشارة والنذارة، والوعد والوعيد.

قال آخر(٣): ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [النزاهة]، وهي خلوص ألفاظ الهجاء من الفحْش، وأمثلته كثيرة جدا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠]، فإن ألفاظ ذم هؤلاء بهذا الخبر أتت منزهة عما يقع في الهجاء من الفحش.. وسائر هجاء القرآن الكريم كذلك.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٢)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٦)

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٧)

قال آخر[1]: ومن ألوان البديعالواردة في القرآن الكريم [الإبداع]، وهو أن يشتمل الكلام على عدة ضروب من البديع، ومن أحسن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].. ففي هذه الآية الكريمة ضروب كثيرة من البديع

قال آخر: أجل.. فمنها المناسبة التامة: في ﴿ابلعي وأقلعي﴾

قال آخر: ومنها المطابقة اللفظية في ذكر ﴿السماء والأرض﴾

قال آخر: ومنها الاستعارة في قوله ﴿ابلعي واقلعي للأرض والسماء﴾

قال آخر: ومنها المجاز في قوله ﴿يا سماء﴾ فإن الحقيقة: ويا مطر السماء أقلعي.

قال آخر: ومنها الإشارة في قوله ﴿وغيض الماء﴾ فإنه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ؛ لأن الماء لا يغيظ حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.

قال آخر: ومنها الإرداف في قوله ﴿واستوت على الجودي﴾ فإنه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكنا لا زيغ فيه ولا ميل لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قرين من لفظ الحقيقة

قال آخر: ومنها التمثيل في قوله ﴿وقضي الأمر﴾ فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف.

قال آخر: ومنها التعليل لأن غيض الماء علة الاستواء.

قال آخر: ومنها صحة التقسيم حين استوعب سبحانه أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣١٧)، وغيره.

ظهر الأرض.

قال آخر: ومنها الاحتراس في قوله: ﴿وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لا يستحق الهلاك، فجاء الدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه.

قال آخر: ومنها المساواة، لأن لفظ الآية لا يزيد عن معناه ولا ينقص عنه.

قال آخر: ومنها حسن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأولاً، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود.

قال آخر: ومنها ائتلاف اللفظ مع المعنى، لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.

قال آخر: ومنها الإيجاز، لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخلّ منها بشيء في أخصر عبارة؛ بألفاظ غير مطولة.

قال آخر: ومنها التسهيم: لأن من أول الآية إلى قوله تعالى: ﴿أقلعي﴾ يقتضي آخرها.

قال آخر: ومنها التهذيب: لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلومن البشاعة، والتركيب سليم التعقيد وأسبابه.

قال آخر: ومنها حسن البيان، فالسامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل

عليه شيء منه.

قال آخر: ومنها التمكين، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة.

قال آخر: ومنها الانسجام، وهوتحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك مع جزالة لفظ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء.

قال آخر: ومنها ما في مجموع ألفاظ الآية من الإبداع، إذ في كل لفظة بديع وبديعان.

٢. الإبداع والشهود:

قال المخرج: بورك فيكم جميعا.. والآن حدثونا عن الركن الثاني من أركان الإبداع الشامل، وهو توفر الصياغة المناسبة التي تيسر شهوده والتعايش معه والحضور في كل حروفه وكلماته وتفاصيله وجزئياته.

قال أحدهم[(١)]: ذلك مما يُذاق ويُشهد ويُعاش.. فقارئ القرآن الكريم المتدبر له لا يقرأ حروفا وكلمات وجملا فقط.. بل إنه يعيش كل معانيه، ويرى ما يحيط بها من الظلال، ويتأمل سر اختيارها، ليستخلص كل ما فيها من خواطر ومعان، وهوما يكسبه حياة جديدة، غير التي كان يحيا بها من دونه.

قال آخر: لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]

قال آخر: ولذلك؛ فإن الحياة في ظلال القرآن، وتحت سمائه، وفي أرضه، وبين معانيه

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٦.

تجعل الإنسان المؤمن القارئ يعيش عالما مختلفا تماما عن ذلك العالم المملوء بالكدورات.

قال آخر: لقد عبر بعضهم عن هذا، فقال ـ يذكر تجربته في الحياة مع القرآن الكريم ـ: (لقد منّ الله عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي.. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. لقد عشت أسمع الله سبحانه يتحدث إليّ بهذا القرآن.. أنا العبد القليل الصغير.. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟)(1)

قال آخر: وقال: (وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال. ولثغة الأطفال.. وأعجب.. ما بال هذا الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل. النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟)(2)

قال آخر: وقال: (عشت أتملى ـ في ظلال القرآن ـ ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود.. لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني.. وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب.. وأسأل.. كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟)(3)

---

(1) في ظلال القرآن (1/ 11)

(2) في ظلال القرآن (1/ 11)

(3) في ظلال القرآن (1/ 11)

قال آخر: وقال: (وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها اللهّ، وحركة هذا الكون الذي أبدعه اللهّ.. ثم أنظر.. فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملى عليها وبين فطرتها التي فطرها اللهّ عليها. وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟)(١)

قال آخر: وقال: (وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود.. أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه.. إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده. وإنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها.. والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول.. والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هومرحلة في الطريق، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله، إنما هوقسط من ذلك النصيب.. وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك. فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع. على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس، وعالم صديق ودود. كون ذي روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع.. وأي راحة، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟)(٢)

قال آخر: وقال: (وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.. إنه إنسان بنفخة من روح اللهّ.. وهوبهذه النفخة مستخلف في الأرض.. ومسخر له كل ما في الأرض.. ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل اللهّ الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية

(١) في ظلال القرآن (١/ ١١)

(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٢)

الكريمة، جعلها آصرة العقيدة في اللهّ.. فعقيدة المؤمن هي وطنه وهي قومه، وهي أهله.. ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج!)[1]

قال آخر: وقال: (وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أرى المؤمن ذا نسب عريق، وضارب في شعاب الزمان.. إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد.. عليهم الصلاة والسلام.. هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه ـ كما يتجلى في ظلال القرآن ـ مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد. ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر اللهّ، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا في كل لحظة وعد اللهّ الصادق الأكيد.. موقف واحد وتجربة واحدة.. وتهديد واحد.. ويقين واحد.. ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف.. وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد)[2]

قال آخر: وقال: (وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة.. والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء.. والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٢)

(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٢)

بالأخذ بها والله هوالذي يقدر آثارها ونتائجها.. والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هووحده الملاذ الأمين، والنجوة من الهواجس والوساوس)(١)

قال آخر: وقال: (عشت ـ في ظلال القرآن ـ هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير.. عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر.. عشت في كنف الله وفي رعايته.. عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها.. فالوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء؛ فهناك دائما وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة.. والله يخلق ما يشاء ويختار)(٢)

قال آخر: وقال: (وانتهيت من فترة الحياة ـ في ظلال القرآن ـ إلى يقين جازم حاسم.. إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله.. والرجوع إلى الله ـ كما يتجلى في ظلال القرآن ـ له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها.. والتحاكم إليه وحده في شؤونها.. وإلا فهوالفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله.. فالاحتكام إلى منهج الله في كتاب ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار، إنما هوالإيمان.. أو.. فلا إيمان.. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].. والأمر إذن جد.. إنه أمر العقيدة من أساسها.. ثم هوأمر سعادة هذه البشرية أوشقائها)(٣)

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٣)

(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٢)

(٣) في ظلال القرآن (١/ ١٥)

قال المخرج: بورك فيكم.. ونحن نحتاج إلى التدرب على تحقيق هذه المعاني في نفوسنا.. ولذلك سأقرأ عليكم بعض آيات من القرآن الكريم، وأريدكم أن تتدبروا فيها، لنكتشف كيف نعيشها.

قال ذلك، ثم فتح المصحف، وراح يقرأ بصوت جميل، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨-٢٠]

قال أحدهم(١): لقد بدا لي أن في اختيار كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وعمومها، عدم مجابهة المنافقين بتعيينهم، وفي ذلك ستر عليهم، وإغراء لهم بالإقلاع عن نفاقهم، ذلك أنه، ما داموا لم

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

يعينوا، من المتوقع أن يصغوا إلى القرآن الكريم، فربما انصرفوا عن غيهم، إذا استمعوا إلى تصوير حال ضلالهم، وما هم فيه من حيرة واضطراب، ولوأنه جبههم بكشف الستار عنهم، لانصرفوا معرضين عن الإصغاء، فلا يكون ثمة أمل في هدايتهم.

قال آخر(١): وكلمة ﴿يَقُولُ﴾ توحي بأن إيمانهم لم يتعد أفواههم، وأجرى على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضي، ليوهموا سامعيهم أنهم قد دخلوا في الإيمان منذ زمن بعيد، زيادة منهم في التمويه والخداع.

قال آخر(٢): وخص الإيمان بالله وباليوم الآخر؛ لأن الإيمان بهما يجمع كل ما يجب الإيمان به، من كل ما يصل الإنسان بربه، أويصله بالناس.

قال آخر(٣):واختار في الرد عليهم الجملة الاسمية في النفي؛ ليدل بها على استقرار هذا النفي وثباته.

قال آخر(٤): ومع أن هؤلاء المنافقين إنما يخدعون بعملهم هذا الذين آمنوا، إلا أن القرآن الكريم جعل الخداع لله، سخرية منهم، واستهزاء بعقولهم.

قال آخر(٥):واستخدم الفعل المضارع في قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] ليصور به حالهم، ويحضر هذه الصورة أمام أعين السامعين.

قال آخر(٦): واستخدم أداة القصر وهي (ما) و(إلا) في قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، ليردّ عليهم ردّا حاسما، يبين أن خداعهم لن يضرّ أحدا غيرهم، ولكن يصيبهم وحدهم أذاه.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٦) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

قال آخر[١]: وأوقع الخداع على أنفسهم ليكون ذلك مثار العجب أن يفعل ذلك من لديه مسكة من عقل.

قال آخر[٢]: وفي قوله: ﴿وَما يَشْعُرُونَ﴾ تصوير صادق لهؤلاء المنافقين، الذين لا يدركون مغبة خداعهم.

قال آخر[٣]: واستخدام كلمة ﴿مَرَضٌ﴾، لما أصابهم من تغليب الهوى على العقل، وهو يوحي إلينا بأن عقولهم، وقد تغلب عليها سلطان الهوى، فصارت غير مستطيعة أن تفكر تفكيرا سليما، وأن تقوم بوظيفتها التي خلقت لها، كالجسم يصاب بالمرض فلا يستطيع أداء وظيفته.

قال آخر[٤]: وفي الدعاء عليهم بزيادة المرض، إيذان بغضب الله وسخطه عليهم، واستخدام ﴿فِي﴾ في هذه الجملة، يؤذن بتمكن المرض من قلوبهم، فكأنما انطوت قلوبهم عليه.

قال آخر[٥]: وفي كلمة ﴿أَلِيمٌ﴾ والعذاب لا يكون إلا مؤلما، إبراز لأهمّ خصائص العذاب.

قال آخر[٦]: وفي اختيار ﴿كانَ﴾ والمجيء بخبرها فعلا مضارعا، يؤذن باعتيادهم الكذب ولجاجتهم فيه.

قال آخر[٧]: وجاء بالواو في قوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ﴾، إشارة إلى مأثمة جديدة من آثامهم.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٦) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٧) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

قال آخر(١): وأتى بالفعل: ﴿قِيلَ﴾ مبنيّا للمجهول، مؤذنا بأن من الواجب عليهم أن ينظروا إلى القول من حيث هو، بقطع النظر عن قائله، وألا يجعلوا للقائل دخلا في تقديرهم ووزنهم.

قال آخر(٢): واختار كلمة ﴿الْفَسادَ﴾ ليصور بها ما يقوم به هؤلاء المنافقون، من تشكيك المؤمنين وتخذيلهم عن نصرة الرسول ﷺ، وبثّ الفتن في الأرض.

قال آخر(٣):ونسب القول إليهم في ﴿قالُوا﴾ ليبين مدى تبجحهم، وأنهم لا يبالون أن يقلبوا الحقائق، ويطمسوا معالمها.

قال آخر(٤): أما ردهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فقد استخدموا له أداة من أدوات القصر، يريدون بذلك نفى الإفساد عنهم نفيا باتا، وأن عملهم لا يعدوالخير والصلاح وبالغوا في ذلك حتى أوهموا أن نفوسهم قد قصرت على الإصلاح قصرا، فهى لا يمكن أن تلم بفساد.

قال آخر(٥):واختاروا من أدوات القصر ﴿إِنَّما﴾ التي تدل على أن الأمر من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، مبالغة منهم في التمويه والخداع.

قال آخر(٦): واستفتح الرد عليهم بـ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ ليسترعي الأذهان إليه، حتى تتنبه إلى الرد ولا يفوتها منه شيء.

قال آخر(٧): وبدأ الآية ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بالتأكيد؛ لأنه في مقام يريد أن يقتلع من الأذهان دعواهم العريضة في الإصلاح، و﴿هم﴾ الثانية ضمير

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٦) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٢٩.

(٧) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

فصل يؤكد الإسناد في الجملة، وتعريف الطرفين يفيد قصر المسند على المسند إليه، فكأن الإفساد مقصور عليهم، لا يبرحهم إلى سواهم، وجاء بـ ﴿لكن﴾، يريد أن يخبرنا بخبر جديد عن هذه الطائفة التي انحصر الإفساد في بنيها، وأنه كان خليقا بهم أن يدركوا هذه الحقيقة، لوكان عندهم قدر من شعور، أما وهم قوم لا يشعرون، فذاك هوالسر في خفاء هذه الحقيقة البينة عنهم.

قال آخر(١): وفرق في التعبير بين ﴿وَما يَشْعُرُونَ﴾ في الآية السالفة، ﴿وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ في تلك الآية، فالجملة الأولى في مكانها تنبئ بأن حركة خداع النفس تمر بهم، من غير أن يتنبهوا إليها، فهولا ينفي الشعور عنهم مطلقا، بل ينفي شعورهم بخداع أنفسهم؛ أما في هذه الآية فليس إفسادهم مما يقع منهم بلا شعور، بل هم يفعلون عن رغبة وإصرار، ولكنهم قد فقدوا التفكير، الذي يزنون به الأمور بميزانها الصحيح.

قال آخر(٢): وهكذا في قوله تعالى بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].. حيث نجد في كلمتة ﴿النَّاسِ﴾ مدى الأدب، الذي استخدمه الداعي في دعوة هؤلاء القوم إلى الإيمان، فهولم يقل لهم آمنوا كما آمن العقلاء مثلا، فيكون في ذلك جرح لشعورهم، بما قد يكون فيه من تلميح بضعف عقولهم، بل لم يزد في دعوته على أن دعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه عامة الناس، وفي ذلك منتهى الرفق واللين، أما ردهم بكلمة ﴿السُّفَهَاءُ﴾ففيه تبجح وعنف، فقد ادعوا سفاهة هؤلاء الذين آمنوا

قال آخر(٣): وفي كلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ نرى أن السفاهة إنما ترجع إلى العقل والتفكير،

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

فناسب ذلك نفى العلم عنهم، وأما الآية السابقة فإفساد بأعمال يشعر بها، فناسب هناك نفى الشعور.

قال آخر[1]: وهكذا في قوله تعالى بعدها: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، فهي ترسم ما عليه المنافقون من الخداع، وما لهم من وجهين يقابلون المسلمين بأحدهما، ويقابلون رؤساءهم بوجه آخر.

قال آخر[2]: وفي كلمة ﴿خَلَوْا﴾ نرى جبن هؤلاء المنافقين، الذين لا يستطيعون أن يظهروا ما تكنه قلوبهم، إلا في خلوة لا يراهم فيها أحد..

قال آخر[3]: وفي كلمة ﴿شياطين﴾، والتي يراد بها رؤساء النفاق، نرى ضروب المكر والدهاء والفساد والضلال.

قال آخر[4]: وهكذا نرى كيف كشف المنافقون أنفسهم أمام رؤسائهم، في جملتين اثنتين، دلتا على حقيقتهم، ففي الجملة الأولى ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أكدوا لرؤسائهم شدة إخلاصهم لهم، حتى لا يدعوا لهؤلاء الرؤساء سبيلا إلى الشك في إخلاصهم، بسبب ما يظهرونه بألسنتهم للمؤمنين من الإيمان، وفي ﴿مَعَكُمْ﴾ ما يشعر بهذا الرباط القلبي، الذي يربط المنافقين برؤسائهم.

قال آخر[5]: وقد اختار الله تعالى في الرد عليهم أن يأتي باسمه دون صفة من صفاته، فقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥] ليوحي إلينا بهذا الجلال، الذي يحيط بذلك الاسم المقدس، وأنه هوالذي سيتولى الاستهزاء بهم، وكلمة ﴿يستهزئ﴾ تصور هذا الجزاء الساخط، الذي يقابل به الله استهزاءهم، ليصور بأمر

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٠.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣١.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣١.

محسوس، أمرا معنويّا، هو تركهم في ضلالهم لا يهتدون، واختيار كلمة ﴿الطغيان﴾، توحي بالخروج في قوة عن الطاقة المألوفة في العصيان والفجور، و﴿العمه﴾ في الآية، يصور لنا مدى تردد هؤلاء القوم في غوايتهم، وأنهم لا يهتدون إلى الحق والصواب، فهم في حيرة من أمرهم كالأعمى، يسير على غير هدى ولا اطمئنان.

قال آخر(١): وهكذا في الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] نجد الكثير من المعاني، ففي استخدام اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ يشير إلى طائفة قد اتصفت بتلك الصفات الخادعة، وكان لها أثرها في الحكم عليهم، وفي كلمة ﴿اشترى﴾، ما يدل على إيثار هؤلاء القوم للضلالة على الهدى، واختار كلمة ﴿الضلالة﴾ هنا، وآثرها على الكفر والنفاق مثلا، ليتسنى بيان حال ما اختاروه في إيجاز، ووضع ﴿الهدى﴾ بجوار ﴿الضلالة﴾، ليتأتى في يسر معرفة مدى خسران هؤلاء القوم، وضعف عقولهم، ونفى الربح عن التجارة، ولم ينفه عن المتجرين، للإشارة إلى أن هذه التجارة بطبيعتها تجارة خاسرة، بقطع النظر عن المتجرين بها، وفي ﴿ما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إشارة إلى جهلهم، باختيار هذه التجارة الخاسرة.

قال آخر(٢): وهكذا في الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، ففي ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ نتبين فيها حال رجل، قد أحاطت به حلكة الظلام، فهو يطلب جاهدا نارا تضيء له مسالك السبيل، و(السين والتاء) يدلان على هذا البحث القوي، والطلب الجاد، وفي كلمة ﴿أضاءت﴾ ما يدل على أنه قد أوتي أكثر مما كان يطمح إليه، فلقد كان يبحث عن نار، أيّا ما كانت، فأوتي نارا قوية أضاءت ما حوله، غير أن ذلك لم يلبث أن مضى

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٢.

وزال، واستخدام ذهب بالنور ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أقوى من ذهب النور؛ لأن في التعبير الأول دلالة على أن آخذا أخذ النور، ومضى به، فكيف إذا كان الذاهب به هو الله، وفي إضافة النور إليهم، ما يشعر بأنهم كانوا قد اطمأنوا إلى النور، وفرحوا به، فيكون الذهاب به أشد إيلاما وأنكى، وجمع (ظلمة) في ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ليشير إلى هذا الظلام المتكاثف، والحلكة المتراكم بعضها فوق بعض.

قال آخر(١): وهكذا في الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، ففي هذه الصفات التي خرجوا بها عن أن يكونوا من البشر، بل عن أن يكونوا من الحيوان، ما داموا قد عطلوا مواهبهم ولم ينتفعوا بها، وكان لنسق هذه الصفات على وزن واحد أثر موسيقى مؤثر.

قال آخر(٢): وهكذا في الآيتين التاليتين، وهما قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠]، حيث نرى الاستمرار في وصف حيرة هؤلاء المنافقين، فمثّلهم القرآن الكريم بحال من حصرتهم السماء بصيب، وفي هذه الكلمة ما يوحي بقوة المطر وشدة بطشه، فهوليس بغيث ينقذ الأرض من ظمئها، ولكنه مطر يصيبها ويؤثر فيها، وفي النص على أنه من ﴿السماء﴾، ما يوحي بهذا العلوالشاهق، ينزل منه هذا المطر الدافق، فأى رعب ينبعث في القلب من جرائه، وفي المجيء بكلمة ﴿فِيهِ﴾ ما يدل على أن هذه الظلمات، والرعد، والبرق، كأنما سكنت هذا الصيب، وكأنما تنزل معه من السماء، وفي إيثار ﴿الظلمات﴾ وفي تنكيرها،

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٢.

وتنكير الرعد، والبرق ما يشير إلى أنها من القوة والإزعاج، إلى درجة لا يستطاع تحديدها، وفي كلمة ﴿الأصابع﴾ ما يوحي بهذا الذعر، الذي استولى عليهم من شدة الأصوات الرعدية المرعبة، فهم يحاولون إبعاد صوتها عنهم، وكلما زادت شدة الصوت، زادوا من إدخال هذه الأصابع، علها تسد أذانهم، واختيار كلمة ﴿يجعلون﴾، وإيثارها على يضعون مثلا، للإشارة إلى أن أصابعهم لطول ما صارت في آذانهم، أصبحت كأنها مركبة معها، أما الوضع فلا يستفاد منه هذا الثبات والاستمرار، وبرغم أن المعنى على أن كل فرد منهم يضع إصبعا في أذن، لا نستطيع أن نبعد عن أنفسنا هذا الجو الذي خلقه حولنا استخدام الجمع، الموحى بمقدار الهلع الذي أصاب أفئدتهم، لهذا الصوت المنكر، حتى لكأنهم يريدون إبعاده، بوضع كل ما يملكون من أصابع في آذانهم.

قال آخر(١): وجمع الصواعق إيذان بما اصطلح على إزعاجهم من صواعق رهيبة، لا صاعقة فحسب.. وكلمة ﴿حذر﴾ تدل على شدة شعورهم بقرب الموت منهم، وإسناد الإحاطة إلى الله فيه من الجلال والرهبة ما فيه، واختيار كلمة ﴿مُحِيطٌ﴾ يدل على شمول العذاب لهم، وإحاطته بهم من كافة الأرجاء، فهم لا يستطيعون الإفلات منه أينما ساروا، وفي إيثار كلمة ﴿الكافرين﴾ على المنافقين، بيان لحقيقة حالهم، وأن النطق باللسان لا يغني عن الحق شيئا.

قال آخر(٢): وقد تحدثت الآية الكريمة عن هذا الصيب، وأن فيه ظلمات ورعدا وبرقا، وذكرت أن حال المنافقين في خوفهم وهلعهم، كحال السائر في هذا الصيب؛ لاضطراب حياتهم، وخوفهم أن ينكشف أمرهم، فهم في اضطراب نفسي شديد، وشرحت الآية ما يصيب السائر من الفزع، من جراء الرعد يصم أذنيه.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٢.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٣.

قال آخر[1]:وتحدثت الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] عما أضمره لهم البرق والظلمات، من إخافة وإرهاب، حيث يكاد البرق يخطف أبصارهم، وفي استخدام ﴿يَخْطَفُ﴾ تصوير بأمر محسوس، يبعث في النفس خوفا؛ فكأن يدا تمتد نحوالسائر تسلب منه نور عينه، والمجيء بـ ﴿كلما﴾ يوحي بهذه اللهفة التي تملأ قلوبهم، والرغبة في الخروج من هذه الظلمات المتكاثفة، فلا يكاد النور يبدد هذه الظلمة قليلا، حتى ينتهزوا الفرصة فيمشوا، وإذا أظلم عليهم قاموا، وفي كلمة ﴿عَلَى﴾ ما يدل على شدة وطأة الظلام عليهم، وفي ﴿قامُوا﴾ ما يوحي إليك بتكاثف الظلمات حولهم، فلا يكادون يحركون أقدامهم، عند ما تطبق عليهم هذه الظلمات.

قال آخر[2]: وهكذا نرى الآيات الكريمة تصف هذا الاضطراب في نفسية هؤلاء المنافقين، وما يظنون أنهم يقومون به من خداعهم لله والمؤمنين.

قال آخر[3]: وقد عُنيت الآيات بوصف ضلالهم وخسرانهم، برغم ما في عصرهم من نور، لا يكاد يضيء أمامهم الطريق قليلا، حتى يطبق الظلام مرة ثانية عليهم، لأنهم لم يستعملوا آذانهم، فيما خلقت له، من الاستماع إلى صوت الحق، ولا ألسنتهم في التعبير عنه تعبيرا ينبعث عن قلوبهم، ولا أعينهم في الاهتداء بها ترى، إلى الحق والصواب.

قال آخر[4]: ذلك موقفهم من دعوة الحق، أما أنفسهم المضطربة الخائفة، فقد ضربت الآيات لها مثلا: هذا الذي يحيط به الصيب، فيه ظلمات ورعد وبرق، وبهذا كله صورت الآيات من هؤلاء المنافقين، صلتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه، بين مسلمين

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٣.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٣.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٣.

وكافرين، وموقفهم من النور الذي أضاء عصرهم، وتغلغلت إلى أعماق نفوسهم، فصورت خوفها واضطرابها.

قال آخر[1]: وكل جزء من هذه الآيات له قيمته في هذا التصوير، بحيث نستطيع أن نتخيل هؤلاء القوم، وأن نستمع إليهم، وقد التقوا بالمؤمنين، فقالوا لهم: آمنا، ومضوا إلى شياطينهم، فقالوا لهم: إنا معكم، ونتخيلهم وهم يعملون جهدهم، على أن يوقدوا نيران الفتنة، ويسعون في الأرض فسادا، فإذا قيل لهم: ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، ونستطيع أن نتبين هذا المرض الذي أحاط قلوبهم بأكنة، وخيل إليهم أنهم يستطيعون خداع المؤمنين، بإظهار كلمة الإيمان لهم، مع أنهم يضمرون لهم أشد ألوان الاحتقار والاستهزاء، وأن نتصور موقفهم من الهدى الذي سطعت شمسه أمامهم، فكانوا صمّا بكما عميا، فإذا تغلغلت في أعماق قلوبهم رأيت الذعر، قد استبد بها، كما يستبد بمن أحاط به صيب، فيه ظلمات ورعد وبرق.

٣. الإبداع والإثارة:

قال المخرج: بورك فيكم جميعا.. والآن حدثونا عن الركن الثالث، وهو القدرة على التأثير، بسبب ما يحدثه من إثارة في الوجدان بجوانبه المختلفة.

قال أحدهم: بما أن الشعور والوجدان هو المحرك الأكبر لكل سلوك وعمل إنساني؛ فقد اهتم القرآن الكريم بإثارته بكل الانفعالات الطيبة التي تساهم في بناء شخصية المؤمن، ومن كل جوانبها.

قال آخر[2]: ولهذا نرى القرآن الكريم لا يعتمد على التفكير العقلاني وحده ليقنع المؤمنين وغيرهم، ولكنه يتكئ عليه، وعلى الوجدان ليستميلهم جميعا.. فهو في وعده

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٣.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٦.

ووعيده، وأوامره ونواهيه، وقصصه، ووصفه، وابتهاله وتسبيحه، بل وفي أحكامه وبراهينه، لا يغفل هذه الناحية من نواحي النفس الإنسانية؛ لأن العمل غالبا يرتبط بها ويقترن، فالقرآن الكريم يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية، ليصل إلى هدفه من تهذيب النفس، وحب العمل الصالح، والإيمان بالله واليوم الآخر.. وغيرها من المعاني.

قال آخر(١): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهَّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].. حيث نرى الآية الكريمة تثير فينا شعور الغبطة والابتهاج، حينما نخيل لأنفسنا أننا إن أطعنا الله والرسول، فسنكون رفقاء للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا الشعور بالفرح جدير بأن يدفع المرء إلى الانقياد والطاعة:

قال آخر(٢): من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهَّ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، حيث نلاحظ الآية الكريمة تعتمد على إثارة الخوف في النفس من أن تشوه الوجوه أو تطمس، أو أن تحل اللعنة بأصحابها، كما حلت بأصحاب السبت، وهذا الخوف، بما يحدثه في النفس من ألم، جدير أن يدفع الناس إلى التفكير العميق للتخلص من أسبابه، والخلوص من مأزقه، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بما أنزل الله.

قال آخر(٣): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٦.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٦.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٦.

نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، فهي تجعلنا نشعر بالرعب ينبعث في النفس، عند ما نتخيل أصحاب النار، وقد نضجت جلودهم، فبدلوا بها جلودا غيرها، ولا تلبث أن تنضج كرة أخرى، فتتبدل، وهكذا دواليك، وأى خوف شديد يملك المرء من هذا المصير المؤلم.

قال آخر(١): وهكذا نجد هذه المعاني العظيمة، وما تحدثه في النفس من تأثير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١]، فهذه الآيات الكريمة تثير في النفس شعور الإجلال لعظمة الخالق، الذي بنى السماء بناء محكما، وزينها نهارا وليلا، ومد الأرض، ورفع الجبال في أرجائها، وأنبت فيها بهيج النبات، وشعور الإعجاب بهذا المطر، ينزل من السماء فيحيي الأرض بعد موتها، وينشئ الجنات ويرفع النخل باسقات، وهذا الشعور المتمثل في الإجلال والإعجاب هو الذي يدفع إلى الإيمان بقدرة الله على البعث والنشور.

قال آخر(٢): ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١]، فهو يثير شعور العرفان بالجميل، عند ذكر نعم الله، وهذا العرفان بالجميل يدفع إلى الوفاء بالعهد، والإيمان بما أنزل، لا أن يقابل بالجحود، والنكران، وإلباس الحق ثوب الباطل.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٦.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٧.

قال آخر[1]: ومثل ذلك فاتحة الكتاب، وهي من آيات الابتهال والتسبيح، حيث نرى فيها الإثارات الوجدانية واضحة جلية، حيث نرى الحمد قد قُرن بما يثير في النفس الحب والإجلال معا، فالله المنعم بجليل النعم ودقيقها، مالك يوم الدين، يبعث في النفس الفرح عند انتهاجها الصراط المستقيم، بأنها ستكون مع الذين أنعم الله عليهم.

قال آخر[2]: وهكذا نرى الله تعالى يقرن أوامره بإثارات عاطفية، تدعو إلى قبولها والعمل بها، مثل تذكيره بنى إسرائيل بنعمه عليهم، هذا التذكير الذي يدفعهم إلى عرفان الجميل، فيوفون بعهده، ويرهبونه، ويؤمنون بما أنزل مصدقا لما معهم.

قال آخر[3]: وهكذا نراه يذكرنا برقابته لنا حتى نخافه، إذ يقول: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَّ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَّ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]

قال آخر[4]: وهكذا نراه يثير فينا النخوة التي تدفعنا إلى الدفاع عن الضعاف والنساء والأطفال، ويصور لنا لهفة هؤلاء على من ينصرهم، فيبعث في نفوسنا إحساس الرفق، وعامل الشفقة، ويرسم لنا من يقاتل ذيادا عن أولئك مقاتلا في سبيل الله، فيقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥-٧٦]

قال آخر[5]: وهكذا نراه يثير فينا الكثير من المشاعر النبيلة في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٧.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٧.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٧.

(٤) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٧.

(٥) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٨.

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، فإنه عند ما أمرنا أن ندفع بالحسنى، أثار فينا تلك الرغبة في أن نجد بجوارنا الناصر والمعين نستكثر منهما، حتى لينقلب العدو بتلك المعاملة، كأنه صديق حميم.

قال آخر(١): وهكذا نراه عند ما حثنا على الصدقة، اتكأ على غريزة حب النفس، تلك الغريزة التي تستكثر بمقدار ما تستطيع من الخير، فأبان أن ما سنبذله من صدقة سوف يعود خيره علينا أضعافا مضاعفة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

قال آخر(٢): وهكذا نراه يذكرنا بعاقبة نسيان الله، وأن الله سوف يصرف هؤلاء الناسين عن خيرهم فيفسقون، ويصور لنا الفرق الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، ويذكرنا بالفوز الذي يظفر به من لا ينسى الله، فيقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ١٩-٢٠]

قال آخر(٣): وهكذا نراه في الابتهالات والدعوات يمزج بين الخوف بالرجاء الذي ينبعث من قلوب آمنت وتأملت خلق السماء والأرض، واختلاف الليل والنهار، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٨.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٨.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٨.

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤]، فهذا الابتهال المؤثر جدير بهذه الخاتمة السعيدة، فقد استجاب لهم ربهم.

قال آخر(١): وهكذا نرى الأحكام في القرآن الكريم تقترن بما يثير الوجدان، حتى تقبل النفس على العمل بها راضية مغتبطة، ومن الأمثلة على ذلك أشد الآيات توغلا في بيان هذه الأحكام، مثل آية الدّين، حيث نراه فيها يدعو الكاتب إلى أن يكون عادلا فيما يكتب، مذكرا إياه بأن معرفته الكتابة منة من الله عليه، يجب أن تقابل بالشكر، ومن شكرها أن يكتب كما يجب، قال تعالى: ﴿وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].. ويذكّر من عليه الحق بأن يتقى الله، وهو يملي ما عليه من دين: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويتكئ على غريزة التملك، عند ما تحدث عن الحكمة في كتابة الدّين، إذ كتابته تحفظ المال، وتبعد الريب عن النفس في قيمته، قال تعالى: ﴿ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعند ما حذرنا أن نضر الكاتب والشهيد، ذكرنا بأن الإضرار بهما فسوق، لا يرضاه الله.. وانتهت آية الدّين بتذكيرنا بأن الله عليم بكل شيء، يعلم ما فيه الخير لنا فيأمرنا به، ويكون النجح في القيام به.

قال آخر(٢): وهكذا نجد ختم القرآن الكريم حديثه عن أحكام الميراث بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٩.

عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤]، وفي ذلك إثارة عامل الخوف والرجاء.

قال آخر[١]: وهكذا نجد في استدلالات القرآن الكريم كل تلك الإثارات الوجدانية أيضا، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى مبرهنا على وحدانيته: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٩].. فهو يثير في النفس إجلال الله بتلك الصفات التي سيقت له، وانفرد بها، فهو رب العرش، لا يسأل عما يفعل ولا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم من خشيته مشفقون، وذلك كله مما يسند الإيمان بوحدانيته.

قال آخر[٢]: وهكذا نجد هذه المعاني في الآيات التي تتحدث عن النعيم الحسي، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٣٩.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٤١.

رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ١٧-٢٨]، وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ١٠-٢٦].. فهذه الآيات الكريمة تخاطب البشر بجميع ما في نفوسهم من الرغبات التي يختلط فيها المثالي ذو اللذة الروحية السامية، والواقعي الذي لا تسمو روحه عن واقع الحياة..

قال آخر(١): ولهذا نرى الله تعالى يجمع فيها بين النعيم الحسي والمعنوي، فيقول: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]

قال آخر(٢): وهكذا يختم حديثه عن الجنة في سورة الرحمن بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]

قال آخر(٣): كما أنه يتحدث عن الأمن وضمان الخلود في جنة الخلد، وهي لذائذ

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٤١.

(٢) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٤١.

(٣) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٤١.

روحية، ويضم إلى وصف الجنة ونعيمها أنه لا لغو فيها ولا تأثيم، إلا قيلا سلاما سلاما.

قال آخر[1]: وهكذا يجد الواقعي في وصف الجنة طلبته، ويجد المثالي أمنيته، على أن كثيرا من هذه اللذائذ الجسدية تبعث الراحة في النفس، والاطمئنان إلى بهجة الخلود، حيث تطمئن النفس إلى الأنهار الجارية، والعيون المتفجرة، والأشجار ذات الغصون الوارفة، والثمار الدانية، والزوجات الحسان المقصورات في الخيام، وذلك لا يثير لذة جسدية فحسب، وإنما يثير فيها أيضا معنى الأنس والحنان.

---

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص ٤١.

النهاية

بعد أن استمعت إلى كل تلك الأحاديث الجميلة عن البيان الشافي للقرآن الكريم، واستعماله الدقيق لكل الأساليب التي تخاطب جميع أنواع النفوس والأذواق ليقيم الحجة على الخلق جميعا.. وجدت نفسي داخل بيتي.. وبين يدي أكوام من القراطيس التي كتبتها أثناء رحلتي العجيبة التي أرسلني إليها معلم القرآن بصحبة معلم البيان.

وبعد كتابتها وتنسيقها وتهذيبها بكل أمانة وصدق، من غير أن أضيف إلى ما شاهدته أو سمعته حرفا واحدا إلا ما اقتضت الضرورة إليه، أو لم يكن بد منه، خرجت من بيتي إلى بعض المدارس التي كانت مهتمة بتدريس البلاغة القرآنية، وقلت في نفسي: سأضع بين أيديهم الكتاب؛ لعلهم إن اطلعوا عليه قد يعجبهم، فينسخوا منه بعض النسخ، ويضعوها في مكتبتهم.. أو لعلهم يضعون نسخا أخرى بين يدي قراء آخرين.. فيكون لي بذلك بعض الأجر الذي ورد في القرآن الكريم عن المبلغين والدعاة والهداة، ولو بكلمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]

لكني، وبعد أيام قليلة من فعلي ذلك، فوجئت ليلا بباب بيتي يُطرق، فاستغربت كثيرا، لأني لم أتعود ـ بسبب عزلتي ـ أن أجد من يفعل ذلك؛ فظننت أنهم بعض الصبية المشاغبين.

لكني، ما إن خرجت حتى وجدت وجوها كثيرة لا أعرفها، لكن يبدو عليها ملامح الجاه والسلطان، بالإضافة إلى ملامح العلم والأدب..

قال لي أحدهم: وهو يحمل نسخة الكتاب التي وضعتها في المدرسة: هل أنت صاحب الكتاب؟

أصابني بعض الخوف من سؤاله، فقلت: لا.. أنا مجرد ناسخ للكتاب.

قال: فهلا دللتنا على مؤلفه؛ فنحن بحاجة شديدة إليه.

قلت: وما تريدون منه؟

قال: نريد أن يعطينا تفويضا بطبعه وترجمته، والسماح بتحويله ككتاب مقرر في مدارسنا المهتمة بالبلاغة القرآنية.

ابتسمت، وقلت: إن هذا كثير.. كان يكفي أن تضعوا منه نسخا في مكتبتكم، ليطلع عليها القراء.

قال: أنت لا تدري ما تقول.. فهذا الكتاب جعلنا نغير طريقتنا في تدريس البيان القرآني.. ولذلك ـ بعد اجتماعنا مع الكثير من المجالس العلمية المهتمة بهذه الجوانب ـ اعتبرناه أحد المقررات الأساسية لها.

قلت: وما الذي فيه حتى جعلكم تختارونه لهذا.

قال: لقد كنا ندرّس البيان القرآني بصعوبة وتعقيد شديدين، حتى أن الكثير كان ينفر من تلك الدروس، بسبب ذلك التعقيد، وقد كان هذا الكتاب مبسطا جدا، بحيث استطاع أن يزيل كل تلك العقبات التي تعترض من يتعلم هذه العلوم.

قال آخر: لقد كنا نتوهم أننا لا يمكن أن ندرس البيان القرآني إلا بعد المرور على شعر امرئ القيس وزهير والمتنبي.. والنحو والصرف وكل علوم العربية.. وقد كان ذلك يصرف الطلبة عن القرآن، ويجعلهم بعيدين عنه، وهذا الكتاب لم يذكر كل ذلك بل اكتفى بالخلاصة واللباب.

قال آخر: وقد كنا نحشو تدريسنا للبيان القرآني بكل أصناف الحشو التي تبعدنا عن القرآن؛ فقد كان بعضنا يدرّس البلاغة القرآنية من خلال مدرسة الزمخشري، أو الباقلاني،

أو الرماني.. فينسى القرآن، وينشغل بكل هذه الأسماء يدافع عنها، وينتصر لها.

قال آخر: وقد كنا نحشو تدريسنا للبيان القرآني بكل أصناف المصطلحات والتصنيفات والتقسيمات، التي تجعل الطالب مهتما بها، أكبر من اهتمامه بالقرآن نفسه.

قال آخر: وقد كنا نحشو تدريسنا للبيان القرآني بكل أصناف الصراع والجدل بين كل من اهتموا بهذه الجوانب، فينتصر بعضنا لبعضهم، وينتصر آخرون لآخرين، ويضيع القرآن بيننا لذلك.

قال آخر: لقد كنا مثل أولئك الذين يتعلمون أحكام الترتيل ومخارج الحروف، فليس لهم حظ من قراءتهم غير المدود والغنات والترقيق والتفخيم.

قلت: ولكن الكتاب الذي أشدتم به.. ليس سوى تكرار لما كتب في تلك الكتب التي تنتقدونها، ولم يأت بأي جديد.

قال كبيرهم: وذلك مما زاد في جماله؛ فهو لم يدعنا لطرح ما عندنا أو إلغائه، وإنما دعانا للاهتمام باللباب، لا بالحشو الكثير الذي أضيف.

قال آخر: وفوق ذلك كتب بالطريقة المحببة لطلابنا وتلاميذنا الذي يستأنسون للقصص والروايات أكثر من استئناسهم بغيرها.

قال آخر: وفوق ذلك ما فيه من تحبيب للقرآن الكريم وبيانه ولغته.. وهو من المقاصد المهمة التي نريدها في طلبتنا.. والحمد لله وجدنا الكتاب يخدمها خير خدمة.

بعد أن قالوا هذا، قلت: وما الذي تريدون مني؟

قال كبيرهم: نريدك أن تخبر صاحب الكتاب أن يوافق على ما طلبناه.

قلت: هذا لا يحتاج إلى استئذانه.. فله إذن عام لكل من شاء بطبع ما شاء متى شاء كيف شاء.. لأن مهمته الكتابة، وفقط.

قال: ونطلب منه كذلك طلبا أرجو ألا تستغرب منه.. لكن أبلغه إياه بحروفه.

قلت: وما هو؟

قال: نطلب منه أن يطلب من معلمه ـ إذا التقى به ـ أن يأخذه في رحلة للرد على التحريفات التي شوّه بها الغالون القرآن الكريم، والتي أشار إليها رسول الله ﷺ في قوله: (يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)(١)

قلت: ولكن أمورا أخرى قد تكون الأهم.

قال: مثلا؟

قلت: القرآن ومعرفة الله.. أليست معرفة الله هي أم المطالب والمقاصد؟

قال: بلى.. ولكن لا يمكن البحث في معرفة الله قبل إزالة كل ذلك الركام الذي علق بالقرآن الكريم؛ فأُبعد الخلق به عن حقائقه.

قلت: إن شاء الله سأخبره بذلك.. لكن لن أعدكم بشيء.

بعد انصرافهم، وعودتي إلى بيتي وجدت معلم القرآن في انتظاري، وهو يقول لي: هيئ نفسك لرحلتك الجديدة إلى [القرآن.. وتحريف الغالين](٢)

---

(١) معاني الأخبار ص ٣٣.

(٢) هو عنوان الكتاب الثالث من السلسلة.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يستوعب ويُلخص ـ من غير إخلال ـ كل ما ورد في التراث الإسلامي من البحوث المرتبطة بالبيان القرآني، مع تبسيطها وتيسيرها وإبعاد الحشو عنها والجمع بين المدارس المختلفة في ذلك، ليكون مقدمة أساسية لفهم القرآن الكريم، وتدبر معانيه، ولذلك جعلناه الجزء الثاني من هذه السلسلة، بعد الجزء الذي ذكرنا فيه البراهين الدالة على ربانية القرآن، وكونه كلاما إلهيا.

والسبب الذي جعلنا نعطي لهذا الجانب الريادة، قبل سائر البحوث والمعاني المرتبطة بالقرآن الكريم، يرجع إلى أمور منها أن المعارف المرتبطة بالبيان القرآني تعتبر مفاتيح أساسية للتعامل معه، وفهمه واستنباط الحقائق والقيم والمعارف المختلفة منه.

ومنها أن هذه المعارف لها دور كبير في تحقيق تذوق الأسلوب القرآني وجماله، وهو ما يجعل ما يطلق عليه [الإعجاز البياني] عاما لكل العصور، بل شاملا لكل الناس.

ومنها أن أكثر الإشكالات التي وقعت في التاريخ والتراث والواقع سببها سوء الفهم للغة القرآن الكريم وتعابيره؛ فكل الانحرافات التي طالت العقيدة في الله سببها عدم مراعاة ما ورد في اللغة العربية التي جاء بها القرآن الكريم من المجاز والاستعارة والكناية والمشاكلة ونحوها.. وهكذا في كل الجوانب الأخرى.

ومنها أن أكثر الإشكالات والشبهات التي يثيرها من يطلقون على أنفسهم لقب [الحداثيين] أو [التنويريين] أو [القرآنيين] مرتبطة بالتعامل الخاطئ مع اللغة القرآنية، حيث يحملونها أحيانا كثيرة ما لا تحتمل، ولذلك كان التعرف على البيان القرآني ضروريا لمواجهة هذه التحريفات.